

أَضْوَاءٌ عَلَى

سَيَرَةِ النَّبِيِّ ﷺ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م

مركز الهدى للدراسات

مؤسسة فكرية تنشط في ميدان البحث والمساهمة في تطوير الفكر الإسلامي المعاصر؛ إيماناً منها بقدرة الإسلام ومدرسة أهل البيت (عليه السلام) على تقديم البديل الحضاري للإنسان، وتُعنى بالدراسات الفكرية والسياسية والتاريخية لحوزتي النجف الأشرف وقم المقدسة؛ رغبةً منها في ترسيخ الثوابت، والوقوف بوجه الفكر الدّخيل.

www.markazalhuda.net / info@markazalhuda.net

+964 7710558123



أَضْوَاءُ عَلَى

سِيَرَةُ النَّبِيِّ وَالْمَرْ

خُطْبُ

سَمَاءُ حَزْرَتِ السَّيِّدَةِ صَبِيحَةِ الدِّينِ الْقُبَايْنِجِيَّةِ

إِعْدَادُ وَتَحْقِيقُ

السَّيِّدُ مُحَمَّدُ الطَّالِقَانِيُّ



أضواء على سيرة النبي ﷺ وآله ﷺ
خطب سماحة السيد صدر الدين القبانجي
إعداد وتحقيق: السيّد محمد الطالقاني

صاحب الامتياز: محمد صادق الهاشمي

الناشر: مركز الهدى للدراسات الحوزوية

المطبعة: الصنوبر للطباعة والتوزيع

رقم الاصدار: 101

سنة الطبع: 2018 م - 1439 هـ

قطع الورق: 24×17

تصميم الغلاف والإخراج الفني: أحمد الهاشمي

المحتويات

المحتويات	٥
مقدمة المؤلف	٩
الباب الأول: مع النبي الأكرم ﷺ	١١
في ذكرى الولادة المباركة	١٣
في ذكرى المبعث النبوي	٢٤
في ذكرى الهجرة	٣٢
في ذكرى الإسراء والمعراج	٣٤
في ذكرى رحلة النبي الأكرم ﷺ	٣٦
الباب الثاني: مع الإمام علي عليه السلام	٥١
في ذكرى الولادة	٥٣
حكومة الإمام علي عليه السلام	٥٤
انتظار متبادل	٦٢
وقفه عند شهادة الإمام علي عليه السلام	٦٤
مقتل الإمام علي عليه السلام	٦٧
علي عليه السلام في الدنيا والآخرة	٦٩
صور من وحي الشهادة	٧٣
الباب الثالث: مع فاطمة الزهراء عليها السلام	٨١
في ذكرى ولادتها عليها السلام	٨٣

٨٧	امتيازات الزهراء ﷺ
٩٥	الرؤية الإسلامية حول المرأة
١٠١	في ذكرى شهادتها ﷺ
١١٢	شبهتان في قضية الزهراء ﷺ
١١٤	إجماعات تاريخية
١١٩	الباب الرابع: مع الإمام الحسن ﷺ
١٢١	في ذكرى الولادة المباركة
١٢٣	الإمام الحسن ﷺ ومشكلة اختلاط الأوراق
١٢٨	دور الإمام الحسن ﷺ
١٣٠	سياسة الإمام الحسن ﷺ
١٣٤	رمزية الإمام الحسن ﷺ
١٣٥	شبهة حول الصلح
١٣٨	موقف الإمام الحسن ﷺ
١٤٣	التحليل السياسي والغيبى لصلح الإمام ﷺ
١٤٦	مصائب الإمام الحسن ﷺ
١٤٧	أخلاقه وظلاماته
١٥١	الباب الخامس: مع الإمام الحسين ﷺ
١٥٣	الفصل الأول: على أبواب محرم الحرام
١٨٥	الفصل الثاني: فضل زيارته
١٩٧	الفصل الثالث: في ذكرى الأربعين
٢٣٣	الفصل الرابع: ثورة الإمام الحسين ﷺ
٢٧٧	الباب السادس: مع الإمام السجاد ﷺ
٢٧٩	دور الإمام السَّجَّاد ﷺ
٢٨٤	الواقع الاجتماعي في زمن السَّجَّاد ﷺ
٢٨٨	شذرات من دعاء الإمام ﷺ
٢٩١	الصحيفة السَّجَّادية

٢٩٥	الباب السابع: مع الإمام الباقر عليه السلام
٢٩٧	الإمام الباقر عليه السلام في مواجهة الانحراف
٣٠٠	البُعد السياسي في حركة الإمام الباقر عليه السلام
٣٠٤	علم الإمام الباقر عليه السلام
٣٠٩	الباب الثامن: مع الإمام الصادق عليه السلام
٣١١	دور الإمام الصادق عليه السلام
٣١٥	المنهج السياسي للإمام الصادق عليه السلام
٣١٦	ظاهرة التوازن
٣١٩	مواجهة التطرف
٣٢٥	الباب التاسع: مع الإمام الكاظم عليه السلام
٣٢٧	باب الحوائج عليه السلام
٣٢٩	سجن الإمام الكاظم عليه السلام
٣٣١	مقاطع من زيارته عليه السلام
٣٣٣	ملاحقة الشيعة
٣٣٧	الباب العاشر: مع الإمام الرضا عليه السلام
٣٣٩	في ذكرى الولادة
٣٤١	قصة ولاية العهد
٣٤٥	نظرية أهل البيت عليهم السلام في الحكم
٣٥١	الباب الحادي عشر: مع الإمام الجواد عليه السلام
٣٥٣	مشكلة العمر
٣٥٤	كرامة الإمام عليه السلام
٣٥٥	شهادة الإمام الجواد عليه السلام
٣٥٧	ظاهرة العمر الصغير
٣٥٩	الباب الثاني عشر: مع الإمام الهادي عليه السلام
٣٦١	مداهمات مستمرة
٣٦٥	ظاهرة انتشار النور

الباب الثالث عشر: مع الإمام العسكري ﷺ	٣٦٩
التمهيد لزمن الغيبة	٣٧١
رسالة الإمام ﷺ لشييعته	٣٧٣
مرحلة الاستئصال والإبادة	٣٧٤
الباب الرابع عشر: مع الإمام المهدي ﷺ	٣٧٧
العلاقة المتبادلة	٣٧٩
الإمام المنتظر ﷺ إجماع إسلامي	٣٨١
نظرية المصلح العالمي	٣٨٥
إرهاصات زمن الظهور	٣٨٧
معالم دولة الإمام المهدي ﷺ	٣٨٩
تفسير العمر الطويل	٣٩١
لماذا الغيبة ؟ وما فائدة الإمام وهو غائب ؟	٣٩٢
إشكالية ابن خلدون	٣٩٣
روايات قضية الإمام المهدي ﷺ	٣٩٥
نظرية الغيبة في مصادر السنة والشيعه	٤٠٢
فهرس المحتويات	٤٠٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف :

الحمد لله ، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله الطاهرين .

وبعد . .

كانت ولم تنزل سيرة النبي ﷺ وآله الأطهار ﷺ مصدراً نقيّاً وينبوعاً زكياً للتعرف على القيم الأخلاقية ، والمواقف الشرعية ، والسياسات الصحيحة ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب : ٢١) .

وكما قال رسول الله ﷺ في أهل بيته ﷺ : « لا تقدموهم فتهلكوا ، ولا تعلموهم فائتئهم أعلم منكم » .

ورغم ذلك فإن سيرة الأئمة من أهل البيت ﷺ بقيت محلّ جدل واسع بين المؤرخين والباحثين الإسلاميين وغيرهم ، نتيجةً للمسارات التاريخية التي ابتعدت عنهم ﷺ ، وقلبت عليهم ظهر المجن .

إلا أن شيعة أهل البيت ﷺ آمنوا بأن الأئمة من أهل البيت ﷺ يُمثلون امتداداً أصيلاً ونقيّاً للرسول الأكرم ﷺ ، وهم نور واحد وذرية بعضها من بعض ، ومثلهم

« مثل سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق وهو » كما جاء في الحديث النبوي الشريف .

وهذه الدراسة التي بين يديك عزيزي القارئ هي مقتطفات من استعراضنا الموجز لسيرتهم ومواقفهم خلال خطب صلاة الجمعة التي أقمناها وألقيناها في النجف الأشرف لعدة سنوات ، وقد تولى الأخ العزيز ساحة السيد محمد الطالقاني عملية جمعها وتنظيمها بالشكل الذي هي عليه الآن ، وإني إذ أقدم له الشكر الجزيل ، أعتقد أنها تمثل قراءة سريعة وخطوط عريضة في سيرتهم ﷺ .

أسأل الله تعالى أن يقبل ذلك منه ومنّي ، ويعفو عنه وعني ، ويلحقنا بالنبِيِّ ﷺ وآله ﷺ في الدنيا والآخرة ، إنّه أرحم الراحمين .

صدر الدين القبانجي

(٢ / شعبان / ١٤٣٨ هـ)

النجف الأشرف



آلْبَابُ الْأَوَّلُ

مَعَ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَالْأَهْلِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

١. في ذكرى الولادة المباركة

٢. في ذكرى المبعث النبوي الشريف

٣. في ذكرى الهجرة

٤. في ذكرى الإسراء والمعراج

٥. في ذكرى رحلة النبي الأكرم
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَالْأَهْلِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ



في ذكرى الولادة المباركة

أولاً : الارتباط بالتاريخ بين عقد الماضي والاتصال الحضاري

حينما نحیی إنَّ إحياء ذكر ولادة نبینا ﷺ ، تعني بشكل أو بآخر فإننا نستذكر الوقوف عند التاريخ واستذكاره ، والذي يتمخض عنه سؤال ذات أهمية : وما هي علاقتنا بالتاريخ قبل ألف أو ألفي أو ثلاثة آلاف سنة ؟ هل هذا عودة إلى الوراء والماضي ؟

الجواب : لا ، إنَّ استذكار التاريخ يعني معايشة حضارة الأمة ، وإنَّنا أمة والتأكيد على أنَّها غير مقطوعة الجذور ، أي إنَّنا وهي أمة عريقة في التاريخ .

ومن هنا فحينما نستذكر تاريخ نبینا ﷺ ، وبطولات الأمة الإسلامية ، وولادات أئمتنا ، فإنَّه يعني أنَّنا نعيش حضارتنا على طول هذا التاريخ ولا ننساها ولا نبدأ من الصفر .

نحن أمة لها تاريخ عريق تاريخها يمتد إلى عهد النبي ﷺ أمة نبینا ﷺ ، بل إلى من إبراهيم الذي كان عليه خيفاً مسلماً .

نحن أمة تاريخها من تاريخ غيبتها ، ولهذا يُبدي الإسلام العظيم هنا حضارية عالية ، ويقول : يجب أن تعيشوا تاريخكم ، وكما قال تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ ﴾ (إبراهيم : ٥) ، أي تذكروا تاريخكم .

الإسلام دين تمدُّن وحضارة ، ويقول : أحيوا هذه المناسبات ولا تنسوها .

هذه قضية حضارية ، الإسلام غير متحجّر ، ويقول : ارتبطوا بالتاريخ ، على خلاف بعض الأذهان المتحجّرة الجاهلية في هذا الزمن التي تعتبر إحياء الذكريات كزيارة الحسين ﷺ وإحياء ذكرى ميلاد الإمام الحسن ﷺ وأمثال ذلك بدعةً وشركا ! هذا تحجّر وابتعاد عن التمدُّن والحضارة والانفتاح الذهني .

ثانياً : مناهج في إحياء الذكرى بين التحلل والالتزام القيمي

كيف نُحيي ذكرى ميلاد هذا النبي العظيم ؟ وكيف يُحيي الغرب ذكرياتهم التاريخية ، ومنها ذكرى ميلاد عيسى المسيح ﷺ ؟

هناك منهجان لإحياء الذكريات الجميلة :

المنهج الأول : هو التجربة الغربية ، وفيها يُعتبر إحياء الذكرى فرصة ترفيه وتعطيل وتحلُّ وطرب ومجون وأنس وهو ولعب ، كما هو الحال في إحياء ذكرى ميلاد عيسى المسيح ﷺ ، فهم لا يرتبطون بعيسى ولا بأفكاره ولا بأخلاقه ، ولا بطهارة مريم ﷺ وزكاتها ، ولا بإنسانية الأنبياء ، وإنّما يعتبرون هذه الذكرى عبارة عن فرصة للاستراحة من كلّ القيود الأخلاقية والعملية والإدارية ، وينزل الشعب للشارع في أعياد مجونية حيوانية بعيدة عن صاحب الذكرى ، وما هي علاقة عيسى ﷺ بملاعب وملاه في الشوارع ليس فيها ذكر لا لعيسى ولا لقيمه وحضارته !

المنهج الثاني : هو التجربة الإسلامية التي تقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب : ٢١) ، فإن إحياء الذكريات يعني أنّكم تعيشون استحقاقات تلك الذكرى ، فإذا كانت مثلاً ذكرى البعثة فيجب أن تعيشوا معنى الرسالة النبوية ، وإذا كانت ذكرى انتصار المسلمين في بدر على المشركين فيجب أن تعيشوا وحدة الأمة وذكريات بطولاتها ، إن إحياء الذكرى يعني اعتبارها فرصة تجديد وحيوية .

اليوم نحن حينئذ نحيي ذكرى مولد نبينا ﷺ إنما نُجَدِّدُ عِزْماً وَعِزِيمَةً عَلَى سُلُوكِ طريق .

الإصلاح البشري وطريق الشهادة على العالم كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (البقرة : ١٤٣) .

إنَّ ذِكْرَ النَّبِيِّ ﷺ هي ذكرى شهادة هذه الأمة على العالم ، ذكرى عالمية وخاتمية الإسلام ، هذا معنى إحياء ذكرى ميلاد نبينا ﷺ ، ولهذا يُسْتَحَبُّ الصوم في ذكرى ميلاد النبي وزيارته : « السَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ آمِينَ اللَّهُ عَلَى وَحْيِهِ وَعَزَائِمِ أَمْرِهِ ، الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ ، وَالْفَاتِحِ لِمَا اسْتَقْبَلَ ، وَالْمُهَيِّمِ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ »^(١) ، لاحظوا الارتباط بالمفاهيم ، ولهذا يُسْتَحَبُّ أيضاً التأسي بأخلاق رسول الله ﷺ .

ثالثاً : نورٌ واحد :

أذكر هنا رواية جميلة وعظيمة يرويها جابر بن عبد الله الأنصاري حيث يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ ﷻ خَلَقَنِي وَخَلَقَ عَلِيّاً وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ ، فَعَصَرَ ذَلِكَ النُّورَ عَصْرَةَ فَخَرَجَ مِنْهُ شِيعَتُنَا ، فَسَبَّحْنَا فَسَبَّحُوا ، وَقَدَّسْنَا فَقَدَّسُوا ، وَهَلَّلْنَا فَهَلَّلُوا ، وَجَدَّدْنَا فَمَجَّدُوا ، وَوَحَّدْنَا فَوَحَّدُوا ، ثُمَّ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَخَلَقَ الْمَلَائِكَةَ ، فَمَكَّثَتِ الْمَلَائِكَةُ مِائَةَ عَامٍ لَا تَعْرِفُ تَسْبِيحاً وَلَا تَقْدِيساً ، فَسَبَّحْنَا فَسَبَّحَتْ شِيعَتُنَا فَسَبَّحَتِ الْمَلَائِكَةُ »^(٢) .

هذا إشارة إلى الترابط التكويني الذي لا ينفصل بيننا وبين نور محمد ﷺ وآل محمد ﷺ .

رابعاً : لمحة عن الرسول ﷺ وأخلاقه :

أقرأ لكم ما ورد في أخلاق هذا الإنسان الكامل الذي قال فيه الله تبارك وتعالى : ١٥

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي .

(٢) كشف الغمة (للأربلي) ٢ : ٨٥ ، وعنه المجلسي في البحار ٣٧ : ٨٠ . ونقله العلامة المجلسي من طريق

آخر ٢٧ : ١٣١ . (عن كتاب منهج التحقيق عن كتاب الآل لابن خالويه)

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم : ٤) ، حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام : « كَانَ ﷺ يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ ، وَيَرْقُعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَّ »^(١) ، ويقصد بالحمار العاري أي بدون سرج .

وفي حديث آخر ، قال عليه السلام : « وما أكل متكئاً قطُّ حتَّى فارق الدنيا »^(٢) .

وفي حديث آخر عن الحسين بن علي عليه السلام ، قال : « كان رسول الله ﷺ يبكي حتَّى يبتلَّ مصلَّاهُ خشيةً من الله ﷻ من غير جُرمٍ »^(٣) .

أين أتباع الأنبياء والعلماء وطلاب الحوزة العلمية وتلامذة رسول الله ﷺ عن هذا الخلق العبادي لنبيِّنا ﷺ ؟

قالت إحدى نسائه : « كان رسول الله ﷺ يُحَدِّثُنَا وَنُحَدِّثُهُ ، فإذا حضرت الصلاة فكأنَّه لم يعرفنا ولم نعرفه »^(٤) ، أي إنَّ له انقطاعاً إلى الله وإقبالاً على الله تبارك وتعالى ، وإعراضاً عمّا سواه .

وعن الإمام الصادق عليه السلام في حديث طويل ، قال : « . . . وكان ينظر في المرأة ، ويمتَشِّطُ ، ويتجَمَّلُ لأصحابه فضلاً عن تجمُّله لأهله ، ويقول عليه السلام : إنَّ الله يُحِبُّ من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهيأَ لهم ويتجَمَّلُ »^(٥) ، هذا في الحقيقة يُعطينا رؤية عن حضارية

(١) نهج البلاغة : ٢٢٨ .

(٢) مكارم الأخلاق : ٢٣ .

(٣) بحار الأنوار للعلامة المجلسي / الجزء ١٦ . الاحتجاج (لأبي منصور الطبرسي) ١ : ٣٣١ ، وعنه المجلسي في البحار ١٠ : ٤٥ و ١٧ : ٢٩٣ ، ومستدرک الوسائل ١١ : ٢٤٠ .

(٤) مسند أحمد . ذكرها بلفظ (أحد زوجاته) النراقي في جامع السعادات ٣ : ٢٦٣ . وذكرها أكثر المؤرخين والرواة عن عائشة ، أنظر : ربيع الأبرار ونصوص الأخبار (الزمخشري) ٢ : ٢٦٧ . عدَّة الداعي ١٣٩ ، وعنه الطبرسي في المستدرک ٤ : ١٠٠ ، والمجلسي في البحار ٦٧ : ٤٠٠ . عوالي اللئالي ١ : ٣٢٤ . وذكرها ابن أبي الحديد المعتزلي عن أم سلمة (رض) ١٠ : ٢٠٦ . فيما ذكرها الواقدي في فتوح الشام عن عمر بن الخطاب ٢ : ٣٧ . ولا ضير في ذلك ، فإنَّ انشغال النبي ﷺ بالصلاة عن كل الدنيا وأهوائها ، غير خاف على المسلمين أجمعهم .

(٥) مكارم الأخلاق : ٣٤ .

الإسلام وجمالته ، وقد لا يعرف أكثر الناس أن الإسلام سلوك جميل قبل أن يكون مجرد إيديولوجية .

خامساً : روايات في ولادته ﷺ :

اختلف المسلمون في تحديد يوم ميلاد النبي ﷺ بعد اتفاقهم على أنه كان في عام الفيل ، فقد مال أغلب الإمامية إلى أنه في السابع عشر من ربيع الأول ، فيما ذهب العامة إلى أنه في الثاني عشر من ربيع الأول ، وتنقيح ذلك موكولٌ لمحلّه ، غير أن المهم في مسألة ولادته ﷺ لدينا وقفة قصيرة ورد العديد من الروايات التي تحكي عن أمور كونية وغيبية قد حصلت بولادته ﷺ ، وهي كثيرة ، نذكر منها : مع ذكرى ميلاد نبينا الأعظم سيد الخلائق وأشرفهم أبي القاسم محمد ﷺ ، دون حيث ولد في الثاني عشر من ربيع الأول أو في السابع عشر من ربيع الأول ، ونحن في رحاب ذكرى المولد النبوي العطر ، وأكتفي بقراءة بعض تبرُّكاً وتيمناً :

الرواية الأولى : قال الإمام الصادق عليه السلام : « كان إبليس لعنه الله يخترق السماوات السبع ، فلما وُلِدَ عيسى حُجِبَ عن ثلاث سماوات كان يخترق أربع سماوات ، فلما وُلِدَ رسول الله حُجِبَ عن السبع كلها ، ورميت الشياطين بالنجوم ، وقالت قريش : هذا قيام الساعة الذي كنّا نسمع أهل الكتب يذكرونه ، وقال عمرو بن أمية - وكان من أزجر أهل الجاهلية - : انظروا هذه النجوم التي يُهْتَدَى بها ويُعرَف بها أزمان الشتاء والصيف ، فإن كان رمي بها فهو هلاك كل شيء ، وإن كانت ثبتت ورمي بغيرها فهو أمر حدث ، وأصبحت الأصنام كلها صبيحة وُلِدَ النبي ليس منها صنم إلا وهو منكبٌ على وجهه ، وارتجّ في تلك الليلة إيوان كسرى ، وسقطت منه أربعة عشر شرفة ، وفاضت بحيرة ساوة ، وفاض وادي السماوة ، وخمدت نيران فارس ولم تُخمد قبل ذلك بألف عام ، ورأى المؤبدان^(١) في تلك الليلة في المنام إبلاً صعباً تقود خيلاً عرباً ، قد قطعت دجلة ، وانسربت في بلادهم ، وانقصم طاق الملك

(١) المؤبدان : فقيه الفرس وحاكم المجوس قضاي القضاة للمسلمين . (كما ذكره صاحب كتاب لسان العرب) .

كسرى من وسطه ، وانخرقت عليه دجلة العوراء^(١) ، وانتشر في تلك الليلة نور من قبل الحجاز ، ثم استطار حتى بلغ المشرق ، ولم يبق سرير الملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً والملك محزوناً لا يتكلم يومه ذلك ، وانتزع علم الكهنة ، وبطل سحر السحرة ، ولم تبق كاهنة في العرب إلا حُجبت عن صاحبها ، وعظمت قريش في العرب وسموا آل الله ﷺ^(٢) .

الرواية الثانية : قالت آمنة : إنَّ ابني والله سقط فاتقى الأرض بيده ، ثم رفع رأسه إلى السماء فنظر إليها ، (ثم خرج منه نور حتى نظرت إلى قصور بصرى) ، وسمعت في الضوء قائلاً يقول : إِنَّكَ قَدْ وَلَدْتَ سَيِّدَ النَّاسِ ، فسَمَّيْهِ مُحَمَّدًا^(٣) .

الرواية الثالثة : قال إمامنا عليٌّ عليه السلام : « وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارُهُ ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْماً وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَرَاءٍ فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي ، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَتْ وَاحِدٌ يَوْمِيذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَدِيحَةٍ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا ، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ وَأَشْمُ رِيحَ النَّبُوَّةِ »^(٤) .

الرواية الرابعة : حليلة السعدية قالت : إنَّ البوادي أجذبت ، وحملنا الجهد على أن ندخل البلد ، فخرجت على أتان لي معنا شارف (هي البقرة أو العنزة) ، والله ما تبضُّ بقطرة وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع ، وما في الثدي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة إلا

(١) قوله عليه السلام : « وانخرقت عليه دجلة العوراء » يظهر ممَّا سيأتي أنَّ كسرى كان سكر بعض الدجلة (سكر النهر : جعل له سداً) ، وبنى عليها بناءً ، فلعلَّه لذلك وصفوا الدجلة بعد ذلك بالعوراء . (في معجم البلدان ٤ : ١٦٧ : دجلة العوراء : دجلة البصرة) ، لأنَّه عور وطُمَّ بعضها . (عارت عين الماء : دُفِنَتْ فاستدَّت عيونها ، والطُمَّ بمعناه) ، فانخرقت عليه ، واندھم بنيانه . (مقتبس من كتاب بحار الأنوار / الجزء ١٥) .

(٢) الأمالي (للصدوق) : ٣٦٠ . وعنه المجلسي في البحار ١٥ : ٢٥٨ . الدر النظيم (للمشغري) ٥٥ . بحار الأنوار ١٥ : ٢٥٨ .

(٣) الأنوار البهيَّة للشيخ عباس القمِّي : ٣٢ .

(٤) نهج البلاغة لابن أبي الحديد/ الخطبة القاصمة . مناقب آل أبي طالب ٢ : ٢٨ . منهج الإيمان (لابن جبر) : ٥٣٢ .

وَعُرِضَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَأَبَاهُ ، وَذَلِكَ أَنَّا كُنَّا نَرْجُو الْمَعْرُوفَ مِنْ أَبِي الصَّبِيِّ ، وَبَقِيتُ بِلَا طِفْلٍ أَرْضَعُهُ ، فَإِذَا بَرَجَلَ يَنَادِي : أَيَّتُهَا الْمَرْضَعَاتُ ، هَلْ مِنْكُمْ مَنْ لَمْ تَأْخُذْ طِفْلاً ؟ قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : عَبْدُ الْمُطَّلَبِ بْنُ هَاشِمٍ سَيِّدُ مَكَّةَ ، فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لِي : مَنْ أَنْتِ ؟ قُلْتُ : حَلِيمَةُ مِنْ بَنِي سَعْدِ ، قَالَ : بَخِ بَخِ خَصَلْتَانِ جَيِّدَتَانِ سَعْدٍ وَحَلَمٍ ، فِيهِمَا عِزُّ الدَّهْرِ وَعِزُّ الْأَبَدِ . يَا هَذِهِ ، عِنْدِي ابْنٌ لِي يَتِيمٌ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ ، وَأَبِينِ الْمَرْضَعَاتِ أَخْذَهُ لِأَنَّهُ يَتِيمٌ .

تقول حليلة : فحملته لأنني لم أجِدْ غيره ، فلما وضعتَه في حضني فتح عينيه لينظر بهما إليّ ، فسقطَ منهما نور ، وشرب من ثديي الأيمن ساعة ولم يرغب في الأيسر أصلاً ، واستعمل في رضاعه عدلاً ، فأنصف فيه شريكه ، فأقبل ثدياي باللبن ، وقام زوجي إليّ شارفاً تلك فلمسها بيده ، فإذا هي حافل ، فحلبها ورواني من لبنها وأروا الغلمان .

فقالت حليلة : لقد أصبنا سنة مباركة ، فحملته على الأتان ، وكانت قد ضعفت عند قدومي مكة ، فلما حملته عليها جعلت تبادر سائر الحمر سراعاً وقوةً ونشاطاً ، واستقبلت الكعبة^(٥) .

سادساً : ظاهرتان عند الولادة :

في ميلاد النبي ﷺ حدثت ظاهرتان :

الأولى : أرضية .

والثانية : سماوية .

الأولى : هي خمود نيران فارس ، وسقوط أربعة عشر شرفة من إيوان كسرى . ومن هنا عرف كبار النصارى واليهود ، أنَّ عمر الديانة اليهودية والنصرانية قد انتهى ، وورد ذلك في روايات عديدة ، مثل رواية بحيرا الراهب ، أنَّه رأى النبي ﷺ عندما كان صغيراً وهو يمشي مع قومه وعشيرته من قريش ، رأى مشهداً عجيباً ، وهو استظلال

(٥) سيرة ابن هشام ١ : ١٧٣ - ١٧٥ .

النبي ﷺ بالغمامة حيث كانت تسير معه أينما ذهب ، فسأل القوم عن ذلك ، وعرف بذلك أبو طالب ، فأمر قريش بالحفاظ عليه ، وقال لهم : إن علمت به اليهود قتلوه ، فعليكم بحفظه والعناية به ؛ لأنَّ له شأنًا ، وسيكون نبيُّ هذه الأمة ^(١) .

كذلك راهب بصرى عندما كان يطلُّ على النبي ﷺ وقومه من صومعته دعاه فرأى فيه شمائل وصفات الأنبياء ﷺ ، كما ورد عنده في كتب التوراة والإنجيل ، فقال : أوَّه أوَّه ، هلك النصرانية ، انتهى عهدا بمجيء النبي الخاتم ﷺ ^(٢) .
هذه بعض الظواهر الدنيوية التي حدثت عند ولادته .

وهناك ظاهرة سماوية ، وهي رجم الشياطين بالشهب ^(٣) ، فمُنِعَتْ من استراق السمع من السماء ، وأغلقت الأبواب بولادة النبي ﷺ ، فجمع إبليس بعدها أنصاره وأحفاده وأولاده لمعرفة ما حدث ، فانتشر والمعرفة الخبر ، لكن عادوا دون معرفة ذلك ، فنزل إبليس بنفسه إلى الأرض حتَّى وصل إلى الحرم المكِّي وعرف بولادة النبي ﷺ ، ورأى حشود الملائكة مجتمععة في الحرم ، فأراد الدخول معهم فطرده جبرائيل ﷺ .
فقال : هل لي في هذا الغلام نصيب ؟ فقال له جبرائيل : كلا ، ليس لك فيه نصيب .

فسأل : وفي أمِّته ؟

قال جبرائيل : نعم لك فيهم نصيب ^(٤) .

(١) غير خافٍ ما في قصة بحيرا ولقاءه بالنبي ﷺ من التشكيك في صحة هذا الأمر ، خصوصاً مع كون الروايات تنتهي إلى راوٍ واحد هو (قراد أبي نوح) والذي نقلها عن أبي موسى الأشعري بالواسطة ، وأبو موسى كما هو معلوم قد تأخر إسلامه لسبع سنوات ، مضافاً لما في المرويات الناقلة للقصة من مقاطع مدعاة للتشكيك . ومع هذا فإن شهرة الرواية ومقبوليَّتها عند أهل السير والمغازي يقوِّي الأخذ بها ، ومع هذا الاشتهار فالإعراض عنها من الصعوبة بمكان ، غير أنَّه يمكن القول : إنَّ القصة وأحداثها مقبولة في الجملة . وتفصيل ذلك موكول إلى محله في كتب السيرة المعتمدة .

(٢) كمال الدين : ١٨٨ / ح ٣٦ .

(٣) وهانها بحث قرآني يحتاج إلى تفصيل ليس الآن محلّه ، ولكن هل المقصود بالشهب هو ما نشاهده في السماء من الشهب والنيازك المتساقطة ، أم هو طردهم من السماء بالحجارة أو غيرها ؟

(٤) تفسير القمّي ١ : ٣٧٤ .

فإبليس وجنوده ليس لهم سلطان على النبي ﷺ ، ولكن له سلطان على الأمة .
 إنَّ هذا الميلاد هو ميلاد النبي الشاهد على هذه الأمة ، وهذه الأمة هي الشاهدة على
 الأمم الأخرى ، وهو ما نقوله في الزيارة : « السلام على رسول الله ﷺ أمين الله على وحيه
 وعزائم أمره ، الخاتم لما سبق ، والفاتح لما استقبل ، والمهمين على ذلك كله »^(١) .

سابعاً : ميلاد الأمة الشاهدة :

وبميلاد النبي ﷺ وُلِدَت أُمَّةٌ جديدة شاهدة يقول عنها القرآن الكريم : ﴿ وَكَذَلِكَ
 جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾
 (البقرة : ١٤٣) .

إذن هناك ولادتان : ولادة النبي ﷺ وقد أنجزت ، وولادة ما تزال في الطريق هي
 ولادة الأمة الشاهدة التي أخطأت طريقها بسبب غواية إبليس وجنوده ، ولكن لا يزال
 البعض منها متمسكاً بالحبل الذي أوصى به الرسول ﷺ عندما قال : « إني تارك فيكم
 الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً »^(٢) ، فالبعض
 من الأمة ترك التمسك بأحد الثقلين ، وبقينا نحن متمسكين بهما ، وهذه الأمة عندما
 تعود إلى التمسك بهما تصبح أمة شاهدة على العالم .

إنَّ الأمة إذا أرادت أن تكون هي الأمة الشاهدة على العالم يجب عليها أن ترجع إلى
 أهل البيت عليه السلام ، ونحن نجد بشائر هذه العودة إلى الإسلام والقرآن وأهل البيت عليه السلام .

وهذه فرصة لدعوة الإخوة السُّنة للعودة إلى أهل البيت عليه السلام والقرآن والتمسك
 بالثقلين ، وهي مناسبة سعيدة جداً نسأله تعالى أن ينزل بركته ورحمته علينا وعلى هذه
 الأمة المرحومة ، ونسأله أن يوحد كلمتنا وقلوبنا .

(١) كامل الزيارات : ٣٦٨ .

(٢) تواتر الحديث بين العامة والخاصة ، وسائل الشيعة ج ٢٧ / ح ٣٣١٤٤ ؛ سنن الترمذي ٥ : ٣٢٨ / ح ٣٨٧٦ .

ثامناً : العالمية الإسلامية :

في مثل هذا اليوم السابع عشر من ربيع الأول وُلِدَ نبيُّنا ﷺ ، وقد قال الله تعالى فيه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) .

إنَّ ميلاد النبيِّ إيدان من الله بولادة العالمية الإسلامية الكبرى ، ونقرأ هذا الأمر في القرآن الكريم بشكل ملفت للنظر في ثلاث آيات بنصِّ قرآني واحد يقول : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ في (التوبة : ٣٣ ، والفتح : ٢٨ ، والصف : ٩) .

معناه أنَّ الله أذن بقيام العالمية الإسلامية الكبرى بميلاد نبيِّنا ﷺ ، وهنا التفاتة رائعة ذكرها الإمام الراحل السيّد الخميني رحمه الله وهو يتحدث عن الرواية المعروفة حين وُلِدَ رسول الله ﷺ سقطت أربع عشرة حجارة من إيوان كسرى ، لماذا (١٤) صخرة ؟ كان يقول ويتنبأ : أنَّه بعد أربعة عشر قرناً ستنتهي الحضارة الكافرة لتقوم بعدها حضارة الإسلام ، وفي مطلع القرن الخامس عشر تأسست الدولة الإسلامية ، وبدأت الصحوة الإسلامية العالمية ، وبدأ مشروع العالمية الإسلامية الكبرى يتحرَّك على الأرض ، القرن الخامس عشر هو قرن الإسلام العالمي .

هذا جانب من الحديث ، لكنِّي تيمُّناً وتبرُّكاً واستبشاراً أحببت أن أقرأ لكم هذه الرواية التي يرويها شيخنا الطوسي في مصباح الأنوار عن أنس ، عن النبيِّ ﷺ ، وهذا أنس ليس من شيعة أهل البيت ، بل من رواة المذاهب الأخرى : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَنِي وَخَلَقَ عَلِيّاً وفاطمة والحسن والحسين قبل أن يخلق آدم عليه السلام ، حين لا سماء مبنية ولا أرض مدحية ، ولا ظلمة ولا نور ، ولا شمس ولا قمر ، ولا جنة ولا نار » (١) .

قال العباس عم النبيِّ ﷺ : فكيف كان بدء خلقكم يا رسول الله ؟

فقال ﷺ : « يا عم ، لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَنَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ خَلَقَ مِنْهَا نُوراً ، ثُمَّ تَكَلَّمَ

(١) راجع : بحار الأنوار للمجلسي ١٥ : ٣-٣٥ .

بكلمة أخرى 'فخلق منها روحاً' ، ثم مزج النور بالروح فخلقني وخلق علياً وفاطمة والحسن والحسين ، فكانت نسبته حين لا تسبيح ، ونقده حين لا تقديس .

فلما أراد الله أن يُنشئ خلقه فتق نوري فخلق منه العرش ، فالعرش من نوري ، ونوري من نور الله ، ونوري أفضل من العرش . ثم فتق نور أخي علي فخلق منه الملائكة ، فالملائكة من نور علي ، ونور علي من نور الله ، وعلي أفضل من الملائكة . ثم فتق نور ابنتي فخلق منه السموات والأرض ، فالسموات والأرض من نور ابنتي فاطمة ، ونور ابنتي فاطمة من نور الله ، وابنتي فاطمة أفضل من السموات والأرض . ثم فتق نور ولدي الحسن فخلق منه الشمس والقمر ، فالشمس والقمر من نور ولدي الحسن ، ونور الحسن من نور الله ، والحسن أفضل من الشمس والقمر . ثم فتق نور ولدي الحسين فخلق منه الجنة والحدائق ، فالجنة والحدائق من نور ولدي الحسين ، ونور ولدي الحسين من نور الله ، وولدي الحسين أفضل من الجنة والحدائق العين»^(١) .

هذا الحديث قد يقول غيرنا : إنه غلو ، لكن لو تأملوا قليلاً في القرآن لرأوا حديثنا صحيحاً ، أليس رسول الله ﷺ هو سيد الكائنات ؟ إذن رسول الله ﷺ أفضل من الشمس والقمر والعرش والجنة والحدائق . وعلي ﷺ هو نفس الرسول ﷺ ، لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾ (آل عمران : ٦١) ، إذن علي أفضل من السماء والأرض والعرش والقلم والشمس والقمر والجنة والحدائق والعين . وفاطمة هي روح رسول الله : « فاطمة روعي التي بين جنبي »^(٢) ، إذن فاطمة أفضل من العرش واللوح والقلم والملائكة والأرض والسماء والشمس والقمر والجنة والحدائق والعين . وعن الحسن والحسين يقول رسول الله ﷺ : « حسين مني وأنا من حسين »^(٣) ، « الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا » ، « اللهم إني أحبهما فأحب من يحبهما »^(٤) ، نفس رسول

(١) البحار ١٥ : ١٠ / ح ١١ .

(٢) الإرشاد ٢ : ١٢٧ .

(٣) علل الشرائع ٢ : ٢٨ .

(٤) المصدر السابق .

الله ﷻ تجسّدت في الحسن والحسين ، إذن هما أفضل من الشمس والقمر والسماء والأرض والجنة والحدور العين .

في ذكرى المبعث النبوي

روي عن أبي جعفر الجواد عليه السلام ، قال : « إن في رجب ليلة هي خير للناس ممّا طلعت عليه الشمس ، وهي ليلة السابع والعشرين منه نبيّ رسول الله ﷺ في صبيحتها ، وإنّ للعامل فيها من شيعتنا مثل أجر عمل ستين سنة »^(١) .

أولاً : النبوة الخاتمة :

بهذا الصدد والحديث عن المبعث النبوي الشريف أذكر بحقيقة أنّ البعثة النبوية الشريفة لم تزل مستمرة ولم تنته ، فصحيح أنّ نبينا ﷺ بعث قبل أكثر من ألف وأربعمائة عاماً ، لكن النبوة الإسلامية المحمدية هي نبوة خاتمة ولا نبي بعده ، وطالما أنّها نبوة خاتمة وهي رحمة للعالمين إذن هذه النبوة والرسالة والبعثة مستمرة باستمرار البشرية ، طالما هناك بشر ، إذن هناك بعثة نبوية لربط هؤلاء الناس بالسماء .

وهناك سؤال : لماذا هذه النبوة مستمرة ؟ ولماذا لا يمكن أن تأتي نبوة أعظم منها ؟

النبوة في الحقيقة باصطلاح العرفاء هي كشف وفتح آفاق السماء ، فالنبي يكشف له عالم ما وراء الشهادة وعالم الغيب ، النبوة تعني كشف عمّا وراء الستائر في عالم السماء ، هذا الكشف بلغ نبينا ﷺ إلى أعلى مرحلة فيه يُسمّيها العرفاء (الكشف التام) ، يعني كلّ نبي يكشف له شيء من ستائر الغيب ، وينظر إلى مقطع من مقاطع السماء ، لكن نبينا ﷺ هو صاحب الكشف التام والمطلق ، حيث لا يوجد فوق هذا الكشف كشف أعظم منه . لهذا كانت رسالة نبينا ﷺ رسالة خاتمة ، لا يمكن أن يأتي نبي أو إنسان آخر ويقول : أنا استطعت أن اكتشف نظريات أكبر ، أو استطعت أن أفتح ستائر أكبر عن

(١) المصباح للكفعمي .

عالم الغيب وعالم السماء .

نحن نعتقد أن نبينا ﷺ هو صاحب الكشف التام والمطلق ، وليس الكشف الذاتي النسبي .

قد يقول دعاة الإسلام والدين العلماني اليوم : إن النبي كُشفَ له عن عالم السماء ، لكن هذا الكشف هو نسبي ذاتي متأثر بطبيعة الشخصية لنبينا ، ولهذا لا يمكن أن يكون كشفاً أبدياً مطلقاً ، فقد تأتي شخصية أخرى وتُعطي إبداعاً أعظم . ذاك الكشف المحمّدي مرتبط بما قبل ألف وأربعمائة سنة ، ويمكن أن يأتي كشف آخر لشخصية أخرى أكثر حداثةً ، ويكون الكشف هنا أكثر تقدماً من ذاك الكشف !

نحن نعتقد أن هذا التصوّر هو تصوّر خاطئ ، حيث لا نبوة بعد رسول الله ﷺ ، ولا كشف أعظم من كشفه ، ولا مشاهدة لعالم السماء وعالم الغيب أعظم من مشاهدته ، حيث كان قاب قوسين أو أدنى دنواً واقترباً من العليّ الأعلى . وهو الخاتم لما سبق والفتاح لما استقبل ، والمهيمن على ذلك كله .

ودليلاً على ذلك قول النبي ﷺ المتواتر لعلّي : « أنت منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبيّ بعدي »^(١) . وقول الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠ ﴾ (الأحزاب : ٤٠) .

ونحن بعد أن صدّقنا رسول الله ﷺ بنبوته يجب أن نُصدّقه في كلّ ما ثبت عنه ﷺ ، نعم ذاك الذي لا يؤمن بنبوّة نبينا ﷺ من حقّه أن يفترض إمكانية مجيء أنبياء آخرين ، ولكن هل يملك دليلاً على تلك النبوات ؟ أو صحّة تلك الادّعاءات ؟ أم هي مجرد فرضيات ؟

ثانياً : خاتمية النبوة أم خاتمية الرسالة ؟

اليوم نواجه شبهة حدثية مرتبطة بنبينا ﷺ تقول : الصحيح هو خاتمية النبوة وليس خاتمية الرسالة ، أي إن رسول الله ﷺ قال : « أنت مّتي بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي »^(١) ، وهو يعني أن النبوة قد انقطعت بعده ، لكن التشريع قد يكون مستمراً بعد رسول الله ﷺ ، لأن هناك وحيان : وحي الرسول ﷺ ، ووحى العقول ، وهو عقول الناس ، وهذه الرسالة مستمرة حتى بعد النبي ﷺ ، أي إن النبوة انتهت ولكن الرسالة لم تنته ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ ، ولم يقل : (وخاتم المرسلين) ! إذن اليوم من حقنا أن نُشرّع ولا يكفيننا القرآن والسنة ، بل هناك عقل ، وهو الذي يُشرّع أيضاً !

والحقيقة أن هذه مغالطة لفظية ، فخاتم النبيين هو خاتم المرسلين أيضاً ، لأن الرسول لا يكون رسولاً إلا إذا عبر مرحلة النبوة ، بعدئذ يأخذ هذا النبي رسالته إلى الناس ، فإذا لم يكن هناك نبي بعد رسول الله ﷺ ، إذن لا يمكن أن يكون بعده رسول ، فالقرآن نفى النبوة بعد رسول الله ﷺ ، وهو يعني بالملزمة أن الرسالة أيضاً منتفية بعد رسول الله ﷺ ، أي لا نبي بعد رسول الله ﷺ ، ولا رسول بعده ، لأن الرسول لا يكون رسولاً إلى الناس إلا بعد أن يكون نبياً ، فإذا انتفت النبوة انتفت الرسالة .

وأما مسألة العودة إلى العقل ، وهو ما يُسمونه بـ (وحي العقول) ، فهي قضية صحيحة ومقبولة حينما يُراد تقديم تشريعات مدنية في إطار الثوابت الإسلامية ، وهذا هو دور مجالس الشورى والمؤسسات واللجان التشريعية ، لكن ذلك يجب أن يجري في إطار الثوابت الإسلامية ، لأنها وحدها تمثل دين الله تعالى ، وقد قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة : ٣) ، فلا تشريع إلهي بعد تشريع الإسلام وما جاء به الرسول ﷺ .

(١) صحيح البخاري/ الجزء السادس . مسند أحمد : ٣٣ . صحيح مسلم : ٧ : ١٢٠ . المعجم الأوسط (للطبراني) ٤ : ٢٩٧ .

ثالثاً : الرسالة وحي إلهي وليست تجربة شخصية :

القرآن يؤكّد لرسول الله ﷺ صفة مهمّة هي أنّه رسول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ (آل عمران : ١٤٤) ، وكذلك مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

يوجد اليوم معترك حضاري مهمّ جداً فيما يتعلّق بالرسالة ، الإسلام له رؤية للأديان ، وللحادثة الغربية اليوم (الليبرالية) رؤية أخرى .

حينما نقول : إنّ رسول الله نبيّ ، وعيسى نبيّ ، وموسى نبيّ ، وإبراهيم نبيّ ، فإنّ الإسلام يتعامل مع الأديان على أنّها رسالة من عند الله تبارك وتعالى إلى البشر ، وليست عبارة عن تجربة ذاتية خاضها النبيّ ، تخضع للخطأ والصواب والتكامل التدريجي .

اليوم أبنائنا المثقّفون والمثقّفات - خاصة في الجامعات الأكاديمية - يستمعون إلى لغة جديدة باسم الحداثة تنظر للنبيّ وتقول : نحن لسنا ضدّ الأنبياء ، لكن الأنبياء هم عبارة عن أشخاص قاموا بتجارب ذاتية مع الله ، ووصلوا إلى درجة معيّنة يمكن أن يخطأوا فيها ويمكن أن يُصيبوا ، ويمكن أن يأتي غيرهم ويكمل مشروعه ، هي تجربة ذاتية .

إذن هي قضية شخصية يقودها النبيّ ، أي إنّ أفكار النبيّ ممكن أن تكون خطأ ، ويمكن أن يأتي شخص أفضل من النبيّ ويُعطي مشروعا آخر .

الحداثة الغربية تقول : إنّ الأنبياء خاضوا خطوات تقدّمية في عصرهم ، واليوم نحن بحاجة إلى خطوات تقدّمية أخرى غير ما طرحه الأنبياء ، ولهذا سوف تنتهي فكرة خاتمية الشريعة الإسلامية^(١) .

(١) يشير سماحته إلى تلك الأفكار المترامية ، والتي ظهرت في بداية التسعينات على أيدي كتاب وأكاديمين من السنة و الشيعة مثل نصر حامد أبو زيد ، وأرغون ، ومحمد عابد الجابري ، وعبد الكريم سروش ، ومحمد مجتهد شبستري وغيرهم .

وتتمحور أفكارهم بمختلف موضوعاتها على نقد اللغة القرآنية ، ونقد المعرفة الدينية ، ونقد الوحي الساوي ، وفيما يرتبط بالقسم الأخير ، فيؤكّد بعضهم أنّ النبي عاش تجربة روحية عالية أشبه ما تكون بتجارب الشعراء والهاماتهم ، غير أنّها تختلف في عمقها ، وكان هذا القرآن نتيجة التجربة النبوية ، والتي ناسبت ذلك الزمن ، واستطاع النبي ﷺ أن ينقل تجربته إلى أمته بأروع لغة باعتبار ذاك الزمن ، وبطبيعة الحال ، ومع هذا الزمن فلا

هذه لغة الحداثة اليوم ، وهذا موضوع واسع ، وما أريد أن أسجله هنا هو أن الإسلام يقول : النبي صاحب رسالة ، وهي وحي من الله تعالى عبر تجربته الذاتية وجهاده وكفاحه كما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (الحج : ٧٨) .

لكن هذه التجربة الذاتية تُوجت بنبوة ورسالة وكلام من الله نزل على قلب هذا النبي ، إذن هو لا يقبل الخطأ ، ولا يحتاج إلى تصحيح وتطوير ، ولهذا نخطب نبينا ﷺ ونقول : « السلام على رسول الله ، أمين الله على وحيه وعزائم أمره ، الخاتم لما سبق ، والفتاح لما استقبل ، والمهيمن على ذلك كله ، ورحمة الله وبركاته »^(١) .

أُلخّص نظريتنا في أننا نقبل بالحداثة المدنية ولا نقبل بالحداثة الإيديولوجية ، والتي تعني أنه ليس هناك شيء اسمه نبوة من السماء ومن الله ، وإنما هذه إحياء ذاتية للأنبياء . ونحن نقول : إن الأديان هي رسالات إلهية ، نعم ، الحداثة كمدنية وتقدم وحضارة وسلوك مع معطيات الحياة قبله ، وليس الحداثة كإيديولوجية^(٢) .

رابعاً : الأُمّة الشاهدة :

إنّ مبعث رسول الله ﷺ لم يكن حادثة قد انتهت ، وإنما فتح رسول الله ﷺ لنا باباً إلى السماء ، وما زال هذا الباب مفتوحاً إلى الأبد يعرج فيه الصالحون ويصعد إليه المؤمنون .

رسول الله ﷺ فتح الباب ؛ لنكون نحن أُمّة الشهادة والشهداء ، أبناء هذا الطريق

→ سبيل للأخذ بهذه اللغة ، وهذا النص . هذه الأطروحات تعرف في العالم المعاصر بالأطروحات الحداثية في قراءة الدين والمعرفة الدينية .

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي / باب زيارة أمير المؤمنين عليه السلام .

(٢) للسيد (حفظه الله) الكثير من المحاضرات في الحداثة ، وعلاقتها بالفكر الديني ، وتحليل الخطاب الحداثي ، واستطاع من خلالها أن يقف على كثير من نقاط ضعفها ، كما يبين نقاط قوتها ، وما هو مقبول منه . وقد صدرت لساحته العديد من المؤلفات في هذا الصدد منها : (الإسلام وإشكاليات الحداثة) و (الأسس الفلسفية للحداثة - دراسة نقدية مقارنة بين الحداثة والإسلام) - وقد استفادت منها بعض الجامعات ، وضممتها في مقرراتها الدراسية .

إلى الله تبارك وتعالى ، الحبل المتصل بين الأرض والسماء .

ليلة المبعث من كل عام فضل عظيم ، بل هي أكرم ليلة ، وأشرف ليلة ؛ لأنها الليلة التي التقت فيها الأرض بالسماء ، ولذا نقرأ في دعاء تلك الليلة : « اللَّهُمَّ فَإِنَّا نَسْأَلُكَ بِالْمَبْعَثِ الشَّرِيفِ ، وَالسَّيِّدِ اللَّطِيفِ ، وَالْعُنْصُرِ الْعَفِيفِ ، أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ ، وَأَنْ تَجْعَلَ أَعْمَالَنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَفِي سَائِرِ اللَّيَالِي - لَأَنَّ لَيْلَةَ الْمَبْعَثِ هِيَ نَبَاسُ كُلِّ لَيْلَانَا - مَقْبُولَةً ، وَذُنُوبَنَا مَغْفُورَةً ، وَحَسَنَاتِنَا مَشْكُورَةً ، وَسَيِّئَاتِنَا مَسْتُورَةً ، وَقُلُوبُنَا بِحُسْنِ الْقَوْلِ مَسْرُورَةً ، وَأَرْزَاقَنَا مِنْ لَدُنْكَ بِالنِّسْرِ مَدْرُورَةً »^(١) ، وكل ذلك بركة هذه الليلة ، ببركة مبعث نبي الرحمة ومنقذ الأمة ﷺ .

هذه الأمة المباركة التي نقرأ عنها في الدعاء المعروف بدعاء السمات : « وباركت لحبيبك محمد ﷺ في عترته وذريته وأُمَّته »^(٢) .

أنتم أمة رسول الله المباركة ، الشاهدة على العالم ، والتي تحمل لواء العدالة للعالم ، حتى يقوم قائم أهل البيت عليه السلام ، ليملا الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً ، وأنتم جنده وأتباعه وأُمَّته .

خامساً : بروز الرحمة الإلهية :

يوم المبعث النبوي هو يوم مبارك عظيم المنزلة ، فيه بعثة نبينا ﷺ ، واتصلت الأرض بالسماء ، ونزل النداء السماوي : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق : ١) ، وأذن للعباد أن يعرجوا في مسيرة التكامل نحو الله ، حتى يقول إمامنا الجواد عليه السلام : « إِنَّ فِي رَجَبِ لَيْلَةٍ هِيَ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، وَهِيَ لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ ، فِيهَا نُبَيِّئُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي صَبِيحَتِهَا »^(٣) .

هذا اليوم هو يوم بروز الرحمة الإلهية الكبرى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

(١) إقبال الأعمال ٣ : ٣٧٨ .

(٢) مصباح المتهجد : ٤١٩ .

(٣) وسائل الشيعة ٨ : ١١١ / ح (١٠١٩٥ / ٣) .

لِّلْعَالَمِينَ ﴿ (الأنبياء : ١٠٧) ، هو يوم نزول المنّ والفضل الإلهي : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران : ١٦٤) ، أي رحمة هذه ! ؟ وأي من هذا ! ؟

سادساً : فضل الأنبياء :

فضل الأنبياء في الدنيا :

أمّا على مستوى الدنيا ، فكل ما يوجد في الدنيا من قيم إنسانية وأخلاقية ونبيل وضمير إنساني وعدالة هي بفعل بعثة الأنبياء ﷺ ، وتأثير دعوتهم وصراخاتهم ، وما تحقّق من انتصارات في معركة الحقّ ضدّ الباطل فهو بفعل هؤلاء الأنبياء ﷺ ، ولولاهم لدُرس الحقّ ، ولتحوّلت البشرية إلى غابة حيوانات ونزلوا إلى حدّ البهيمية ، فلولا الأنبياء لتحوّلت مجتمعاتنا إلى مجتمعات قروود وكلاب ، وسوف لن يبقى شيء من حقوق الإنسان والحرية والمساواة التي تنادي بها البشرية ، وهي بالأصل صوت الأنبياء والوحي والوجدان الإنساني الذي حافظ على زكاته وطهارته الأنبياء .

فضل الأنبياء في الآخرة :

وأمّا على مستوى الآخرة ، فإنّه لا يدخل الناس الجنة وينجون من النار إلّا وكان الأنبياء هم السبب الواضح في هدايتهم إلى مدارج الكمال والطهارة ، ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (البقرة : ٢٥٧) ، فنجاة الإنسان وكمالها يكون من خلال بعثة الأنبياء .

سابعاً : الاعتبار بالمبعث النبوي :

يجب أن نستلهم من بعثة النبي ﷺ انبعاث الأمة الإسلامية لأداء دورها الإنساني ، قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) ، فهي الأمة

الشاهدة على الأمم ، وكان الرسول ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام شهداء عليها ، الرسول الذي كان وحيداً في مكة المكرمة ولم يؤمن به إلا عشرات وخلال ثلاثة عشر عاماً من الدعوة ، هذا الإنسان الغريب يؤمن به اليوم أكثر من مليار ونصف إنسان ، والآخرون متأثرون برسالته وبالقيم التي رسخها .

على سبيل المثال : جورج جرادي وهو كاتب مسيحي وله كتاب (الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانية) يُظهر في كتاباته كيفية تأثره بالإسلام والقيم والشخصيات الإسلامية كالإمام عليّ عليه السلام ، وحبّه لزيارة قبر الإمام عليّ عليه السلام ، ولكنه لم يتمكن من المجيء لسبب من الأسباب ، لاحظوا كيف يجري الوجدان الإنساني المحب للحقيقة .

كما نستلهم من هذه الذكرى الارتباط بالله تعالى الذي جسّد نبينا أعلى حالات الارتباط ، حتّى نودي بـ ﴿ طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ (طه : ١ و ٢) .

والدعاء في هذا اليوم له من الأثر البالغ في الهداية والصلاح ، ففي الدعاء : « وقد علمت أنّ أفضل زاد الراحل إليك عزم إرادة يختارك بها ، اللهم وقد ناجاك بعزم الإرادة قلبي »^(١) .

اليوم نقف مستقبلين شهر شعبان ، شهر رسول الله ﷺ ، وشهر شجرة طوبى ، وأدعوكم لتوديع شهر رجب واستقبال شهر شعبان بالصيام في آخر رجب وأول شعبان ، الشهر الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « شهر شريف ، وهو شهري ، وحملته العرش تُعظمه وتعرف حقه ، وهو شهر تُزاد فيه أرزاق المؤمنين كشهر رمضان ، وتُزَيّن فيه الجنان ، وإنما سُمّي شعبان لأنه تتشعب فيه أرزاق المؤمنين ، وهو شهر العمل فيه مضاعف ، الحسنة بسبعين ، والسيئة محطوطة ، والذنوب مغفورة ، والحسنة مقبولة ، والجبار يباهي فيه بعباده ، وينظر إلى صوامه وقوامه ، فيباهي بهم حملة العرش . . . »^(٢) .

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي .

(٢) أمالي الصدوق : ٧٥ / ح (١ / ٤٣) .

في ذكرى الهجرة

١. المبيت على الفراش :

في مثل هذا اليوم وهو الأوّل من ربيع الأوّل من عام (١٣) للبعثة النبوية الشريفة هاجر نبينا ﷺ إلى المدينة المنورة .

في الرواية أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبيه ﷺ : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] ، فلما أخبره جبرئيل عليه السلام بأمر الله في ذلك ووحيه ، وما عزم له من الهجرة ، دعا رسول الله ﷺ علياً عليه السلام ، وقال له : « يا علي ، إن الروح هبط علي بهذه الآية آنفاً ، يُخبرني أن قريشاً اجتمعوا على المكري وقتلي ، وإنه أوحى إليّ ربّي ﷻ أن أهجّر دار قومي ، وأن انطلق إلى غار ثور من ليلتي ، وإنه أمرني أن أمرك بالمبيت على مضجعي ، ليخفي بمبيتك عليهم أثري ، فما أنت قائل ، وما صانع ؟ » .

فقال عليّ عليه السلام : « أوتسلم بمبיתי هناك يا نبيّ الله ؟ » .

قال : « نعم » ، فتبسّم عليّ عليه السلام وأهوى إلى الأرض ساجداً شكراً بما أنبأه رسول الله ﷺ من سلامته . وكان عليّ عليه السلام أوّل من سجد لله شكراً ، وأوّل من وضع وجهه على الأرض بعد سجده من هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ ، فلما رفع رأسه قال له : « امض لما أمرت ، فذاك سمعي وبصري . . . »^(١) .

يروى الإمام الغزالي^(٢) صاحب كتاب (إحياء علوم الدين) وهو من أئمة السّنة والجماعة رواية تقول : « أوحى الله إلى جبرئيل وميكائيل أنّي آخيت بينكما وجعلت عمر

(١) البحار ١٩ : ٢٥ / ح ١٥ .

(٢) أبو حامد محمد الغزالي الطوسي الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، الفقيه الأصولي الشافعي ، مجتهد زمانه ، الرّباني ، صاحب التصانيف والذكاء المفرط ، جامع أشتات العلوم ، له التواليف الحسان التي طارت في الآفاق ، مثل : إحياء علوم الدين في تصوّف ، والمستصفى في الأصول ، ومقاصد الفلاسفة ، وتهافت الفلاسفة ، ومحكّ النظر وميعار العلم في الفلسفة ، والوسيط والوجيز في الفقه .

أحدكما أطول من الآخر ، فايكما يُؤثر صاحبه بحياته ؟ فكلُّ منهما أراد الحياة ، فأوحى الله إليهما : أفلا كنتما مثل عليٍّ ؟ آخيت بينه وبين محمد فبات عليٌّ فراشه يُفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه ، فهبطا إلى الأرض ، فكان جبرئيل عند رأسه ، وميكائيل عند رجليه ، وجبرئيل ينادي : يخ بخ ، من مثلك يا عليٍّ ، يُباهي الله بك الملائكة ؟ فأنزل الله قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ أُتْبَعَاءَ مَرْضَاةٍ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (البقرة: ٢٠٧) ^(١) .

٢. فلسفة الهجرة :

النبي ﷺ هاجر إلى الطائف ، ثم عاد وهاجر إلى المدينة ، ونجحت الهجرة الثانية . الأنبياء الذين سبقوا نبينا ﷺ هاجروا أيضاً ، فقد هاجر إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين ثم إلى مصر قائلاً : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَاهِدِينَ ﴾ (الصافات : ٩٩) ، وموسى عليه السلام هاجر إلى مدين : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص : ٢١) ، فالهجرة هي سيرة الأنبياء .

٣. ماذا تعني الهجرة ؟

الهجرة تعني أن حركة النبوات هي حركة تغييرية إصلاحية تعتمد على الاستحقاقات البشرية . النبي ﷺ يهاجر ويُعَذَّب ويُسَجَّن ويُقَتَّل ، حركة الأنبياء رغم ارتباطها بالسوء والوحي لكن تعتمد في نجاحها وإخفاقها على الاستحقاقات البشرية ، الملائكة لا ينزلون ويقاثلون إلا وفق استحقاق كما نزلوا في بدر ، ولهذا لا بدّ من الأذى والصبر والمعاناة ، أي إن النتيجة لا تأتي بالمجان أو بطريق مفروش بالورود ، لا يوجد نبيٌّ من الأنبياء فرشت له الأرض بالورود .

التهجير الذي يصيب شيعة أهل البيت اليوم هو بالأصل مخطّط حكام الجور سيّما

(١) فضائل الخمسة ٢ : ٣٠٩ . احياء علوم الدين (للغزالي) ٦ : ٢٠٣ / ط١ ، دار المنهاج ، الرياض ، ١٤٣٢ هـ .

قادة حزب البعث ، اليوم بغداد تتعرض لمحاولة تغيير ديموغرافي ، أي تغيير السكان وفق المنطقة الجغرافية ، فبدلاً من أن تكون الأكثرية شيعية يُطرد هؤلاء الشيعة بطرق مختلفة . صدام كان يقوم بمهمة تطويق بغداد بالحزام السنّي المرتبط بنظام السلطة ، اليوم بعد الفشل السياسي الذي أصاب البعثيين والسلفيين والاتجاهات المعادية للعراق الجديد عادوا مرة أخرى لسياسة التهجير القسري ، ولكن ليس هذا إلا حسنة من حسنات شيعة أهل البيت تضاف إلى صحيفة أعمالهم كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَأَلْزَيْنَ هَاجِرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَوُدُّوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذُخْلَنَهُمْ جَنَّتْ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (آل عمران : ١٩٥) .

لا بدّ من هجرة وإيذاء في سبيل الله ، ولكن كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ (الأنفال : ٣٠) ، ستجدون أنّ هذا التهجير القسري سيجلب بركات وخيرات لنا ، حيث قال تعالى : ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ١٩) .

في ذكرى الإسراء والمعراج

روى القطب الراوندي في (الخرائج والجرائح) عن عليّ عليه السلام أنّه « لما كان بعد ثلاث سنين من مبعثه ﷺ أُسري به إلى بيت المقدس ، وعُرج به منه إلى السماء ليلة المعراج ، فلما أصبح من ليلته حدث قريشاً بخبر معراجه »^(١) .

كان إسراء النبي الأكرم ﷺ إلى المسجد الأقصى ، ثمّ الخروج من المسجد الأقصى إلى عالم السماء في شهر ربيع الأوّل بعد النبوة بستين^(٢) ، وهو ما جاء به قوله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾

(١) الخرائج والجرائح ١ : ١٤١ ، البحار ١٨ : ٣٧٩

(٢) هذا ما نقله العلامة المجلسي في البحار في باب المعراج في تاريخه .

(الإسراء : ١) ، وقوله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ (النجم : ٩) ، وقوله : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ (النجم : ١٨) .

وهي مسألة إجماعية ، فالنبي ﷺ أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وهناك كان العروج إلى السماوات السبع ، وكان ذلك في أحد عشر أو ثمانية عشر شهراً قبل الهجرة . ولدينا روايات تتحدث عن معراج ثانٍ ، وهو في السابع عشر من شهر رمضان المبارك .

لم يكن المعراج رمزياً أو عبارة عن قدرة معنوية للنبي ﷺ ، ولم يكن عبارة عن رؤيا في المنام أو مكاشفة عرفانية والنبي ﷺ جالس في مكانه وتكشف له أبواب السماوات ، وإنما كانت رحلة حقيقية يؤكدها القرآن الكريم إسرائاً حقيقياً ، وليس قصّة منام أو مكاشفة أو رمزاً للمستوى الذي بلغه النبي ﷺ .

يقول الإمام الصادق عليه السلام : « ما وفد إلى الله أحد أكرم من رسول الله »^(١) ، حيث اللقاءات العجيبة والمستوى والحنان والإنسانية العجيبة لنبينا ﷺ ، حينما كان يسأل الله ليس لنفسه فقط وإنما لأُمَّته في حكاية هذه الآيات التي أهديت للنبي ﷺ من الله تعالى في المعراج ، وهي قوله تعالى : ﴿ ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ، وهي هبة الله للنبي ، وذلك أنه ﷺ يقول :

« لَمَّا عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ناداني الله تبارك وتعالى : ﴿ ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ، فقلت عن نفسي وأُمتي : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ .

فقال تعالى : ﴿ لَا يَكْفِئُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ .

فقلت : ﴿ أَكَسَبْتُ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ شِئْنَا أَوْ آخُطَاْنَا ﴾ .

فقال الله تعالى : لَا أُؤَاخِذُكَ .

فقلت : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ .

قال الله تعالى: لَا أُحْمَلُ .

فقلت: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٥ و ٢٨٦] .
قال الله تعالى: قد أعطيتك ذلك لك ولأمتك^(١) .

ولا يوجد في الوجود حوارية بمثل ما كانت بين الله تعالى والإله المطلق وبين العبد المطلق العبودية وهو خاتم الأنبياء وسيد البشر وسيد الكونين رسول الله محمد ﷺ ، وكانت هذه الحوارية ما وراء السماء السابعة حيث كان ﷺ قد ﴿ دَنَا فَنَدَلْنِي فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ (النجم : ٨ و ٩) ، وراء الكون والسرادات هناك حيث لا أحد يستطيع لا ملك ولا إنس ولا جان ولا جبرائيل ولا ميكائيل ولا إسرافيل ولا الملائكة المقرّبين ولا يستطيع أحد أن يطاء ذلك المكان والمقام القريب من الله ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ إِلَّا نَبِيُّنَا ﷺ ، هذه الحوارية التي فيها مضامين جميلة .

في ذكرى رحلة النبي الأكرم ﷺ

أولاً : تنبؤات بالخطر :

في نهاية شهر صفر نستقبل ذكرى وفاة نبينا الأكرم ﷺ ، ووفاته لم تكن مفاجأة ، لأن الله تعالى قال قبل ذلك: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (الزمر : ٣٠) ، وقد أخبر الناس في حجة الوداع فقال: « يوشك أن أدعى فأجيب »^(٢) .

الملاحظة أن هذه الوفاة كانت مقترنة بتنبؤات خطر أخبر بها رسول الله ﷺ ، وهو الصادق الأمين ، وهذه روايات تنقلها مصادر السنة والشيعي ، فمرة يقول ﷺ: « أقبلت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم »^(٣) ، ومرة يقول ﷺ: « كأني على الحوض وإذا بجمع من

(١) تفسير الميزان للطباطبائي / تفسير سورة الإسراء .

(٢) حديث الثقلين لنجم الدين العسكري : ٨٣ .

(٣) شرح نهج البلاغة ١٣ : ٢٧ .

أصحابي يطلبون الماء فيُذادون عن الحوض ، فأقول : إلهي أصحابي أصحابي ، فيقال لي : إنَّكَ لا تدري ما أحدثوا بعدك ^(١) ، ومرةً ثالثة يقوم رسول الله ﷺ حزيناً باكياً يقول : « رأيت في المنام قردة ينزون على منبري » ، قيل : يا رسول الله ، ما هو تفسير ذلك ؟ قال : « بنو أمية ، ألا ومن رأى معاوية على منبري فليقتله » ^(٢) ، أي إنَّ هناك خطر قادم على المسلمين .

ثانياً : النبؤات الثلاث :

كان لرسول الله ﷺ عدَّة نبوءات ، عدَّة أمور أخبر بها أو قل تنبأ بها أذكر منها ثلاثة :

النبوءة الأولى : قال رسول الله ﷺ : « ستفترق أمَّتي على نيف وسبعين فرقة » ^(٣) ، يعني هو أخبر أنَّ بعدي سيحدث اختلاف كبير ، مرةً بلفظ « ستفترق أمَّتي » ، ومرةً : « لتبعنَّ سُنن من كان قبلكم حتَّى لو دخلوا جحر ضبَّ لدخلتموه » ^(٤) ، ومرةً بلفظ : « أقبلت عليكم الفتنة كقطع الليل المظلم » ^(٥) ، هذه نبوءة أنَّ وضعكم بعدي سيهتزُّ ، يعني وضع الأمة بعد رسول الله ﷺ ، وحدثت هذه النبوءة باتِّفاق كلِّ التاريخ والمؤرِّخين .

النبوءة الثانية : أنَّه رغم هذه الاهتزازات والفتن ، هناك في ختام المسير حاكمية وانتصار الإسلام ، فقد قال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتَّى يخرج واحد من ولدي يواطئ اسمه اسمي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً » ^(٦) ، هذه نبوءة . إنَّ الإسلام لا يخسر المعركة ، وإنَّ نهاية المعركة لصالح الإسلام وعلى طول الطريق ، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَآن يَشِيعَ نُورُهُ﴾ (التوبة : ٣٢) ،

(١) رواه البخاري (ح ٦٢١٢) ؛ ومسلم (ح ٢٢٩٠) .

(٢) تاريخ الطبري ٨ : ١٨٦ .

(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم .

(٤) أخرجه البخاري (ح ٣٤٥٦) ؛ ومسلم (ح ٦٧٢٣) .

(٥) شرح نهج البلاغة ١٣ : ٢٧ .

(٦) كنز العمال ٧ : ١٦٨ .

إذن هذه نبوءة قرآنية ، وهي نبوءة لنبيِّنا ﷺ أَنَّ هذا الدين لا يُغلب ، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ (يوسف : ٢١) .

النبوءة الثالثة : هي ظلامه أهل البيت ﷺ ، وقد أكثر رسول الله ﷺ من الحديث في هذه النبوءة أَنَّ أهل بيتي بعدي سيلقون أثره ، يهبط عليه جبرائيل ، ويخرج رسول الله وقد بان عليه الألم ، فيُسْتَل عن ذلك ، فيقول : « أخبرني جبرائيل أَنَّ أهل بيتي سيلقون بعدي أثره »^(١) ، يعني ظلامه ، يعني يُبْعَدون ويُطْرَدون وتُغْصَب حقوقهم . وهكذا كان ﷺ يُخَبِّر بما يجري على أمير المؤمنين ﷺ ، وقتال الناكثين والقاسطين والمارقين ، وعن الحسن ﷺ ، وعن الحسين ﷺ ، ويُحَدِّثهم بما يجري على فاطمة الزهراء ﷺ ، وَأَنَّكَ أسرع القوم لحوقاً بي ، وهكذا عندما جاءت ﷺ إلى رسول الله وهو على فراش الموت ، أقبلت منادية : « يا رسول الله ، لِمَ لَا تُكَلِّمَنِي ؟ نفسي لنفسك الفدا » .

فقال ﷺ وقد سمع صوت ابنته والتفت إليها : « يَا بِنْتِي ، إِنِّي مَفَارِقُكَ » .

قالت : « فَأَيْنَ الْمُلْتَقَى ؟ » .

قال : « عِنْدَ الْحِسَابِ » .

قالت : « فَإِن لَمْ أَجِدْكَ ؟ » .

قال : « عِنْدَ الشَّفَاعَةِ » .

قالت : « فَإِن لَمْ أَجِدْكَ ؟ » .

قال : « عِنْدَ الصِّرَاطِ »^(٢) .

نبوءة رسول الله بظلامه أهل البيت ﷺ وما يجري عليهم ، هذه أحد النبوءات التي تركها لنا رسول الله ﷺ .

ثالثاً : الوصية في مواجهة الخطر :

هذه ليست روايات الشيعة ، بل الشيعة والسُّنَّة ، إذن رسول الله ﷺ تنبأ بالخطر ،

فما الذي صنعه ؟ وما هو الموقف ؟ وما هي الإعدادات ؟

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٤ : ٤٦٣ - ٤٦٤ .

(٢) صحيح البخاري ٥ : ١٥ . وكشف الغمّة .

لا شكَّ أنَّ قائدًا ونبياً ورسولاً عظيماً وهو يُدرك هذه المخاطر لا يترك أمته بدون إعدادات وتحصينات ، والله قد قال له : ﴿ وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (المائدة : ٦٧) ، وكانت الإعدادات هي الوصية بأهل البيت والوصية بعليٍّ عليه السلام .

قالوا : يا رسول الله ، ماذا نفعل ؟

قال : « الزموا علياً » .

وقال : « عليٌّ مع الحقِّ ، والحقُّ مع عليٍّ » .

وقال : « مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا » .

وقال : « النجوم أمان لأهل السماء ، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض »^(١) .

وهذه وصية رسول الله ﷺ ، نحن اليوم بحاجة إلى عودة لأهل البيت عليهم السلام ، ولا نتحدَّث عن خلافة سياسية ، لأنَّ القائل قديقول : إنَّ (١٤٠٠) سنة مضت بيننا وبين الخلافة بعد رسول الله ﷺ ، وما ينفعنا أن يكون الأوَّل خليفة أو الرابع ! ؟ لكن الحديث ليس عن قضية مضت ، ولست بصدد المناقشة في ذلك ، ولكن تعالوا نتحدَّث عن الزعامة الفكرية والدينية ، ورسول الله ﷺ يقول : الزعامة الدينية والفكرية لأهل بيتي ، « إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي »^(٢) ، وهذا خطاب نُوجَّهه لكلِّ العالم الإسلامي وعلماء الإسلام ، تعالوا انفتحوا على أهل البيت عليهم السلام وخذوا منهم ، فإنَّ علياً عليه السلام باب مدينة علم النبي ﷺ ، وهذه ليست دعوة مذهبية ، ولا نريد أن نقول للناس : تعالوا كونوا شيعة ! ولكن لنأخذ الفكر الإسلامي الأصيل من أهل بيت النبوة عليهم السلام ، فهم الأعلم ، ولم يوص رسول الله ﷺ بغيرهم . والعالم اليوم يعيش تموجات فكرية ، فيجب أن نعود إلى فكر إسلامي أصيل ، وهذا الفكر هو فكر أهل البيت عليهم السلام .

(١) صحيح الترمذي ٥ : ٥٩٢ / ح ٣٧١٤ .

(٢) أحمد بن حنبل في مسنده .

رابعاً : ما هي الإعدادات ؟

السؤال : ما هي احتياطات هذا النبي ﷺ لأُمَّته وهو قد تنبأ بحدوث الفتنة حينما قال : « أقبلت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم »^(١) ؟

أولاً : قوله ﷺ : « إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي »^(٢) .

ثانياً : قوله ﷺ : « يوشك أن أدعى فأجيب ، ألا من كنت مولاه فعليٌّ مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله »^(٣) .

ثم ساعة الموت وهو على الفراش قال ﷺ : « ادعولي حبيبي » ، فدُعي له الأول فأعرض بوجهه ، فدُعي الثاني عمر بن الخطاب فأعرض بوجهه ، وكانت المرأة الصالحة أم سلمة حاضرة قالت : ادعوا له علياً ، فدُعي عليٌّ ، فجاء فلما نظر إليه رسول الله ﷺ تبسم ، وجلس عليٌّ ﷺ ووضع رأس رسول الله ﷺ في حجره يمسح وجهه حتى فاضت روحه الشريفة وهو في حجره^(٤) .

خامساً : زيارة الإمام عليٍّ ﷺ يوم وفاة النبي ﷺ :

نسأل اليوم : لماذا نزور علياً ﷺ في يوم وفاة النبي ﷺ ؟

الجواب : أننا نعتقد أن علياً امتداد للنبي ﷺ ، فقد جاء عنه ﷺ : « من أحبَّ علياً فقد أحبني ، ومن أبغض علياً فقد أبغضني » ، حيث لا نستطيع زيارة النبي ﷺ إذن يُستحب أن نقوم بزيارة وصيِّه ، وهذا هو دأب شيعة أهل البيت ، يوم المبعث النبوي أيضاً يُستحب زيارة الإمام أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ .

إنَّ يوم وفاة رسول الله ﷺ هو يوم خلافة الإمام عليٍّ ﷺ ، يوم إمامة هذا الإنسان

(١) شرح نهج البلاغة ١٣ : ٢٧ .

(٢) أحمد بن حنبل في مسنده .

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي : ١٦٩ / القاهرة ١٩٦٤ م .

(٤) المناقب : ٢٩ .

العظيم المظلوم ، يوم خلافة الإمام أمير المؤمنين ، فنزوره لنقول له : « إِنَّا عَلَى الطَّرِيقِ ، وَنُجِدُّ الْبَيْعَةَ لِمَنْ أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ بِالْبَيْعَةِ لَهُ يَوْمَ الْغَدِيرِ ، قَالَ : « سَلِّمُوا عَلَيْهِ بِأَمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ » ، فَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَدْخُلُونَ عَلَى عَلِيٍّ - وَقَدْ نَصَبَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ خِيْمَةً إِلَى جَانِبِ خِيَمَتِهِ - يَقُولُونَ : (السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ) ، وَهَنَّاكَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : (بَخْ بَخْ لَكَ يَا عَلِيٌّ ، أَصْبَحْتَ مَوْلَانَا وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُؤْمِنَةٍ)^(١) ، نَحْنُ عَلَى الْعَهْدِ .

يوم وفاة رسول الله حدثت انعطافة كبيرة في التاريخ الإسلامي ، حدث ابتعاد عن المسار الذي رسمه رسول الله ﷺ ، ولولا دور الإمام عليٍّ والزهراء والحسين وأهل البيت عليهم السلام لانهارت التجربة الإسلامية وسقطت القافلة الإسلامية ، لكن أهل البيت عليهم السلام حافظوا على الإسلام من الانهيار ، وقد شهد منعطفًا خطراً بعد رسول الله ﷺ .

اليوم نحن على الصراط المستقيم ، على ولاية أمير المؤمنين عليٍّ ، الرسالة امتدت بالإمامة ، النبوة حُفِظَتْ بالإمامة .

نحن نزور أمير المؤمنين فإن الرواية تقول : « إِنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَحَبُّ زِيَارَتِكَ أَحْيَانًا لَكِنْ أَنْتَ بَعِيدٌ عَنِّي فَأَذْهَبُ لَزِيَارَةِ عَلِيٍّ ؟ قَالَ : « مَنْ زَارَ عَلِيًّا فَقَدْ زَارَنِي ، وَمَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ أَحَبَّنِي »^(٢) .

سادساً : مشاهد في وفاة النبي ﷺ :

في ذكرى وفاة نبينا ﷺ توجد مجموعة مشاهد :

المشهد الأول : عندما حضرته الوفاة قال : « يَا بِلَالُ هَلُمَّ ، عَلِيٌّ بِالنَّاسِ » ، فدعاهم بلال ، فحضرُوا ، فخرج معتباً بعمامته ، متوكئاً على قوسه ، فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ، إلى أن قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقْسَمُ أَلَّا يَجُوزَهُ ظِلْمُ ظَالِمٍ ، فَنَاشَدْتُكُمْ مَنْ كَانَ لَهُ

(١) إحقاق الحق ٦ : ٤٦٨ ، نقلاً عن ابن حنويه في درر بحر المناقب : ٤٣ ، أرجح المطالب : ٤٢٥ .

(٢) المزار الكبير لابن المشهدي : ٣٨ .

قَبْلِي مظلمة إِلَّا قام حَتَّى يَقْتَصَّ مِنِّي ، فالقصاص في الدنيا أَحَبُّ إِلَيَّ من القصاص في الآخرة » .

فقام سودة بن قيس ، فقال : يا رسول الله ، كنت ذات يوم على الناقة وبيدك العصا وأردت أن تضرب الناقة فأصابك العصا بطني ، وأنا الآن أريد أن أقتصَّ منك .

فقال ﷺ : « يا بلال ، قُمْ إِلَى مَنْزِلِ فَاطِمَةَ وَائْتِنِي بِالْقَضِيبِ الْمَشُوقِ^(١) » ، فخرج بلال مسرعاً ومستغرباً من هذا المشهد وينادي : معاشر الناس ، من ذا الذي يُعْطِي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة ؟ فهذا مُحَمَّدٌ يُعْطِي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة .

جاء إلى منزل فاطمة وقال : أبوك يطلب القضيب المشوق - وحكى لها القصة - ، أتته بذلك القضيب المشوق ، فجاء به إلى رسول الله ﷺ .

فقال ﷺ : « يا سودة ، تعالْ واقتصَّ مِنِّي حَتَّى تَرْضَى » ، فقال سودة : يا رسول الله ، يوم ضربتني بالسوط كنتُ بلا رداء وأصاب السوط بطني وجلدي ، والآن إذا كنت تريد القصاص فاكشف لي عن بطنك لكي أضرب بطنك ، الناس يشاهدون ولا يدرون ماذا يصنعون ، فرفع رسول الله ﷺ الثوب عن بطنه ، وقال : « يا سودة هلمَّ واضرب واقتصَّ مِنِّي » .

قال سودة : يا رسول الله ، أتأذن لي أن أُقَبِّلَ بطنك ، فقد عفوت عنك ، وكان غرضي هو أن أُقَبِّلَ بطنك ، فأذن له رسول الله ﷺ .

فقال سودة : أعود بموضع القصاص من بطن رسول الله من النار يوم القيامة .

فقال رسول الله : « يا سودة ، أتغفر أم تقتصَّ ؟ » .

قال : بل أعفو يا رسول الله .

فقال ﷺ : « اللَّهُمَّ اعْفُ عَنْ سَوَادَةَ بْنِ قَيْسٍ كَمَا عَفَا عَنْ نَبِيِّكَ »^(٢) .

المشهد الثاني : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وِإِجْمَاعَ الْمُؤَرِّخِينَ كَانَ يَتَنَبَّأُ بِخِلَافَاتٍ وَاضْطِرَابَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ سَتَحْدُقُ بِالْبِلَادِ بَعْدَهُ ، وَكَانَ يَقُولُ : « أَقْبَلْتُ الْفِتْنَ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ ، يَتَبَعُ

(١) المشوق : اسم قضيب كان للنبي ﷺ . (مجمع البحرين لفخر الدين بن محمد الطريحي ٥ : ٢٣٦) .

(٢) مستدرک وسائل الشيعة للشيخ المحمّد النوري ١٨ : ٢٨٧ .

أَوَّلَهَا آخِرَهَا»^(١) ، ويُجْمَعُ كُلُّ الْمُؤَرِّخِينَ مِنَ السُّنَّةِ وَالشَّيْعَةِ وَكُلُّ الصَّحَّاحِ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوْصَى مُرَاراً وَتَكَرَّراً وَبَدُونَ أَدْنَى شَكٍّ وَقَالَ : « إِنِّي مُخَلَّفٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ : كِتَابُ اللَّهِ ، وَعِترتي أَهْلُ بَيْتِي ، أَلَا وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يردَا عَلَيَّ الْحَوْضَ ، فَانظُرُوا كَيْفَ تُخَلَّفُونِي فِيهَا ، أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَعْلَمُوهُمْ ، فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْكُمْ »^(٢) ، ثُمَّ دَعَا بِدَوَاةٍ وَكَتَفَ وَقَالَ : « أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا » ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنَ الْحُضُورِ : إِنَّ الرَّجُلَ لِيَهْجُر ! فَاخْتَلَفَ الْقَوْمُ ، بَعْضُ يَقُولُ : آتَوْهُ بِدَوَاةٍ وَكَتَفَ ، وَبَعْضُ يَقُولُ : لَا تَأْتُوا بِدَوَاةٍ وَكَتَفَ .

الرَّسُولُ قَالَ : « لَا يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيِّ خِلَافٍ ، قَوْمُوا عَنِّي » ثُمَّ أَغْمَى عَلَيْهِ ، وَلَمَّا أَفَاقَ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَا نَتِيكَ بِدَوَاةٍ وَكَتَفٍ ؟

قَالَ : « أَبْعَدَ الَّذِي قُلْتُمْ ؟ وَلَكِنْ أُوصِيكُمْ بِأَهْلِ بَيْتِي خَيْرًا »^(٣) .

وَهُنَا التَّفَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « ادْعُوا لِي حَبِيبِي » ، وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ يَرْوِيهَا مَصَادِرُ السُّنَّةِ ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : فُدِّعِيَ لَهُ فُلَانٌ ، لَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ أَعْرَضَ بَوَجهَهُ عَنْهُ ، وَقَالَ : « ادْعُوا لِي حَبِيبِي » ، فُدِّعِيَ لَهُ فُلَانٌ فَأَعْرَضَ عَنْهُ .

فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : ادْعُوا عَلِيًّا ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَا يَرِيدُ إِلَّا عَلِيًّا ، فُدِّعِيَ لَهُ عَلِيٌّ ، فَلَمَّا حَضَرَ اسْتَبَشَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَقَالَ : « يَا عَلِيُّ ، ضَعْ رَأْسِي فِي حَجْرِكَ فَقَدْ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِذَا فَاضَتْ نَفْسِي فَتَنَاوَلْهَا بِيَدِكَ وَامْسَحْ بِهَا وَجْهَكَ »^(٤) .

وَهُنَا أَقْبَلَتْ الزَّهْرَاءُ بَاكِئَةً ، فَدَعَاها ﷺ أَنْ تَدْنُو مِنْهُ : « إِلَيَّ إِلَيَّ يَا فَاطِمَةُ » ، فَأَقْبَلَتْ إِلَيْهِ فَأَسْرَهَا فِي أُذُنِهَا سِرًّا فَتَهَلَّلَ وَجْهَهَا .

فَسَأَلُوهَا : يَا فَاطِمَةُ ، مَا الَّذِي أَسْرَكَ ؟

قَالَتْ : إِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنِّي أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِهِ لِحَوْقَابِهِ»^(٥) .

(١) شرح نهج البلاغة ١٣ : ٢٧ .

(٢) أحمد بن حنبل في مسنده .

(٣) صحيح البخاري ١ : ٣٨ ؛ ٤ : ٨٥ و ١٢ ؛ ٦ : ١١ ؛ ٧ : ١٥٥ ؛ ٩ : ١٣٧ .

(٤) المناقب : ٢٩ .

(٥) صحيح البخاري ٤ : ٢٤٧ و ٢٤٨ .

سابعاً : أصعب امتحان :

في مثل هذا اليوم انتقلنا من عهد النبوة إلى عهد الإمامة ، من عهد النبي إلى عهد الوصي ، كان هذا اليوم أعظم امتحان على الأمة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ ، وهو أعظم مصاب ، وفي مثل هذا اليوم افترت الأمة فريقين : أقلية وأكثرية .

الأكثرية انساقوا لما انتجته سقيفة بني ساعدة حين سعى جمع من الأنصار وبعض المهاجرين لعقد مؤتمر ليخططوا للخلافة بعد رسول الله ﷺ لمن تكون ، ناسين وصية رسول الله ﷺ عندما قال : « إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض »^(١) .

بينما كانت مجموعة أخرى أصبحوا فيما بعدهم الأقلية وعلى رأسها الإمام عليّ عليه السلام ، كانوا مشغولين بغسل وتكفين النبي ﷺ والصلاة عليه ، وهو أشرف الخلق .

رأي الشيعة في الانتخاب :

قد يقول قائل ويتساءل : أليس قد مارست الأمة بعد رسول الله ﷺ وخاصة الأكثرية حقها الانتخابي ؟ فالقرآن يقول : ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى : ٣٨) ، أليس أمير المؤمنين عليه السلام يقول : « إِنَّا الشورى للمهاجرين والأنصار »^(٢) ؟ إذن لماذا لا نقول : إن هؤلاء الأكثرية مارسوا حقهم الانتخابي والبقية عليهم أن يقولوا : نعم للانتخابات ؟

هذا الرأي يتبنه أبناء العامة ، ولكن هناك جواب دقيق يقول : إن ما يعتقده شيعة أهل البيت عليه السلام هو أن الأمة تمتلك حقها الانتخابي ، والنص - الصادر من رسول الله ﷺ في تعيين الخليفة بعده - لا يحرم الأمة من حقها الانتخابي ، فالرسول عندما يقول : « من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه »^(٣) ، ليس بصدد مصادرة الحق الانتخابي للأمة حتى يقول

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ٦٧ / ح ٢٥٩ .

(٢) نهج البلاغة : ٣٦٧ .

(٣) أمالي الصدوق : ١٨٤ / ح (١ / ١٩٠) .

قائل : إنَّكم لا تعتقدون بالحق الانتخابي وحرية الأمة وحقها في الانتخابات ! الأمر ليس كذلك ، نحن نقول بالنص ، يعني إنَّ رسول الله ﷺ عيَّن الخليفة بعده ونصَّ عليه ، والقرآن أشار وأكَّد ، وهذا لا يصادر حقَّ الأمة في الانتخابات .
ذلك أنَّ لدينا أمرين :

الأوَّل : هو حرية الانتخابات .

والثاني : هو سلامة الانتخابات .

فالمهمُّ ليس فقط الانتخابات ، بل المهمُّ هو إجراء الانتخابات وسلامتها ، فالقرآن - مثلاً - يقول : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ (الكهف : ٢٩) ، وهذا يعني أنَّه توجد حرية فكرية سواء أردت أن تكون مؤمناً أو كافراً ، هذا على مستوى الأمر الأوَّل .
لكن الأمر الثاني : سلامة الانتخاب ، يا بن آدم أنت مخير بين الإيمان والكفر ، ولكن إذا آمنت فمصيرك الجنة ، وإذا كفرت فمصيرك النار ، وهو فشل في الانتخاب والاختيار .

مثال آخر : عندما يذهب المريض للطبيب ويقول له الطبيب : بإمكانك تناول هكذا طعام والامتناع عن هكذا طعام ، فإذا أردت العافية فعليك تناول الطعام والدواء الذي وُصفَ لك ، وإذا أردت المرض فكل ما شئت ، فالطبيب لا يفرض شيئاً عليك ولا يسلبك حقَّ الاختيار حتَّى تقول : ليست لدينا حرية في اختيار ما نشاء ، فالطبيب يدلُّك على ما يفيدك ، والاختيار متروك لك ، وليس من مسؤوليتي أن أمنعك ممَّا تريد بدون اختيارك ، وهكذا الأمر في سائر الحريات الشخصية .

الإسلام يقول : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة : ٢٥٦) ، فإن شئت الفوز بالجنان أو تذهب إلى جهنم فالأمر متروك لك ، ومهمَّة الدين النصيحة ، ويدلُّك على الطريق لنجاتك من الهلكة ، وإذا لم تسلكه فتهلك . وقوله ﷺ : « إِنَّمَا مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ »^(١) ، أيُّها الناس من أراد النجاة فليركب السفينة ، ومن أراد الغرق فليعمل

(١) أمالي الطوسي : ٦٠ / ح (٥٧ / ٨٨) .

ما يشاء ، فالرسول ﷺ لم يمنع الناس من الانتخابات ، ولكن قال لهم : انتخبوا هذا الطريق الذي يُنجيكم .

في الرواية : إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لَمَّا أُلْحِدَ في قبره وقف صمصعة بن صوحان العبدي على القبر ، ووضع إحدى يديه على فؤاده والأخرى قد أخذ بها التراب ويضرب به رأسه ، ثم قال : (بآبي أنت وأُمِّي يا أمير المؤمنين ، ثم قال : هنيئاً لك يا أبا الحسن ، فلقد طاب مولدك ، وقوي صبرك ، وعظم جهادك . . . ، فوالله لقد كانت حياتك مفاتيح للخير ومغلاق للشر ، وإنَّ يومك هذا مفتاح كلِّ شرٍّ ومغلاق كلِّ خير ، ولو أنَّ الناس قبلوا منك لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولكنَّهم آثروا الدنيا على الآخرة) ، ثم بكى بكاءً شديداً ، وأبكى كلَّ من كان معه ^(١) .

فالإيمان بالإمام على أساس النصِّ من رسول الله ﷺ والتوصية من القرآن لا يعني سلب حقِّ الأُمَّة في الاختيار والانتخابات ، فرسول الله ﷺ دلَّنا على سلامة الانتخابات ولم يسلبنا حقَّ الانتخابات ، والشيعَة أخذوا بها أخذ به رسول الله ﷺ ، وانتخبوا من انتخبه رسول الله ﷺ واختاره الله .

قراءة الشيعة للتاريخ :

إنَّ الأُمَّة بعد رسول الله ﷺ أصبحت فريقين : فريق اختار وانتخب ما انتخبه رسول الله ﷺ ، وفريق اختار وانتخب غير من اختاره وانتخبه رسول الله ﷺ ، فالتجربة الانتخابية بعد رسول الله ﷺ كانت أعظم امتحان للأُمَّة ؛ لأنَّ الأُمَّة انتخبت غير ما انتخبه رسول الله ﷺ ، فكانت تجربة فاشلة ، وهذه هي قراءة أهل البيت عليه السلام وشيعتهم للتأريخ بعد رسول الله ﷺ المملوء بالظلم والانحراف والابتعاد عن الحقِّ . وأمَّا كُتَّاب التأريخ الرسمي فكانت لهم غير هذه القراءة ، أكثرهم كانوا مع سلاطين الجور .

الدلائل على القراءة الشيعية :

كان رسول الله ﷺ يتحدث عن الحوادث التي ستقع بعده في المستقبل ، يقول : « أتت الفتن كقطع الليل يركب بعضها بعضاً »^(١) ، وقد رأى رسول الله ﷺ في المنام رؤيا يرويها محدثوا ومفسّروا العامة ، ومفادها : رأى رسول الله ﷺ بني أمية ينزون على منبره نزو القردة ، فساء ذلك ، فما استجمع ضاحكاً قط^(٢) ، فاستوحش النبي ﷺ من تلك الرؤيا ، وكان تأويلها هو أنّ بني أمية يرقون منبر رسول الله ﷺ ، وكانت هذه قراءة رسول الله ﷺ للتاريخ ولما يحدث بعده وللمستقبل ، وهو أنّ هناك انحرافاً سيحدث في الأمة ، ولولا ثبات وصمود ومراقبة أهل البيت  لغرقت هذه السفينة رغم ابتعاد أكثر الناس عنها ، فكانوا هم ربّاني هذه السفينة لكي تأمن من الغرق .

وحديث آخر يرويّه أهل الصحاح عن رسول الله ﷺ : « ألا وإنّه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا ربّ ، أصحابي ! فيقال : إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة : ١١٧] ، فيقال : إنّ هؤلاء لم يزلوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم »^(٣) ، من انحرافات وابتعاد عن الحقّ ، هذه قراءتنا وقراءة رسول الله ﷺ وأهل البيت  للتاريخ .

ثامناً : مشاهد ما قبل الرحيل :

١- في مثل هذه الأيام كان رسول الله ﷺ مُسَجّى على فراش المرض ، ويقول : « ادعوا لي حبيبي » ، وفي رواية : « ادعوا لي أخي » .
فقامت عائشة إلى أبي بكر وقالت له : رسول الله يدعوك .
جاء إلى رسول الله ﷺ فأعرض عنه .

(١) مسند أحمد ٣ : ٤٨٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٨ : ١٨٥ .

(٣) صحيح البخاري ٥ : ١٩١ .

فقال أبو بكر : لو كنت أنا المطلوب لما أعرض عني رسول الله ﷺ .

ثم قامت حفصة ودعت أباهما عمر وقالت : رسول الله يدعوك .

فأقبل عمر ، وعندما نظر إليه الرسول أعرض عنه ، حسب روايات مذكورة في كتب السنة .

فقال القوم : إن رسول الله ﷺ يريد علي بن أبي طالب .

فدعوا علياً ﷺ ، فلما جاء إليه أدناه وأسر في أذنه شيئاً .

فلما انتهى المجلس ، قيل له : بماذا حدثك رسول الله ﷺ ؟

قال علياً ﷺ : « علمني رسول الله ألف باب من العلم ، يُفتح لي من كل باب ألف باب » (١) .

٢- كان الرسول مُسَجِّى على الفراش فقال للناس : « إن ربي أقسم أن لا يجوز ظلم ظالم ، أيها المسلمون إن كان لأحدكم حقٌ عليّ فليقم وليقتص مني » .

فقام سودة بن قيس وقال له : إن لي عليك حقٌ ، إنك ضربتني بالسوط يوماً من الأيام ، وذلك عندما ذهبنا إلى الطائف فرفعت السوط وأردت ضرب الدابة فوق السوط عليّ بطني ، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً ليأتي بالسوط من بيت فاطمة ﷺ ليقتص منه ، فجاء بلال بالسوط ، وقال له : « يا سودة ، قم واقتص مني » .

قال : اكشف لي عن بطنك ؛ لأنك حينما ضربتني كنت مكشوف البطن ، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه .

فقال سودة : إنما أردتُ من ذلك أن أُقبِل بطنك ، فأذن له رسول الله ﷺ (٢) .

٣- وفي مثل هذا اليوم أقبلت فاطمة وقالت : « يا رسول الله ، نفسي لنفسك الفداء ألا تُكلمني ؟ » .

فقال : « يا فاطمة ، مالي أراك باكية حزينة ؟ » ، قالت : « بأبي وأمي يا رسول الله ، كيف لا أبكي وتريد أن تفارقني » ، فقال لها : « يا فاطمة ، لا تبكي ولا تحزني ، فلا بد من

(١) المتقي الهندي في كنز العمال .

(٢) أمالي الصدوق : ٧٣٣ / ح (٦ / ١٠٠٤) .

مفارقتك ، فاشتدَّ بكأؤها . ثمَّ قالت : « يا أبة ، أين ألقاك ؟ » ، قال : « تلقيني على تلِّ الحمد أشفع لأُمتي » . قالت : « يا أبة ، فإن لم ألقك ؟ » ، قال : « تلقيني على الصراط ، وجبرئيل عن يميني وميكائيل عن شمالي وإسرافيل آخذ بحجزتي والملائكة خلفي ، وأنا أنادي : يا ربِّ ، أُمّتي أُمّتي هونَّ عليهم الحساب . ثمَّ أنظر يميناً وشمالاً إلى أُمّتي ، وكلُّ نبيٍّ يومئذٍ مشغول بنفسه يقول : يا ربِّ نفسي نفسي . وأنا أقول : يا ربِّ أُمّتي أُمّتي . فأولُّ من يلحق بي يوم القيامة من أُمّتي أنتِ وعليَّ والحسن والحسين » ^(١) .

٤- وروى الترمذي عن عائشة ، قالت : ما رأيت أحداً أشبه سمّاً ودلاًّ وهدياً برسول الله في قيامها وعودها من فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، قالت : وكانت إذا دخلت على النبيّ قام إليها فقبلها وأجلسها في مجلسه ، وكان النبيّ ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته في مجلسها ، فلما مرض النبيّ ﷺ دخلت فأكبّت عليه وقبلته ، ثمَّ رفعت رأسها فبكت ، ثمَّ أكبّت عليه ، ثمَّ رفعت رأسها فضحكت ، فقلت : إنّي كنت أظنُّ أنّ هذه من أعقل نسائها ، فإذا هي من النساء ! فلما توفيّ رسول الله ﷺ قلت لها : أرايت حين أكببت على النبيّ فرفعت رأسك فبكيت ، ثمَّ أكببت عليه فرفعت رأسك فضحكت ، ما حملك على ذلك ؟ قالت : « إني إذ لبذرة ! أخبرني أنّه ميّت من وجعه هذا فبكيت ، ثمَّ أخبرني أنّي أسرع أهله لحوقاً به فذاك حين ضحكت » ^(٢) .

كيف تكون الزهراء عليها السلام وهي في الثامنة عشرة أوّل من يلحق برسول الله ﷺ ؟ كان ذلك بسبب ما جرى عليها من المصائب ، فقد كان يُغمى عليها ساعة بعد ساعة ، وأقبلت إلى قبر النبيّ ﷺ وهي تقول :

صَبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِبٌ لَوْ أَنَّهَا صَبَّتْ عَلَى الْإِيَّامِ صَرْنَ لِيَالِيَا ^(٣)

السلام عليك يا رسول الله يا سيّد المرسلين .

﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (البقرة : ١٥٦) .

(١) كشف اليقين : ٣١٨ .

(٢) سنن الترمذي ٥ : ٣٦١ .

(٣) مناقب آل أبي طالب ١ : ٢٠٨ .



آلْبَابُ الثَّانِي

مَعَ الْإِمَامِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١. في ذكرى الولادة
٢. حكومة الإمام عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ
٣. انتظار متبادل
٤. وقفة عند شهادته
٥. مقتل الإمام عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ
٦. عليٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدنيا والآخرة
٧. صور من وحي الشهادة



في ذكرى الولادة

ولادة الإمام عليّ عليه السلام :

في الثالث عشر من شهر رجب ينبغي لنا أن نقف عند ولادة أمير المؤمنين عليه السلام الذي امتاز وخصّه الله تبارك وتعالى بشرف لم ينله نبي ولا رسول ، وهو شرف الولادة في مكة ، فكان عليّ عليه السلام وليد الكعبة .

تقول الروايات التي يجمع عليها المؤرخون من أبناء السُّنة والشيعة ، ولا مجال للشك فيها ، لأنّها بلغت حدّ التواتر : إنّ فاطمة بنت أسد حينما دنا منها الطلق أقبلت إلى الكعبة ، وقفت عند جدار الكعبة ، فنادت ودعت وناجت وقالت : (اللهم أسألك بحقّ المولود الذي في بطني لِمَا يَسِّرْت لي) ، وقريش والناس جالسون ينظرون امرأة أقبلت بشدائد المخاض وأوجاعه إلى جدار الكعبة وليس إلى بابها ، فانشق لها الجدار ودخلت ، فاستغربت قريش وعرفت أنّ تلك كرامة ، وما كان إلّا مدّة حتّى خرجت فاطمة بنت أسد وهي تحمل عليّاً عليه السلام ، فكان وليد الكعبة .

وهذه كرامة ، وهذا شرف اختصّ الله تبارك وتعالى به سيّد الوصيّين ، سيّد الخلق بعد رسول الله ، ولا مجال للاعتراض أو التشكيك في هذه الرواية ؛ لأنّها لم ترو في

رواياتنا فقط ، وإنما بروايات المذاهب الأخرى لأبناء العامة والسنة والجماعة^(١) .

ولم تكن الكعبة غرفة ولادة ، ولم تكن مقصداً لمثل هذه الحالات ، وما حدث لم يكن أمراً عادياً ، ولا يمكن تفسيره بالصيغ الاعتيادية ، ولا بد أن نلجأ إلى التفسير الغيبي ، وإلى العناية الإلهية الخاصة بهذا الموضوع ، ونحن أبناء الإيمان بالغيب نؤمن بالعناية الإلهية مع الأنبياء والصالحين ، فكانت تلك عنايته تبارك وتعالى مع وليد الكعبة .

وشاء الله تبارك وتعالى لهذا الوصي والإنسان الكامل والنور المشرق أن يُمَيِّزَه بكرامة أخرى ، فكان شهيد المحراب ، فهو وليد الكعبة وقبلة العبادة ، وقُتِلَ في محراب العبادة ، وقال يومها وهو يُعطينا درساً لجميع الخلق ، وقال لكم أتمم ولنا نحن : « فُزْتُ وربَّ الكعبة »^(٢) .

إذا كان الموت بهذا الشكل فهنيئاً لمن يموت بهذا الشكل ، وشاء الله تبارك وتعالى أن تكون تلك سنة لأتباعه وفقهاء مذهبه ، فهاهم شهداء المحراب من علماء المذهب يتأسسون في حياتهم وسلوكهم ، ثم في مقتلهم بإمامهم أمير المؤمنين عليه السلام .

حكومة الإمام علي عليه السلام

حديثي اليوم عن ممارسة وتجربة حياة علي الأرض مارسها وطبقها الإمام علي عليه السلام ، تستطيع هذه التجربة أن تكون مثلاً صالحاً ونبراساً للحكومة الدينية المدنية .

الدين والحكم المدني :

اليوم هناك إشكال على الحكومة الإسلامية ، ويتحرك الفكر العلماني لتعميق هذا الإشكال في ذهن الناس ، والإعلام العلماني يُثَقِّف عليه ، وهو أن الحكومة الدينية تصطدم مع التمدن والحريات السياسية والثقافية ، ويُصَوِّرون الحكومة الدينية بأنها

(١) معاني الأخبار : ٦٢ ؛ وأملالي الصدوق : ١٩٥ .

(٢) خصائص الأئمة : ٦٣ ؛ ومناقب آل أبي طالب ١ : ٣٨٥ .

عبارة عن محاكم التفتيش في العصور الوسطى ، يحاولون أن يُعطوا انطباعاً أسوداً عن الحكومة الدينية ، في الوقت الذي نجد أن حكومة الإمام علي عليه السلام لم تكن مجرد فكرة ولا شعار ولا كلمات مكتوبة ، إنما كانت ممارسة ، نتحدّى العالم المتحضّر أن يُعطينا ممارسة مثلها في المدنية .

إن حكومة الإمام علي عليه السلام قبل ألف وأربعمائة عام مثّلت أروع صور للحكومة المدنية المتحضّرة إلى جانب أنّها حكومة دينية .

هذا بحث واسع جداً يستحق أن تُكتب فيه بحوث حول العلاقة بين الحكومة الدينية والحكومة المدنية في تجربة الإمام علي عليه السلام ، ونحاول هنا أن نقف عند بعض المعالم المهمة .

أسس الحكم المدني :

الحكومة المدنية ما هي أسسها ؟

إن أسس الحكومة المدنية التي تُبشّر بها الحضارات اليوم هي عبارة عن أربعة أسس :

- ١- الدستور .
- ٢- الحريات .
- ٣- حاكمية الشعب .
- ٤- المساواة السياسية .

وهذه هي الشعارات التي ترفعها اليوم المدنية الحديثة رغم أنّنا لا نجد لها صدقيّة على أرض الواقع ، ولكن ومهما يكن الحال فلننظر ماذا كانت عليه حكومة الإمام علي عليه السلام .

أسس المدنية في حكومة الإمام عليّ عليه السلام :

تعالوا إلى حكومة أمير المؤمنين عليه السلام وتطبيقها لهذه الأسس قبل ألف وأربعمائة عام ، في عهد الظلام يومئذٍ عهد القبائل والغزو سجّل الإمام عليّ عليه السلام أروع صورة للحكومة المدنية :

١- فقد منح الحريّات السياسية بشكل غريب حتّى لعدوّه ، ونموذج ذلك حينما خرج طلحة والزبير لتحضير الوضع العسكري ضدّ الإمام عليّ عليه السلام وطلبوا منه الإذن لهما بالسفر إلى مكة المكرمة ، فقد قال عليه السلام : « والله ما يريدان العمرة ، وإنما يريدان الغدرة »^(١) ، ولكنه مع ذلك منحهما الحريّة وأذن لهما بالسفر بعد أن جدّد أخذ البيعة منهما .

الخارج أيضاً أعطاهم الإمام عليّ عليه السلام الحريّة مشروطاً عليهم أن لا يسفكوا دمّاً ، ولا يشهروا سلاحاً ، ولا يقطعوا طريقاً ، فهو لم يصادر حريّتهم الثقافية والسياسية ، بل قال : « لهم ذلك على أن لا يحملوا سلاحاً ضدّ أحد » .

وهذا نموذج غريب في عرف السياسة وأنظمة الحكم في كلّ العالم ، وهو نموذج لا تُطبّقه واحدة من الحضارات التي تدّعي التمدّن ، بل هي جميعاً تؤمن بالضربة الاستباقية وحماية المصالح ، وهم يقيمون من يُفكّر يوماً ما في أن يكون قطباً في مقابلهم ، العالم اليوم يُفكّر هكذا ، لكن الإمام عليّاً عليه السلام منح هذه الحريّات السياسية والثقافية .

٢- وعلى مستوى حاكمية الشعب ، فقد كانت حكومة الإمام عليّ عليه السلام أوّل حكومة بعد رسول الله ﷺ وآخر حكومة في العهد الإسلامي استندت إلى إرادة الشعب ، لقد اجتمع المسلمون في المدينة وطلبوا عليّاً بمديّته للبيعة ، لكنه يقول : « أنا لكم وزير خير منّي لكم أمير »^(٢) ، إنّه انتخاب رغم أنّ عليّاً منصوب من الله تعالى ورسوله لكن الآلية التي اعتمدها هي الحريّة في البيعة ، وهو ما تُسمّيه اليوم بالانتخابات الشعبية .

٣- وعلى مستوى احترام إرادة الشعب كان الإمام عليّ عليه السلام يقول : « أقنع من

(١) الاحتجاج للطبرسي / الجزء الأوّل .

(٢) تاريخ الطبري ٣ : ٤٥٦ .

نفسى أن يقال : هذا أمير المؤمنين ، ولا أشاركهم في مكاره الدهر ، أو أكون لهم أسوة في جشوبة العيش ؟ ^(١) .

وكان يقول : « هيهات أن يغلبني هواي أو يجُرُّني جشعي إلى تحيّر الأطعمة ولعلّ في الحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع » ^(٢) .

الإمام علي عليه السلام كان يقول : « إنّ الله فرض على أئمة العدل أن يُقدِّروا أنفسهم بضعة الناس كيلا يتبع بالفقير فقره » ^(٣) ، ومن هو في موقع الحكومة يجب أن يعيش كما تعيش الطبقة الضعيفة في المجتمع ، وهنا كان الإمام علي عليه السلام يُمثّل صوت الإنسانية على مدى التاريخ ، حينما ينادي الحكّام بمتابعة هموم الطبقة الضعيفة وهموم الناس .

يقول عليه السلام : « إنّ سخط العامة يححف برضا الخاصة » ^(٤) ، ثم يقول : « وإنّ سخط الخاصة يُغتفر مع رضا العامة . . . ، وإنّما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء العامة من الأئمة ، فليكن صغوك لهم وميلك معهم » ^(٥) ، حيث نلاحظ هنا أنّ الإمام علياً عليه السلام يُولّي الشعب والطبقة العامة منه أهميّة خاصّة ويعتبرها هي الشرط الضروري في نجاح عمل الحكومة وأدائها .

الحديث عن حكومة الإمام علي عليه السلام الدينية المدنية حديث واسع ، هذه تجربة تجيب على شبهة التضادّ بين الدين والتمدّن ، وعلى التضادّ بين الحكومة الدينية والحكومة المدنية .

نماذج رائعة في حكومة الإمام عليه السلام :

لدينا حديث عن ولادة أمير المؤمنين عليه السلام في الثالث عشر من شهر رجب ، ونحن في جوار أمير المؤمنين عليه السلام ، ماذا عسانا أن نتحدّث عن هذا الجبل الشامخ والإنسان

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

(٢) مسند الإمام علي عليه السلام للسيد القبانجي ٩ : ٣٠ .

(٣) نهج البلاغة : ٧٠٠ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

العظيم الذي امتاز عن كل الخلائق بأنه وُلِدَ في الكعبة المشرفة ، ولا يُعرَف ذلك عن نبيٍّ ولا وصيٍّ أنه وُلِدَ في الكعبة المشرفة سوى إمامنا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام .

هذا الإنسان الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « يا عليّ ، أنا وأنت أبوا هذه الأمة »^(١) .

هذا الإنسان الذي استطاع أن يحكم حكماً دينياً ومدنياً وهو في عمق المعركة العسكرية ، وبنى الأسس لنظام حرٍّ ، دستوريٍّ ، ديني مدني كأروع ما يكون .

ها هو في الأمانة على بيت المال كما يُجسِّده موقفه مع أخيه عقيل بن أبي طالب عندما طلب حصّةً إضافيةً من بيت المال ، يقول الإمام عليّ عليه السلام : « . . . ظاناً أنني أبيعته ديني مفارقاً طريقتي ، فأحميت له حديدة أدنيتها منه ، فضجّ من ألمها ، وكاد أن يحترق من ميسمها ، فقلت : ثكلتك الثواكل يا عقيل ، أئنّ من حديدة أحماها إنسانها للعبة ، وتجُرّني إلى نارٍ سجّرها جبارها لغضبه ؟ »^(٢) ، وهذا النموذج لو يُكتب في أفق السماء لكان قليلاً .

ونموذج آخر في الحرّية السياسية حينما جاء طلحة والزبير يطلبان منه الإذن في العمرة ، وهما يريدان الغدرة كما عبّر عنه الإمام ، لكن لا قصاص قبل الجناية ، بل قال : اذهب ، وأدري بأنكما لا تريدان العمرة وإنما تريدان الغدرة^(٣) .

وهكذا على مستوى استقلالية القضاء حينما يقف عليّ عليه السلام وهو أصدق إنسان بعد رسول الله ﷺ ويده خزائن أموال المسلمين لكنّه يقف أمام القاضي مع ذلك اليهودي ، والتاريخ يكتب هذا الموقف لعليّ عليه السلام^(٤) .

(١) فرائد السمطين ١ : ٢٩٦ / الرقم ٢٣٤ .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٢١٦ .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج ١) .

(٤) صوت العدالة الإنسانية لجورج جرداق ، قال : (مثّل عليّ أمير المؤمنين وخليفة المسلمين مع اليهودي أمام قاضي المسلمين ، وقفا في ساحة القضاء أمام شريح رحمه الله رحمة واسعة الذي ضُربَ بعدله المثل ، ولمّا دخل عليّ مع اليهودي أمام شريح ، فنادى شريح على عليّ قائلاً : يا أبا الحسن ! فغضب عليّ ، فظنّ شريح سوءاً ، قال : ما الذي أغضبك ؟ فقال عليّ - الذي غضب للعدل والحقّ - قال : يا شريح ! أمّا وقد كنتي - أي : ناديت عليّ بكنتي وقلت : يا أبا الحسن - ، فلقد كان من واجبك أن تكني اليهودي هو الآخر ، أي : فإمّا أن ←

أهداف الإمام علي عليه السلام :

قبل عدة أعوام أدخلت الأمم المتحدة في منشوراتها قرارات الإمام علي في نهج البلاغة في حقوق الإنسان ، ونشرتها للدول العربية والإسلامية .
إن قرارات الإمام علي عليه السلام كما جاءت في عهده لمالك الأشر هي رمز لحقوق الإنسان .

فُجِعَ العالم الإنساني كله بشهادة هذا الإمام علي يد أشقى إنسان وأشقى مجموعة ، أشقى الأولين والآخرين . والمجموعة الشقية إلى يوم الدين مجموعة الخوارج والمنافقين .
ما هي أهداف الإمام علي عليه السلام ؟ وهذه الأهداف هي أهدافنا ، يقول :

« اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منّا منافسةً في سلطان ، ولا التماس شيء من فضول الحطام ، ولكن لنردّ المعالم من دينك ، ونظهر الإصلاح في بلادك ، فيأمن المظلومون من عبادك ، وتقام المعطلة من حدودك »^(١) .

→ تُكَنِّي أنا وخصمي أو تدع . ما هذا الخلق ! ؟ وما هذا الدين العظيم ! ؟ ومثل علي واليهودي أمام شريح ، فنظر شريح إلى علي وقال : يا علي ، ما قضيتك ؟ قال : الدرع درعي ولم أبع ولم أهب ، أي : لم أهب له هذا الدرع ولم أبعه ، فنظر شريح إلى اليهودي قال : ما تقول في كلام علي ! ؟ فقال اليهودي : الدرع درعي وليس أمير المؤمنين عندي بكاذب ! خبت ودهاء معهودان : الدرع درعي وليس أمير المؤمنين عندي بكاذب ، فنظر شريح إلى علي وقال : هل عندك من بيّنة ؟ يقول هذا ، لـ (علي) وهو أمير المؤمنين ، هل عندك من بيّنة ؟ فالبيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر ، قاعدة شرعية عظيمة أوّل من وضعها أستاذ البشرية ومعلّم الإنسانية محمد ﷺ . قال شريح لـ (علي) : هل عندك من بيّنة ؟ قال : لا ، وكان شريح رائعاً بقدر ما كان أمير المؤمنين عظيماً ، وقضى شريح بالدرع لليهودي . وأخذ اليهودي الدرع وخرج ، ومضى غير قليل ، ثم عاد مرة أخرى ليقف أمام علي وأمام القاضي وهو يقول : ما هذا ! أمير المؤمنين يقف معي خصماً أمام قاضي من قضاة المسلمين ، ويحكم القاضي بالدرع لي ! والله ليست هذه أخلاق بشر ، إنّها هي أخلاق أنبياء ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وقال اليهودي : يا أمير المؤمنين ! الدرع درعك ولقد سقطت منك فأخذتها ، فنظر إليه علي مبتسماً وقال : أما وقد شرح الله صدرك للإسلام فالدرع مني هدية لك ! هذا الأمن والأمان لمن ؟ لأبناء يهود ، تحت ظلال الإسلام الوارفة .

(١) نهج البلاغة ٢ : ١٣ ، عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشر .

هذه أربعة أهداف رسمها الإمام عليّ عليه السلام لحركته السياسية والجهادية والثقافية لمجمل حركته وحركة الصالحين من بعده ، اليوم يجب أن تكون أهدافنا .

الهدف الأول : « لنردّ المعالم من دينك » ، ما ضاع من دين الله يجب أن يُردّ .

الهدف الثاني : « ونُظهِر الإصلاح في بلادك » ، البلاد المدمّرة ، البلاد التي عانت من ظلم الظالمين عشرات السنين والدمار والويلات ، ونُظهِر الإصلاح في بلادك ، هذه هي أهدافنا .

الهدف الثالث : « فيأمن المظلومون من عبادك » ، هذا هدف من أهداف حركتنا ، وهو إعادة الأمن للعراق .

الهدف الرابع : « تقام المعطّلة من حدودك » ، حدود إله العالمين ، فيجب أن تكون هي القانون في المحاكم العراقية وحدود الله وحده ، والدستور العراقي يجب أن يُكتَب على هذا الأساس ، أساس الحدود الإلهية لا غير ، ولا يمكن لشعبنا أن يقبل أيّ ابتعاد عن الدساتير والقرارات الإسلامية ، « وتقام المعطّلة من حدودك » .

الإسلام هو هدفنا ، حدود الله هي هدفنا ، الإصلاح هو هدفنا ، أمن العباد هو هدفنا ، إظهار معالم الدين هو هدفنا . الدستور العراقي ، الوزراء ، الحكومة المستقبلية في العراق ، يجب أن تكون هذه أهدافها وشعاراتها ، ولا يمكن لشعبنا أن يقبل أيّ ابتعاد عن هذه الأهداف الإلهية الأربعة التي حدّدها أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان شهيد المبادئ الحقّة التي استشهد من أجلها .

لماذا قُتِلَ عليّ عليه السلام ؟

حركات النفاق في إطارها العامّ المتمثلة يومئذٍ بالناكثين والقاسطين والمارقين هي التي وقفت وراء الجريمة الكبرى بقتل أمير المؤمنين عليه السلام . إلى جانب ذلك كان العامل الثاني : هو تفرّق الأمة عن قائدها وإمامها .

ضعف الإرادة والوعي السياسي لدى الأمة هو الذي ساعد حركات النفاق على

قتل أمير المؤمنين عليه السلام ، فحينما رُفِعَت المصاحف خُدِعَ الناس ، وحينما دعاهم عليٌّ للحرب تردّدوا ، وكان أمير المؤمنين يشكو من ذلك ، بِمَ أدويكم ؟ كان يشكو من تفرُّق الأُمّة عنه ، نعم إنّه لا حكم إلّا الله ، لا تنخدعوا أيّها الناس ، لا بدّ للناس من أمير ، هذه هي الخدع السياسية ، كان يعاني ويعمل على أن يُعطي للناس وعياً سياسياً .

اليوم نحن نحتاج إلى وعي سياسي ، فإنّ أماننا ألوان من الخداع والمكر ، يجب أن نكون على وعي سياسي بما يحيط بنا ، وبالمكائد التي تُرسم لنا .

الأصبغ بن نباتة يقول : وقفت بباب الدار حين أمر الإمام الحسن عليه السلام الناس بالانصراف عن الدار ؛ لأنّ حال الإمام علي عليه السلام في يوم عشرين من شهر رمضان لا تساعد على استقبال الناس ، أمرهم بالانصراف رفقا بحال أمير المؤمنين عليه السلام .

يقول الأصبغ بن نباتة : أنا جلست خارج الدار ، لكن بقيت عند الباب جالسا ، فخرج الحسن بعد مدّة وقال : « ألم أمركم بالانصراف ؟ » .

قلت : سيّدي ، قدمائي لا تحملاني ، لا أستطيع الابتعاد عنكم ، أنا أسمع العويل والصراخ في داخل البيت ، وإمامي أمير المؤمنين في داخل البيت وأنا أبتعد ، لا والله يا سيّدي قدمائي لا تطاوعني إلّا أن أدخل على أمير المؤمنين .

رجع الإمام الحسن ، استأذن من أمير المؤمنين ، أذن له بالدخول ، فدخل الأصبغ بن نباتة .

يقول : رأيت الإمام وقد اصفرّ وجهه وهو معصّب بعصاة صفراء لا أدري أيّهما أشدّ صفرة وجه الإمام أم العصاة الصفراء ؟

يقول : بكيت حينما رأيت هذا المنظر .

قال لي : « ما هذا البكاء يا أصبغ ؟ والله إنّها الجنّة » .

قلت : سيّدي أدري أنّها الجنّة ، ولكن أبكي لفراقك يا أمير المؤمنين^(١) .

فراقك عزيز على شيعتك يا أمير المؤمنين .

السلام عليك يا أول مظلوم ، السلام عليك يا سيد المظلومين يا علي ، السلام عليك يا بطل الأبطال ، السلام عليك أيها الإمام البرّ التقى الزكيّ الرضيّ المرضي ، ورحمة الله وبركاته .

انتظار متبادل

هنا نتحدث عن شيئين :

الشيء الأول : ماذا ينتظر منا الإمام عليّ عليه السلام ؟

ففي كتابه المعروف يقول : « أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا ، يَتَقَدِّي بِهِ ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ . أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمَرِيهِ ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصِيهِ ، أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ »^(١) .

ثم قال : « لَأُرَوِّضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهْشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مَطْعُومًا ، وَتَقْنَعُ بِالْمَلْحِ مَادُومًا » ، وهذا هو ما ينتظره أمير المؤمنين من شيعته ، يقول : « ولكن أعينوني بورع واجتهاد ، وعفة وسداد » .

الشيء الثاني : ماذا ننتظر منه عليه السلام ؟

حوض الكوثر ، العبور على الصراط ، الحضور عند ساعة الموت ، وتفريج الهموم بشفاعته ، فقد جاء في الحديث الشريف : « لنا في ظهر الكوفة قبر ما جاءه مهموم إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ هَمَّهُ »^(٢) ، وأن يحضرنا ساعة الانتقال الأبدي إلى عالم الآخرة هذا السفر الذي لا رجعة فيه ، وهنا إمّا سعادة مطلقة وإمّا شقاء مطلق ، في تلك اللحظة نريد تأشيرة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

ففي قصّة الحارث الهمداني^(٣) لمّا جاءه متوكّئاً على عصاه فسأله الإمام عن حاله

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي .

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ٤٢ : ٢٢٤ .

(٣) الحارث بن عبد الله الهمداني المعروف بالحارث الأعور ، وهو من قبيلة همدان ، وهي من القبائل التي نزلت الكوفة ، وقادمة من اليمن . وعُرِفَتْ هذه القبيلة بالتشيع للإمام عليّ عليه السلام وأهل بيته الطيّبين الطاهرين . كان ←

فقال له : يا أمير المؤمنين ، نال مني الدهر ، وزادني همًّا اختلاف الناس ببابك .

فقال له : « فيما اختلافهم ؟ » .

قال : فيك وفي الذين سبقوك .

فقال له أمير المؤمنين : « يا حارث ، وإنك لتعرفني عند الصراط ، وعند الخوض ، وعند المقاسمة » .

قلت : سيدي ، وما المقاسمة ؟

قال عليه السلام : « النار أقف على بابها ، أقول : هذا عدوي فخذيه ، وهذا وليي فدعيه »^(١) .

هذا المعنى نظمه شاعر أهل البيت السيد الحميري^(٢) ، قائلاً :

قَوْلُ عَلِيٍّ لِحَارِثٍ عَجَبٌ	كَمْ تَمَّ أُعْجُوبَةٌ لَهُ حَمَلَا
يَا حَارِ هَمْدَانٍ مَنْ يَمُتْ يَرَنِي	مِنْ مُؤْمِنٍ أَوْ مُنَافِقٍ قُبَلَا
يَعْرِفُنِي طَرْفُهُ وَأَعْرِفُهُ	بِنَعْتِهِ وَأَسْمِهِ وَمَا عَمَلَا
وَأَنْتَ عِنْدَ الصِّرَاطِ تَعْرِفُنِي	فَلَا تَخَفْ عَثْرَةً وَلَا زَلَلَا
أَسْقِيكَ مِنْ بَارِدٍ عَلَى ظَمَاٍ	تَخَالُهُ فِي الْحَلَاوَةِ الْعَسَلَا
أَقُولُ لِلنَّارِ حِينَ تَوْقَفُ لِلْعَرْضِ	دَعِيهِ لَا تَقْتُلِي الرَّجُلَا
دَعِيهِ لَا تَقْرِيهِ إِنْ لَهُ	حَبَلًا بِحَبْلِ الْوَصِيِّ مُتَصِلَا ^(٣)

وهذا ما نرجوه منه عليه السلام ، ونرجو أن لا يخيب ظننا .

→ الحارث من خواص أمير المؤمنين عليه السلام ، ومن أوليائه ، ومحل عنايته واهتمامه عليه السلام . ومن كبار التابعين ، ومن أوعية العلم ، ومن أفقه علماء عصره . (المحقق) .

(١) أمالي الصدوق ٢ : ٢٣٨ .

(٢) السيد الحميري ، هو إسماعيل بن محمد بن يزيد ، سيد الشعراء ، وصاحب الكلمة النافذة ، جليل القدر ، عظيم المنزلة ، يُنسب إلى حمير إحدى قبائل اليمن المعروفة . والسيد نسبة لغوية لا أسرية ، حيث لم يكن فاطمياً ولا علوياً . كان رحمه الله تعالى من شعراء أهل البيت عليه السلام المجاهرين بولائهم ، والمصرحين بتشييعهم رغم ما كان يحيط بهم من ظروف معاكسة . وُلِدَ بعمان سنة (١٠٥) هجرية ، ونشأ في البصرة وتوفي في أيام هارون العباسي ، وفي حدود عام (١٧٨) هجرية . (المحقق) .

(٣) بحار الأنوار ٦ : ١٧٨ / باب ٧ / ح ٧ .

وقفة عند شهادة الإمام عليّ عليه السلام

لماذا استششهد الإمام عليّ عليه السلام ؟

كان ممكناً أن لا يستشهد ، وكان ممكناً أن يبقى حاكماً سنوات أخرى ، فلماذا أثر أن يكون شهيداً وهو يدري أن هذا الطريق يؤدي إلى الشهادة ؟

لم يكن غافلاً ، بل كان ينتظر ذلك يوماً بعد يوم ، ينظر إلى النجوم ويقول : « ما يحبس أشقاها ؟ فوالذي نفسي بيده لتخضبنَّ هذه من هذه » ، ووضع يده على لحيته ورأسه^(١) .

فلماذا اختار الشهادة ؟

الجواب : أن كل المؤرخين والباحثين من أتباع الإمام عليّ عليه السلام ومن غير أتباعه ومن الشيعة والسنة وغير المسلمين كلهم يقولون : إن ما جعل الإمام عليّ عليه السلام يؤثر الشهادة هو الإصرار على المبادئ ، وكانت هذه خصوصية بارزة فيه ، والإصرار على المبادئ يعني أن لا يتنازل عن المبادئ لا مع صديق ولا مع ابن أو أخ أو قريب أو عدو ، هذا الذي نُسّميه (السياسة الحقّة) في مقابل ما يعترف به كل الباحثين والكتّاب المسلمين وغير المسلمين ، إن سياسة الطرف الآخر وهي سياسية معاوية كانت هي (السياسة الميكافيلية) ، أي السياسة النفعية .

اليوم حتّى الجماعة الذين يُحبّون معاوية ويقولون : سيّدنا معاوية يكتبون أن معاوية كان نفعياً ، أي هو مع المنفعة أينما وُجدت ، مع الإيمان أو مع الكفر ، أو مع الصلاة ، أو بدون صلاة .

الإمام عليّ عليه السلام أراد أن يرسم لنا السياسة الحقّة مقابل السياسة النفعية الميكافيلية ، ويقول : أنتم يا أبناء الإسلام يجب أن تنهجوا السياسة الحقّة ، وهذا الأمر يجعل العاقبة خيراً . إن علينا أن نؤدّي تكاليفنا ، وكما قال تعالى : ﴿ وَمَا لَنُصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ

الحكيم ﴿ (آل عمران : ١٢٦) ، ولذا قال الإمام علي عليه السلام : « فزت وربّ الكعبة » ^(١) .
 وحين سأل الإمام علي عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله حينما أخبره بمقتله : « أفي سلامة من ديني ؟ » ^(٢) ، نعرف أنّ هذا سؤال مهمّ يجب أن يكون قدوة لنا في حياتنا .
 وهكذا حين بشره رسول الله صلى الله عليه وآله بالشهادة وقال له : « كيف صبرك يا عليّ إذا خُصِبَت هذه من هذه ؟ » ، قال : « يا رسول ، ليس هذا من مواطن الصبر ، ولكن من مواطن البشري والكرامة » ^(٣) .
 هذه هي قراءة الإمام علي عليه السلام للشهادة .

في زمن الإمام علي عليه السلام برزت (الحركة التكفيرية) و (تحريف مفهوم الجهاد) ،
 واليوم نشهد بالعيان ماذا تصنع الحركة التكفيرية ، تقتل النساء والشباب والبقالين
 والمعلمين والأطباء ، هذه حركة تكفيرية على الأرض نراها ، تلبس أحياناً ثوب الجهاد
 بعنوان جيش رسول الله ، أو فيلق عمر ، أو أنصار السنة وما شاكل ، كلّها أسماء إسلامية .
 هذا الواقع بدأ بشكل بارز على عهد الإمام علي عليه السلام ، أي إنّ التكفيريين يومئذٍ برزوا
 بشكل واسع ، كان أدعياء الإسلام يقولون : (لا حكم إلّا الله) ، هؤلاء التكفيريون
 الذين كفّروا الإمام علياً عليه السلام ، وقالوا : إنّ عليّاً قد أشرك ، قتلوه ولم يقتلوا معاوية ولا
 عمرو بن العاص .

وتطوّرت الحالة إلى أن تحوّلوا إلى قطاعي طرق يقفون على الحدود مع الشام
 والحجاز ، ويسألون كلّ عابر يأتي إلى الكوفة : ما رأيك في عليّ بن أبي طالب ؟ فإذا
 قال : هو أمير صالح ، حكموا بكفره وقتلوه ، وحتىّ بقروا بطون النساء الحبالى .

ومن طريف أخبارهم أنّهم أصابوا في طريقهم مسلماً ونصرانياً ، فقتلوا المسلم

(١) ابن الأثير الجزري في أسد الغابة ٤ : ٣٨ / ط مصر سنة ١٢٨٥ هـ .

(٢) شرح نهج البلاغة ٤ : ١٠٧ .

(٣) بحار الانوار للعلامة المجلسي / الجزء ٢٨ .

لحبه عليّ عليه السلام لأنه عندهم كافر ، واستوصوا بالنصراني وقالوا : احفظوا ذمة نبيكم^(١) ! تحوّلت هذه الحركة التكفيرية التي تحمل اسم الجهاد إلى لصوصية وقطع طرق ، تلك هي بدايات الحركة التكفيرية .

وهناك مقولة للإمام عليّ عليه السلام يقول فيها : « ولقد بلغني أنّ العصابة من أهل الشام كانوا يدخلون على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة ، فيهتكون سترها ، يأخذون القناع من رأسها ، فما تمتنع إلا بالاسترجاع والنداء : يا للمسلمين ، فلا يغيثها مغيث ، ولا ينصرها ناصر . فلوا أنّ مؤمنًا مات بعد هذا أسفًا ما كان عندي ملومًا ، بل كان عندي بارًا محسنًا »^(٢) .

العراق لماذا ؟

نشهد اليوم عودة التاريخ ، بهذه البراقع والأقنعة وباسم الإسلام تحوّلوا إلى تكفيريين وتحوّلوا إلى لصوص ، فما أشبه الليلة بالبارحة مع فاصل ألف وأربعمائة عاماً ، الشيء الذي حضرني اليوم هو أنّ العجيب والعجب العجيب أن يكون العراق محور هذه المعارك ، فلماذا لا تكون هذه المعارك في غير العراق ؟ فهؤلاء التكفيريون منذ زمن الإمام عليّ عليه السلام وإلى الآن موجودون في العراق ، فلماذا لا يذهبون إلى بلد آخر ؟

هذا في الحقيقة له دلالة إيجابية وليس سلبية ، وهي أنّ هذه الجماعات لا يخافون من الآخرين ، وإنّما هم خائفون من العراق والشعب العراقي ، ومن التحوّل الحقيقي هنا ، فعليّ عليه السلام ومبادئه موجودة في العراق ، وإلاّ فإنّا نتساءل : لماذا يأتي المغربي والتونسي والسوداني ليقاتل في العراق ؟

كذلك عبد الرحمن بن ملجم فإنّه قد أتى من اليمن ، اليوم هذا التعاون العربي ضدّ العراق الجديد موجود أيضاً ، فعبد الرحمن بن ملجم يُمثّل عصابات جاءت من بلاد أخرى وتحوّلوا إلى لصوص بعدئذٍ وعلاقات غرام ، فما أشبه الليلة بالبارحة .

(١) تاريخ الطبري ٥ : ١١٧ .

(٢) شرح نهج البلاغة للحائري / الجزء ٢ .

مقتل الإمام علي عليه السلام

اليوم الإمام علي عليه السلام جريح في منزله ، فليلة أمس كانت ضربة الإمام وأتوا به إلى المنزل ، واليوم الإمام مسجى ، إنه من يوم غدٍ تُفتح الباب للملأ العام لتوديع الإمام علي ، أما اليوم فإن الزيارة مسموحة للخواص من أصحاب الإمام علي عليه السلام .

الحارث الهمداني يقول : أتيت أمير المؤمنين نصف النهار .

قال : « ما جاء بك يا حارث ؟ » .

قلت : حبك يا أمير المؤمنين .

قال : « الله ؟ » .

قلت : الله ، فناشدني ثلاثاً .

ثم قال : « أما إنه ليس عبد من عباد الله ممن امتحن الله قلبه للإيمان إلا وهو يجد مودتنا على قلبه فهو يُحبنا ، وليس عبد من عباد الله ممن سخط الله عليه إلا وهو يجد بغضنا على قلبه فهو يبغضنا ، فأصبح محبنا ينتظر الرحمة ، وكأن أبواب الرحمة قد فتحت له ، وأصبح مبغضنا على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ، فهنيئاً لأهل الرحمة رحمتهم ، وتعساً لأهل النار مشواهم »^(١) .

وفي رواية أخرى أنه قال للحارث : « إن كنت صادقاً لتراني في ثلاثة مواطن : حين تبلغ نفسك هذه - وأشار إلى حنجرته - ، وعند الصراط ، وعند الحوض »^(٢) .

وهذه الرواية تؤكد مرة أخرى أم سلمة الزوجة الصالحة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا علي ، إن محبيك يفرحون في ثلاث مواطن : عند خروج أنفسهم من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة وأنت هناك تشهدهم ، وعند المساءلة في القبر وأنت هناك تُلقنهم ، وعند العرض على الله وأنت هناك تعرفهم »^(٣) .

(١) بحار الأنوار ٦ : ١٩١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المناقب لابن شهر آشوب ٤ : ٢٩٢ .

والحارث الهمداني الذي يروي هذه الرواية في رواية أخرى يقول : دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام ، فسألني عن حالي : « كيف أصبحت يا أخاهمدان ؟ » ، فقلت : سيدي نال مني الدهر ، وزادني أواراً اختلاف القوم ببابك ، قال عليه السلام : « وفيهم اختلافهم ؟ » . قلت : فيك وفي الذين سبقوك .

فقال : « يا حارث ، الطبقة الوسطى لا إفراط ولا تفريط ، واعلم يا أخاهمدان أنك تراني عند الحوض ، وعند الصراط ، وعند المقاتلة » . قلت : سيدي وما المقاتلة ؟

قال : « النار أقف على بابها أقول : هذا عدوي فخذيه ، وهذا وليي فدعيه »^(١) . وهذا المعنى أيّدته روايات أهل السنة والجماعة الثابتة في أن علياً قسيم الجنة والنار ، ولمن يريد الاستزادة مراجعة كتاب فضائل خمسة من الصحاح الستة ، حيث ستجدون هذا الحديث في المصادر المعتبرة لدى أهل السنة : « عليّ قسيم الجنة والنار » . ونحن في مثل هذه الليلة نقف عند حادثة جرح الإمام علي عليه السلام على يد أشقى الأمة .

ويقول الأصبغ بن نباتة^(٢) ، وقد دخل مع الحارث ، وهو أيضاً من الشيعة المخلصين للإمام علي عليه السلام : غدوت إلى دار الإمام علي ، وكانت الباب مغلقة ، جلسنا أنا والحارث الهمداني عند الباب .

سمعنا البكاء عند الباب ، ثم خرج الحسن عليه السلام وأمر الناس بالانصراف ، فانصرف الناس إلّا أنا لم أنصرف ، بعد دقائق اشتدّ البكاء في داخل البيت ، مرّة أخرى فتحت الباب وخرج الحسن عليه السلام وقال : « ألم آمركم بالانصراف ؟ » .

(١) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة لمحمد باقر المحمودي (ج ٢) .

(٢) أعيان الشيعة ٣ : ٤٦٤ ، وردت ترجمته : الأصبغ بن نباتة هو ابن الحارث التميمي الحنظلي المجاشعي ، وكان من خواص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، وخُصّ أصحابه ، شهد معه صفين ، وكان على شرطة الخميس ، كان شاعراً مفوهاً ، وفارساً شجاعاً ، وناسكاً عابداً . ضعّفه البعض من كتّاب العامة لا لدم يتعلّق به ، أو ريب يتوجّس منه ، أو تهمة تُلصّق به ، بل لتشيعه وموالاته الكبيرة لعلي عليه السلام .

قلت : سيدي إن نفسي لا تطاوعني وقدماي لا تحملاني ، رجع الحسن ، ويبدو أنه أخذ إجازة من الإمام وأذن لي بالدخول ، ودخلت وإذا الإمام علي عليه السلام مسجى على فراشه معصوب الرأس بعصابة صفراء ، أنا لا أدري أيهما أشد صفرة وجه الإمام علي أم العصابة الصفراء ؟ يبدو أن نزيف الدم أخذ من الإمام علي مأخذاً كبيراً .

اليوم إمامكم مسجى ووجهه أصفر من شدة نزف الدم .

يقول الأصبغ : بكيت .

قال لي : « لا تبكي يا أصبغ ، إنما والله الجنة » .

قلت : إني أعلم أنك تصير إلى الجنة ، وإنما أبكي لفقداني إياك يا أمير المؤمنين ^(١) .

علي عليه السلام في الدنيا والآخرة

ستحدث عن علي في الدنيا ، وعلي في الآخرة .

علي عليه السلام في الدنيا :

علي عليه السلام في الدنيا لديه مجموعة صفات :

الصفة الأولى : أنه الوصي ، « من كنت مولاه فهذا علي مولاه » ^(٢) ، و « أنت أخي ووصي ووزير وخليفتي من بعدي » ^(٣) .

الصفة الثانية : علي هو باب علم النبي ، « أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد المدينة فليأتمها من بابها » ^(٤) .

الصفة الثالثة : « علي مع الحق ، والحق مع علي » ^(٥) .

(١) بحار الأنوار ٦ : ١٩١ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي : ١٦٩ / القاهرة ١٩٦٤ م .

(٣) الحسكاني في شواهد التنزيل : ١ - ٢٠ .

(٤) ينابيع المودة للقندوزي ١ : ٩٥ ، ١٣٧ ، ٢٠٥ .

(٥) صحيح الترمذي ٥ : ٥٩٢ / ح ٣٧١٤ .

الصفة الرابعة : « حُبُّ عليٍّ إيمان ، وبغضه نفاق »^(١) .

الصفة الخامسة : « يا عليُّ ، أنا وأنت أبوا هذه الأمة »^(٢) .

عليٌّ ﷺ في الآخرة :

أما عليٌّ ﷺ في الآخرة فهذه الكرامات التي كانت لعلِّي في الدنيا إنما هي صورة مصغرة لعلِّي في الآخرة ، لأنَّ الآخرة هي المحتوى الحقيقي للدنيا ، الدنيا هي الظاهر والآخرة هي الباطن ، كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴾ (الروم : ٧) .

وفي الآخرة الإمام عليٌّ ﷺ لديه خمس مواقع أيضاً :

الموقع الأول : هو أوَّل من تنشقُّ عنه الأرض ، هو ورسول الله ﷺ ، وذلك يعني أنَّ بداية مسيرة العودة إلى الله تعالى يقودها رسول الله ﷺ وعليٌّ ﷺ ، فرسول الله ﷺ هو الذي يقود البشرية إلى ذلك المشهد الهائل ، والهائل جداً والمخيف والضحيم والمربع ، وأوَّل من ينفض التراب عن رأسه هو رسول الله ﷺ وأخوه أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ .

الموقع الثاني : وفي المحشر يوم القيامة الذي يحمل لواء الحمد هو عليٌّ ﷺ ، وقد جاء في الروايات أنَّ رسول الله ﷺ هو أوَّل من يدخل الجنة ، ولكن جاء في رواية أخرى أنَّ علياً ﷺ هو أوَّل من يدخل الجنة ، قالوا : يا رسول الله ، أنت تارة تقول : أنا أوَّل من يدخل الجنة ، وتارة تقول : عليٌّ أوَّل من يدخل الجنة ، فكيف ذلك ؟

فقال : صحيح أنا أوَّل من يدخل الجنة ، ولكن حامل اللواء هو الذي يتقدَّم ، فعليٌّ أمامي يفتح لي الطريق ، لأنَّ علياً حامل اللواء يوم القيامة كما كان حامل اللواء في الدنيا . حامل لواء الإيمان في الدنيا عليٌّ ، وحامل لواء رسول الله والإيمان في الآخرة أيضاً . وكما أوَّل من أسلم عليٌّ هنا في الدنيا ، يعني أوَّل من فتح باب الالتحاق بركب رسول الله ،

(١) محبُّ الدين الطبري في ذخائر العقبي : ٩١ .

(٢) ينابيع المودة لذوي القربى ٤ : ٣٦٩ - ٣٧١ / الباب ٤١ / الرقم ٣ و ٤٠ .

وأيضاً أوّل من يفتح الباب وتنشق عنه الأرض لمسيرة العبور إلى الآخرة أيضاً هو عليّ، وهذه في الدنيا علامة لتلك العلامة في الآخرة^(١).

الموقع الثالث: العبور على الصراط، فالناس يعبرون على الصراط، فمنهم من يقع، ومنهم من يمشي على الصراط كسرعة الفرس، ومنهم من يمشي حبواً، ومنهم من يمشي كلمح البصر، وهؤلاء هم المؤمنون.

وهنا رواية يرويها أبو بكر، فقد رأى عليّاً عليه السلام وتبسّم.

فقال له عليّ عليه السلام: لماذا تبسّمت؟

فقال: تذكّرت الحديث عن الرسول ﷺ الذي يقول فيه: لا يجوز أحد على الصراط إلّا بجواز من عليّ بن أبي طالب عليه السلام^(٢).

الموقع الرابع: هو الساقى على الحوض يوم القيامة.

هناك حوض - والمسلمون كلّهم يعترفون بهذه الحقيقة - لا نهاية له، هذا الحوض يرتوي منه المؤمنون ويُزاد عنه غير المؤمنون، فمن صاحب هذا الحوض؟

يقول رسول الله ﷺ الذي ﴿وَمَا يَطِّقُ عَنِ الْمَوْتِ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٣ و ٤): «يا عليّ، أنت على الحوض تسقي أصحابك وشيعتك، وغيرهم يُطردون من

(١) علل الشرائع للصدوق: ٦٨ و ٦٩، جاء فيه: الحسين بن عليّ الصوفي، عن عبد الله بن جعفر الحضرمي، عن محمد بن عبد الله القرشي، عن عليّ بن أحمد التميمي، عن محمد بن مروان، عن عبد الله بن يحيى، عن محمد بن الحسن بن عليّ بن الحسين، عن أبيه، عن جدّه، عن الحسين بن عليّ، عن أبيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: «قال لي رسول الله ﷺ: أوّل من يدخل الجنة، فقلت: يا رسول الله، أدخلها قبلك؟ قال: نعم، لأنّك صاحب لوائي في الآخرة كما أنّك صاحب لوائي في الدنيا، وحامل اللواء هو المتقدّم، ثمّ قال ﷺ: يا عليّ، كأتى بك وقد دخلت الجنة وبيدك لوائي وهو لواء الحمد وتحت آدم ومن دونه».

(٢) عيون الأخبار: ١٦٨ و ١٦٩، جاء فيه: «أنت أوّل من يجوز الصراط معي، وإنّ ربّي ﷻ أقسم بعزّته أنّه لا يجوز عبقة الصراط إلّا من معه براءة بولايتك وولاية الأئمّة من ولدك، وأنت أوّل من يرد حوضي تسقي منه أوليائك وتزود عنه أعداءك، وأنت صاحبي إذا قمت المقام المحمود، ونشفح لمحبيّنا فنُشفّع فيهم، وأنت أوّل من يدخل الجنة وبيدك لوائي».

الحوض»^(١) .

الموقع الخامس : حبُّ عليٍّ في الدنيا إيمان وبغضه كفر ونفاق ، ويوم القيامة عليٌّ هو قسيم الجنة والنار .

يقول الإمام عليٌّ عليه السلام للحارث الهمداني :

يا حار همدان من يمت يرني	من مؤمن أو منافق قبلا
أقول للنار حين تُعرض للحشر	دعيه لا تأخذي الرجلا
دعيه لا تحرقه إنَّ له	جلاً بحبل الوصيِّ متصلاً

عليٌّ هو قسيم الجنة والنار

الرواية في صحاح أهل السنة وكتاب كنز العمال من معتبرات كتبهم .
يقول رسول الله ﷺ : « يا عليُّ ، إنِّي سألت الله فيك خمس خصال ، فأعطني تلك الخصال » :
الأولى : « سألت ربِّي أن تنشقَّ عني الأرض وأنفض التراب عن رأسي وأنت معي ، فأعطني » .

الثانية : « سألت الله أن يوقفني عند كفة الميزان وأنت معي ، فأعطني » .
والثالثة : « سألت الله أن يجعلك حامل لوائي وهو لواء الله أكبر عليه المفلحون والفائزون بالجنة ، فأعطني » .

والرابعة : « سألت الله أن تسقي أُمّتي من حوضي ، فأعطني » .
والخامسة : « سألت الله أن يجعلك قائد أُمّتي إلى الجنة ، فأعطني » .

صور من وحي الشهادة

ونحن نعيش ذكرى شهادة إمام المتقين ، وأمير المؤمنين ، وسيد الخلق بعد رسول الله ﷺ ، علي بن أبي طالب عليه السلام ، لنقف عند صور من وحي الشهادة :

الصورة الأولى : سلامة الدين :

حين قال له رسول الله ﷺ وأخبره بأنه يُقتل في هذا الشهر بعد أن سأل الإمام علي عليه السلام رسول الله ﷺ : « أي الأعمال أفضل في هذا الشهر ؟ » .

فقال عليه السلام : « الورع عن محارم الله » ، ثم بكى .

فقال عليه السلام : « ما يبكيك يا رسول الله ؟ » .

فقال عليه السلام : « أبكي لما يجري عليك في هذا الشهر ، كأني بأشقاها قد ضربك علي قرنك

فخضب هذه من هذه » .

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : « يا رسول الله ، أفي سلامة من ديني ؟ » .

قال : « نعم »^(١) .

فالدين هو المهم ، وهو الذي نفذ به علي الله تبارك وتعالى ، والذي نسأل عنه يوم القيامة : ﴿ وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ (الصافات : ٢٤) ، ولهذا كانت القضية الكبرى عند إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في بداية حياته وفي خاتمة حياته هي سلامة الدين ، « أفي سلامة من الدين ؟ » .

الصورة الثانية : علي عليه السلام هو امتداد لرسول الله ﷺ :

فقد قال له رسول الله ﷺ بعد أن أخبره بمقتله : « يا علي ، من قتلك فقد قتلني ، ومن أغضبك فقد أغضبني ، ومن سبك فقد سبني ، لأنك مني كنفس ، روحك من روحي ، وطبتك من طبتي ، إن الله خلقني وإياك ، واصطفاني وإياك ، واختارني للنبوّة ، واختارك للإمامة »^(٢) .

(١) بحار الأنوار ٤٢ : ١٩٠ .

(٢) بحار الأنوار ٤٢ : ١٩٠ .

وهذا هو الموقع والشرف العظيم الذي ناله أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو ليس مجرد شرف شخصي وكلام لترطيب خاطر صديق وأخ عزيز وإنسان صالح ، إنما رسول الله ﷺ في هذه الصورة يرسم لنا معالم الطريق الصحيح ، وما هو الإسلام الصحيح ، وما هي العروة الوثقى التي نلتزم بها . « من سبك فقد سبني » ، هذا هو التوحد الذي بين رسول الله ﷺ وبين علي عليه السلام ، وهو الطريق الذي يجب أن نختاره بعد رسول الله ﷺ ، ومن ابتعد عن علي عليه السلام فقد ابتعد عن رسول الله ﷺ . « اختارني للنبوّة ، واختارك للإمامة » ، وهذا منهج يُعطيه رسول الله ﷺ أبد الدهر ، وليست قضية شخصية أن علياً عليه السلام كان إنساناً صالحاً متّقياً زاهداً ، بل هذا هو الربط بين النبوّة والإمامة ، وهذا لم يقله رسول الله ﷺ لأحد من البشر إلا لعلي عليه السلام ، وهذا له مدلول ديني ومدلول سياسي على مدى التاريخ .

الصورة الثالثة : الزهد :

كان عليه السلام في ليالي شهر رمضان يفطر ليلة عند الحسن عليه السلام وليلة عند الحسين عليه السلام وليلة عند عبد الله بن جعفر زوج العقيلة زينب عليها السلام ، تقول الرواية : « وكان لا يزيد على ثلاث لقم ، فقل له في ذلك ، فقال : حتّى يأتيني أمر الله وأنا خميص »^(١) .

وهذا نموذج في السلوك الشخصي ، وانظروا إلى الملوك ماذا يعملون ، والسلاطين الذين تأمروا بإمرة المؤمنين بعد علي عليه السلام أي نموذج قدّموا للعالم . ثم قال عليه السلام : « ما من أحد طاب مطعمه ومشربه وملبسه إلا طال وقوفه بين يدي الله يوم القيامة » ، فنحن نسأل عن كلّ صغيرة وكبيرة في حياتنا الدنيا ، وعن كلّ حرف يصدر من ألسنتنا ، وعن كلّ لقمة وملبس .

يقول : « هي الليلة التي وُعِدْتُ بها ، ما كَذَبْتُ ولا كُذِّبْتُ » ، وهكذا نرى أن الإمام يتعامل مع مسار واضح لديه ، ومع وعود مسبقة بينه وبين الله تعالى وبين

رسوله ﷺ ، فالدنيا مرئية عندهم ، لا يعملون على أساس ظنون واحتمالات ، بل الحقيقة مكشوفة لهم .

الصورة الرابعة : مسارات واضحة :

في مثل ليلة أمس تقول أم كلثوم : كان يتطلع إلى النجوم ، وكان عليه السلام لا يرقد في منامه ، يخرج بين لحظة وأخرى إلى ساحة الدار وينظر في النجوم ، وهو في مثل ليلة أمس التفت إلى إمامنا للحسين عليه السلام وقال : « يا أبا عبد الله ، أنت شهيد هذه الأمة »^(١) .

ويتحدث مع من حوله ويقول : « كأي بكم وقد أقبلت عليكم الفتن من هاهنا وهاهنا »^(٢) .

الصورة الخامسة : استحباب الأذان :

يوم خرج عليه السلام في ليلة التاسع عشر من شهر رمضان كان يؤذن في مسجد الكوفة بذلك الصوت الجميل الرخيم ، وكان إذا أذن لا يبقى بيت من بيوت الكوفة إلا وقد دخله صوت علي عليه السلام .

الصورة السادسة : الارتباط المطلق بالله تعالى :

حين اشتغل عليه السلام بصلاته ، وكان ابن ملجم قد أعد له سيفاً مسموماً لضربه ، وكان إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام قد وصل إلى السجدة الثانية ، فنهض إليه ابن ملجم وضربه على رأسه في محراب الصلاة . وهذه ظاهرة نريد أن نُسجلها ، ولا نريد أن نتناول جانب المصيبة منها ، فذاك له موقع آخر . ظاهرة أن هذا الإنسان الصالح يقتل في محراب الشهادة وفي محراب الصلاة ، وكان قد وُلِدَ في بيت الله ، هذا هو الارتباط بالله تعالى ، ذلك هو عصارة حياة الإمام عليه السلام .

(١) بحار الأنوار ٤٢ : ٢٠٤ .

(٢) الأنوار العلوية للشيخ جعفر النقدي .

الصورة السابعة : الفوز حليف المؤمن :

حين ضربه ابن ملجم وكأته كان بانتظار ذلك الموعد واستعدّ لهذه الساعة ، قال على الفور : « فزت وربّ الكعبة » . لاحظوا هذا الإنسان وهو في خضمّ العمل السياسي والمعترك الصعب جداً ، حيث تقسّم الأمة وتوزّع الأهواء ، لكنّه يقول : « فزت وربّ الكعبة » ، فلا توجد خسارة للمؤمن ولا تراجع .

فوزاً شخصياً ، وفوزاً للمبادئ ، وفوزاً للتجربة .

الفوز الشخصي أنّه ارتحل ﷺ إلى الله تعالى وهو شهيد .

وفوز القيم والمبادئ أنّ عليّاً ﷺ لم يخطو خطوة إلّا على أساس مبادئ وخُلق وإنسانية ليس فيها ذرّة من الأنانية أو المصالح الشخصية ، وإلى اليوم أبقاها عليّ ﷺ بسلوكه وممارسته وقدوته ، ولم يستطع أحد أن يُمثّلها بحرفيتها كما فعل ذلك عليّ ﷺ بعد رسول الله ﷺ .

وفوز التجربة الإسلامية ، فقد خُلد الإسلام بشهادة عليّ ﷺ التي سلبت الشرعية من كلّ الانحرافات والنماذج المنحرفة إلى أبد الدهر ، ولولا عليّ ﷺ وشهادته لكان العالم الإسلامي انتهى منذ ذلك اليوم ، منذ قال قائلهم : (ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ، وإنّا قاتلتكم لتأمّر عليكم)^(١) ، لكن عليّاً ﷺ ودمه كان يطارد ويلاحق هؤلاء الذين تربّعوا على عرش الخلافة والإمرة ، وهذا هو الإسلام ، وهذه هي القيم ، وهذه هي الأمة التي يجب أن تبقى حيّة ، وبقيت حيّة بدم عليّ ﷺ .

الصورة الثامنة : العلاقة مع جبرئيل :

يوم ضربه ابن ملجم سمع المسلمون هاتفاً يهتف في السماء - وهو جبرئيل - يقول :

وانفصمت العروة الوثقى

تهدّمت والله أركان الهدى

قتله أشقى الأَشْقيا

قُتل عليّ المرتضى

(١) كتاب الأمراء (ج ٧) ، ورد عن معاوية بن أبي سفيان .

هذا هو جبرئيل يُعطي التعبير الحقيقي عن شهادة علي عليه السلام ، فتعجب المسلمون ، وعرفوا أنَّ هناك خبراً قد حدث . فهنئاً لك يا علي ، إنَّ السماء تنعاك ، ومن مثلك نعته السماء وبكته السماء ؟

وهذه هي علاقة علي عليه السلام وجبرئيل التي سوف تتكرَّر مرَّةً أُخرى عند دفنه عليه السلام ، وسبق أن تكرَّرت علاقة السماء وجبرئيل بعلي عليه السلام في معركة بدر .

يقول المؤرِّخون : في معركة بدر سمع المسلمون هاتفاً يهتف من السماء :

لا سيف إلا ذو الفقار لا فتى إلا علي^(١)

وهذه هي البطولة والرجولة والجهاد ، وليست بطولة عضلية ، ولا بطولة سلاح . علي عليه السلام الذي احتضن السماء واحتضنته السماء .

ومرَّةً أُخرى مشاهد تتكرَّر في العلاقة بين السماء وبين علي عليه السلام وبين جبرائيل وعلي عليه السلام يوم أنزل إلى قبره قبل الفجر أيضاً سمعوا النداء من السماء ينادي : (أنزلوه إلى التربة ، فقد اشتاق الحبيب إلى حبيبه)^(٢) .

جبرئيل في معركة بدر قال لرسول الله صلى الله عليه وآله : « يا رسول الله ، هذه هي المواساة » ، حينما رأى علياً عليه السلام يمزق جموع الكافرين ، والرعب ينزل على صدورهم ، وعلي عليه السلام وحده في الميدان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنَّه منِّي وأنا منه » ، فقال جبرئيل : « وأنا منكما » ، جبرئيل يتودَّد ويتشرف بأن تكون له علاقة بعلي عليه السلام .

الصورة التاسعة : العلاقة مع الجنَّة :

« يا أصبغ ، إنَّها والله الجنَّة » ، هكذا قال علي عليه السلام يوم بكوا عنده في ليالي الوداع الأخيرة ، وبكت عنده أمُّ كلثوم .

فقال : « يا بنيَّة ، لو ترى ما أرى ما بكيت » .

فقال له الأصبغ : وما ترى يا علي ؟

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢ : ١٥٤ .

(٢) البحار ٤٢ : ٢٣٦ .

فقال : « هذا رسول الله ، وهذه وفود الأنبياء صفّاً ، وهم يقولون لي : عجل إلينا ، فنحن مشتاقون إليك » .

فبكى الأصمغ ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : « يا أصمغ ، إنّها والله الجنة » .
فقال : يا سيدي ، أنا والله أبكي على فراقك .

لاحظوا الهدف الأكبر هو أن نفوز بالحياة الأبدية ، ونحن يجب أن نفكر دائماً بالجنة ، وأن نكون من أهلها إن شاء الله تعالى .

الصورة العاشرة : الإحسان :

« أسقوا أسيركم ، وأطعموه ، وأحسنوا إسهاره » ، هكذا قال عليه السلام مع ابن ملجم ، فجاء بقعب من لبن ، فأبقى من اللبن فضلة ، وقال : « أسقوا أسيركم ! » ، الله أكبر يا عليّ في أيّ وضع وأنت والمجتمع حولك في أيّ وضع ؟ لكن الروح الإنسانية العظيمة الكبرى النقية الزكية لا تفارقك لحظة واحدة .

وعليّ على فراش الموت والناس حوله يبكون والقلوب تبكي حقداً على قاتل عليّ عليه السلام وهو يقول : « أسقوه ، وأطعموا أسيركم ، وأحسنوا إسهاره » .

هذه هي الإنسانية التي رسمها عليّ عليه السلام ، وهذا هو الإنسان في الإسلام ، وهذا نموذج الإمام الذي يفكر بأن القيم الإنسانية فوق الحسابات الشخصية ، أين العالم اليوم ليأتي ويتعلم من عليّ عليه السلام حقوق الإنسان وقيم الإنسانية ، والعالم في مثل هذه الظروف يبيح الإبادة الشاملة والدمار النووي ، هل هناك صورة في التاريخ مثل هذه الصورة أو تخطر على قلب بشر مثلها ! ؟

الصورة الحادي عشرة : العلم والثقافة :

وهو عليّ الفراه والجرح قد آله والسّم قد استشرى في بدنه والجو مكفهراً من حوله لكنّه يقول : « سلوني قبل أن تفقدوني »^(١) .

(١) مستدرك الحاكم / كتاب التفسير / تفسير سورة إبراهيم / رقم الحديث ٣٣٤٢ .

نحن أمة العلم والفقه والثقافة ، باب السؤال مفتوح وهو علي فراش الموت ! فأَيُّ صورة رائعة يرسمها علي عليه السلام ومن رسمها للبشرية غيره ؟ وبأَيِّ وضع هو ؟ وأَيُّ آلام ؟ وأجواء النحيب والبكاء من حوله ، ومع ذلك يقول : « سلوني قبل أن تفقدوني » ، التي يقول عنها المؤرّخون : إنَّها لم تُعرَف إلَّا عن علي عليه السلام .

الصورة الثاني عشر : الإرهاب قادم :

يلتفت إلى حجر بن عدي - وهو من خيار أصحاب الإمام علي عليه السلام - ، يقول له : « كيف بك يا حجر إذا دُعيت إلى البراءة مني ؟ »^(١) ، أي إنَّ الجوّ بعد علي عليه السلام سيكون جوّ العدوان والملاحقة للمؤمنين وطلب البراءة من علي عليه السلام ، وإلَّا فالسيف والقتل .

وهذا حجر بن عدي قتله جلاوزة معاوية بن أبي سفيان هو وابنه في طريق الشام ، وهو من خيار صحابة رسول الله ﷺ ، ولذا يقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة وهو يذكر هذه القضية : (إنَّ معاوية وهو علي فراش الموت كان يقول : ويلي من حجر - ثلاثاً -)^(٢) . وهذا الإنسان الصالح قتله سيف الجبابرة والدكتاتورية بعد علي عليه السلام .

« كيف بك يا حجر إذا دُعيت إلى البراءة مني ؟ » ، هنا علي عليه السلام يقرأ المستقبل ، وكانت تلك بدايات الإرهاب الذي نعاني منه اليوم ، فمن الذي أسَّس بنيانه وشيّد دعائمه غير أولئك الذين قتلوا علياً عليه السلام وأصحاب علي عليه السلام ؟ أين العالم والمسلمون ليدرسوا التاريخ ويعرفوا أنَّ الذي أسَّس الإرهاب هم آل أمية وبنو العباس ، وهذه حقائق أيها الباحثون .

الصورة الثالث عشر : الملائكة تحمل النعش :

قال علي عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام وهو يوصيه : « إذا أنا متُ فغسلني وحطّني بباقي حنوط جدّك رسول الله ﷺ ، فإنَّها من كافور الجنة ، وضعني في سريري ، ولا يتقدّم أحد منكم

(١) البحار ٤٢ : ٢٩٠ .

(٢) تاريخ الطبري / ج ٥ .

السريـر ، فإنكم تكفونه » .

مرّة أخرى نجد نزول الملائكة ، وهذا مشهد ما مثله في السماء ولا في الأرض ، جنازة تُحمَل من خلفها أمّا المقدّم فالملائكة تحمله ، فلمّا ارتفع المقدّم رفع الحسن والحسين ﷺ المؤخّر ، ولمّا وُضِعَ المقدّم في الأرض الطاهرة في النجف الأشرف ، وضع الحسن والحسين ﷺ المؤخّر .

الصورة الرابع عشر : نوحٌ وعليّ :

حينما حفرا ﷺ موضع دفن الإمام عليّ ﷺ وإذا بقبر محفور ، ولحد مشقوق ، وساجة مكتوب عليها : (هذا ما ادّخره نوح نبيّ الله للعبد الصالح عليّ بن أبي طالب) . وهذه صورة عظيمة ، ليأت التاريخ فبأيّ قلم سيكتب التاريخ هذه الحقائق ؟ وأيّ شرف عظيم هذا ؟ وحقيقة عليّ ﷺ شمس ناصعة لا يمكن أن تختفي مهما حاول أعداء عليّ ﷺ إخفاءها ، الشرف لك يا عليّ ولنا إذ كنّا من أتباعك .

الصورة الخامس عشر : لم يسبقه الأوّلون :

بعد اكتمال دفن الإمام عليّ ﷺ قال الإمام الحسن ﷺ : « لقد قبُضَ في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأوّلون بعمل ، ولا يُذكره الآخرون بعمل ، لقد كان يجاهد مع رسول الله ﷺ فيقيه بنفسه ، ويؤجّه رسول الله ﷺ برايته فيكنفه جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن شماله ، ولا يرجع حتّى يفتح الله تعالى عليّ يديه . ولقد توفّي في الليلة التي عُرجَ فيها بعيسى بن مريم ، وما خلف صفراء ولا بيضاء إلّا سبعمائة درهم فضلت من عطاءه أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله » ، ثم خنقته العبرة فبكى وأبكى الناس .



آلْبَابُ الثَّالِثُ

مَعَ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ

١. في ذكرى ولادتها
٢. امتيازات الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ
٣. الرؤية الإسلامية حول المرأة
٤. في ذكرى شهادتها عَلَيْهَا السَّلَامُ
٥. شبهتان في قضية الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ
٦. إجماعات تاريخية



في ذكرى ولادتها ﷺ

قصة ولادتها ﷺ :

جاء في قصة ولادتها أَنَّ نساء قريش قاطعن خديجة بسبب زواجها من رسول الله ﷺ ، فلمَّا دنت منها الولادة أرسلت إليهنَّ ، فقاطعنها وقلنَ : أنتِ عصيتينا وتزوَّجتِ يتيماً آل أبي طالب ، فلا نحضر عند ولادتكِ ، فاغتمتَ لذلك ، وبينما هي على هذا الحال وإذا بأربع نسوة كنساء بني هاشم سمرٌ طوال ، ففزعت منهنَّ ، فقالت إحداهنَّ : لا تفزعِي ، أنا سارة زوجة إبراهيم ﷺ ، وهذه آسية بنت مزاحم ، وهذه مريم بنت عمران ، وهذه كلثم أُخت موسى ﷺ ، جئنا إليك لتتولِّي ما يلي النساء من النساء عند الولادة .

وهنا بحث حول اتّصال الدنيا بالآخرة وإمكانية ذلك ، ففي المعراج أَنَّ الأنبياء ﷺ هبطوا ليلة الإسراء والمعراج وصلّوا خلف رسول الله ﷺ في المسجد الأقصى ، أي إنَّ اللقاء ممكن ولا إشكال فيه ، فلا توجد مشكلة .

فلمَّا وُلِدَت فاطمة الزهراء ﷺ أشرق منها نورٌ دخل بيوتات مكّة ، ولم يبقَ في شرق الأرض وغربها بيت إلَّا وأشرق فيه ذلك النور - ليس بالضرورة أن يكون هذا

النور مادياً، بل هو نور حقيقي - ، ثم قلن لها : خذيها طاهرة مطهرة زكية ميمونة ، بورك فيها وفي نسلها^(١) .

الحديث عن الزهراء حديث مفصل ، لكنني أوجز القول ، إن الزهراء ﷺ لها مجموعة امتيازات انفردت بها دون نساء العالمين من الأوّلين والآخرين ، وهذه الامتيازات متفق عليها في كلّ المذاهب الإسلامية ، وبإجماع المؤرّخين وصحاح المحدثين ، ومن شاء فليراجع الصحاح .

روايات تاريخية في ذكرى ولادتها ﷺ :

في هذا اليوم وبهذه المناسبة نقرأ روايات شريفة - بدون تعليق - عن ولادتها وشأنها :

الرواية الأولى :

يقول الراوي : قلت لأبي عبد الله الصادق ﷺ : كيف كان ولادة فاطمة ﷺ ؟ قال ﷺ : « إِنَّ خَدِيجَةَ لَمَّا تَزَوَّجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ هَجَرَتْهَا نِسْوَةَ مَكَّةَ ، فَكُنَّ لَا يَدْخُلْنَ عَلَيْهَا وَلَا يُسَلِّمْنَ عَلَيْهَا ، وَلَا يَتَرَكْنَ امْرَأَةً تَدْخُلُ عَلَيْهَا ، فَاسْتَوْحِشَتْ خَدِيجَةُ لِذَلِكَ ، فَكَانَ غَمُّهَا حَذراً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ عَلَى نَفْسِهَا ، فَلَمَّا حَمَلَتْ بِفَاطِمَةَ كَانَتْ فَاطِمَةُ تُحَدِّثُهَا مِنْ بَطْنِهَا وَتُصَبِّرُهَا ، وَكَانَتْ خَدِيجَةُ تَكْتُمُ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَدَخَلَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَيْهَا فَسَمِعَهَا تَتَحَدَّثُ ، قَالَ ﷺ : يَا خَدِيجَةُ مِنْ تُحَدِّثِينَ ؟ قَالَتْ ﷺ : الْجَنِينُ الَّذِي فِي بَطْنِي يُحَدِّثُنِي وَيُؤَنِّسُنِي . قَالَ ﷺ : يَا خَدِيجَةُ ، هَذَا جِبْرَائِيلُ يُخْبِرُنِي أَنَّهَا أَنْثَى ، وَأَنَّهَا النِّسْلَةُ الطَّاهِرَةُ الْمَيْمُونَةُ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَيَجْعَلُ نَسْلِي مِنْهَا ، وَسَيَجْعَلُ مِنْ نَسْلِهَا أُمَّةً ، وَيَجْعَلُهُمْ خُلَفَاءَهُ فِي أَرْضِهِ بَعْدَ انْقِضَاءِ وَحْيِهِ . فَلَمْ تَزَلْ خَدِيجَةُ ﷺ عَلَى ذَلِكَ الْحَالِ إِلَى أَنْ حَضَرَتْ وَلادتها ، فَوَجَّهَتْ إِلَى نِسَاءِ قُرَيْشٍ وَبَنِي هَاشِمٍ أَنْ تَعَالَيْنَ لَتَلِينَ مَنِّي مَا تَلِي النِّسَاءَ مِنَ النِّسَاءِ ، فَأَرْسَلْنَ إِلَيْهَا : أَنْتِ عَصِيَّتُنَا ، وَلَمْ تَقْبَلِي قَوْلَنَا ، وَتَزَوَّجْتَ مُحَمَّدًا يَتِيمَ أَبِي طَالِبٍ فَقِيراً لَا مَالَ لَهُ ، فَلَسْنَا نَجِيءَ وَنَلِي مِنْ أَمْرِكِ شَيْئاً . فَاعْتَمَّتْ خَدِيجَةُ لِذَلِكَ ،

(١) مناقب آل أبي طالب ٣ : ١١٩ .

فبينما هي كذلك إذ دخل عليها أربع نسوة سمرٌ طوال كأنهنَّ من نساء بني هاشم ، فقلن لها : لا تحزني يا خديجة ، فإنَّا رُسُل ربِّكِ إليك ، ونحن أخواتك أنا سارة ، وهذه آسيا بنت مزاحم ، وهي رفيقتكِ في الجنَّة ، وهذه مريم بنت عمران ، وهذه كلثم أخت موسى ، بعثنا الله إليك لنلي منك ما تلي النساء من النساء . فجلست واحدة عن يمينها ، وأخرى عن يسارها ، والثالثة بين يديها ، والرابعة من خلفها ، فوضعت فاطمة طاهرة مطهَّرة ، فلما سقطت إلى الأرض أشرق منها النور حتَّى دخل بيوتات مكَّة ، ولم يبق في شرق الأرض ولا غربها موضع إلَّا أشرق فيه ذلك النور » .

الرواية الثانية :

إنَّ عليًّا عليه السلام أصبح يوماً فقال لفاطمة : « عندكِ شيء تُغذِّينيه ؟ » ، قالت : « لا ليس لدي شيء » ، فخرج واستقرض ديناراً ليبْتَاع ما يُصلِحهم ، فإذا المقداد في جهد وعياله جِيع ، فأعطاه الدينار ، ودخل المسجد وصلى الظهر والعصر مع رسول الله ، ثم أخذ النبي بيده وانطلقا إلى فاطمة وهي في مصلاها وخلفها جفنة تفور ، فلما سمعت كلام رسول الله صلَّى الله عليه وآله وقد دخل خرجت فسَلَّمت عليه ، وكانت أعزَّ الناس عليه ، فردَّ السلام ومسح بيده على رأسها ، ثم قال : « عشيَّنا غفر الله لك وقد فعل » ، فأخذت الجفنة فوضعتها بين يدي رسول الله صلَّى الله عليه وآله .

فقال صلَّى الله عليه وآله : « يا فاطمة ، أتني لك هذا الطعام الذي لم أنظر إلى مثل لونه قطُّ ، ولم أشمَّ مثل رائحته قطُّ ، ولم أكل أطيب منه ؟ ووضع كفَّه بين كتفي علي عليه السلام وقال صلَّى الله عليه وآله : « يا علي ، هذا بدل دينارك ، إنَّ الله يرزق من يشاء بغير حساب » ^(١) .

الأمر الذي دعاني إلى قراءة هذه الرواية أنَّ الزمخشري وهو أحد كبار المفسِّرين عند أبناء العمامة في القرن الرابع والخامس الهجري ، ولا يستغني أحد عن تفسيره الكشف ، وهو يؤيِّد هذه الرواية ، وحينما يصل إلى قوله : ﴿ زَكْرِيَّا كَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمَحَرَّابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ (آل عمران : ٣٧) ، يستشهد بهذه الرواية ويقول :

(١) أمالي الشيخ الصدوق .

إِنَّ النَّبِيَّ جَاعٌ فِي زَمَنٍ قَحْطٍ ، فَأَهْدَتْ لَهُ فَاطِمَةُ رَغِيفَيْنِ وَمَضْغَةَ لَحْمٍ ، فَقَالَ لَهَا ﷺ : « هَلُمِّي يَا بِنْتِي » ، وَكَشَفَ عَنِ الطَّبْقِ ، فَإِذَا هُوَ مَمْلُوءٌ خَبِزاً وَلَحْماً ، فَبَهَتَتْ فَاطِمَةُ ، وَعَلِمَتْ أَنَّهَا نَزَلَتْ مِنَ اللَّهِ ، فَقَالَ ﷺ : « أَتَيْتُ لَكَ هَذَا ؟ » ، قَالَتْ : ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ .
إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١﴾ .

فَقَالَ ﷺ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَكَ شَبِيهَةَ سَيِّدَةِ نِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ » ، ثُمَّ جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيّاً وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَجَمِيعَ أَهْلِ بَيْتِهِ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ الطَّعَامُ كَمَا هُوَ ، وَأَوْسَعَتْ فَاطِمَةُ عَلَى جِيرَانِهَا (١) .

الرواية الثالثة :

سَأَلَتْ فَاطِمَةُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَاتِماً ، فَقَالَ : « أَلَا أَعْلَمُكَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْخَاتَمِ ؟ إِذَا صَلَّيْتَ صَلَاةَ اللَّيْلِ فَاطْلُبِي مِنَ اللَّهِ ﷻ خَاتِماً فَإِنَّكَ تَنَالِينَ حَاجَتَكَ ، فَدَعَتْ رَبَّهَا تَعَالَى ، فَإِذَا بَهَاتَفَ يَهْتَفُ : يَا فَاطِمَةُ ، الَّذِي طَلَبْتَ مِنِّي تَحْتَ الْمَصَلَّى ، فَإِذَا الْخَاتَمُ يَاقُوتٌ ، فَجَعَلْتَهُ فِي أَصْبَعِهَا ، وَفَرَحَتْ ، فَلَمَّا نَامَتْ مِنْ لَيْلَتِهَا رَأَتْ فِي مَنَامِهَا كَأَنَّهَا فِي الْجَنَّةِ وَثَلَاثَةُ قُصُورٍ ، قَالَتْ : لِمَنِ هَذِهِ الْقُصُورُ ؟

قَالُوا : لِفَاطِمَةَ .

قَالَتْ : فَكَأَنَّهَا دَخَلَتْ قُصُوراً مِنْ ذَلِكَ فَرَأَتْ فِيهِ سَريراً قَدْ مَالَ عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمٍ ، فَقَالَتْ ﷺ : مَا هَذَا السَّرِيرُ قَدْ مَالَ عَلَى ثَلَاثِ ؟

قَالُوا : لِأَنَّ صَاحِبَتَهُ طَلَبَتْ مِنَ اللَّهِ خَاتِماً ، فَنَزَعَ أَحَدُ الْقَوَائِمِ وَصَيَّغَ لَهَا خَاتِماً ، وَبَقِيَ السَّرِيرُ عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمٍ .

فَلَمَّا أَصْبَحَتْ فَاطِمَةُ دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَصَّتْ لَهُ الْقِصَّةَ .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَعَاشِرَ آلِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ لَيْسَ لَكُمْ الدُّنْيَا إِنَّمَا لَكُمْ الْآخِرَةُ ، وَمِيعَادُكُمْ الْجَنَّةَ ، مَا تَصْنَعُونَ بِالدُّنْيَا ؟ فَإِنَّهَا زَائِلَةٌ غَرَارَةٌ » ، فَأَمَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تَرُدَّ الْخَاتَمَ تَحْتَ

المصلّى، فردّت الخاتم، ثمّ نامت، فرأت في المنام أنّها دخلت الجنة، فدخلت ذلك القصر، ورأت ذلك السرير على أربع قوائم، فسألت عنه، فقالوا: ردّت الخاتم، ورجع السرير إلى هيئته^(١).

امتيازات الزهراء عليها السلام

الزهراء عليها السلام لها خمسة امتيازات انفردت بها عن جميع نساء العالمين :

- ١- إنّها سيّدة نساء أهل الجنة، ثبت ذلك في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وآله (٢).
- ٢- إنّها سيّدة نساء العالمين في عالم الدنيا من الأوّلين والآخرين (٣).
- ٣- إنّها حوراء إنسية^(٤)، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك، كما ثبت في الصحيح، وكما يرويه جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: قيل: يا رسول الله، إنّك تُقبّل فاطمة وتلزمها وتدنيهها منك، وتفعل بها ما لا تفعله بأحد من بناتك!
- فقال صلى الله عليه وآله: « إنّ جبرئيل أتاني بتفّاحة من تفّاح الجنة، فأكلتها، فتحوّلت في صلبي، ثمّ وقعت خديجة فحملت بفاطمة، فأنا أشمُّ منها رائحة الجنة »^(٥)، ولهذا كانت الزهراء عليها السلام تُسمّى حوراء إنسية.

٤- إنّها مقياس الرضا والغضب الإلهي، لا يناقش في هذا أحد من المسلمين.

- قال رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام: « إنّ الله يرضى لرضاكِ، ويغضب لغضبكِ »، وأيضاً فيما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: « فاطمة بضعة منّي، يرضيني ما أرضاها، ويُسخطني ما أسخطها »^(٦)، وهذا امتياز عظيم أعطي للزهراء عليها السلام.

(١) بحار الأنوار ٤٣ : ٤٧، عن المناقب لابن شهر آشوب.

(٢) خصائص أمير المؤمنين عليه السلام للنسائي : ١١٧.

(٣) الأسرار الفاطمية للشيخ محمّد فاضل المسعودي : ٢١٣.

(٤) ذخائر العقبى لمحبّ الدين الطبري.

(٥) ينابيع المودّة ٢ : ٣٢٢/ باب ٥٦.

(٦) كنز العمال للمتقي الهندي ١٢ : ١١١.

٥- إنها امتداد لرسول الله ﷺ ، فجميع ذرية رسول الله إلى يوم يُبعثون هم فقط من الزهراء ﷺ ، من الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة وإلى الأئمة الأطهار وإلى ما بعدهم ، وهذا كرامة وتشريف للزهراء ﷺ .

ثناء النبي ﷺ على الزهراء ﷺ :

وهنا بعد نقل هذه الامتيازات الخمسة نُسجّل ظاهرة تاريخية متميزة للزهراء ﷺ ، وهي الثناء غير المؤلف الذي كان يُعطيه رسول الله ﷺ لشخصية الزهراء ، حيث كان رسول الله ﷺ - بما ثبت في التاريخ بشكل إجماعي - يُكثر من مدحها والثناء عليها ، وهذا كان على خلاف الأعراف العربية والاستحقاقات الأسرية وعمر هذه الفتاة ، رسول الله يقوم ويقعد بمدحها ﷺ : « هي بضعة مني ، يُرضيني ما أَرْضاها »^(١) ، « هي رُوحِي التي بين جنبي »^(٢) ، هل هذا النبي مغرم بحب ابنته أم هناك شيء آخر ؟

لماذا كان النبي يكسر الأعراف والتقاليد يومئذ ؟ فالناس كانوا لا يتحمّلون ذكره لابنته قائماً وقاعداً وإلى اليوم هم لا يتحمّلون ذلك . وهكذا فإنّ هذا المدح ربّما يبدو خلاف الاستحقاق الأسري ، فإنّ ما يصنعه ﷺ بالزهراء كان يثير ضغن بعض النساء ، فكان يُقبّلها ويُقبّل يدها ، ويقوم احتراماً لها ، ويُجلّسها في مجلسه ، ويُقبّلها في صدرها ، حتّى قالت بعض نساء النبي : أُحِبُّهَا يا رسول الله ؟ فقال : « إي والله ، لو تعلمين حُبِّي لها لازددت لها حباً »^(٣) . وهذا الموقف ربّما لا يسمح به عمر الفتاة ، فالزهراء ﷺ حينما استشهدت كان عمرها (١٨) سنة ، وهذه النصوص عن رسول الله هي من عمر (١٠ - ١٨) سنة ، ورسول الله يقوم ويقعد بمدحها : « يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها »^(٤) ، و « هي سيّدة نساء العالمين »^(٥) .

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٤٣ : ٣٩ .

(٢) بحار الأنوار للمجلسي / الجزء ٢٧ .

(٣) دلائل الإمامة للطبري الشيعي .

(٤) كنز العمال للمتقي الهندي ١٢ : ١١١ .

(٥) الأسرار الفاطمية للشيخ محمّد فاضل المسعودي : ٢١٣ .

لو كان النبي ﷺ يتحدث عن امرأة مثلاً قد خاضت تجارب (٥٠) أو (٦٠) سنة في خدمة الإسلام والمسلمين ، فيمكن أن يقول قائل : هذا شكر لها على مواقفها ، لكن الزهراء عمرها (١٠-١٨) سنة حينما كان النبي ﷺ يصب عليها هذا الإغداق العظيم والتشريف الكريم .

هذا يجعلنا نكتشف فلسفة لهذا الموقف ، رسول الله ﷺ ليس له موقف اعتباطي وليست القضية قضية حب ، ولا قضية أب وبنت يريد أن يُبدي عواطفه لها ، وإنما كان ذلك الثناء غير المألوف بسبب أنه ﷺ يريد أن يُعطيها موقعاً في مسار الأمة وعلى طول التاريخ ، هذه البنت يجب أن تكون ضوءاً في مساركم أيها المسلمون ، « يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها »^(١) ، أيتها النساء يا بنات الأمة الإسلامية هذه سيّدة نساء الجنة وسيّدة نساء العالمين ، لاحظوا إنه ﷺ يريد أن يجعلها بمثابة المصباح أو الضوء في الطريق ، وإشارة في عمق الصحراء ، صحراء الفتن التي قال عنها رسول الله ﷺ : « أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم »^(٢) ، ويقول : « هذه فاطمة بضعة مني ، يُرضيني ما أرضاها ، ويُسخطني ما أسخطها »^(٣) ، و « معاشر الناس ، أنا مدينة الحكمة وعليّ بابها ، ولن تُؤتى المدينة إلّا من قبل الباب »^(٤) .

هذا الثناء العجيب من رسول الله ﷺ كان لهذه الفلسفة أن يجعلها معلماً من معالم الاتجاه الصحيح ، حينما تفترق السبل في المسلمين .

أحاديث الرسول ﷺ عنها عليها السلام :

بهذه المناسبة بوّدي أن أنقل بعض الأحاديث الشريفة في معرفة ما جاء على لسان أبيها رسول الله ﷺ من فضائلها .

(١) كنز العمال للمتقي الهندي ١٢ : ١١١ .

(٢) الإرشاد للمفيد ، ومسنّد أحمد ٣ : ٤٨٩ .

(٣) بحار الأنوار للمجلسي / ج ٤٣ .

(٤) بحار الأنوار للمجلسي / ج ٤٢ .

ثبت في الصحيح من الخبر كما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده : أَنَّ النبي ﷺ نظر إلى عليٍّ والحسن والحسين وفاطمة ، فقال ﷺ : « أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم »^(١) .

وروى الشيخ الصدوق عن ابن عباس : أَنَّ رسول الله ﷺ كان جالساً ذات يوم وعنده عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين ، فقال ﷺ : « يا عليُّ ، أنت إمام أمتي وخليفتي عليها بعدي ، وأنت قائد المؤمنين إلى الجنة ، وكأني أنظر إلى ابنتي فاطمة قد أقبلت يوم القيامة على نجيب من نور ، عن يمينها سبعون ألف ملك ، وعن يسارها سبعون ألف ملك ، وبين يديها سبعون ألف ملك ، وخلفها سبعون ألف ملك ، تقود مؤمنات أمتي إلى الجنة »^(٢) .

وقد تواتر لدى أصحاب الحديث أَنَّ رسول الله ﷺ قال : « فاطمة بضعة مني من سرّها فقد سرّني ومن ساءها فقد ساءني »^(٣) .

وقال ﷺ : « فاطمة بضعة مني يُريني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها »^(٤) .

وقال ﷺ : « من آذاها في حياتي كمن آذاها بعد مماتي ، ومن آذاها فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، وجعلها سيّدة نساء العالمين »^(٥) .

وقال فيما ثبت في الصحيح من الخبر : « ابنتي فاطمة سيّدة نساء العالمين » ، وقال : « وأما ابنتي فاطمة فإنّها سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين »^(٦) .

صحيح البخاري وهو أهمّ صحاح أهل السنة الذي لا ترد له رواية واردة فيه يقول في باب علامات النبوة عن عائشة قالت : أقبلت فاطمة (سلام الله عليها) تمشي مشيتها مشية النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : « مرحباً بابنتي » ، ثمّ أجلسها عن يمينه - أو شماله - ، ثمّ

(١) المستدرک علی الصحيحین للحاکم ٣ : ١٦١ .

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٢ : ٤٤٣ .

(٣) تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي .

(٤) صحيح مسلم .

(٥) بحار الأنوار/ ج ٤٣ .

(٦) جواهر العقدين : ٢١٦ / العقد الثاني / الذكر الثاني ؛ عوالم العلوم : ٤٤ / الرقم ١ .

أَسْرَ إِلَيْهَا حَدِيثاً فَبَكَتْ ، فَقُلْتُ : مَا رَأَيْتَ الْيَوْمَ فَرِحاً أَقْرَبَ مِنْ حَزْنٍ ، فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ : « مَا كُنْتُ لِأَفْشِي سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ » ، حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَجِئْتُ إِلَى فَاطِمَةَ وَسَأَلْتُهَا ، فَقَالَتْ عليها السلام : « أَسْرَ إِلَيَّ قَائِلاً : جِبْرَائِيلُ كَانَ يِعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً ، وَإِنَّهُ عَارِضُنِي هَذَا الْعَامَ مَرَّتَيْنِ ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا وَقَدْ حَضَرَ أَجْلِي ، وَإِنَّكَ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لِحَاقًا بِي ، فَبَكَيتُ ، فَقَالَ : أَمَّا تَرْضَيْنِ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَضَحَكَتَ لَذَلِكَ » .

وخبر آخر ينقله كتاب (كنز العمال) وهو من صحاحهم أيضاً ، يقول : (إِنَّهَا سُمِّيَتْ فَاطِمَةَ لِأَنَّ اللَّهَ فَطَمَهَا وَمَحَبَّيْهَا عَنِ النَّارِ) .

أَخْرَجَ الدَّيْلَمِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَابْنُ الْأَثِيرِ فِي كِتَابِ النِّهَايَةِ فِي مَادَّةِ (بَتْل) ، قَالَ عليه السلام : « سُمِّيَتْ فَاطِمَةُ الْبَتُولَ لِانْقِطَاعِهَا عَنِ نِسَاءِ زَمَانِهَا فَضْلاً وَدِيناً وَحَسَباً » ، وَقَالَ عليه السلام : « فَاطِمَةُ ابْنَتِي سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ » .

الْيَوْمَ نَقْفُ فَخُورِينَ بَأَنَّ هَذِهِ الْامْرَأَةَ وَهِيَ أَسْوَتُنَا نِسَاءً وَرَجَالاً بَأَنَّنا نَنْتَمِي إِلَى أَوْلَادِهَا وَذُرِّيَّتِهَا وَإِلَيْهَا وَإِلَى بَعْلِهَا ، فَهِيَ سَيِّدَةُ النِّسَاءِ ، وَوَلَدَاها الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَجْمَعِينَ ، وَعَلِيُّ بَعْلِهَا أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَحْمِلُ لَوَاءَ الْحَمْدِ .

منزلة الزهراء عليها السلام ومقامها :

وبهذا الخصوص نقرأ نصاً من نصوص زيارتها الواردة عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وهي بسند صحيح كما يذكر الفقهاء يقول :

« وَصَلَّ عَلَى الْبَتُولِ الطَّاهِرَةِ الصَّدِيقَةِ الْمُعْصُومَةِ النَّقِيَّةِ النَّقِيَّةِ الرَّضِيَّةِ الْمَرْضِيَّةِ الزَّكِيَّةِ الرَّشِيدَةِ الْمَظْلُومَةِ الْمُفْهُورَةِ الْمُغْصُوبَةِ حَقَّهَا ، الْمَمْنُوعَةِ ارْتِثَها ، الْمَكْسُورَةِ ضَلَعُها ، الْمَظْلُومِ بَعْلِها ، الْمَقْتُولِ وَلَدُها فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِكَ ، وَبِضْعَةِ حُجْمِ ، وَصَمِيمِ قَلْبِهِ ، وَفَلْدَةِ كَبِدِهِ ، وَالتَّخْبَةِ مِنْكَ لَهُ وَالتَّحْفَةِ ، خَصَصْتَ بِهَا وَصِيَّةً ، وَحَبِيبَةَ الْمُصْطَفَى ، وَقَرِينَةَ الْمُرْتَضَى ، وَسَيِّدَةَ النِّسَاءِ ، وَمُبَشِّرَةَ الْأَوْلِيَاءِ ، حَلِيفَةَ الْوَرَعِ وَالزُّهْدِ ، وَتَفَاحَةَ الْفِرْدَوْسِ وَالْخُلْدِ ، الَّتِي شَرَفَتْ مَوْلَدَها

بِنِسَاءِ الْجَنَّةِ ، وَسَلَّتْ مِنْهَا أَنْوَارَ الْأَيْمَةِ ، وَأَرْخَيْتْ دُونَهَا حِجَابَ النُّبُوَّةِ ، اَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهَا صَلَاةَ تَزِيدُ فِي مَحَلِّهَا عِنْدَكَ وَشَرَفِهَا لَدَيْكَ ، وَمَنْزِلَتِهَا مِنْ رِضَاكَ ، وَبَلِّغْهَا مِنَّا حَيَّةً وَسَلَامًا ، وَآتِنَا مِنْ لَدُنْكَ فِي حُبِّهَا فَضْلًا وَإِحْسَانًا وَرَحْمَةً وَغُفْرَانًا ، إِنَّكَ ذُو الْعَفْوِ الْكَرِيمِ »^(١) .

حتَّى جاء عنها في الرواية قالت ﷺ : « قال لي أبي : من صلّى عليك غفر الله ﷻ له وألحقه بي حيثما كنت من الجنة »^(٢) .

وفي الرواية المعروفة عن الإمام الباقر ﷺ : « إِنَّ لِفَاطِمَةَ وَقْفَةً عَلَى بَابِ جَهَنَّمَ فَيُؤْتَى بِمَذْنَبٍ قَدْ أُمِرَ بِهِ إِلَى النَّارِ مَكْتُوبٌ عَلَى جَبِينِهِ : مُؤْمِنٌ ، فَتَقُولُ فَاطِمَةُ : إِلَهِي وَسَيِّدِي سَمِّيتَنِي فَاطِمَةَ فَطَمْتَنِي وَشِيعَتِي عَلَى النَّارِ ، فيقول الله تعالى : سَمَّيْتِكَ فَاطِمَةَ وَأُرِيدُ أَنْ يَرَى الْخَلَائِقُ مَقَامَكَ مِنْ وَجَدْتِ مَكْتُوبًا فِي جَبِينِهِ مُؤْمِنٌ فَخَذِيهِ إِلَى الْجَنَّةِ »^(٣) .

الزهراء ﷺ نموذجاً :

ونختتم حديثنا بذكر الزهراء ﷺ ، فقد كان زواج عليّ ﷺ بالزهراء ﷺ نموذجاً للزواج المثالي ، رغم الفقر وصعوبات الحياة والقتال والحروب الموجودة آنذاك ، لكن جسّد نموذج البيت السعيد .

عن الباقر ﷺ : « إِنَّ فَاطِمَةَ ﷺ ضَمِنَتْ لِعَلِيٍّ ﷺ عَمَلَ الْبَيْتِ وَالْعَجِينَ وَالْخُبْزَ وَقَمَّ الْبَيْتِ ، وَضَمِنَ لَهَا عَلِيٌّ ﷺ مَا كَانَ خَلْفَ الْبَابِ : نَقْلَ الْحَطَبِ ، وَأَنْ يَجِيءَ بِالطَّعَامِ . . . »^(٤) .

وعن الصادق ﷺ : « كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ يَحْتَطِبُ وَيَسْتَقِي وَيَكْنُسُ ، وَكَانَتْ فَاطِمَةُ ﷺ تَطْحَنُ وَتَعْبَنُ وَتَخْبِزُ »^(٥) .

وهكذا يُعْطَى عَلِيٌّ ﷺ تَقْيِيماً للزهراء ﷺ وكان يقول : « فَوَاللَّهِ مَا أَغْضَبَتْهَا وَلَا

(١) البحار/ الجزء ٤٣ .

(٢) البحار/ الجزء ٤٢ .

(٣) بحار الأنوار/ ج ٤١ .

(٤) بحار الأنوار ١٤ : ١٩٧ .

(٥) الكافي ٥ : ٨٦ / باب عمل الرجل في بيته / ح ١ .

أكرهتها على أمر حتى قبضها الله تعالى ، ولا أغضبتي ولا عصت لي أمراً ، ولقد كنت أنظر إليها فتتكشف عني الهموم والأحزان» ^(١) .

وعند وفاتها قالت عليها السلام : « يا بن عم ، ما عاهدتني كاذبة ولا خائنة ، ولا خالفتك منذ عاشرتني » ، قال عليه السلام : « معاذ الله ، أنت أعلم وأبر وأتقى وأكرم وأشدّ خوفاً من الله أن أوبّخك غداً بمخالفتي ، فقد عزّ عليّ بمفارقتك وبفقدك ، إلاّ أنّه أمر لا بدّ منه ، والله جدّدت عليّ مصيبة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد عظمت وفاتك وفقدك ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون من مصيبة ما أفجعها وآلمها وأمّضها وأحزنها ، هذه والله مصيبة لا عزاء عنها ، ورزية لا خلف لها . ثمّ بكيا جميعاً ساعة ، وأخذ على رأسها وضّمّها إلى صدره ، ثمّ قال : « أوصيني بما شئت ، فإنّك تجديني وفيّاً أمضي كلّ ما أمرتني به ، وأختار أمرك على أمري » ، ثمّ قالت : « جزاك الله عنّي خير الجزاء ، يا بن عم ، أوصيك أولاً أن تتزوّج بعدي بابنة إمامة ، فإنّها تكون لولدي مثلي ، فإنّ الرجال لا بدّ لهم من النساء . . . » ، ثمّ قالت : « أوصيك يا بن عمّ أن تتخذ لي نعشاً ، فقد رأيت الملائكة صوّروا صورته » ، فقال لها : « صفيه إليّ » ، فوصفته ، فأخذه لها ، فأول نعش عمّل في وجه الأرض ذلك ، وما رأى أحد قبله ولا عمله أحد . ثمّ قالت : « أوصيك أن لا يشهد أحد جنازتي من هؤلاء الذين ظلموني ، وأخذوا حقّي ، فإنّهم أعدائي وأعداء رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأن لا يُصلّي عليّ أحد منهم ، ولا من أتباعهم ، وادفني في الليل إذا هدأت العيون ونامت الأبصار . . . » ^(٢) .

هذه فاطمة ريحانة رسول الله التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها توصي عليّاً عليه السلام بذلك ، وهو يمثّل احتجاجاً وبيان ظلامه وموقفاً له معنيّ في تقييم الزهراء عليها السلام للواقع الاجتماعي والسياسي القائم يومئذ .

ولأيّ الأمور تُدفن سرّاً
بنت من ؟ أم من ؟ حليمة من ؟
جرّعاها من بعد والدها الغيظ
بضعة المصطفى ويُعفى ثراها
ويل لمن سنّ ظلمها وأذاها
مراراً فبئس ما جرّعاها

(١) كشف الغمّة ١ : ٣٧٣ .

(٢) روضة الواعظين : ١٥١ .

مقاطع من زيارتها ﷺ :

وفي مورد آخر لزيارتها ﷺ :

١- « حَلِيفَةُ الْوَرَعِ وَالزُّهْدِ ، وَتُفَّاحَةُ الْفِرْدَوْسِ وَالْخُلْدِ »^(١) ، وفي هذا إشارة للحديث المتواتر عند الشيعة والسنة أن رسول الله ﷺ لَمَّا عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ نَاولَهُ جِبْرَائِيلُ تَفَّاحَةً مِنَ الْجَنَّةِ فَأَكَلَهَا فَلَمَّا عَادَ إِلَى الدُّنْيَا كَانَ مِنْ تِلْكَ التَّفَّاحَةِ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقَبِّلُهَا وَيُسَمِّيُهَا ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنْتَ تَصْنَعُ بِفَاطِمَةَ مَا لَمْ تَصْنَعْ بِغَيْرِهَا . قَالَ ﷺ : « يَا عَائِشَةُ ، إِنِّي إِذَا شَمَمْتُهَا أَشَمُّ فِيهَا رَائِحَةَ الْجَنَّةِ »^(٢) .

٢- « الَّتِي شَرَفَتْ مَوْلِدَهَا بِنِسَاءِ الْجَنَّةِ » .

في يوم ولادتها دعت خديجة نساء قريش أن تعالين لتلين مني ما تلي النساء من النساء ، فقاطعنها وقلن لها : قد عصيتنا وتزوجت يتيم آل أبي طالب ، فاغتمت لذلك خديجة ، فبينما هي في ذلك الحال وإذا أربعة نساء من نساء الجنة دخلن عليها ، فقلقت لذلك خديجة ، فقلن لها : لا تقلقي نحن أخواتك ، أنا سارة زوجة إبراهيم ، وهذه آسية بنت مزاحم ، وهذه مريم بنت عمران ، وتلك كلثم أخت موسى ، جئنا لنلي منك ما تلي النساء من النساء ، فسرت لذلك خديجة ، فلما ولدت فاطمة أشرق منها نور دخل بيوتات مكة ولم يبق بيت في شرق الأرض وغربها إلا وأشرق فيه ذلك النور^(٣) .

٣- « وَسَلَّلَتْ مِنْهَا أَنْوَارَ الْأَئِمَّةِ ، وَأَرْخَيْتَ دُونَهَا حِجَابَ النَّبُوَّةِ » .

نحن بيننا وبين النبوة حجاب ، فنحن لا نرى جبرائيل ولا نسمع الوحي ، بينما الزهراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لا حجاب بينها وبين النبوة . في اللغة العربية مرة يقال : أرخيت عليها أي حجبته ، ومرة يقال : أرخيت دونها أي أزحت ، أي لا توجد فاصلة بينها وبين النبوة ،

(١) الإقبال للسيد ابن طاووس .

(٢) مناقب أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِمُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْكُوفِيِّ ٢ : ٢٠٦ / ط النهضة ؛ ينباع المودة للقدوزي

الشافعي ٢ : ١٣١ .

(٣) بحار الأنوار للمجلسي / ج ٣٩ .

فهي ترى وتسمع ما يرى رسول الله صلى الله عليه وآله ، والرواية في كتاب الكافي : « إن جبرائيل كان ينزل عليها ويُحدثها بما يكون وما يؤنسها ، ومن ذلك سُمِّي مصحف فاطمة » .

شفاعة الزهراء عليها السلام :

جاء عن الإمام الباقر عليه السلام : « لفاطمة وقفة على باب جهنم ، فإذا كان يوم القيامة كُتِبَ بين عيني كل رجل : مؤمن أو كافر ، فيؤمر بمحبٍّ قد كثرت ذنوبه إلى النار ، فتقرأ بين عينيهِ : مُحِبًّا ، فتقول : إلهي وسيدي سَمِّيتني فاطمة وفطمت بي من تولاني وتولّى ذريتي من النار ، ووعدك الحق ، وأنت لا تُخلف الميعاد . فيقول الله تعالى : صدقت يا فاطمة ، إني سَمِّيتك فاطمة ، وفطمت بك من أحبك وتولّاك ، وأحبّ ذريتك وتولّاهم من النار ، ووعدي الحق ، وأنا لا أخلف الميعاد ، وإنّا أمرت بعبدٍ هذا إلى النار لتشفعي فيه فأشفعك ، وليتبيّن ملائكتي وأنبيائي ورُسلي وأهل الموقف موقعك مِنّي ومكانتك عندي ، فمن قرأت بين عينيهِ مؤمناً فخذني بيده وأدخله الجنة » ^(١) .

هذه فاطمة عليها السلام التي « يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها » ^(٢) .

اللهم بارك لنا في حبّها واتباع أولادها الأئمة المعصومين عليهم السلام .

الرؤية الإسلامية حول المرأة

بهذا الخصوص بعد أن أزفّ التبريك والتهنئة لنسائنا عموماً والعراقيات بالخصوص ، كان بؤدي أن أستعرض لكم موجزاً عن الرؤية الإسلامية تجاه المرأة التي تتلخّص في ثلاثة أركان :

الركن الأوّل : الأصالة الإنسانية ، أي إنّ المرأة والرجل هما سواء في الإنسانية ، وإنّ الأصل هو جانب الإنسانية وليس الذكورية ولا الأنوثة ، ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

(١) بحار الأنوار ٨ : ٥٩ .

(٢) بحار الأنوار ٣٠ : ٣٤٧ .

أَفَنَكُمُ ﴿ (الحجرات : ١٣) ، ويا لها من مقولة جميلة سطرها القرآن الكريم ، وهي أن ليس هناك مقياس للتفاضل ، بل هما سواء في الإنسانية ، وليست المرأة هي العنصر الثاني في المجتمع ، بل كلاهما على حدٍّ سواء ، والإسلام لا يقبل تهميش المرأة ووضعها جانبا ، وكان الأول في انتقاد نظرة الاستحقاق للمرأة التي كانت سائدة يومئذٍ ، وما تزال في كثير من مجتمعاتنا مع الأسف ، والإسلام ضدّ نظرة الاستحقاق للمرأة ، ولهذا لا فرق في حرمة الغيبة مثلاً ، فالسخرية وأخذ غيبة المرأة محرّمة كما هي للرجل كذلك ، التكبرُ على المؤمنة وإيذائها من المحرّمات .

الركن الثاني : المساواة الحقوقية ، أي إنّ شخصية المرأة الحقوقية هي نفسها شخصية الرجل الحقوقية ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة : ٧١) ، من حيث الاستحقاقات والموقع الاجتماعي ، فكما العنصر الذكوري له ولاية في المجتمع ، كذلك العنصر الأنثوي له ولاية في المجتمع ، ولهذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الاثنين ، ومثل ذلك سائر الواجبات .

الركن الثالث : التمايز الوظيفي ، الإسلام دين واقعي ويأخذ بنظر الاعتبار الواقعيّات الإنسانية ، ولأنّ المرأة تختلف تكويناً عن الرجل من حيث بنيتها لذا فقد أعطاه الإسلام وأقرّها وظائف هي غير وظائف الرجل ، وهذا التمايز الوظيفي حقيقة تفرض نفسها على كلّ البشرية ، فمن جملة حقوقها أن تُمَيِّزها وظيفياً عن الرجل ولا تُحمّلها ما يتحمّله الرجل من وظائف ، فلا يمكن أن تجعلها في مقدّمة القوّات المسلّحة ، ولحدّ الآن العالم لا يسمح للمرأة أن تكون قائدة طائرة مدنية أو عسكرية ، أو تدخل وتكون عاملة مناجم ، أو موظّفة لإطفاء الحرائق ، وما شاكل ذلك ، بل تُعطى نمط مشاغل تتناسب مع بنيتها التكوينية . والإسلام يعتقد بالتمايز الوظيفي ، وأنّ الله تبارك وتعالى خصّ الرجل بمميّزات وخصّ المرأة بمميّزات ، ويكون لكلّ واحدٍ منهما وظائف خاصّة ، وعلى أساسها سيتّج تمايز تشريعي . وهذا التمايز كما يقرّه الإسلام في الميراث أو الشهادة أمام المحاكم والقضاء ناشئ من التمايز الوظيفي والبنية التركيبية

المختلفة بينهما ، وليس تفضيلاً للرجل على المرأة .

نحن في العراق بحمد الله تعالى تقدّمت المرأة بخطوات جيّدة في المجال الثقافي والاجتماعي والسياسي ، وهذا شيء نفخر به ، على أنّنا بانتظار المزيد من حضور المرأة في هذه المجالات ، ولكن الحمد لله هذا من دواعي الافتخار في الكويت للمرأة الأولى عندهم تدخل المرأة في مجلس النواب وفازت بأربعة مقاعد من مجموع (٥١) مقعد ، بينما نحن في العراق بحمد الله تعالى منذ الانتخابات الأولى كانت المرأة قد شاركت مشاركة فاعلة ، وهذا بتوجيه المرجعية الدينية ، فلا يقول قائل : إنّ توجيه أمريكي ، بل قالت المرجعية : يجب على الجميع رجالاً ونساءً أن يذهبوا للانتخابات ، وهذه التجربة تجربتنا ، وما نؤمن به إسلامياً ، ولم نأخذه من الغرب أو من دول أخرى .

يوم المرأة العراقية :

المرأة بين الحداثة والإسلام :

في العشرين من جمادى الثانية هذا اليوم الذي اعتبر في العراق يوم المرأة ، ويستحق أن نقف عنده ، ولدينا حديث عن نقد الفكر الحداثي نجعله في سياق الحديث عن المرأة ، وسبق أن تحدّثنا عن الزهراء عليها السلام والحديث عنها لا ينتهي ، واسمحوا لنا أن نتحدّث عن الإسلام والمرأة ونقول :

إنّ الإسلام هو الداعية الأوّل لحقوق المرأة ، بينما يقال الآن في الفكر الحداثي : إنّ الإسلام ليس فيه حقوق للمرأة ولا حقوق للإنسان ، ولهذا تعلّموا من الحداثة حقوق المرأة ، نحن نُؤكّد على مجموعة أفكار نذكرها كخطوط عريضة :

الإسلام هو الداعية الأوّل لحقوق المرأة ، لكن يجب أن نُميّز ما هو المصطلح وما هو واقع المشروع ، وصحيح أنّ المصطلح غير موجود في الإسلام ، فهي مصطلحات جديدة مثل : حقوق الإنسان ، والحرية الإعلامية ، وما شاكل ، ولكن نحن نتحدّث عن مشاريع ومفاهيم وليست كلمات ومصطلحات ، وحقوق المرأة كمصطلح بدأ من

إعلان ميثاق حقوق الإنسان في القرن ما قبل الماضي ، وبدأ يتفاعل على الأرض ، كذلك مصطلح حقوق الإنسان هو غير موجود في الأدبيات العربية والإسلامية ، ولكن هذا كمصطلح ، ونحن يجب أن نُميّز بين ما هو مصطلح وما هو المشروع ، فإن واقع الأمر موجود بشكل أروع ما يكون ، الإسلام قبل (١٤٠٠) سنة يوم كانت المرأة لا تُعتبر من الجيل الإنساني كان يصيح بأعلى صوته : إنَّ المرأة إنسانة مثلك أيها الرجل ، لكن لنعود قبل هذا الزمان لنرى الإسلام ماذا فعل وأوروبا والشعوب التي كانت في ظلام ، فأوروبا في القرن الماضي بدأت تنادي بحقوق المرأة ، وقبل ذلك كانت في ظلام دامس تجاه المرأة والعامل ، والإسلام قبل (١٤٠٠) سنة يقول في القرآن الكريم : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (النساء : ١٩) ، فأئي عشرة بغير المعروف محرمة مثل : الضرب والتحقير ، والإسلام يقول : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ ﴾ (الطلاق : ٦) ، مثلما تريد أن تجلس في بيت مرتبة المرأة أيضاً تريد بيتاً مرتباً ، ويقول القرآن كذلك : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة : ٧١) ، فأنت وهي تتبادلان الولاية ، فليس الرجل مسلط على المرأة ولا المرأة مسلطة على الرجل ، بل حياة مشتركة ، وقال أيضاً : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ (الروم : ٢١) ، فالمرأة من نفس الرجل ، والرجل من نفس المرأة ، فإذا احتقرتها أي احتقرت نفسك ، لأنَّها من نفسك وأنت من نفسها ، وهذه قمة المساواة والتشريعات تنطلق من ذلك ، ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم : ٢١) ، حُبٌّ ومودةٌ ورحمة ، وليس غلظة وقسوة .

قصّة أسماء بنت عمير :

أسماء بنت عمير زوجة جعفر الطيّار الذي أذن له رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى الحبشة ، وبعد رجوعه في أيام فتح خيبر كانت أسماء أول دخولها على نساء النبي ﷺ ، فسألتهن : هل نزل فينا نحن النساء شيء من القرآن ؟
فقلن : لا .

فجاءت إلى رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله ، إنَّ النساء لفي خيبة وخسارة .

فقال صلى الله عليه وسلم : لماذا ؟

قالت : لأنهنَّ لا يُذكرنَّ بخير كما يُذكر الرجال ، هنا نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٣٥) ، كان هذا قبل (١٤٠٠) عاماً .

يجب علينا أن نُميز بين ما هي النظرية وما هو التطبيق ، حيث إنَّ شعوب العالم الثالث ما تزال المرأة مظلومة فيها ، وهذا ليس في المجتمعات الإسلامية ، بل كلُّ شعوب العالم الثالث ، فجاء الإسلام لكي يُخَفِّف عنها الظلم ، وربما استطاع أن يُخَفِّف (٥٠ ٪) ، ولولا الإسلام لكانت المرأة مظلومة (١٠٠ ٪) . جاءت الثقافة الإسلامية وأنقذتها بنسبة كبيرة ، أمّا اتهام الإسلام بأنّه لم يُعْطِ حقوقاً للمرأة فهذا ظلم ، نعم إنَّ المرأة لم تأخذ حقوقها في مجتمعات العالم الثالث ، كما في مجتمعات العالم الغربي الأوربي إلى القرن الماضي ، وإلى الآن لم تأخذ حقوقها ، لكن علينا التمييز بين ما هي النظرية وما هو الواقع التطبيقي .

ونحن الآن إذ نحيي ذكرى ولادة سيّدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام ، ونحيي يوم المرأة ، نبارك للمرأة العراقية والمسلمة في كلِّ مكان هذا اليوم الكريم ، إذ اختار الله تعالى امرأة من الإسلام والمسلمين فكانت سيّدة نساء العالمين ، وكانت أمُّ الأئمة الأطهار والحجج الأبرار عليهم السلام ، وهذا افتخار للمرأة ، وبارك ونهنّي بالخصوص المرأة العراقية وندعوها لإحياء هذه الذكرى ، ونحن هنا في العراق نطالب بحقوق المرأة في المجال السياسي والثقافي والعملي ، والانتخابات الماضية في الكويت لمجلس الأمة الكويتي لم تفز امرأة واحدة فيها ، أي إنَّ الجانب الثقافي لا يزال لم يُعْطِ المرأة حقّها ، وفي المملكة العربية السعودية إلى اليوم الجدل القائم بأنَّ المرأة هل يُسَمَح لها بأن تقود السيّارة أم لا ؟

هنا في العراق نعتقد بأن المرأة العراقية تقدّمت في المجال السياسي كما تقدّمت في المجال الثقافي والإداري وفق الأصول والقيم الإسلامية .

الموقف من أحاديث انتقاص المرأة :

إن اعتبار الزهراء عليها السلام سيّدة نساء العالمين ، وكونها أمّ الأئمة المعصومين عليهم السلام ، وكونها كفراً لعلّي ، ولولا عليّ لم يكن للزهراء كفؤ ، وكونها معصومة ، وكونها حجة على الخلق ، وكونها مقياس الرضا والغضب الإلهي ، وهي أنثى ، كل هذه الأمور تدلّ على بطلان الرؤية الاستحقاقية للمرأة وتقاطعها مع الإسلام ، ولو كان هناك استحقاق لم تكن الزهراء بهذا المستوى وهذه الامتيازات المذكورة ، وهو دليل على ضرورة معالجة ما جاء في تراثنا الروائي من روايات استحقاق المرأة واعادة قراءتها .

مثل : « إن المرأة شرّ كلّها ، وشرّ ما فيها أنّه لا بدّ منها »^(١) .

و « إن النساء نواقص الإيمان ، نواقص الخطوط ، نواقص العقول »^(٢) ، وغيرها .

هذه الروايات تتقاطع مع موقع الزهراء عليها السلام ، واعتبارها بنصّ رسول الله ﷺ : « إن الله يرضى لرضاها »^(٣) ، ويتقاطع مع آيات ونصوص نبويّة تؤكد أنّ المرأة كفؤ الرجل ، وهو لا يتناسب مع الخلق الإسلامي ، فالزهراء عليها السلام أمّ الأئمة المعصومين عليهم السلام ، وسيّدة نساء العالمين ، وما تميّزت به من موقع بعد هذا لا يمكن أن تكون النساء نواقص العقول والخطوط والإيمان ، ولذا لا يمكن الاعتماد على هذه الروايات ؛ لأنّها ضعيفة أوّلاً من حيث سندها ، ولأنّها تتقاطع مع نصوص القرآن ثانياً ، فقد جاء عن الأئمة الأطهار عليهم السلام عرض روايتهم على القرآن وإسقاط المتعارض منها مع القرآن^(٤) .

على هذا الأساس يجب أن تستعيد المرأة حقوقها وتشارك في بناء العراق ، ويحفظ

(١) نهج البلاغة ٤ : ٢٣٨ / ٥٣ .

(٢) نهج البلاغة ١ : ١٢٩ / ٨٠ .

(٣) بحار الأنوار ٣٠ : ٣٤٧ .

(٤) الكافي ١ : ٦٩ / باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب .

الدستور حقوقها الكاملة وموقعها المتميز ، كما أراد لها الإسلام الذي جاء لتحرير المرأة والرجل ، حتّى أجاز القتال من أجل تحرير المرأة حينما يقول : ﴿ وَمَا كُمْ لَا تُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ (النساء : ٧٥) ، يعني : قاتلوا من أجل تحرير المستضعفين من الرجال والنساء والولدان .

هناك نوع من القلق أقرؤه في بعض الأعلام والكتابات في الصحافة من أنّ الدستور العراقي الجديد سيظلم المرأة في ظلّ الشريعة الإسلامية ، هذا القلق منطقي حينما يُقرأ الإسلام من خلال الممارسة الخاطئة في واقعنا الاجتماعي ، لكن حينما يُقرأ الإسلام من خلال القرآن الذي جعل المرأة كفؤاً للرجل ، وسيرة أهل البيت عليهم السلام ، فلا مبرر لهذا القلق ، فالشريعة الإسلامية تطالب بحقوق المرأة ومساواتها مع الرجل ، وتعطي للمرأة منزلة عظيمة حتّى تصل إلى مستوى العصمة وتكون أمّ الأئمة المعصومين عليهم السلام وحجة على الحجج ، هكذا تجسّدت المرأة في مثل فاطمة وخديجة وزينب وكثير من الصالحات .

والقرآن الكريم لا يذكر مورداً في مدح الرجال إلّا ويردّفه ذكر الصالحات من النساء : ﴿ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ ﴾ (الفتح : ٢٥) ، فلا داعي للقلق حينما نتحدّث اليوم عن المرأة في ظلّ الشريعة الإسلامية فهي أكثر عزّاً وكمالاً وكرامةً واستحقاقاً لحقوقها .

في ذكرى شهادتها عليها السلام

دراسة التاريخ :

هناك من يقول : إنّ دراسة التاريخ يثير الضغينة ، لكننا نقول : يجب أن نتناول التاريخ كما تناوله القرآن الكريم حينما ناقش كلّ التاريخ وناقش مواقف الأمم ، فميدان التاريخ كما هو ميدان العقيدة مفتوح للفكر والحرية الفكرية يجب أن ندرسه ، ويجب أن تكون دراستنا له موضوعية .

إذن هناك خطئان في دراسة التاريخ يجب الابتعاد عنهما :

الأول : أن نتناول الموضوع بقبليات ومسبقات فكرية مفروغ عنها وبتناوله برؤية متحيّزة .

والثاني : أن نجعله من المسكوت عنه ، فلا نناقش فيه ولا نُسجّل ملاحظاتنا عليه .
والمنهج الصحيح هو أن نتناول هذه الموضوعات بموضوعية علمية ومناقشة حرّة وموضوعية كما تناولها القرآن الكريم في موضوع موسى وهارون ، وبني إسرائيل والحواريين ، وأمثاً سابقة بشكل موضوعي .

ماذا يعني إحياء ذكرى شهادة الزهراء ﷺ ؟

إحياء ذكرى شهادة الزهراء ﷺ يعني لنا عدّة أمور :

أولاً : إعادة قراءة التاريخ بشكل صحيح ، فعندما نستذكر الزهراء وعليّ والحسين والحسن وباقي الأئمة ﷺ فإننا نعيد قراءة التاريخ بشكل صحيح الذي شهد انحرافاً بعد رسول الله ﷺ ، وهذا ما كان يتنبأ به ﷺ : « أقبلت عليكم الفتن كقطع الليل »^(١) ، و « ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة »^(٢) ، يا رسول الله وأنت تنبأت بهذا ونذري أنّ الانحراف قد حدث لكن هناك من يحاول أن يُغطّي عليه ، ذكرى الزهراء ﷺ هي دعوى لإعادة قراءة التاريخ ، وكان هناك تغييب للصورة النموذجية وضبابية في مصادر الفقه الإسلامي ، وابتعدوا عن أهل البيت ﷺ .

ثانياً : استعادة روح الرفض المستمرّ للظلم وعدم الاستسلام .

ثالثاً : دور المرأة في البيت وفي الساحة الخارجية ، فالزهراء ﷺ في البيت هي نموذج للمرأة الصالحة ، وفي الساحة الخارجية والحضور الديني والدفاع السياسي خطبت في المسجد ودارت على بيوت الأنصار بيتاً بيتاً . وهذا وعي يجب أن نستلهمه من

(١) شرح نهج البلاغة ١٣ : ٢٧ .

(٢) رواه الإمام أحمد ، وابن أبي الدنيا ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن حبان ، والحاكم .

أهل البيت عليهم السلام ، واليوم فإنَّ العالم العربي والإسلامي عليه أن يعرف ما هو موقع المرأة في رؤية أهل البيت عليهم السلام ، ومع الأسف فإنَّ المرأة في العالم العربي والإسلامي غير مدرسة أهل البيت ما تزال معزولة ، وفي مدرسة أهل البيت عليهم السلام فإنَّ المرأة حاضرة بحجائها وعفافها وثقافتها وعلمها .

رابعاً: محورية أهل البيت عليهم السلام فكراً وسياسةً ، بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله : « إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ما إن تمسكتن بهما لن تضلوا بعدي أبداً » ^(١) ، واليوم عندما نستعيد الذكريات فإنَّنا ندعو العالم إلى محورية أهل البيت عليهم السلام ، فإلى أين أنتم ذاهبون بعيداً عن سفن النجاة وعن عليٍّ عليه السلام باب مدينة علم النبي صلى الله عليه وآله ، بعيداً عن الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنة .

ونبقى مع العالم الفقيه الكبير محمد حسين الأصفهاني ^(٢) في النجف حينما لخص مصيبة الزهراء عليها السلام قائلاً :

لَهْفِي لَهَا لَقَدْ أَضِيعَ قَدْرُهَا	حَتَّى تَوَارَى بِالْحِجَابِ بَدْرُهَا
وَمِنْ سَوَادٍ مَتْنِهَا اسْوَدَّ الْفُضَا	يَا سَاعِدَ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْمُرْتَضَى
وَمِنْ نَبْوَعِ الدَّمِ مِنْ ثَدْيِهَا	يُعْرِفُ عَظَمَ مَا جَرَى عَلَيْهَا
وَجَاوَزَ الْحَدَّ بِلُطَمِ الْخَدِّ	شَلَّتْ يَدَ الطَّغْيَانِ وَالتَّعَدَّى
فَاحْمَرَّتِ الْعَيْنُ وَعَيْنُ الْمَعْرِفَةِ	تَذَرَفُ بِالْذَمِّ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ
وَلَسْتُ أَدْرِي خَبَرَ الْمَسْمَارِ	سَلَّ صَدْرُهَا خَزَانَةَ الْأَسْرَارِ
وَالْبَابُ وَالْجِدَارُ وَالْذِمَاءُ	شُهُودٌ صَدَقَ مَا بِهِ خِفَاءُ ^(٣)

جاء الإمام عليٌّ عليه السلام يشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وآله حسد الحاسدين وقال : « يا رسول الله ، أشكو إليك حسد الحاسدين » .

(١) أحمد بن حنبل في مسنده .

(٢) الشيخ محمد حسين الأصفهاني باعتباره أحد أبرز علمائنا العظام ، والذي تخرَّج على يديه أساطين المذهب ، ولما يحتويه شعره من تفصيل لما وقع على الزهراء عليها السلام البتول عليها السلام . (المحقق) .

(٣) الأنوار القدسية : ٤٢ - ٤٤ .

فقال رسول الله ﷺ: « يا عليُّ ، أَلَا تُحِبُّ أَنْ تَكُونَ أَنَا وَأَنْتَ وَذَرَارِينَا مِنْ خَلْفِنَا وَشِيعَتِنَا عَنْ أَيْمَانِنَا وَشِمَائِلِنَا أَوَّلَ أَرْبَعَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ؟ » (١) .

شهادة الزهراء ﷺ ظاهرة استثنائية !

يوجد لدينا حدث مهمٌ ، وهو أَنَّ الزهراء ﷺ بنت رسول الله ﷺ وسيِّدة نساء العالمين ، ولنفترض جدلاً أَنَّهَا ماتت بظروف غامضة ، ولكننا نجد أَنَّ هناك تبايناً بين ما قبل وفاة النبي ﷺ وما بعد وفاته بأربع وعشرين ساعة تبايناً فاحشاً ، وهنا أتحدَّث عن إجماعات إسلامية ، فالنبيُّ ﷺ كان يقول : « فاطمة سيِّدة نساء العالمين » (٢) ، ويقول : « فاطمة بضعة منِّي يؤذيني ما يؤذيها » (٣) ، والنبيُّ ﷺ يقف على باب دارها ستَّة أشهر ويقول : « أَتَأْذِنِينَ لِأَيِّكَ بِالْدُخُولِ ؟ » ، ثُمَّ يقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (الأحزاب : ٣٣) .

هذا موقف النبي ﷺ مع الزهراء ﷺ ، وهذه الزهراء ﷺ أيام النبي ﷺ ، وكان كلُّ ذلك بمشهد ومسمع من المسلمين ، ولكن بعد وفاة النبي ﷺ هناك ثمان مؤشِّرات تُدلِّل على حدوث منعطف سياسي خطير ، ولا ينفرد الشيعة بهذه الرؤية ، بل كثير من الصحابة كانوا يقولون بحدوث منعطف سياسي جديد ، (وفتنة وقى الله المسلمين شرَّها ، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه) (٤) .

هنا تأتي قضية الزهراء ﷺ لتشير إلى هذا المنعطف السلبي الذي كان ينذر به رسول الله ﷺ قائلاً : « إِنَّكُمْ لَتَغْرِبَنَّ غَرْبَةً ، وَتَتَبَعَنَّ سُنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جَحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ » (٥) ، أو « أَقْبَلْتُ عَلَيْكُمْ الْفِتْنِ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ » (٦) ، فهذه انعطافة تاريخية

(١) المناقب لابن شهر آشوب .

(٢) شرح النهج ٩ : ١١٩ .

(٣) أمالي الأصبهاني .

(٤) شرح نهج البلاغة ، وهي عن عمر بن الخطاب عن بيعته أبي بكر .

(٥) مسند أحمد بن حنبل : ٢٦ .

(٦) شرح نهج البلاغة .

سلبية تركت بصماتها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وحينئذ يأتي السؤال : ما هو الموقف في الخلاص منها ؟ وهو ما رسمه رسول الله صلى الله عليه وآله قائلاً : « إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً » ^(١) .

لنقرأ مؤشرات هذه الانعطافة التاريخية المهمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من خطبة الزهراء عليها السلام :

مؤشرات الانعطافة التاريخية السوداء :

أولاً : المنع عن البكاء :

الزهراء عليها السلام كبت لأبي أب يموت بقطع النظر عن من هي ، أو من هو ، والمتوقى هو رسول الله صلى الله عليه وآله سيد الخلق ، لكن هذه البنت وهي الوحيدة لأبيها تمنع في الأيام الأولى من البكاء عليه ، وهي ظاهرة يُسجلها التاريخ بلا أي اختلاف أن القوم منعوها من البكاء ، وجأوا إلى علي عليه السلام وقالوا : يا أبا الحسن ، إن فاطمة قد أذتنا بكثرة بكائها ^(٢) !

لا تتصوروا أن الزهراء عليها السلام كان لديها عويل ولطم وصراخ ، بل هي لا تقوى على ذلك ، ولم يكن مجلسها حاشداً بالنساء ليمنع الداخل والخارج إلى المسجد مثلاً ، لقد كانت تن أنين البنت الحزينة والموجوعة والضعيفة حتى إنه يغشى عليها ساعة بعد ساعة من شدة الضعف كما جاء في الروايات التاريخية عن أهل البيت عليهم السلام ، لكن مع كل هذا فإن القوم منعوها من البكاء ، وجاء أمير المؤمنين عليه السلام للزهراء عليها السلام وقال : إن القوم يقولون كذا وكذا ، قالت : لا والله أنا أبكي أبي ليلاً ونهاراً ، إذا لم يقبلوا أنا أخرج خارج المدينة أبكي ليلاً ونهاراً تحاشياً للمشكلة ، فبنى لها علي عليه السلام موضعاً خارج المدينة لتخرج إليه وتبكي هناك ساعات ، ولكن القوم لم يطبقوا منها ذلك ، ومنعوها من البكاء على ١٠٥ أبيها حتى وهي خارج المدينة !

(١) مسند أحمد بن حنبل : ٢٦ .

(٢) بحار الأنوار ٢٨ : ٣٧ / ح ٣٩ .

ثانياً : اعتذار الصحابة إليها ﷺ :

بعد أن نجح الانقلاب على الخلافة الشرعية واستتبَّ لهم الحكم جاؤوا إلى عليّ ﷺ ، وقالوا : يا أبا الحسن ، نريد أن تستأذن لنا من الزهراء فقد آذيناها ونريد الاعتذار منها ، فأذنت لهما استجابةً لعليّ ﷺ ، فلما دخلا أشاحت بوجهها عنها وأسدلت ستاراً دونها ، ثم جاءا عن اليمين فأشاحت بوجهها ، ثم قالت : « لا والله لا كلمتكما من رأسي كلمة واحدة حتى تحيياي عليّ سؤال » ، قالوا : بلى يا بنت رسول الله ، قالت : « أنشدكما بالله وأنتم يا من حضر هل سمعتما أبي رسول الله ﷺ يقول : فاطمة بضعة مني يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها يؤذيني ما يؤذيها ؟ » ، قالوا : بلى . قالت : « اللهم أشهد أنهما قد آذياي وأغضباني » ، وهذه ظاهرة يُسجلها التاريخ^(١) .

ثالثاً : عتبها ﷺ على رجال المهاجرين والأنصار :

حينما جاء نسوة المهاجرين والأنصار في مرض الزهراء ﷺ لعيادتها وسألوها عن حالها قالت : « أصبحت والله عائفة لدنياكن ، قالية لرجالكن »^(٢) ، فقد عبرت هنا عن سخطها على رجال المهاجرين والأنصار ، ولكن القرآن الكريم يتحدث عن رضا الله تبارك وتعالى عنهم بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ (الفتح : ١٨) ، فلماذا تقول ذلك ؟ فهل هذا تناقض بين القرآن والزهراء ﷺ ؟

هنا يجب أهل البيت ﷺ عن هذا السؤال بأن رضی الله عنهم في الآية السابقة مشروط بعدم نقضهم للعهد ، وثباتهم على الولاء والوقاء ، لكنهم بإيذائهم ذرية رسول الله ﷺ ومعصيتهم لرسول الله ﷺ في استخلاف عليّ ﷺ يكونوا قد نقضوا العهد ، لاحظ قوله تعالى في نفس السورة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ

(١) الطرائف للسيد ابن طاووس .

(٢) المراجعات لشرف الدين الموسوي / المراجعة رقم ١٠٤ .

اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴿ (الفتح : ١٠) ، مِمَّا يُدَلِّلُ عَلَى أَنَّ رضا الله تعالى مشروط بعدم نكث البيعة ، بل قد تكون الآية واضحة في أَنَّ هناك من ينكث البيعة منهم .

رابعاً : غصب فديك :

فقد أقدم أبو بكر على غصبها فديكاً ، وجاءت تطالب به ، وأقامت على ذلك شهوداً ، لكنهم رفضوا الاستجابة لها^(١) .

خامساً : شكواها عليها السلام إلى أبيها صلّى الله عليه وآله :

إنَّ الزهراء عليها السلام تحدّثت في بعض المشاهد مع أبيها صلّى الله عليه وآله وهو في قبره ، وشكت إليه الأشجان ، ولم يكن ذلك من ألم الفراق وإنما كانت تشكو إليه ما جرى عليها قائلة :

صَبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِبَ لَوْ أَنَّهَا صَبَّتْ عَلَى الْآيَامِ صَرْنَ لِيَالِيَا
إِذْنِ مَا الَّذِي حَدَثَ ؟ وَمَا الَّذِي جَرَى ؟ وَكَيْفَ تُفَسِّرُ ذَلِكَ مَعَ بِنْتِ رَسُولِ
اللَّهِ صلّى الله عليه وآله وَحَبِيبَتِهِ ؟

سادساً : الهجوم على الدار :

حينما بلغهم أَنَّ عليّاً في الدار ممتنعاً عن البيعة ومعه الزبير وأبي ذر ومقداد وعمّار وسلمان ، قالوا : يجب أن تباع يا عليّ ، ففتحوا الدار قسراً ، بينما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يستأذن في الدخول عليها ، ثم قادوا عليّاً عليه السلام مكبلاً وهو الرجل الذي قالت فيه السماء : (لافْتِيْ إِلَّا عَلِيّ) ، وهو أخو رسول الله صلّى الله عليه وآله وأول القوم إسلاماً ، وإذا به يُقاد عنوة ويؤخذ مكتوفاً !

كيف تُفسّر ذلك ؟ أليس هاهنا انعطافة تاريخية وانقلاباً قد حدث ؟

(١) راجع في ذلك كتاب (فديك في التاريخ) للشهيد السيّد محمد باقر الصدر رحمته الله .

سابعاً : جمع الحطب على دار الزهراء ﷺ :

حتى قيل لعمر بن الخطّاب : إنّ في الدار فاطمة ، قال : وإنّ ! أرجو أن نكتشف المداليل السياسية في ذلك ، فهي انعطافة تاريخية لها مداليلها .

ثامناً : في الواقع التاريخي المشهور أنّها ﷺ دُفِنَتْ ليلاً :

وما زال قبرها مجهولاً ، وكان ذلك بوصيّة منها ، وتنفيذاً من الإمام عليّ ﷺ ، فكيف نُفسّر ذلك ؟ أليس ذلك يعني حدوث تقاطع كبير بين الزهراء وبين الذين قادوا المسيرة بعد رسول الله ﷺ ؟

الزهراء ﷺ تؤكد وقوع الانحراف :

الزهراء ﷺ قدّمت قراءة تاريخية لما جرى بعد رسول الله ﷺ ، ونحن لا نتعامل مع قضية الزهراء ﷺ فقط على أنّها ظلامه ، بل أيضاً على أساس أنّها قراءة تاريخية وفهم للمسارات .

يتسائل بعضهم : أين تحدّثت الزهراء ﷺ ونصرت عليّاً ﷺ ؟ بينما كانت في خطبتها الأولى تدافع عن حقوقها الشخصية وعن فلك حين تقول : « أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي ؟ » ، فأين دفاعها عن الإمام واحتجاجها على أبي بكر حول ذلك ؟ لأجل ذلك أحببت أن أقرأ لكم نصّاً من خطبة الزهراء ﷺ التي توضّح دفاعاتها عن الإمامة وعن الإمام عليّ ﷺ ، وتقدّم قراءتها للتاريخ ، والتي يؤكّدها شيعة أهل البيت ﷺ حين تقول :

« ويجهّم أنا زحزحوها عن رواسي الرسالة ، وقواعد النبوة ، والدلالة الروح الأمين ، والطين بأمر الدنيا والدين ، ألا ذلك هو الخسران المبين . وما نقوموا من أبي الحسن ؟ نقوموا والله منه نكير سيفه ، وقلة مبالاته بحتفه ، وشدة وطأته ، ونكال وقعته ، وتنمّره في ذات الله . » ثمّ قالت ﷺ : « ألا هلمّ فاستمع وما عشت أراك الدهر عجباً ، وإن تعجب فقد

أعجبك الحادث ، ليت شعري إلى أيِّ سناد استندوا ؟ وعلى أيِّ عماد اعتمدوا ؟ وبأيِّ عروة تمسكوا ؟ وعلى أيّة ذرية أقدموا واحتنكوا ؟ ولبئس المولى ولبئس العشير ، وبئس للظالمين بدلاً ، استبدلوا والله الذنابى بالقوادم ، والعجز بالكاهل ، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يُحسنون صنعا ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون .

ويجهم أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى ، فما لكم كيف تحكمون ؟ أما لعمر إلهك لقد لقحت فظرة ريشما تنتج ، وثم احتلبوا طلاع القعب دماً عبيطاً وذعافاً ممتراً ، هنالك يخسر المبطلون ويعرف التالون غبّ ما سنّ الأولون ، ثم طيبوا بعد ذلك عن أنفسهم واطمأنوا للفتنة جأشاً ، وأبشروا بسيف صارم ، وسيطرة معتد غاشم ، وهرج شامل ، واستبداد من الظالمين ، يدع فيئكم زهيداً ، وزرعكم حصيداً ، فيا حسرتاً لكم ، وأنى بكم ، وقد عُميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ » .

الزهراء عليها السلام هنا تُقدّم قراءة للتاريخ ، وتدافع عن عليّ عليه السلام ، وتؤكد أنّ هناك انحرافاً قد حدث بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنّ ما يجري على المسلمين من بلاء إلا نتيجة ذاك الانحراف .

التداعيات والأحداث بعد رحلة نبينا صلى الله عليه وآله :

كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتنبأ بأن المسارات سوف لا تكون عادية وطبيعية بعده ، لأنّ مسار الأمة الإسلامية سوف يشهد انعطافات سلبية ، وكان يقول : « أقبلت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم » ، قالوا : يا رسول الله ، ماذا نضع ؟ قال صلى الله عليه وآله : « ألزموا عليّاً » ^(١) .

وكان صلى الله عليه وآله يتنبأ بها سيجري على أهل بيته بدءاً بفاطمة وعليّ إلى الحسن والحسين عليهم السلام ، كلّ ذلك كان يقرؤه رسول الله صلى الله عليه وآله : « كآني بها وقد دخل الذلُّ بيتها » ^(٢) .

القراءة التي يُقدّمها شيعة أهل البيت عليهم السلام للتاريخ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ هناك

(١) شرح نهج البلاغة .

(٢) الاحتجاج للطبرسي ١ / ١٤٥ ط دار النعمان .

انقلاباً سياسياً حدث بعد النبي ﷺ ، وكل المؤثرات التاريخية تدلُّ على هذا الانقلاب السياسي ، بما يعني أنَّ ما جرى بعد رسول الله ﷺ لم يكن بالشكل الذي رسمه النبي ﷺ ، فقد استُخدم في هذا الانقلاب وسائل العنف والقمع والتهديد بالقتل والتشريد والتطريد ، والتاريخ السُّنيّ والشيوعي لا ينكر ذلك ، هذا قتلوه ، وذاك قيل : قتله الجنُّ ، والآخر يقول : (لتخرجنَّ أو لأحرقنَّ عليك دارك)^(١) ، فهو انقلاب استُخدمت فيه أساليب العنف والقمع ، وآخر يُنفى إلى الربذة ، وآخر يُطعن في بطنه حتَّى يُغمى عليه ، وحُمل إلى دار عائشة مغمى عليه ثلاثة أيام ، وهو عمار بن ياسر .

هذا الانقلاب أوَّل ما تمثَّل هو بالتعدّي على أهل البيت ﷺ ، الذي بدأ منذ أن كان رسول الله ﷺ حيّاً في الساعات الأخيرة حينما قيل : « إنَّ الرجل ليهجر » ، وبدأ هذا التعدّي والتجاوز بعد غضب الخلافة كجمع الخطب على باب فاطمة ﷺ ، وكسر ضلعها ، وإسقاط جيننها ، ومنعها من البكاء على أبيها ﷺ ، بقيادة عليّ ﷺ مكبلاً إلى مسجد النبي ﷺ ، وملتفت إلى قبر رسول الله ﷺ ويقول : « يا ابن عمِّ إنَّ القوم استضعفوني » .

العلامة الكبير الفقيه الشيخ الأصفهاني الكمباني وهو من علماء النجف الكبار ينظم نماذج من هذه التعديّات في أرجوزته حينما يقول :

ولست أدري خبر المسمار	سَلْ صدرها خزانة الأسرار
وفي جنين المجد ما يدمي الحشا	وهل لهم إخفاء أمر قد فشا
الباب والجدار والبكاء	شهود صدق ما به خفاء
لقد جنا الجاني على جنينها	فاندكَّت الجبال من حينها

شهادة الزهراء ﷺ الدلالات التاريخية :

إنَّ الدلالة التاريخية لقضية الزهراء ﷺ تتلخَّص في قضية واحدة ، هي سلب الشرعية عن مدرسة الخلافة الراشدة ، أي إنَّ كلَّ ما تحمَّلت الزهراء ﷺ ومواقفها ومواقف عليّ ﷺ له مدلول تاريخي ، وهو سلب الشرعية عن الانحراف .

نعتقد أنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله تسلط الانحراف وحكم ، هذا الأمر يحتاج إلى تأكيد واستدلال ، وهذا كان من خلال قضيتها وما جرى عليها عليها السلام .

إن حكومة الخلافة الراشدة هي الجهة المستعدة لحرق بيت الزهراء عليها السلام وكسر ضلعها ، ومستعدة لقتل علي عليه السلام وقوده أسيراً ! إن تلك الجهة التي غضبت عليها الزهراء عليها السلام وماتت وهي عليها ساخطة لا شرعية لها . هذا خلاصة مدلول قضية الزهراء عليها السلام الذي أرادت أن تثبت على طول التاريخ ، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله جعلها مقياس الحق والباطل : « إن الله تبارك وتعالى ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها » ^(١) .

وقد أكدت ذلك وقالت : إنني إذا كنت مقياس الحق والباطل ، فأنا غير راضية عن الحكم القائم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، والذي يُسمى مدرسة الخلافة الراشدة في مقابل مدرسة أهل البيت عليهم السلام . تقول الزهراء عليها السلام : إن تلك المدرسة وكل ما ينتج عنها من فقهاء وكتب وأحاديث وصحاح هو غير شرعي ؛ لأنها قائمة على باطل ، والمدرسة الشرعية هي مدرسة أهل البيت عليهم السلام فقط .

ثم جاء الحكم الأموي لكي يُنسى ويمسح هذا المدلول العظيم ، حيث أصدر معاوية أمراً بوضع مئات الأحاديث في فضل الأول والثاني والثالث ، ومنع أي حديث في فضل علي وأهل البيت عليهم السلام ؛ لكي يُغيّر الجو الإعلامي العام ويُعطي شرعية للحكومات السابقة ، وهنا مرة أخرى جاء صلح الإمام الحسن عليه السلام ليكشف نفاق الحكم الأموي ، ثم جاءت ثورة الإمام الحسين عليه السلام في إيقاظ ضمير الأمة وتعريفها بانحراف الجهاز الحاكم .

كان هناك خطر ، وهو أن يلبس الانحراف ثوب الدين والشرعية ، وبالتالي تضيع الحقيقة على الناس ، فلا يُعرف من هو علي عليه السلام ؟ ومن هو عثمان ؟ ومن هو الحسين عليه السلام ؟ ومن هو يزيد ؟ فيقال : كلهم أئمة المسلمين ! كانت الزهراء عليها السلام صوتاً لكشف الحقيقة ، وصوتاً لسلب الشرعية عن مدرسة الانحراف ، ثم كان الحسن عليه السلام ، ثم كان الحسين عليه السلام .

شبهتان في قضية الزهراء ﷺ

الشبهة الأولى: كيف نُفسّر انحراف أمة واسعة بعد رسول الله ﷺ؟

الشبهة الثانية: يقول التاريخ: إنه تمّ العدوان على الزهراء ﷺ بكسر ضلعها وإحراق بابها وسقوط جينها، فهل يُعقل صدور هذا الأمر من مجموعة من العرب الذين لديهم قيم عربية حتى وإن كانوا ضدّ الزهراء ﷺ؟ فهل من المعقول أن يعتدوا على الزهراء ﷺ وهي امرأة؟!

والجواب على الشبهة الأولى: أن هذه حقيقة تاريخية تحدّث عنها رسول الله ﷺ والقرآن وليس نحن الشيعة فقط، فإجماع كل المؤرخين والمحدثين والصالح أن رسول الله ﷺ قال: «إن أمتي ستفترق على نيف وسبعين فرقة، كلّها في النار إلا واحدة»^(١).

إن رسول الله ﷺ إذن يؤكّد حدوث الانحراف بعده، والقرآن يتحدّث عن عملية انقلاب تحدّث بعد النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

إذا رجعنا للتاريخ أيضاً، ألسنا نعتقد بأن أمة موسى قد انحرفت بعده، وهكذا أمة عيسى؟ ألسنا نعتقد بأن بني إسرائيل وكانوا يومئذ أفضل الأمم قد انحرفوا ثم استبدلهم الله تعالى بغيرهم؟ ألسنا نعتقد أن كتباً إلهية مثل التوراة والإنجيل قد حرّفت وضاعت، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (النساء: ٤٦)؟

فإذا كان من الممكن أن تنحرف أمة موسى وعيسى، وتحرّف التوراة والإنجيل، إذن هناك إمكانية تاريخية أن يجري الانحراف بعد رسول الله ﷺ، وهذا ما حدث بالفعل لولا نور أهل البيت ﷺ، حيث حافظوا على الأصالة والنقاء والهداية، لكنهم كانوا يمثّلون الأقلية، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن أمتي ستفترق على نيف وسبعين فرقة، كلّها في النار إلا واحدة»، ولهذا بدأ علماء السُنّة يبحثون عن هذه الفرقة الناجية؟ وكلّ مذهب يقول: نحن الفرقة الناجية. إذن هناك فكرة معقولة أن هناك فرقة ضالّة،

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم، (انظر كتاب المراجعات والفصول المهمة وغيرهما).

وهناك فرقة واحدة ناجية يجب البحث عنها ، نحن شيعة أهل البيت عليهم السلام نقول : إنَّ هذه الفرقة الناجية هي فرقة أهل البيت عليهم السلام .

جواب الشبهة الثانية : أنَّ هذا التساؤل في الحقيقة لا يستطيع أن يُشكَّك بواقعية ما جرى ، هذا تاريخ ثابت لدى الفريقين أنَّ هذه الوقائع قد جرت وانتهت إلى أنَّ الزهراء عليها السلام منعت من أن يشتركوا في تشييعها ودُفِنَتْ سرًّا وقبرها مجهول لحدِّ الآن ، هذه وقائع تاريخية لا يمكن الشكُّ فيها .

إذن يجب أن نتساءل : لماذا فعلوا هكذا ؟ ولماذا لم تمنعهم القيم العربية من ذلك ؟
الجواب : أنَّ المسألة حينما تكون ذات أهداف سلطوية فإنَّهم سوف يرتكبون كلَّ المجازر ، كالذين استعدُّوا لقتل الحسين عليه السلام ، ومُحِلَّ رأسه على رأس رمح طويل ، فهل إنَّ مثل هؤلاء لا يهجمون على الزهراء عليها السلام ؟

الذين قادوا بنات رسول الله صلى الله عليه وآله سبايا من الكوفة إلى الشام هل يمتنعون من الهجوم على الزهراء عليها السلام ؟

الذين كان يلعنهم رسول الله صلى الله عليه وآله حينما أمر بتجهيز جيش أسامة بقوله : « لعن الله من تخلف عن جيش أسامة »^(١) ، ولم يحضروا ، هل هؤلاء يراعون القيم العربية ؟
قال هؤلاء في مجلس النبي صلى الله عليه وآله وهو خاتم الأنبياء : (إنَّ النبيَّ ليهجر)^(٢) ! أي إنَّه يتكلَّم بكلام غير موزون !

هل الإنسان المستعدُّ لأن يقول لخاتم الأنبياء والمرسلين بأنَّه يتكلَّم بكلام غير موزون ، هذا القائل هل تمنعه القيم العربية أو إسلامية من أن يهجم على امرأة ؟

هذه الشبهات إذا كانت لأجل التشكيك فهي شبهات مرفوضة ، نعم كأسئلة يجب ١١٣ أن تكشف لنا الحقيقة ، وهي أنَّ هناك ابتعاداً عن القيم الإسلامية والعربية ، وأنَّ هناك

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٨ : ١٢٤ .

(٢) صحيح البخاري/ كتاب العلم/ باب كتابة العلم .

جذوراً جاهلية لا تزال موجودة في نفوس أولئك القوم ، القرآن يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحجرات : ٤) ، إنهم مسلمون ، لكن جذورهم جاهلية ، والقرآن يقول : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

هذه الحقيقة التاريخية ، وهي العدوان على الزهراء ﷺ تكشف عن جذور جاهلية لم تزل موجودة في أولئك الذين اعتدوا على أهل البيت ﷺ ، وعلى الزهراء وعلى عليّ ﷺ .

نحن اليوم إذ نعيش ذكرى شهادة سيّدة نساء العالمين نحمد الله تعالى أن جعلنا من المهتدين بهديهم ، نحمد الله تعالى أن جعلنا من المتمسكين بولايتهم ، نحمد الله تعالى أن جعلنا من العارفين بشأنهم ، ممن ركب هذه السفينة ، سفينة النجاة ، كما قال رسول الله ﷺ : « من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهو »^(١) .

إجماعات تاريخية

الرواية المشهورة التي يذهب إليها علماء الشيعة أنّ الزهراء ﷺ توفيت بعد وفاة رسول الله ﷺ بـ (٩٥) يوماً ، أي في (٣) جمادى الآخرة ، رغم أنّه توجد رواية معتبرة يقبلها العلماء تقول : إنّ وفاتها كانت بعد (٧٥) يوماً من وفاة رسول الله ﷺ ، أي في (١٣) جمادى الأولى .

مهما يكن القول فالشيعة دأبوا على إحياء ذكرى الزهراء ﷺ وشهادتها ، السؤال هو لماذا إحياء ذكرى الزهراء ﷺ ؟

هناك إجماعات تاريخية لا يختلف عليها المسلمون في شأن الزهراء ﷺ ، لكن سيختلفون ويفترقون علمياً في طريقة التعامل والتعاطي مع تلك الحقائق التاريخية ، وهذه الإجماعات هي :

١- أنّ الزهراء ﷺ هي مقياس الغضب والرضا الإلهي ، « يغضب لغضبها ويرضى »

لرضاها» ، هذه الحقيقة التاريخية هي حقيقة إجماعية لا يناقش فيها أحد من المسلمين ، فقد صحَّ لدى الفريقين حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله يقول فيه : « يا فاطمة ، إنَّ الله يرضى لرضاكَ ويغضب لغضبك »^(١) ، وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وآله : « إنَّ الله تبارك وتعالى ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها »^(٢) .

٢- الزهراء عليها السلام سيِّدة نساء العالمين ، لا ينافسها على هذا اللقب أحد من نساء العالمين حتَّى أمُّها خديجة الكبرى والتي هي من سيِّدات النساء ، لكن سيِّدة نساء العالمين من الأوَّلين والآخرين هي فاطمة عليها السلام كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « فاطمة سيِّدة نساء العالمين من الأوَّلين والآخرين »^(٣) .

٣- هي أمُّ الأئمة عليهم السلام ، وأمُّ ذرِّيَّة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى يوم يبعثون ، القرآن الكريم يقول : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْنَر ﴾ (الكوثر : ١) ، ومعناه على قول : كثرة النسل والذرِّيَّة ، والتي هي من نسل الزهراء عليها السلام ، وهي أمُّ الأئمة الأطهار المعصومين الذين نقبلهم نحن ، وغيرنا يُقدِّمون عليهم غيرهم ، لكن لا يختلف أحد من المسلمين في إمامة الحسن والحسين وبقية الأئمة عليهم السلام ، وبإجماع إسلامي على أنَّ هؤلاء نجوم لامعة في سماء الفكر الإسلامي ، المسلمون لا يختلفون في أنَّ « الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنة »^(٤) ، والزهراء هي أمُّ الحسن والحسين عليهم السلام ، وأمُّ جميع ذرِّيَّة رسول الله صلى الله عليه وآله بإجماع الفريقين .

٤- حُبُّ النبي صلى الله عليه وآله بأقصى درجات الحُبِّ لها ، ولم يُعرف عن رسول الله صلى الله عليه وآله حُبُّ كما عُرِفَ للزهراء عليها السلام ، كان يُقبَّل يدها ، كان يقوم لها إذا دخلت وهي بنت صغيرة ، حتَّى إنَّ عائشة كانت تغار منها وتقول في الرواية التاريخية الثابتة : يا رسول الله ، ما لك تُحِبُّ فاطمة حُبًّا ما تُحِبُّ أحداً من أهل بيتك ؟ قال : « إِنَّهُ لَمَّا أُسْرِى بي إلى السماء

(١) كنز العمال .

(٢) الأمالي للشيخ الصدوق .

(٣) الأسرار الفاطمية لمحمد فاضل المسعودي .

(٤) بحار الأنوار ٣٦ : ٢٦٣ / باب ٤١ / ح ٨٣ .

انتهى بي جبرئيل عليه السلام إلى شجرة طوبى، فعمد إلى ثمرة من أثمار طوبى ففركه بين إصبعيه، ثم أطعمنيه، ثم مسح يده بين كتفي، ثم قال: يا محمد، إن الله تعالى يُشرك بفاطمة من خديجة بنت خويلد، فلما أن هبطت إلى الأرض فكان الذي كان فعلت خديجة بفاطمة، فأنا إذا اشتقت إلى الجنة أدنيتها فشمنت ريح الجنة، فهي حوراء إنسية»^(١).

في حديث مفصل عن حب النبي ﷺ لها حتى كان يقول: «هي بضعة مني»^(٢)، و«هي رuchi التي بين جنبي»^(٣)، وباتفاق المؤرخين والمحدثين.

٥- ظلامة الزهراء عليها السلام، هناك إجماع تاريخي على أن الزهراء عليها السلام تعرضت لظلم عظيم بعد رسول الله ﷺ، من من الباحثين لا يعرف أن الزهراء عليها السلام غصبت فداً؟ من من المؤرخين لا يثبت حقيقة الهجوم على دار الزهراء عليها السلام؟

من من المؤرخين يستطيع أن ينكر جمع الخطب على باب دار الزهراء عليها السلام؟ من من المؤرخين ينكر تهديدهم بإضرار الدار ناراً حتى قيل لهم: إن فيها فاطمة! قالوا: وإن^(٤).

هذه فاطمة عليها السلام التي يقول عنها رسول الله ﷺ: إنما روحه التي بين جنبيه، لا أحد من المؤرخين يشك أن علياً اقتادوه أسيراً، وخرجت الزهراء عليها السلام خلفه تقوم مرة وتقع أخرى وهي تقول: «خلوا ابن عمي»^(٥)، هذه ظلامة الزهراء عليها السلام، ولا أحد من المؤرخين يشك أنهم منعوها من البكاء وجأؤوا إلى علي عليها السلام وقالوا: يا علي، قل لفاطمة أن تبكي إماً في الليل وإماً في النهار فقد آذتنا بكثرة بكاءها، قالت: «لا والله لا أدع البكاء علي أبي في الليل أو النهار، يا علي قل لهم: سوف لا يطول مكثي معهم إلا قليلاً»، ثم كانت

(١) البحار للمجلسي ٣٧: ٨٤.

(٢) صحيح البخاري.

(٣) الخصائص الفاطمية/ للشيخ محمد باقر الكجوري ١: ٥٢٢ و٥٢٣.

(٤) الإمامة والسياسة/ ابن قتيبة: ١٢ و١٣.

(٥) الأسرار الفاطمية: ٥٨ - ٧٤.

تخرج خارج المدينة في حرارة الشمس حيث بنى لها عليٌّ عليه السلام بيتاً سُمِّيَ بيت الأُحزان^(١).

٦- غضبها عليّ الرجلين ، إجماع تاريخي عليّ أنّ الزهراء عليها السلام ماتت غاضبة عليّ الرجلين ، وبرواية مؤرّخي السُنّة ، عن ابن قتيبة في (الإمامة والسياسة) : جاء أبو بكر وعمر إلى عليٍّ عليه السلام وقالوا : يا عليّ ، نريد أن تستأذن لنا من فاطمة الزهراء ندخل عليها ونطلب رضاها - بعد أن عملوا ما عملوا واستتبّ لهم الحكم - وأصرّا عليه ، فأقبل إلى فاطمة وهو ينتظر الإذن من الزهراء حيث إنّ لها منزلة عظيمة لدى الإمام عليٍّ عليه السلام.

قال لها : « يا فاطمة ، إنّ القوم يريدون الدخول عليك » .

قالت : « لا أرضي » .

قال : « يا فاطمة فإنّي قد أذنت لهم » .

قالت : « البيت بيتك والحُرّة زوجتك » ، فدخلا وسلّما عليها فلم ترد عليهما السلام ، وأدارت بوجهها عنهما ، أقبلّا إلى يمينها ، فأدارت وجهها إلى يسارها .
قالوا : يا فاطمة كلّمينا .

قالت : « والله لا كلّمتهما كلمة حتّى تحييانني عليّ سؤال » .

قالا : أسألي يا بنت رسول الله .

قالت : « أسألكما بالله هل سمعتما أبي يقول : فاطمة بضعة منّي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها ؟ » .

قالوا : بلى سمعنا ذلك .

قالت : « اللهمّ اشهد وأنتم يا معشر من حضر اشهدوا أنّي غاضبة عليكما » .

ثمّ التفتت إلى أبي بكر وقالت : « والله لأدعونّ عليك بعد كلّ صلاة » .

فقام أبو بكر يبكي ، فقال له عمر : أتبكي لقول امرأة ؟

وهذا إجماع تاريخي ، وأنّ الزهراء عليها السلام ماتت غاضبة عليّ أولئك الذين خذلوها وخذلوا عليّاً ، وأولئك الذين ظلموها وظلموا عليّاً وأهل البيت عليهم السلام .

٧- دفنها ليلاً واخفاء قبرها وعدم السماح بتشييعها ، وهذا كله بإجماع الفريقين .

نقطة الخلاف هي مسألة التمسُّك وعدم التمسُّك ، فنحن نتمسُّك بالحقائق التاريخية واستحقاقاتها ، وغيرنا يعلم بالحقائق التاريخية ولكن لا يريد أن يتمسَّك بها ، بل يريد أن يغفل ويعرض عنها ، لأنَّ أصل القضية هو التمسُّك وليس المعرفة ، القرآن يقول : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ ﴾ (الأعراف : ١٧٠) ، رسول الله ﷺ يقول : « إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا : كِتَابَ اللَّهِ وَعِترتي أَهْلَ بَيْتِي ، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ »^(١) ، فنحن شيعة أهل البيت نتمسُّك بهذه الحقائق ، وهذا يعني أولئك الذين ظلموا الزهراء ﷺ وماتت وهي غاضبة عليهم لا يستحقُّون إمامة سياسية ولا فكرية ولا أخلاقية ، وهذا هو معنى التمسُّك بالحقائق .

مشكلة المسلمين بدأت حينما أصبحوا يتعاملون مع الحقائق التاريخية والقرآنية بتسامح وإهمال ، فقادهم يزيد بن معاوية وسُمِّي أمير المؤمنين ، وأمثال مروان بن الحكم وأمثال صدام ، وسُمِّي أيضاً القائد المؤمن ، مشكلة المسلمين هي عدم التمسُّك بالحقائق واستحقاقاتها .

نحن نقول : إذا كانت ظلامة الزهراء ﷺ حقيقة ، وإذا كانت هي مقياس الغضب والرضا الإلهي ، فإنَّ استحقاق ذلك أن لا نقبل بأحد قد أغضبها وآذاها ولا نعتقد بإمامته الفكرية ولا السياسية ولا الأخلاقية ، مشكلة المسلمين أنَّهم ارتبطوا بقيادات غير شرعية وأوصلتهم إلى ما أوصلتهم إليه من تسلُّط الظالمين والقردة الذين رأهم رسول الله ﷺ في منامه ينزون على منبره وهم آل أُمِّيَّة^(٢) ، وما تزال مشكلة المسلمين هي هذه أيضاً حينما يقبلون فتاوى أُموية بشأن شيعة أهل البيت ﷺ .

(١) بحار الأنوار/ ج ٢٣ .

(٢) المستدرک/ الحاكم النيسابوري/ كتاب الفتن/ رقم الحديث ٨٤٨١ .



آلْبَابُ الرَّابِعُ

مَعَ الْإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١. في ذكرى الولادة المباركة

٢. مشكلة اختلاط الأوراق

٣. دور الإمام الحسن عليه السلام

٤. سياسة الإمام الحسن عليه السلام

٥. رمزية الإمام الحسن عليه السلام

٦. شبهة حول الصلح

٧. موقف الإمام الحسن عليه السلام

٨. التحليل الغيبي لصلح الإمام عليه السلام

٩. مصائب الإمام الحسن عليه السلام

١٠. أخلاقه وظلامته



في ذكرى الولادة المباركة

وُلِدَ الإمام الحسن المجتبيُّ عليه السلام في السنة الثالثة من الهجرة في ليلة النصف من شهر رمضان المبارك ، ولَمَّا وُلِدَ الحسن عليه السلام جاءت الزهراء عليها السلام به إلى عليٍّ عليه السلام لِيُسَمِّيَهُ ، فقال : « ما كنت لأسبق رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك » .

فأقبل به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : « يا رسول الله سَمِّه » .

فقال : « ما كنت لأسمِّه وأسبق الله في ذلك » ، القرار من الله والاسم من الله .

فهبط جبرائيل عليه السلام يقول : « إِنَّ اللَّهَ يُقَرِّئُكَ السَّلامَ ويقول : إِنَّ عَلِيًّا مِنْكَ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، فَسَمِّهِ بِاسْمِ ابْنِ هَارُونَ » ، قال : « وما اسم ابن هارون ؟ » ، قال : « اسمه شُبر » ، قال : « لساني عربي » ، قال : « سَمِّهِ الْحَسَنَ » ، فسَمَّاهُ الْحَسَنَ ^(١) .

تلك هي تسمية رسول الله صلى الله عليه وآله لإمامنا سيِّد شباب أهل الجنة ، الحسن الزكي عليه السلام . وقال عنه صلى الله عليه وآله فيما رواه أبناء العامة في مصادرهم ، كما رواه الشيعة في مصادرهم : « اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ وَأُحِبُّ مِنْ يُحِبُّهُ » ^(٢) ، قالها ثلاثاً .

يروى الشيخ الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام : « إِنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام كَانَ أَعْبَدَ

(١) صحيح مسلم/ فضائل الصحابة/ فضائل الحسن والحسين عليه السلام / رقم الحديث ٤٤٤٦ .

(٢) مسند أحمد/ أوّل مسند الكوفيين/ رقم الحديث ١٧٧٧٠ .

الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم ، وكان إذا حجَّ حجَّ ماشياً ، وربَّما مشى حافياً ، وكان إذا ذكر الموت بكى ، وإذا ذكر القبر بكى ، وإذا ذكر البعث والنشور بكى ، وإذا ذكر الممرَّ على الصراط بكى ، وإذا ذكر العرض على الله شهق شهقة يُخشى عليه منها ، وكان إذا قام في صلاته ترتعد فرائضه بين يدي ربِّه ، وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم (الملدوغ) ، ويسأل الله الجنة ويعوذ به من النار ، وكان إذا قرأ في كتاب الله : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ قال : (لبيك اللهم لييك) ، ولم يُرَ في شيء من أحواله إلا ذاكر الله سبحانه ، وكان أصدق الناس لهجةً ، وأفصحهم منطقاً ^(١) .

تخليد الذكرى :

ولادة الإمام الحسن الزكي عليه السلام في النصف من شهر رمضان وذلك في عام (٢) أو (٣) للهجرة ، وهذا أوَّل مولود يُؤكِّد لرسول الله ﷺ ، وجاء المسلمون يهتفون بفرح وأهازيج إلى رسول الله ﷺ ، وفي مشاركة مع هذا الفرح هبط جبرائيل عن الله تبارك وتعالى قال : « يقول الله تعالى : إِنِّي أُحِبُّهُ وَأُحِبُّ مِنْ يُحِبُّهُ ^(٢) . ومع الأسف فإنَّ بعض الدول منعت وأفتت بحرمة إحياء ميلاد الإمام الحسن عليه السلام في النصف من شهر رمضان ، والشيعنة في المملكة العربية السعودية يحيون هذه الذكرى فيقال لهم : هذا شرك وبدعة ، والدولة تتخذ موقفاً مضاداً له ، فبدل أن تُفكِّر الدولة بخدمة الناس والالتحام مع العالم الإسلامي ومواجهة الأعداء وإذا بها تتحوَّل إلى المنع من إحياء ميلاد الإمام الحسن عليه السلام وإصدار فتوى بتحريمه وتكفير الشيعة ومنع إعمار البقيع وزيارته وما شاكل ذلك .

رسول الله ﷺ فرح في هذه المناسبة ، فنحن نفرح له ، فنحن نُخلِّد هذه الذكرى التاريخية كما نُخلِّد انتصار المسلمين في معركة بدر ، فما الضير في ذلك ؟

كلُّ العالم يُحيي ذكرياته التاريخية ، ولكن عندما يُحيي الشيعة ذكرياتهم التاريخية يقال لها : هذا شرك وحرام ، ونحن إذ نُحيي ميلاد الإمام الحسن عليه السلام نشكر الله تعالى

(١) بحار الأنوار ٤٣ : ٣٣١ .

(٢) سنن الترمذي ٥ : ٣٢٧ / أبواب المناقب / رقم ٣٨٧٢ .

على أن من علينا بمثل هؤلاء الأئمة وعلى أن بارك لرسول الله ﷺ في ذريته ، أليس يحتاج أن نفرح بذلك ؟ وإذا فرحنا فأئى شرك في هذا الأمر ؟ ! نحن نحمد الله تبارك وتعالى على أن جعل أئمتنا عليهم السلام سادات شباب الجنة ، وهذه نعمة نشكر الله تعالى عليها ، وإحياء الذكرى معناه شكر الله تعالى واستذكار هذه النعمة كما نستذكر أي نعمة أخرى وأي حدث آخر كالهجرة والمعراج والمبعث النبوي ، وهذا ارتباط بالله تعالى وبرسول الله ﷺ وبالتاريخ .

الإمام الحسن عليه السلام ومشكلة اختلاط الأوراق

كان الإمام الحسن عليه السلام يواجه مشكلة تُسمّى اليوم باصطلاحنا : (مشكلة اختلاط الأوراق) ، ظهور الباطل بصورة الحق ، ورفع شعارات حقّة لكنها مزيفة .

هذه المشكلة رغم أن بداياتها كانت في زمن حكومة الإمام علي عليه السلام ، ومحاولات معاوية مخادعة الرأي العام بتلك الشعارات ، إلّا أنّها برزت أكثر في زمن الإمام الحسن عليه السلام ، وسيطرت بشكل كبير على العالم الإسلامي ، فالاسم هو الإسلام ، والخلافة لرسول الله ﷺ ، وشعارات حفظ الجماعة والوحدة الإسلامية ، لكن ما هو على أرض الواقع فإنّ شيء آخر .

الناس واجهوا تضليلاً إعلامياً ، سيطر على عقول مساحة واسعة من المسلمين ، فكان على الإمام الحسن عليه السلام أن يقف في مواجهة هذه الحملة الإعلامية وهذه الحرب التضليلية .

أقرأ لكم نصّاً عن الإمام الحسن عليه السلام ، يقول :

« واعلموا علماً يقيناً أنّكم لن تعرفوا التقى حتّى تعرفوا صفة الهدى ، ولن تُمسكوا بميثاق الكتاب حتّى تعرفوا الذي نبذه ، ولن تتلوا الكتاب حقّ تلاوته حتّى تعرفوا الذي حرّفه »^(١) .

هذه ثلاث توصيات من الإمام عليه السلام لأجل توضيح الحقيقة بعد أن حاول الأمويون

خلط الأوراق :

أولاً : معرفة صفة الهدى لكي يتم التمييز بين أتباعه وأتباع الضلال .

ثانياً : معرفة الذين أعرضوا عن القرآن وخالفوه ، وتعريتهم لكي لا يخدعوا الناس بشعاراتهم .

ثالثاً : معرفة معاني وحقائق القرآن الكريم ومقاصده الحقيقية لكي يُعرف من هو الذي يسير في ضوء تعاليم القرآن ، ومن هو الذي حرّف القرآن .

لقد كانت هذه التوصيات مهمّة للغاية ، فإنّ معاوية حاول أن يخدع الناس بالشعارات والعناوين ، ويلبس ثوب الإسلام ، ويحمل عنوان الدفاع عن القرآن ، لكن الحقيقة هي شيء آخر .

أركان السياسة الأموية :

لقد واجه الإمام الحسن عليه السلام السياسة الأموية وعلى رأسها سياسة معاوية التي كانت تعتمد على ثلاثة أركان : الترغيب ، والترهيب ، والتكذيب .

فكل مجموعة من الناس استطاع معاوية أن يُسكتها بركن من هذه الأركان .

يُعتبر معاوية أول من شرّع النظرية الإرهابية وحوّلها إلى أيديولوجية وسياسة وقانون يتعامل معها علانية وليس سرّاً ، فالإرهاب كان موجوداً قبل زمن معاوية كالذي جرى على الزهراء عليها السلام والإمام علي عليه السلام وأبي ذر وعمار وغيرهم ، ولكنه تحوّل في زمن معاوية إلى سياسة مقنّنة ، فمثلاً بسر بن أرطاة (والي معاوية على اليمن) عندما سمع أنّ طفلين لعبيد الله بن العباس من أصحاب الإمام الحسن عليه السلام مختبئان أخذ يبحث عنهما حتّى عثر عليهما فذبّحهما وبعث برأسيهما إلى معاوية ، ولمّا سمعت أمّهما بذلك أصابها الجنون ، هما طفلان صغيران لا يتجاوز عمرهما (٨) سنوات ، لكن بسرّاً فعل ذلك تنكيلاً بعبيد الله بن العباس والإمام الحسن عليه السلام ، وحينما سمع

معاوية بذلك أقرّه عليه وأيّده .

وفي سياسة الترغيب كان معاوية يغدق العطاء ويشترى الضمائر حتّى استطاع أن يشتري ضمائر قادة جيش الإمام الحسن عليه السلام من خلال صفقة تجارية عقدها معهم ، وإذا بالجيش أصبح بدون قيادة .

وفي سياسة الدجل والتكذيب أرسل معاوية رُسلًا ونادى المنادي أن كثرت الأحاديث في فضل أبي تراب فضعوا مثلها في فضل فلان وفلان ، فأخذ الكتّاب وأصحاب الأقلام المأجورة يضعون الروايات ، فكلّموا يجدونه في فضل عليّ وشيعته يضعون مثلها في فضل الآخرين .

هناك رواية متّفق عليها تقول : « إِنَّ الْجَنَّةَ تَشْتَاقُ إِلَى أَرْبَعَةٍ : عَلِيٍّ ، وَسَلْمَانَ ، وَأَبِي ذَرٍّ ، وَالْمُقَدَّادِ »^(١) ، وهي ثابتة ومتّفق عليها ، وعندما تراجع الكتّاب تجد رواية في مقابلها موضوعة تقول : (إِنَّ الْجَنَّةَ تَشْتَاقُ إِلَى عَشْرَةٍ) ، ذكروا الأربعة وأضافوا إليهم ستّة آخرين ، وقس على ذلك .

ورواية : « إِنِّي تَارَكُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ : كِتَابَ اللَّهِ وَعِترتي »^(٢) ، الثابتة بالإجماع وضعوا في مقابلها رواية أخرى تقول : (إِنِّي تَارَكُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي)^(٣) .

ثم أرسل معاوية رُسلًا ليقولوا : كثر الحديث في فضائل الأوّل والثاني ، فضعوا روايات في فضل الثالث (عثمان بن عفّان) ، ويعطيهم الآلاف . فكثرت الأحاديث الكاذبة في فضل عثمان ، ثم وضعوا الحديث في فضل معاوية بن أبي سفيان بأنّه كاتب الوحي وخال المؤمنين ، وأرض الشام أرض مقدّسة .

أمّا جيش العراق وهو جيش الإمام الحسن عليه السلام فقد كان مبتلى بالشكّ بسبب كثرة الصراعات والنزاعات والتمزّق الداخلي وقلة الوعي الديني والسياسي ، حيث لم يُميّز

(١) الاحتجاج ١ : ١٥٠ .

(٢) الأمالي : ٥٠٠ .

(٣) الجامع الصغير ١ : ٥٠٥ .

أن هذه المعركة هي معركة حق وباطل أو معركة عشائر والحصول على السلطة .

في مجموع هذه المعالم للظرف الاجتماعي والسياسي يومئذ اتخذ الإمام الحسن عليه السلام الموقف المركزي ، وهو الصلح مع معاوية حتى كان يقول عليه السلام في أهدافه :

« لولا ما أتيت من الصلح لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قُتل »^(١) ، نتيجة سياسة الترغيب والترهيب والتكذيب ، ولهذا رأى الإمام الحسن عليه السلام أن يُبقي على كتلة الشيعة ويُخلصهم من مكر معاوية .

كان عليه السلام يقول : « والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً »^(٢) ، يعني يُسلموني إلى معاوية ليقتلني ، ونتيجة لضعف الوعي في جيش الإمام الحسن عليه السلام نلاحظ حالة الإفراط والتفريط ، فمع وجود حالة التخاذل من ناحية توجد حالة التطرف من ناحية أخرى ، حتى من المحبين ، فمثلاً كان سفيان بن أبي ليلى وهو راكب على دابته يقول للإمام الحسن عليه السلام : السلام عليك يا مدلل المؤمنين^(٣) . فقال له الإمام الحسن عليه السلام : انزل ولا تعجل حتى تناقش الأمر ، فنزل ورحب به الإمام ، وسأله : ما قلت ؟ .

قال : قلت : السلام عليك يا مدلل المؤمنين .

فقال له الإمام : ما هو دليلك على أنني مدلل المؤمنين ، ما علمك بذلك ؟

فقال : عمدت إلى أمر الخلافة فخلعته من عنقك وقلدته هذا الطاغية .

فقال الإمام الحسن عليه السلام معتمداً على النصوص النبوية : سمعت أبي يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا تذهب الأيَّام والليالي حتى يلي أمر هذه الأمة رجل واسع البلعوم يأكل ولا يشبع وهو معاوية »^(٤) ، هذه نبوءات رسول الله ﷺ وليس أنا الذي قلت ، وإن

(١) بحار الأنوار ٤٤ : ٢ .

(٢) الاحتجاج ٢ : ١٠ .

(٣) تحف العقول : ٣٠٨ .

(٤) كنز العمال ١١ : ٣٤٩ .

الظرف سيضطرُّنا ، فسكت الرجل ، ثمَّ سأله الإمام الحسن : ما أتى بك ؟ قال : حُبُّك يا بن رسول الله ، إنَّه حُبُّ مع تطرُّف وجرأة وجسارة ، وهذا ما نجده حتَّى في زماننا ، فبعض الناس يشتمون المراجع ويسبُّونهم مع حبِّهم لهم ، وهذا تطرُّف عجيب وحمافة .
أجابه الإمام الحسن عليه السلام وهي بشارة لنا : « والله لا يُحِبُّنا عبدٌ أبداً ولو كان أسيراً في الديلم إلَّا نفعه حبُّنا ، وإنَّ حبَّنَا لِيُسَاقِط الذنوب من بني آدم كما يُسَاقِط الريح الورق من الشجر »^(١) .

إنَّ شهادة الإمام الحسن عليه السلام كانت بِسْمِ دَسَّه إليه معاوية بواسطة زوجته جعدة بنت الأشعث (عليها وعلى أبيها لعائن الله) .

وصايا الإمام الحسن عليه السلام :

دخل إمامنا الحسين عليه السلام على أخيه الحسن عليه السلام يوم شهادته وقال : كيف تجدك ؟
قال : أنا في آخر يوم من الدنيا وأوَّل يوم من الآخرة على محبةٍ منِّي للقاء رسول الله ﷺ وعليَّ أمير المؤمنين وفاطمة وحمزة ، ثمَّ أوصى إليه بوصاياه وقال : يا أخي ، إذا أنا متُّ فغسِّلني وحنِّطني واحمِلني إلى جدِّي وألحِدي إلى جانبيه ، فإذا مُنِعْتَ من ذلك فبحقِّ جدِّك رسول الله وأبيك أمير المؤمنين وأمِّك فاطمة ، لا تخاصم أحداً واردد جنازتي إلى البقيع .

جاء الإمام الحسين عليه السلام بالجنازة ووصل إلى باب المسجد النبوي ، فلقيه مروان بن الحكم طريد رسول الله ﷺ ، فركب إلى عائشة وقال لها : يا أُمَّ المؤمنين ، يريد الحسين أن يدفن الحسن عند جدِّه .

قالت : ثمَّ ماذا ؟

قال : والله لأن دُفِنَ معه ليذهبَ فخر أبيك وصاحبه إلى يوم القيامة ، أقبلت إلى ذلك الحشد وألقت بنفسها من البغلة إلى الأرض وأشارت بشعرها من وراء الحجاب

(١) الغارات ٢ : ٥٩٠ .

وقالت : والله لا يُدفن الحسن إلى جانب جدّه أو تُجَزَّ هذه ، وكادت أن تقع ملحمة ، فتدارك الإمام الحسين عليه السلام الموقف وقال : لا تُضيّعوا وصيّة أخي ، وعاد به إلى البقيع ودُفِنَ هناك .

دور الإمام الحسن عليه السلام

كانت هناك ثلاثة أدوار مهمّة قام بها الإمام عليّ عليه السلام ، ثمّ الإمام الحسن عليه السلام ، ثمّ الإمام الحسين عليه السلام :

الدور الأوّل : قام به الإمام عليّ عليه السلام ، وهو دور (سلب الشرعية) من الحكومة الأموية ، والدخول في حرب مفتوحة ومعلنة من أجل ذلك .

الدور الثاني : قام به الإمام الحسن عليه السلام ، وهو (كشف الهوية) لأولئك الذين تسلّطوا على الحكم ، وإنّها ليست هوية إسلاميّة ولا يُمثّلون الحكومة الإسلاميّة ، هذا هو دور الإمام الحسن في صلحه مع معاوية .

الدور الثالث : قام به الإمام الحسين عليه السلام وهو استنهاض (الروح الثورية) لدى الأئمّة .

هذه ثلاثة أدوار مهمّة ومترابطة : سلب الشرعية ، وكشف الهوية ، وبثّ الروح الثورية ، وهي أدوار يُكْمَل بعضها البعض الآخر ، وما صنعه الإمام الحسن عليه السلام لم يكن أقلّ ممّا صنعه الإمام عليّ عليه السلام أو الإمام الحسين عليه السلام في ضرورته للحفاظ على الإسلام .

لقد كان دور الإمام عليّ عليه السلام هو الحفاظ على التجربة الإسلاميّة أن لا تنهار بعد رسول الله ﷺ ولا يصادرها المنافقون ، المهمّة التي قام بها الإمام عليّ عليه السلام هي حفظ التجربة الإسلاميّة أن لا تنهار حتّى وإن كان هناك أخطاء ، حتّى وإن كان هناك تعديّ عليه وعلى حقوقه ، ولكن ليبقى أصل التجربة وأصل المشروع الإسلامي الكبير هذا هو الأهمّ .

ثم جاء دور الإمام الحسن عليه السلام ، حيث كان دوره عليه السلام هو سلب الشرعية من حكم معاوية وأتباع معاوية لكي يُعرف على طول التاريخ أن هذا الحكم لا يمثل الإسلام ، هذا الحكم القائم على التباعد وعلى الجلد وعلى المصادرة وعلى قطع الرؤوس ، رؤوس الأخيار والصالحين مثل حजर بن عدي ، وهذا الحكم القائم على النفعية (ما قاتلتكم لتصلوا ولتصوموا ، وإنها قاتلتكم لتأمر عليكم)^(١) .

لقد كانت مهمة الإمام الحسن عليه السلام هي سلب الشرعية عن هذا الحكم القائم ، لهذا قد اضطر إلى المصالحة اضطراراً ، لكن مع ذلك اسمعوا ماذا كان يقول عليه السلام : « أيها الناس إن معاوية زعم أنني للخلافة أهلاً ولم أر نفسي لها أهلاً ، كذب معاوية ، أنا أولى الناس بالناس بكتاب الله وعلى لسان نبي الله ، فأقسم بالله لو أن الناس بايعوني وأطاعوني ونصروني لأعطتهم السماء قطرها والأرض بركتها ، ولما طمعت فيها يا معاوية ، وقد قال رسول الله ﷺ : ما ولت أمة أمرها رجلاً قط وفيهم من هو أعلم منه إلا لم يزل أمرهم يذهب سفالي حتى يرجعوا إلى ملّة عبدة العجل »^(٢) .

شروط الصلح^(٣) :

ثم شرط الإمام عليه السلام في المصالحة شروطاً :

(١) كتاب المصنف لعبد الله ابن أبي شيبة ، ذكر فيه أنه حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ ، عَنْ الْأَعْمَشِ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ سُوَيْدٍ ، قَالَ : صَلَّى بِنَا مُعَاوِيَةَ الْجُمُعَةَ بِالنَّخِيلَةِ فِي الضُّحَى ، ثُمَّ خَطَبَنَا فَقَالَ : (مَا قَاتَلْتُمْ لِيُصَلُّوا ، وَلَا لِيُصُومُوا ، وَلَا لِيُحْجُوا ، وَلَا لِيُزَكُّوا ، وَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّكُمْ تَفْعَلُونَ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ إِنَّمَا قَاتَلْتُمْ لِيَأْمُرَ عَلَيْكُمْ ، وَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ ذَلِكَ وَأَنْتُمْ لَهُ كَارِهُونَ) .

(٢) بحار الأنوار/ جزء ٤٤ .

(٣) بحار الأنوار ٤٤ : ٢١ ، « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما صالح عليه الحسن بن علي بن أبي طالب معاوية بن أبي سفيان ، صالحه على أن يُسلم إليه ولاية أمر المسلمين على :

١- أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الصالحين .

٢- وليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً ، بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين .

٣- وعلى أن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله تعالى في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم .

٤- وعلى أن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم . وعلى معاوية بن أبي

أولاً: أن لا يدعوه بلقب أمير المؤمنين .

ثانياً: أن لا يقيم عنده شهادة .

ثالثاً: أن تكون الخلافة بعده للحسن ثم للحسين .

رابعاً: أن لا يتبع شيعة عليّ بالقتل .

خامساً: أن يُنفق مرتباً شهرياً على عوائل الشهداء .

ولنرجع إلى أصل الفكرة وهي أن دور الإمام الحسن عليه السلام كان عبارة عن دور سلب الشرعية من الحكم الأموي ، ثم جاء دور الإمام الحسين عليه السلام وهو عبارة عن بث الروح الثورية في الأمة الإسلامية . وبعد أن عرف الناس أن حكم معاوية غير شرعي جاء هنا دور الإمام الحسين عليه السلام لبث الروح الثورية فيهم وقيادة معركة التغيير .

سياسة الإمام الحسن عليه السلام

سياسة الإمام الحسن بن عليّ الزكيّ عليه السلام هي سياسة أهل البيت عليه السلام ، ومذهبهم هو أن الواقع لا يفرض الشرعية وإنما الشرعية تؤخذ من الله تعالى ومن السياقات التي شرعها الله تعالى .

لقد كان هناك اتجاهان كبيران في العالم الإسلامي بعد رسول الله ﷺ :

الاتجاه الأول : أن الواقع القائم لا يفرض الشرعية ، ولا يمكن للسلطة الحاكمة أن تُعطي لنفسها الشرعية بمجرد أنها هي الحاكمة وهي الغالبة ما لم تستند إلى دليل شرعي . وهذا الاتجاه هو الذي آمن به أهل البيت عليه السلام وشيعتهم .

الاتجاه الثاني : أن الواقع القائم هو الذي يفرض الشرعية لنفسه .

سفيان بذلك عهد الله وميثاقه ، وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء ، وبما أعطى الله من نفسه .
 ٥- وعلى أن لا يبغى للحسن بن عليّ ، ولا لأخيه الحسين ، ولا لأحد من أهل بيت رسول الله ، غائلةً سرّاً ولا جهراً ، ولا يُخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق ، شهد عليه بذلك ، وكفى بالله شهيداً » .

تقول مدرسة أهل البيت عليه السلام : إنَّ الواقع المفروض علينا يجب أن نتعامل معه بواقعية قد نخوض معه حرباً وقد نخوض معه صلحاً وقد نتعاطى معه إيجابياً كما في زمن الخليفة الثاني حيث كان كبار الشيعة ولاية للخلافة في العراق ولبنان ، إذن فقد تعاملوا إيجابياً .

والإمام الحسن عليه السلام صالح معاوية وتعامل مع الواقع القائم بما يحفظ مصالح الإسلام ، لكن هذا التعامل والتعاطي مع الواقع القائم لا يمنحه الشرعية .

أهل البيت عليه السلام قالوا : لا تُعطي شرعية للواقع الظالم الجائر ، ربَّما نسكت حسب المصالح الإسلامية الكبرى لكن ليس معناه أنَّ ذلك الواقع أصبح هو الشرعي ، لقد كان الإمام علي عليه السلام يقول : « وَاللَّهِ لَا سُلْمَ مَّا سَلَمْتُ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً »^(١) ، لكن هذا التسليم لم يكن يعني أبداً شرعية الواقع القائم .

الإمام الحسن عليه السلام سلَّم للواقع القائم لكنَّه لم يُعْطِ الشرعية ، بينما غيرنا قالوا : هذا الواقع أصبح شرعياً ، فيزيد يفعل ما يفعل وهو أمير المؤمنين ! والحسن عليه السلام هو الخارج عن طاعة أمير المؤمنين !

واليوم إذن نف في ذكرى ولادة الإمام الحسن عليه السلام نسجِّل له عليه السلام هذا التأكيد على ما هي المدرسة الإسلامية الصحيحة ، وهي أنَّ الواقع لا يفرض الشرعية ، وشيعة أهل البيت ومنذ مئات السنين في العراق وغير العراق تعاملنا مع الواقع بأشكال مختلفة لكن لم نُعطِ أحداً شرعية ، فالشرعية يُعطيها الله تبارك وتعالى .

السياسة الواقعية :

إنَّ الإمام الحسن الزكي عليه السلام في هذه الذكرى يستحقُّ منا حديثاً واسعاً مفصَّلاً نكتفي بالإشارة إلى أمر مهمٍّ في حياته يُمثِّل مؤشراً مهماً في السياسة الإسلامية على طريقة أهل البيت عليه السلام . الإمام الحسن عليه السلام سجَّل هذه النقطة ، ولولا حركته لرَبَّما ضاع هذا

(١) الصحيح من سيرة الإمام علي عليه السلام / السيّد جعفر مرتضى العاملي : ٢٨٦ .

المؤثر في سياسة أهل البيت ونُسَمِيهِ (السياسة الواقعية) ، يعني : لاهي ثورة مطلقة دائمة ، ولا هو استسلام مطلق ، وإنما هو سياسة واقعية تخضع للمصالح الإسلامية الكبرى ، وهذا من روائع ما سجّله أهل البيت ﷺ ، بخلاف المذاهب الأخرى التي اتّجهت إلى إفراط أو تفريط ، قالوا : نحن نستسلم للحاكم الظالم ، ورووا عن رسول الله ﷺ روايات مفتعلة أيضاً في هذا الشأن : (اسمعوا وأطيعوا ولو استُعْمِلَ عليكم عبد حبشي)^(١) .

وهناك سياسة أخرى هي سياسة الخوارج الذين يقولون : نحن سياستنا على طول الدهر هي حمل السيف .

وهكذا سياسة المذهب الزيدي القائلة بأن الإمام يجب أن يكون شاهراً سيفه دائماً . هذه المطلقات غير واقعية ، إنّ سياسة أهل البيت ﷺ هي السياسة الواقعية ، وكان الإمام الحسن عليه السلام قد سجّل مؤشراً مهماً على هذه السياسة ليس فقط مع السلطة الظالمة حينما دخل - رعاية للمصالح الإسلامية الكبرى - في صلح مع معاوية ، وإنما مع المجتمع أيضاً .

كيف نتعامل مع المجتمع ؟ هل نعتزله وننتهمه بأنه منحرف كما هو في بعض السياسات المذهبية ، أم نعيش ونتعايش معه ؟ وهي سياسة أهل البيت ﷺ حتى إذا كانت هناك أخطاء في هذا المجتمع لكن نحن يجب أن نتعامل ونتعايش تعايشاً إيجابياً معه .

كريم أهل البيت ﷺ :

أنتم تعرفون أن الإمام الحسن عليه السلام يُلقَّب بـ (كريم أهل البيت) ، إنَّ الناس يعتقدون أنّه يُعطي أموالاً ، كلا ، ليس هذا فقط ، فكلُّ أهل البيت ﷺ كرماء ، الإمام الحسين عليه السلام كان كريماً ، وهكذا الإمام سائر الأئمة عليهم السلام ، فلماذا سُمِّي الإمام الحسن عليه السلام

(١) رواه ابن ماجه في سننه ٢ : ٩٥٥ ؛ وأحمد في مسنده ٣ : ١١٤ .

كريم أهل البيت ؟

الإمام الحسن عليه السلام يُسجّل هنا نقطة ومؤشراً في السياسة الإسلامية مع المجتمع وكيفية التعامل معه وهي سياسة الانفتاح ، التعايش والاختلاط معه حتّى إذا كانت لديه انحرافات ، فلا يجب أن نعتزل الناس ونتكلّم عليهم ، إنّه الاختلاط الإيجابي مع المجتمع .

أصبح عليه السلام محوراً اجتماعياً ، فالسلطة بيد معاوية ، لكن المحور الاجتماعي هو الإمام الحسن عليه السلام ، هذا معنى كريم أهل البيت : الانفتاح والتعايش الإيجابي مع المجتمع وهو يعيش تحت السلطة الظالمة . هذا مؤشّر مهمّ في حركة الإمام الحسن عليه السلام ، ولهذا نعتقد أنّ الإمام الحسن عليه السلام كان قد جاهد الجهاد الذي جاهده الإمام الحسين عليه السلام نفسه ، ونقرأ في (زيارة أمين الله) - وهي ليست خاصّة بالإمام علي عليه السلام ، بل يُستحبّ أن يُزار بها باقي الأئمة عليهم السلام - حينما نزور الإمام أمير المؤمنين عليه السلام نقول : « أشهد أنّك جاهدت في الله حقّ جهاده »^(١) ، وحينما نزور الإمام الحسن عليه السلام نقول : « أشهد أنّك جاهدت في الله حقّ جهاده » . وأنتم تعرفون أنّ الإمام الحسين عليه السلام مشى على هذا الطريق نفسه الذي خطّه الإمام الحسن عليه السلام حتّى مات معاوية ، يعني كان الإمام الحسين عليه السلام عشر سنوات بعد الإمام الحسن عليه السلام يمشي على الطريق نفسه ، وما ثار إلّا بعد هلاك معاوية وتسلّط يزيد ، يعني أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان ساكناً خلال عشر سنوات ولحين وفاة معاوية ، يمكن أن نسمّي هذه السياسة : سياسة المقاطعة الصامتة ، سياسة الجهاد الصامت .

أيّها المؤمنون والمؤمنات ، إنّ تشخيص الموقف السياسي بعهدة ومسؤولية الإمام المعصوم ، أو نائبه الفقيه العادل ، وليس من حقّ كلّ إنسان أن يُشخّص الموقف السياسي ويقول : من عمل بهذا الموقف السياسي فهو على حقّ ، ومن لم يعمل فهو على باطل . بعض الناس لا يفهمون هذه الحقيقة ، ولهذا جاؤوا للإمام الحسن عليه السلام وقالوا له عدواناً وظلماً ما يُمزّق القلب حينما اتّهموه بأنّه أدلّ المؤمنين ، بينما الإمام الحسن عليه السلام

(١) كامل الزيارات : ٩٢ .

حافظ على المؤمنين بتلك السياسة الواقعية التي مشى على خطاها الإمام الحسين عليه السلام لمدة عشر سنوات حتى تغيرت الظروف .

الإمام الحسن عليه السلام كان يهّمه أن يكون هناك وعي جماهيري وثوري وسياسي ، وهذا يحتاج إلى زمن من خلال صبر الناس على ظلم واضطهاد معاوية ، ولما جاء يزيد كان الجو مهيباً لأن يقوم الإمام الحسين عليه السلام بثورته ، وكان الناس يعرفون ظلم الحكم الأموي ، أما في زمان الإمام الحسن عليه السلام فقد كانت الحقيقة ضائعة عندهم لا يعرفون أين الحق ، مع معاوية أم مع الحسن عليه السلام ؟ كلها شعارات دينية وإسلامية .

رمزية الإمام الحسن عليه السلام

لقد أعطى رسول الله ﷺ الرمزية لإمامين ، وهما : الحسن والحسين عليهما السلام حيث قال : « الحسن والحسين سيّدَا شباب أهل الجنة » ، وهذا معناه إعطاء الرمزية لهما بمعنى أيّها المسلمون إذا أردتم رمزاً تقتدون به فهما الحسن والحسين عليهما السلام ، وهذا ثابت عند الشيعة والسنة .

على هذا الأساس رسول الله ﷺ أعطانا الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام كرمزين في مواقفنا الفقهية ، ومناراً في مواقفنا السياسية ، ولهذا فإنّ شيعة أهل البيت عليه السلام يأخذون فقههم من الحسن والحسين عليهما السلام ، أمّا إذا أخذنا فقهنا من شخص هو ليس من شباب أهل الجنة ولا هو رمز من رموز المسلمين ، فلا يكون لنا حجة شرعية في ذلك ، فأهل البيت عليه السلام حُجج الله على خلقه وأمناء على وحيه .

معنى الرمزية :

أولاً : أنّهم عليه السلام مصدر للتشريع الفقهي .

ثانياً : أنّهم عليه السلام مصدر للموقف السياسي الصحيح .

فالإسلام ليس مجرد فقه ، بل هو مجتمع وحياة وحركة عبر القرون ، ورسول

الله ﷺ أرشدنا إلى هذين الرمزتين ، فهما إمامان قاما أو قعدا ، ونحن شيعة أهل البيت من افتخاراتنا أننا نأخذ مواقفنا السياسية ممن جعلهم رسول الله ﷺ رمزا للمؤمنين ، وهذا ثابت عند الشيعة والسنة .
إذن فالموقف التشريعي يؤخذ منهما ، والموقف السياسي كذلك .

حُبُّ أهل البيت عليه السلام :

الإمام الحسن عليه السلام زاره شخص من حواربيه وهو سفيان ابن أبي ليلى ، وكان الإمام الحسن عليه السلام محتباً في منزله ، وبعد أن سلّم عليه قال له الإمام عليه السلام : « ما الذي جاء بك يا سفيان ؟ » .

قال : الذي جاء بي إليك حُبُّك يا ابن رسول الله .
فقال له عليه السلام : « والله لا يُحبُّنا عبد أبداً ولو كان أسيراً في الديلم إلا ونفعه » ^(١) .

شبهة حول الصلح

رأيتُ بعض المثقفين والكتّاب يطرحون سؤالاً كشبهة حقيقية في أذهانهم ، ففي مؤتمر عُقدَ في تركيا قام أحد الباحثين وقال : إذا كان الإمام الحسن عليه السلام يرى أنه صاحب الخلافة الشرعية ، فكيف صالح معاوية ؟ وبما أنه صالح إذن فلا توجد إمامة وخلافة شرعية لغير معاوية !

جواب هذه الشبهة :

هناك فرق بين السلطة وبين الخلافة الشرعية ، فالأنبياء والأئمة عليهم السلام قد يتنازلون عن السلطة ، ولكنهم لا يتنازلون عن الخلافة الشرعية ، رسول الله ﷺ دخل معركة بدر ضدَّ قريش ، لكن بعد سنوات صالح قريشاً في الحديبية ، ولكن ذلك لا يعني أن رسول الله ﷺ تنازل عن النبوة وعن الحقِّ الشرعي له ، وإنما تنازل عن السلطة مؤقتاً .

والإمام عليّ عليه السلام يعرف نفسه أنّه صاحب الحقّ الشرعيّ ، لكنّه في ظروف لا يستطيع المطالبة بهذا الحقّ قال : « أنا لكم خير منّي أمير »^(١) ، وهذا لا يعني أنّه يُشكّك بإمامته .

والإمام الحسن عليه السلام جهّز جيشاً لقتال معاوية ولكنه لم يرأى أن لا جدوى من هذه الحرب ، ورأى أنّ الأفضل هو الصلح قال : « لولا ما أتيت لم يبق أحد من شيعتنا إلّا قُتل »^(٢) ، إذن الإمام تنازل عن السلطة ولم يتنازل عن الإمامة .

ولذا قال رسول الله ﷺ عن الحسن والحسين عليهما السلام : « إمامان قاما أو قعدا »^(٣) ، ومن أجل ذلك وجدنا الإمام الحسن عليه السلام اشترط على معاوية أن لا يُسمّى بإمرة المؤمنين ، بمعنى أنّه ليس حاكماً شرعياً .

ثلاث ظواهر :

لدينا ثلاث ظواهر في سيرة أهل البيت عليهم السلام :

الظاهرة الأولى : ظاهرة المبدئية :

كلّ من يقرأ ويؤرّخ ويدوّن للإمام عليّ عليه السلام يجد ظاهرة المبدئية القصوى ساطعة جدّاً بأعلى درجاتها ، ونستطيع أن نقول : إنّ الإمام عليّاً عليه السلام أسَّسها ، يعني إذا أراد شخص أن يكون مبدئياً طول حياته فالإمام عليّ عليه السلام هو رمز للمبدئية في كلّ العالم ، المسلم أم المسيحي أم اليهودي .

الظاهرة الثانية : المرونة :

الإمام الحسن عليه السلام كان دوره التأسيس لظاهرة المرونة ، في الإسلام مبدئية لكن مبدئية غير متصلّبة ، وغير متحرّجة ، مبدئية مرنة ، يعني قابلة للأخذ والعطاء ، أسَّس

(١) نهج البلاغة/ ت صبحي الصالح : ١٣٧ / ٩٢ .

(٢) علل الشرائع ١ : ٢٠٠ .

(٣) علل الشرائع ١ : ٢١١ .

لها الإمام الحسن عليه السلام في موقفه مع معاوية ، وله تحليل سياسي واسع ، أسّس لنا جميعاً أن الإسلام يحمل مرونة ، هناك مبدئية لكنها ليست كالعصا اليابسة ، بل عصا مرنة .

الظاهرة الثالثة : الثورية :

جاء الإمام الحسين عليه السلام وأسّس لظاهرة الثورية .

في الحقيقة هذه تمثّل أضلاع لمثلث نظرية العلاقات الخارجية في الإسلام تعتمد على هذا الثلاثي : ضلع المبدئية ، وضلع المرونة ، وضلع الثورية ، ولولا هذه الأضلاع الثلاثة لما بقى الإسلام ، ولما بقى التشيع ، ولما بقى القرآن .

ولهذا يقول الإمام الحسن عليه السلام في ظاهرة المرونة : « لولا ما أتيت لم يسلم منكم أحد » ، فقد كان يواجه حرب الاستئصال ، فكانت الحالة الإسلامية الأصلية بحاجة إلى مرونة وانعطافة ، انحناه أمام الريح ثم ينهض مرة أخرى ، هذا في التأصيل والتأسيس لظاهرة المرونة .

يقول أعداء أهل البيت عليه السلام : إن الشيعة عندهم تقيّة وما شاكل ذلك ، وهو في الحقيقة مبدأ عالمي ، كل العالم اليوم يستخدمه إلا المتحجّرون ، كما نزل به القرآن الكريم حين قال : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكْفُرُوا مِنْهُمْ تَقِيَّةً ﴾ (آل عمران : ٢٨) .

ظلامته الإمام الحسن عليه السلام :

الإمام الحسن عليه السلام شهد ظلامتين ، ظلامته في حياته حيث قُتل مسموماً ، وظلامته بعد وفاته تمثّلت بهدم قبره ، وهدم قبور أئمة البقيع ، القرآن يقول : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾ (النور : ٣٦) .

القرآن يتحدّث عن أصحاب الكهف : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ (الكهف : ٢١) ، الشيعة لا يريدون أن يعبدوا قبوراً ، ولا أصحاب القبور ، بل أن يتخذوا مسجداً عند هذا الولي من أولياء الله ، لكن عابوا علينا ذلك

وقالوا : إِنَّ الشَّيْعَةَ يَعْبُدُونَ الْقُبُورَ .

اليوم أُحَدِّثُكُمْ مَرَّةً أُخْرَى عَنْ هَذِهِ اللَّغَةِ التَّكْفِيرِيَّةِ ، فِهَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَبْرِينَ وَهُوَ أَحَدُ كِبَارِ الْمُفْتِينَ فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السَّعُودِيَّةِ ، حَيْثُ أَصْدَرَ فَتَوَى بِشَرِكِ الشَّيْعَةِ وَإِنْ صَامُوا وَصَلُّوا وَسَجَدُوا وَشَهِدُوا الشَّهَادَتَيْنِ ! وَلَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ ، بَلْ أَصْدَرَ فَتَوَى أُخْرَى بِوَجُوبِ هَدْمِ كُلِّ الْقُبُورِ ، وَلَيْسَ فَقَطْ قُبُورُ الْبَقِيْعِ ، وَإِنَّمَا كُلُّ قُبُورِ الْأُمَّةِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالصَّحَابَةِ عَلَى طُولِ التَّارِيخِ ، وَكَأَنَّهُ لَا مُشْكَلَةَ فِي الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَّا وَجُودُ مَجْمُوعَةٍ يَتَّخِذُونَ مَسَاجِدَ عِنْدَ قُبُورِ الصَّالِحِينَ ، وَكَأَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُوَاجِهُ مُشْكَلَةَ الصَّهْيُونِيَّةِ ، وَلَا الْفُسَادَ ، وَلَا الْمَهْجُومَ الْأَخْلَاقِي وَالثَّقَافِي وَالْاِقْتِتَالَ الدَّاخِلِي ، هَذِهِ آخِرُ تَقْلِيْعَةٍ لِمِثْلِ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ .

موقف الإمام الحسن عليه السلام

الإمام الباقر عليه السلام يقول : « وَاللَّهِ الَّذِي صَنَعَهُ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ كَانَ خَيْرًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ »^(١) ، وَلَسْتُ هُنَا بِصَدَدٍ تَقْدِيمِ تَحْلِيلِ عَنْ حَرَكَةِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ عليه السلام وَسِيَاسَتِهِ ، لَكِنْ إِمَامُنَا الْبَاقِرُ عليه السلام يَقُولُ : إِنَّ الْمَنْهَجَ السِّيَاسِيَّ وَالصَّلَاحَ مَعَ مَعَاوِيَةَ الَّذِي اخْتَارَهُ الْإِمَامُ الْحَسَنُ عليه السلام هَذَا الْمَوْقِفَ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ الدُّنْيَا .

لَقَدْ كَانَتْ مَسْئُولِيَّةُ الْإِمَامِ عليه السلام هِيَ الْحِفَازُ عَلَى شِيعَتِهِ مِنْ أَنْ يَسْتَأْصِلُوا تَحْتَ كُلِّ حَجَرٍ وَمَدْرٍ ، حَيْثُ كَانَ التَّخْطِيطُ الْأُمُويُّ هُوَ اسْتِئْصَالُ شِيعَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عليه السلام ، وَأَنْ لَا يَبْقُوا لِأَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ بَاقِيَةٌ ، لَكِنْ جَاءَ تَخْطِيطُ أَثْمَنَّا وَتَحْلِيلُهُمْ وَقَلْبُوا السَّحَرِ عَلَى السَّاحِرِ .

الإمام الحسن عليه السلام كَانَتْ مَسْئُولِيَّتُهُ الْحِفَازُ عَلَى هَذِهِ الْكُتْلَةِ وَالْجَمَاعَةِ الصَّالِحَةِ ، وَلِهَذَا كَانَ عليه السلام يَقُولُ : « لَوْلَا مَا أَتَيْتُ لِمَا تُرِكَ مِنْ شِيعَتِنَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا قُتِلَ »^(٢) ،

(١) البحار ٤٣ : ٢٣٨ / باب ١١ / ح ٣ .

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ٤ : ٣٨ .

لكن جاء تخطيط الإمام الحسن عليه السلام وانقلبت الأمور وإلى اليوم ، ولهذا نحن حينما نزور الإمام الحسن عليه السلام نقول في الزيارة الشاملة وهي زيارة أمين الله : « السلام عليك يا أمين الله في أرضه وحبته على عباده ، أشهد أنك جاهدت في الله حق جهاده »^(١) ، وهي لكل الأئمة عليهم السلام ، وقمة الجهاد هو ما أدّاه أهل البيت عليهم السلام سواء كان بالسيف أم بالعلم أم بالصلح أم بغير ذلك . المجاهدة الحقيقية لله ، « أشهد أنك جاهدت في الله حق جهاده ، وعملت بكتابه » .

المشهد السياسي في زمن الإمام الحسن عليه السلام :

أشير هنا إلى المشهد السياسي والديني في زمن الإمام الحسن عليه السلام ، والموقف الذي اتخذته الإمام الحسن عليه السلام انتصاراً للدين وللأمة الإسلامية .

لم يكن في المشهد السياسي والثقافي والديني مجرد انهيار عسكري لدى قوات الإمام الحسن عليه السلام وهي الجيش العراقي آنذاك ، وإنما كان الأخطر من ذلك ظاهرتين :

الظاهرة الأولى : مرض الشك عند الناس في شرعية المعركة وحقانيتها وضياح الحقيقة ، هل هي مع الحسن أم مع معاوية ؟ هل المعركة بين العراق والشام يومئذ ، بين علي عليه السلام ومعاوية ، ثم بين الحسن عليه السلام ومعاوية هي من أجل الإسلام أو هي معركة ذاتيات وأنانيات وعشائريات على الملك ؟ جهّز الإمام الحسن عليه السلام جيشاً تعداده ستون ألف مقاتل ، ولكن أصابهم مرض قاتل هو الشك في أن المعركة من أجل ماذا ؟ هل هي معركة بني هاشم وبني أمية معركة أشخاص وعشائر يطلبون الملك ؟

الظاهرة الثانية : هي خطر التسلّط باسم الدين ، ودكتاتورية تحكم الناس باسم الدين ، كان معاوية يريد أن يتسلّط على الناس باسم خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقيم دكتاتورية أموية باسم خلافة الإسلام ، وهذا أعظم خطر يصيب المبدأ أن يحكم الناس طاغية دكتاتور بعيداً عن الدين باسم الدين .

(١) مفاتيح الجنان/ (زيارة أمين الله) .

ما هو الموقف أمام الشك في المعركة ؟ أصبح الناس لا يُصدّقون أنّها معركة من أجل الدين ، لأنّ الطرف الآخر (معاوية) أصبح يرفع شعارات دينية أيضاً ، وكان الإمام الحسن عليه السلام يرفع شعارات دينية ، الناس شكّوا لقلّة النضج السياسي ، وقلّة الوعي ، ماذا يفعل الإمام الحسن عليه السلام أمام هذا المرض القاتل ؟

موقف الإمام من المشهد السياسي :

الموقف الذي شخّصه الإمام الحسن عليه السلام كان عبارة عن :
أولاً : الحفاظ على قدسية الدين .
ثانياً : تعرية أجهزة التسلّط .

لا بدّ أن يعود اليقين بالحقّ وبقدسيّة الدين للناس ، لا بدّ أن تكتشف الأوراق عن هذا الحكم المتسلّط ، وعلى هذا الأساس كان الإمام الحسن عليه السلام يرى أنّ مسؤوليته هي كالاتي :

١- المحافظة على قدسية الدين حتّى لا تتلوّث بتصرّفات معاوية .

٢- سلب الشرعية من الأجهزة المتسلّطة وكشف هويتها اللادينية .

ثلاث خطوات في سقوط الهرم الأموي :

لذا نحن نستطيع أن نقول : كانت هناك ثلاث خطوات في سقوط الهرم الأموي المنافق ، خطوة قام بها الإمام عليّ عليه السلام ، وخطوة قام بها الإمام الحسن عليه السلام ، وخطوة قام بها الإمام الحسين عليه السلام .

الأولى : خطوة الإمام عليّ عليه السلام في سلب الشرعية من معاوية ، فمن اليوم الأوّل الذي بويع فيه الإمام عليّ عليه السلام عزل معاوية عن الحكم والولاية (ولاية الشام) . فالإمام الشرعي هو الإمام عليّ عليه السلام ، إذن ليس للوالي معاوية شرعية وإن حكم مئات السنين حتّى لا ينجذع الناس على مرّ الأجيال الآتية ، هذا وال غير شرعي ، الإمام عليّ عليه السلام قدّم

ضربة كبيرة أيضاً ، وهي سلب الشرعية من الحكم الأموي .

الثانية : خطوة الإمام الحسن عليه السلام في تعرية هوية معاوية وكشف حقيقته بأنه إنسان لا دين له ، عدو للدين ، قام الإمام الحسن عليه السلام بمهمة كشف زيف ادّعاءات معاوية حتى أصبح معاوية أمام الناس يقول : (ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلّوا ، وإنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم)^(١) ، هذه المقولة ثابتة إلى اليوم في تاريخ معاوية ليس فقط عند الشيعة ، بل في كلّ التاريخ ، أنّ هذا الحكم أناني دكتاتوري لا علاقة له بالدين ، وهذه أعظم قضية أنجزها الإمام الحسن عليه السلام .

الثالثة : خطوة الإمام الحسين عليه السلام في صنع الروح الثورية عند الناس حيث قال : « ألا وإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً »^(٢) .

تقولون : ماذا فعل الإمام الحسن عليه السلام في طريق كشف الهوية النفاقية للحكم الأموي ؟

أقرأ لكم نصّاً للإمام الحسن عليه السلام يطلُّ بنا فيه على المشهد السياسي ، ويشرح لنا طبيعة الفهم الذي يحمله الإمام الحسن عليه السلام عن الواقع يومئذ .

قال عليه السلام : « أيّها الناس اعلّموا أنّكم لن تعرفوا التقى حتّى تعرفوا صفة الهدى »^(٣) ، كان معاوية يطرح شعارات ، والإمام الحسن عليه السلام عاش خطر ازدحام الشعارات ، فيحتاج إلى أن يُنبّه الناس : أيّها الناس لا تتخدّعوا بالشعارات ، إنّكم لن تعرفوا التقى حتّى تعرفوا صفة الهدى ، تعرفون الحقّ واتّجاهاته حينئذٍ يظهر لديكم من هو المتّقى ، وليس بمجرد رفع شعار أو إقامة الصلاة ، فإنّ معاوية كان يُصلي أيضاً والناس يُصلّون خلفه ، لكن هذا ليس كافياً ، لا بدّ من معرفة اتّجاهات الهدى والحقّ ، الصلاة لمن ؟ العمل لمن ؟ هل إنّ كرمه على هذا الشاعر وذاك الضعيف ، وبذل آلاف الدنانير ، هذا الكرم هل هو

(١) تاريخ دمشق ٥٩ : ١٥ .

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٣ : ٢٢٤ .

(٣) تحف العقول : ٢٢٧ .

تقوى؟ اتجاه هذا الكرم إلى أين؟

وقال عليه السلام: «ولن تمسكوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نبذه»^(١)، لا يمكن أن تكون من أهل القرآن إذا لم تعرف من هم الذين أعرضوا عنه.

في زماننا هذا حينما تعمق الوجود الديني في العراق، اضطرت الطاغية صدام إلى أن يقوم بالحملة الإيمانية وتخفيف القرآن، والعفو عن السجناء إذا حفظوا جزءاً من القرآن، لقد تحول إلى مسؤول دورات قرآنية! ثم أخيراً قام بكتابة القرآن بالدم! للضحك على الناس.

كان الإمام الحسن عليه السلام يعاني المعاناة نفسها مع معاوية حيث كان يستخدم أساليب تشبهها أساليب صدام، ولهذا قال الإمام الحسن عليه السلام: «لن تمسكوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نبذه»، وقال: «ولن تتلوا الكتاب حتى تعرفوا الذي حرّفه»^(٢).

هذا هو هم الإمام الحسن عليه السلام وعمله السياسي في كشف أوراق الآخرين.

منجزات الإمام الحسن عليه السلام:

الإمام الحسن عليه السلام يمكن أن نسجل له إجمالاً ثلاث منجزات خدم بها الإسلام والعالم الإسلامي وشيعة أهل البيت:

المنجز الأول: حفظ الشيعة من الاستئصال.

المنجز الثاني: فضح السياسة الأموية.

المنجز الثالث: التمهيد لثورة الحسين عليه السلام.

هذه ثلاث عطاءات وبركات لحركة الإمام الحسن عليه السلام وحياته، حفظ الشيعة، فالإمام يقول: «لولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحدٌ إلا قُتِل»^(٣)، أي

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) علل الشرائع ١: ٢١١/باب ١٥٩/ح ٢.

إِنَّهُ حَتَّى الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيُقْتَلُ أَيْضاً ، هذا تحليل الإمام بأنَّ حركته هي التي حفظت ما بقي من الشيعة .

فضح السياسة الأموية في اجتماع جماهيري واسع كان الإمام الحسن عليه السلام حاضراً ومعاوية حاضر أيضاً ، قام إمامنا الحسن خطيباً فقال :

« إِنَّ مُعَاوِيَةَ زَعَمَ لَكُمْ أَنِّي رَأَيْتُهُ لِلْخِلَافَةِ أَهْلاً وَلَمْ أَرْ نَفْسِي لَهَا أَهْلاً ، فَكَذَبَ مُعَاوِيَةُ ، نَحْنُ أَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ ، وَلَمْ نَزَلْ أَهْلَ الْبَيْتِ مَظْلُومِينَ مِنْذُ قَبْضِ اللَّهِ تَعَالَى نَبِيِّهِ ﷺ ، فَاللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَنْ ظَلَمْنَا حَقًّا ، وَتَوَثَّبَ عَلَيَّ رِقَابُنَا ، وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَيْنَا ، وَمَنْعَنَا سَهْمَنَا مِنَ الْفَيْءِ ، وَمَنْعَ أَمْنًا مَا جَعَلَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . وَأُقْسَمُ بِاللَّهِ لَوْ أَنَّ النَّاسَ بَايَعُوا أَبِي حِينَ فَرَقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَأَعْطَتْهُمْ السَّمَاءُ قَطْرَهَا ، وَالْأَرْضُ بَرَكَتَهَا ، وَمَا طَمَعَتْ فِيهَا يَا مُعَاوِيَةُ ، فَلَمَّا خَرَجْتَ مِنْ مَعْدِنَا تَنَازَعْتَهَا قَرِيشَ بَيْنَهَا ، فَطَمَعْتَ فِيهَا الطَّلَقَاءَ وَأَبْنَاءَ الطَّلَقَاءِ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا وَلَّتْ أُمَّةٌ أَمْرَهَا رَجُلًا وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ إِلَّا لَمْ يَزَلْ أَمْرُهُمْ يَذْهَبُ سَفَالًا ، حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَيَّ مَا تَرَكُوا »^(١) ، أَيِ إِنَّكَ لَسْتَ أَهْلاً يَا مُعَاوِيَةُ ، الْأُمَّةُ الَّتِي وَلَّتْكَ سَتُخْشَرُ .

التحليل السياسي والغيبى لصالح الإمام عليه السلام

هناك تحليلان لموقف الإمام الحسن عليه السلام هما : التحليل السياسي ، والتحليل الغيبى . كما هو الحال في الإمام الحسين عليه السلام الذي كان يُقدَّم للناس مرّةً تحليلًا سياسيًا ، ومرّةً يُقدَّم تحليلًا غيبياً ، فمرّةً يقول للناس : « شاء الله أن يراني قتيلاً ، وشاء الله أن يراهنَّ سبائاً »^(٢) ، وهذه قضية غيبية وقرار إلهي ، فمن يقتنع بالتحليل السياسي فهو ، ومن لم يقتنع فهذا غيب وقرار إلهي . والإمام الحسين عليه السلام مرّةً أخرى يُقدَّم تحليلًا سياسيًا لإقناع الناس ، يقول : « أَلَا وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكِزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ ، بَيْنَ السَّلَّةِ وَالذَّلَّةِ ، وَهِيَهَاتَ

(١) أمالي الطوسي : ٥٥٩ / ح (٩ / ١١٧٣) .

(٢) الملهوف على قتلى الطفوف لابن طاووس : ٣٩ / خطبة الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء .

منا الذلة ، يأبى الله لنا ذلك ورسوله ^(١) ، ومرةً ثالثة يقول : قال رسول الله ﷺ : « من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالف لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يُغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يُدخله مدخله » ^(٢) ، وهذا تحليل سياسي .

وهكذا كان الإمام الحسن عليه السلام مرةً يُقدّم تحليلاً غيبياً ويقول للناس : إن هذه المسؤولية مفروضة عليّ من أعلى ، وهذا القرار - وهو الأصلح - هو قرار إلهي . ومرةً يُقدّم للناس تحليلاً سياسياً ، ويشرح لهم لماذا صالح معاوية .

التحليل السياسي :

وأقرأ لكم ما قاله الإمام الحسن عليه السلام بشأن التحليل السياسي ، فقال : « لولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قُتل » ^(٣) ، فكان تصوّر الإمام ورؤيته أن خطّة معاوية هي تصفية عامّة لجميع الشيعة ، ولا يُبقي منهم أحداً ، وكان الصلح هو خطّة سياسية للإبقاء والمحافظة على شيعة أهل البيت عليه السلام إلى أن تتغيّر الظروف السياسية .

ويقول عليه السلام : « والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سَلماً » ^(٤) ، ولهذا لم يجد أمامه إلا الموقف الذي اتّخذه لأجل نجاة شيعة أهل البيت عليه السلام ، فقال : « والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سَلماً » .

وهنا كان الإمام الباقر عليه السلام يقول : « والله للذي صنعه الحسن بن عليّ كان خيراً لهذه الأمة ممّا طلعت عليه الشمس » ^(٥) ، وهذا هو التحليل السياسي الذي قدّمه الإمام الحسن عليه السلام .

(١) المصدر السابق .

(٢) مقتل الإمام الحسين عليه السلام للمقرّم .

(٣) الكافي ٨ : ٥٩ .

(٤) علل الشرائع ١ : ٢٠٠ .

(٥) الاحتجاج ٢ : ٨ .

التحليل الغيبي :

أمّا التحليل الغيبي فقد دخل عليه سفيان بن أبي ليلى وهو من خاصّته وحواريه وأقرب أصحابه^(١) ، فقال له : السلام عليك يا مذلّ المؤمنين !

فقال له الإمام الحسن عليه السلام : « انزل ولا تعجل » ، فنزل وأقبل يمشي إلى الإمام الحسن عليه السلام حتّى وصل إليه ، فقال له الإمام الحسن عليه السلام : « ما قلت ؟ » .
قال : قلت : السلام عليك يا مذلّ المؤمنين .

فقال عليه السلام : « وما علمك ؟ » .

فقال : عمدت إلى أمر هذه الأُمّة فخلعته من عنقك وقلّدتها هذا الطاغية^(٢) !
فقال عليه السلام : « سأخبرك لِمَ فعلتُ ذلك ، سمعت أبي يقول : قال رسول الله ﷺ : لن تذهب الأيام والليالي حتّى يلي أمر هذه الأُمّة رجل واسع البلعوم يأكل ولا يشبع وهو معاوية ، ولذلك فعلت »^(٣) .

وهذا إنباء من رسول الله ﷺ بأمر غيبي ، ولا يمكن أن نخرج عن الغيب وعن القرار الإلهي ، ثم إن الإمام أراد أن ينزع منه هذا الهيجان النفسي ، والإمام أعرف بما فعل ، فقال له عليه السلام : « ما جاء بك ؟ » .

قال : حُبُّكَ .

قال : « الله ؟ » .

فقال عليه السلام : « والله لا يُحبُّنا عبد أبداً ولو كان أسيراً في الديلم إلّا نفعه حبُّنا ، وإنَّ حبَّنا لِيُساقط الذنوب من بني آدم كما يُساقط الريح الورق من الشجر »^(٤) .

(١) يرى بعض الباحثين أنّه كان من الخوارج .

(٢) رجال الكشي ٢ : ١١١ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) رجال الكشي ٢ : ١١١ .

مصائب الإمام الحسن عليه السلام

الإمام الحسن عليه السلام شهد مصائب في حياته ومصائب بعد مماته .

المصيبة الأولى: هي التشكيك في حركته وسياسته ، الشك الذي أصاب شيعة فضلاً عن باقي المسلمين ، وهذه مصيبة ، أن إماماً أو قائداً يشك أتباعه في حركته ، وهذه أعظم مصيبة ابتلي بها إمامنا الحسن عليه السلام ، ولهذا نجده أحياناً كثيرة يدافع عن نفسه وحركته ، يقول : « والله ما ثننا عن أهل الشام شك ولا ندم ، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر ، فشيت السلامة بالعداوة ، والصبر بالجزع ، وكنتم في متدبكم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم ، فأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ، ألا وإنا لكم كما كنا ، ولستم لنا كما كنتم »^(١) ، أي إنكم أصبحتم تطلبون الدنيا ، والأمة التي تطلب الدنيا لا يمكن أن تتصرف في معركة عسكرية أو سياسية ، « وكنا لكم وكنتم لنا وقد صرتم اليوم علينا » .

المصيبة الثانية: أنه قُتل مسموماً ، شهيداً ، صابراً .

المصيبة الثالثة: منعوا جنازته من زيارة قبر جدّه رسول الله ﷺ ورموا جنازته بالسهام ، حين جاء مروان إلى عائشة قال لها : يا أمّ المؤمنين ! الحسين يريد أن يدفن أخاه الحسن عند قبر جدّه رسول الله ، والله لئن دُفِنَ الحسن بجوار جدّه ليذهبنّ فخر أبيك وصاحبه إلى يوم القيامة .

قالت : إذاً ما أصنع ؟

قال : امنعيهم . ثم أتى لها ببغلة فركبتها ، وحفّ بها الأمويون والمنافقون ، وقالت : مالي ولكم تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أحبُّ^(٢) ؟

بإجماع المؤرّخين إنّ عائشة قالت هذا الكلام : « تريدون أن تدخلوا في بيتي من لا أحبُّ » ، ورسول الله ﷺ يقول للحسن : « اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه »^(٣) .

(١) ترجمة الإمام الحسن لابن عساكر : ١٧٩ .

(٢) الإرشاد ٢ : ١٨ ؛ كشف الغمّة ٢ : ٢٠٩ .

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣ : ١٥٩ ؛ صحيح البخاري ٧ : ٥٥ .

هذا الأمر أدى إلى أن يدفن الإمام الحسن عليه السلام في البقيع .

الإمام الحسين عليه السلام جلس عند قبر الحسن عليه السلام حين دفنه وقال : « رحمك الله أبا محمد ، إذ كنت لناصر الحقِّ مظانّه ، وتؤثر الله عند مداحض الباطل في مواطن التقيّة بحسن الرويّة ، وتستشفّ جليل معازم الدنيا بعين لها حاقرة ، وتفيض عليها يداً طاهرة ، وتردع ماردة أعدائك بأيسر المؤونة عليك ، وأنت ابن سلاله النبوة ، ورضيع لبان الحكمة ، وإلى روح وريحان وجنة نعيم ، أعظم الله لنا ولكم الأجر عليه ، ووهب لنا ولكم السلوة وحسن الأسى عليه »^(١) .

ثم أنشد يقول :

أأذهن رأسي أم تطيب محاسني	وَحَدَّكَ مَعْفُورٌ وَأَنْتَ سَلِيبٌ
غريبٌ وأكنافُ الديار تحوطُهُ	أَلَا كُلُّ مَنْ تَحْتَ التُّرَابِ غَرِيبٌ
وليس حريباً من أُصِيبَ بماله	وَلَكِنْ مَنْ وَارَى أَخَاهُ حَرِيبٌ
بكائي طویلُ والدموع غزيرةٌ	وَأَنْتَ بَعِيدٌ وَالْمَسَارُّ قَرِيبٌ ^(٢)

أخلاقه وظلاماته

أخلاقه :

هناك رواية تقول : إن مروان بن الحكم الذي هو من أشدّ خصوم الإمام الحسن عليه السلام ، إنّه لمّا مات الإمام الحسن عليه السلام قد حمل سريره ، فقال له الإمام الحسين عليه السلام : تحمل سريره ؟ والله لقد قد كنت تُجرّعه الغيظ .

فقال مروان : إنّي كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال^(٣) .

ومروان بن الحكم كان مسؤولاً كبيراً في المدينة المنورة ، ومما يروى أنّه قد كان له

(١) ترجمة الإمام الحسن لابن عساكر : ٢٣٣ .

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣ : ١٦٠ .

(٣) مقاتل الطالبين / أبو الفرج الأصبهاني : ٤٩ .

طمع ببغلة الإمام ﷺ ، فقال لابن أبي عتيق أريد هذه البغلة .

فقال له ابن عتيق : أنا أحضرها إليك على أن تقضي لي ثلاثين حاجة .

فقال : ماذا ستفعل .

قال : أنت ادع إلى اجتماع كبير ، وادع الإمام الحسن ﷺ إليه ، وأنا سأمدحكم ولا أذكر الحسن ، بعدها اسألني لِمَ لم أمدح الحسن ؟ عندها سأجيبك وستأخذ البغلة ، فكان الاجتماع .

وحضر الإمام الحسن ﷺ ، ووجوه قريش ، فأخذ ابن أبي عتيق يثني على مروان وأصحابه ، وآل أمية ، وآل مروان ، حتَّى انتهى من الكلام ، فقال مروان : ما ذكرت أبا محمد الحسن ﷺ .

فقال ابن أبي عتيق : إنَّما نذكر الناس بالمديح ، أمَّا لو كنَّا بصدد ذكر الأنبياء لذكرنا الحسن ﷺ ، فخرج الإمام الحسن ﷺ ، وركض خلفه ابن أبي عتيق ، فالتفت إليه الإمام الحسن ﷺ - وهو يدري أنَّ مدحه ليس قرينةً إلى الله ويعلم أنَّ لديه مطلب - فقال : ماذا تريد ؟

قال : البغلة ، فأعطاه الإمام إيَّاه ، فأخذها وأحضرها إلى مروان بن الحكم .

لقد كنت أتأمَّل في هذا الموضوع ، أيُّ مستوى هم فيه هؤلاء ؟ بينما أنَّ الدنيا لا قيمة لها عند الأئمة الأطهار ﷺ .

عُرِفَ الإمام الحسن ﷺ بكرم الأخلاق ، ومع ذلك كانت له ﷺ ظلمات ، وهي كثيرة ، ولكن نُسجِّل ثلاث منها :

الظلمة الأولى : سقيه للسمِّ ، وهو إمام وسيّد شباب أهل الجنّة ، وقُتِلَ مسموماً ، بسُمِّ معاوية بن أبي سفيان ، وكلُّ ذلك عن طريق جعدة بنت الأشعث ، حتَّى قذف كبده

قطعة قطعة ، والبعض سأل : كيف يقذف كبده ، والسُّمُّ يذهب إلى المعدة ؟ والجواب : إنَّ في كلام العرب ليس المقصود الكبد هو الكبد الحقيقي ، وإنَّما جوف الإنسان ، هو الذي يتقطَّع ، والإمام الحسن عليه السلام تقطَّع جوفه بسبب السُّمِّ الشديد الذي شربه .

الظلامة الثانية : عند دفنه ، وهو ابن رسول الله ﷺ ، ومن الطبيعي أن يُدفن عند جدِّه عليه السلام ، ومن الطبيعي أن يُؤتَى بالجنائزة إلى رسول الله ﷺ ليُجدد العهد ، لكنَّهم رفضوا ذلك ، لماذا ؟

عند تأملي لعدم قبولهم بذلك وجدت أنَّهم قد ذكروا دليلين :

أولاً : قيل لعائشة : إذا دُفِنَ الحسن عليه السلام في جوار جدِّه رسول الله ﷺ لا يبقى لأبيك وصاحبه ذكرٌ ، فلتبقي القضية محصورة ، إنَّ هذا رسول الله ﷺ ، وهذا وزيره الأوَّل ، ووزيره الثاني ، فلا وجود لأهل البيت عليهم السلام ، هذا تحليل ، ولهذا جاؤوا إلى عائشة فقالت : ما العمل ؟ فقل لها : أن تركبي وتمنعهم !

ثانياً : أنَّ قبر النبي ﷺ هو بيت لعائشة ، باعتبارها زوجة رسول الله ﷺ ، ومن الناحية الشرعية هي وريثته ، فلا يجوز الدفن بغير إذنها ، ولكن هذا فيه بحث ، ولأنَّ القضية الحقيقية أعمق من ذلك ، وهي أنَّ خطَّ النفاق يقف في مقابل خطَّ الإيمان ، وهذه معركة مستمرَّة ، والعجيب أنَّك تجد الزهراء عليها السلام مثلاً لا قبر لها ، وعليَّ عليه السلام ظلَّ قبره مجهولاً مائة عام ! والحسن عليه السلام ممنوع أن يزور قبر رسول الله ﷺ ، والحسين عليه السلام يُقتل ويُطاف برأسه في البلدان ، والأمويون والعباسيون يمنعون الناس من زيارة قبره إلى مئات السنين ، فمن حقنا أن نسأل : ما هذه الظاهرة ؟ وماذا ارتكب أهل البيت عليهم السلام ؟

ولأنَّ الإمام الحسن عليه السلام كان يعرف عمق المعركة ، وأنَّه يُراد بها إثارة فتنة داخلية ، والنفاق يريد أن يُحوِّل هذه القضية لاقتتال داخلي ، لذلك كانت وصيَّة الإمام الحسن عليه السلام : « الله الله أخي أبا عبد الله أن تسفك قطرة دم في سبيل مدفني » ، لأجل أن تكشف الحقيقة .

واليوم الحقيقة بدأت تتكشف ، بأنَّ أهل البيت ﷺ ماذا أرادوا ، وهؤلاء ماذا يريدون .

الإمام الحسين عليه السلام يبكي عند أخيه الحسن عليه السلام ، فيقول الإمام الحسن عليه السلام : « مِمَّ بكاؤك ؟ ما هو إلاَّ سُمُّ سقيته ، لكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله وقد أزدلف لحربك ثلاثون ألفاً يدعون أنَّهم من أُمَّة رسول الله ﷺ » .

الظلامة الثالثة : هدم مرقد الإمام الحسن عليه السلام في القرن الماضي على يد الوهابيين ، مزيداً في الضلالة ، ولهذا يقول الشاعر :

ماذا تقولون إن قال النبيُّ لكم	ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مرتحلي	منهم أسارى ومنهم ضُرِّجوا بدم
السلام عليك يا صاحب القلب المسموم ،	السلام عليك يا صاحب القبر المهذوم ،
السلام عليك يا أبا محمَّد الحسن ورحمة الله وبركاته .	



البَابُ الْخَامِسُ

مَعَ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الفصل الأول : على أبواب محرّم الحرام

الفصل الثاني : فضل زيارته عليه السلام

الفصل الثالث : ذكرى الأربعين

الفصل الرابع : ثورة الإمام الحسين عليه السلام





الفصل الأول

عَلَى أَبْوَابِ مُحَرَّمٍ أَحَرَامَ

١. إحياء الذكرى وتعظيم الشعائر
٢. أسباب اختيار العراق
٣. تعظيم الشعائر الدينية
٤. اتّجاهان في التعامل
٥. شبهات حول الشعائر والتقوى
٦. العلاقة بين تعظيم الشعائر والتقوى
٧. كيف نتعامل مع الشعائر الدينية ؟
٨. دور الشعائر الحسينيّة
٩. القضية الحسينيّة في فكر أهل البيت عليهم السلام



إحياء ذكرى محرم الحرام

نقف على أبواب هذا الشهر المحرّم ، وذكرى شهادة سيّد الشهداء وأبي الأحرار إمامنا الحسين عليه السلام .

تؤكد النصوص الواردة عن أهل البيت عليه السلام ضرورة إحياء هذه الذكرى ، وحشدت روايات أهل البيت جمعاً كبيراً من التأكيدات لإحياء هذه الذكرى بألوانٍ من الأحاديث والنصوص .

روايات في إحياء الذكرى :

عن الإمام الرضا عليه السلام : « من تذكّر مصابنا وبكى لما ارتكب منّا كان معنا في درجتنا يوم القيامة ، ومن ذكّر بمصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون ، ومن جلس مجلساً يُحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب »^(١) .

إمامنا الصادق عليه السلام يقول : « رحم الله عبداً اجتمع مع آخر فتذاكر أمرنا ، فإنّ ثالثهما ملكاً يستغفر لهما »^(٢) .

وقال عليه السلام : « تجلسون وتحدّثون ؟ » ، قال الراوي : نعم ، جعلت فداك ، قال :

(١) أمالي الصدوق : ١٣١ / ح (٤/١١٩) .

(٢) أمالي الطوسي : ٢٢٤ / ح (٤٠/٣٩٠) .

« إِنَّ تِلْكَ الْمَجَالِسَ أُحِبُّهَا ، فَأَحْيُوا أَمْرَنَا ، إِنَّهُ مِنْ ذِكْرِنَا وَذُكْرِنَا عِنْدَهُ فَخَرَجَ مِنْ عَيْنِهِ مِثْلَ جَنَاحِ الذَّبَابَةِ غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ وَلَوْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ زَبَدِ الْبَحْرِ »^(١) .

امتياز شيعة أهل البيت ﷺ هو إحياء فكر أهل البيت وأخلاقهم وسنتهم ، وليس مجرد حبهم ومودّتهم ، إنهم إلى اليوم يحيون ذكر أهل البيت ﷺ ، وقد أعرض الناس عنهم ، المسلمون الآخرون حرموا أنفسهم من فكر ونور أهل البيت وقيمهم ، العالم الإسلامي محروم من ثقافة نهج البلاغة ، والصحيفة السجّادية ، ومن ثقافة جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، وأصبح يركض وراء زيد وعمرو تاركاً رسول الله ﷺ وسفن النجاة ﷺ . هناك تأكيد على إحياء ذكر أهل البيت ﷺ ، وهذا الأمر الثابت عن رسول الله ﷺ في قصّة الحسين عليه السلام بالخصوص ، حتّى إنّ الراوي يروي كما جاء ذلك في كتاب (فرائد السمطين) لأحد أئمّة الشافعية وهو الحمويّين وليس أحد أئمّة ورواة الشيعة ، يقول في الرواية : « مكتوبٌ على ساق العرش : الحسين مصباح هدى وسفينة نجاة »^(٢) ، سفينة النجاة ليست لمجرد العرض والاستعراض ، للرؤية والمشاهدة ، بل تحتاج من يركب بها ، فمن يشاهد السفينة ولا يركب بها يغرق .

الحسين عليه السلام ماذا يعني بالنسبة لنا ؟

أولاً : الحسين عليه السلام يعني تجسّم كلّ الشرائع الإلهيّة ، وتجسّم نور الله في الأرض ، « السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله ، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله » .

ثانياً : الحسين عليه السلام يعني خلاصة معركة الحقّ والباطل على طول التاريخ ، تلخّصت هذه المعركة التاريخية في كربلاء حينما قال رسول الله ﷺ في معركة الأحزاب عند خروج عليّ عليه السلام : « اليوم برز الإيمان كلّهُ إلى الشرك كلّهُ »^(٣) ، في كربلاء أيضاً احتدم الحقّ مع الباطل في معركة برز الإيمان كلّهُ إلى الشرك والنفاق كلّهُ .

(١) ثواب الأعمال : ١٨٧ .

(٢) فرائد السمطين ٢ : ١٥٥ / باب ٣٥ / ح ٤٤٧ .

(٣) شرح نهج البلاغة ١٩ : ٦١ .

ثالثاً: الإمام الحسين عليه السلام عند شيعة أهل البيت يُلخص أهداف الحق - حينما يقول معاوية بن أبي سفيان: (ما قاتلتكم لتصلُّوا ، ولا لتصوموا ، ولا لتحجُّوا ، ولا لتزكُّوا ، وإنَّما قاتلتكم لتأمّر عليكم)^(١) - في القول المأثور عنه : « إن كان دين محمدٍ لم يستقم إلَّا بقتلي يا سيوف خذيني » .

رابعاً: التعبُّد المطلق لله ، أراد الحسين عليه السلام أن يقول في كربلاء : أيُّها المسلمون إنَّ العبادة لله هكذا ، حتَّى في عمق المعركة يجب أن لا تفوتكم العبادة لله . أبو ثمامة الصائدي حينما حان وقت الزوال جاء إلى الإمام الحسين عليه السلام قائلاً : يا بن رسول الله ، ألا تُصلي بنا ؟ التفت الحسين عليه السلام إلى الشمس وقد زالت ، قال : « نعم هذا أوَّل وقتها ، ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلِّين » .

صلى الحسين عليه السلام ومعه أصحابه ، وكان اثنان من أصحاب الحسين عليه السلام يقفان سداً حتَّى لا تصل السهام والرماح إليه ، كان أحدهم زهير بن القين ، والثاني سعيد الحنفي الذي أصابته السهام حتَّى خرَّ صريعاً^(٢) .

خامساً: الحسين عليه السلام جسَّد لنا الالتزام بالأخلاق والقيم الأخلاقية ، الحنان والمحبة والرأفة والرحمة الإنسانية ، الحسين عليه السلام جسَّدها في كربلاء بما يعجز عنه البيان واللسان . يقول المؤرِّخون : إنَّ الحسين عليه السلام حينما بقي وحيداً ركب جواده وشقَّ صفوف القوم - وكانوا أربعة آلاف فارس على المشرعة - وقلبه يتقطَّع عطشاً ، حتَّى نزل عند المشرعة ، نزل عند الفرات ، يقول المؤرِّخون : مدَّ فرس الحسين رأسه لكي يشرب من الماء ، هنا التفت إليه الحسين عليه السلام وقال : « أنت عطشان وأنا عطشان ، لا أشرب حتَّى تشرب من الماء » ، الروايات تقول : إنَّ فرس الحسين كأنَّه فهم الكلام فرفع رأسه ، وبينما هو كذلك وإذا بالمنادي ينادي : يا حسين أتلثذُ بالماء وقد هتكتَ حرملك ، فرمى الماء من يده وعاد إلى الخيام وإذا هي سالمة^(٣) .

(١) انظر : شرح نهج البلاغة ١٦ : ٤٦ .

(٢) مقتل الحسين لأبي مخنف : ١٤٢ .

(٣) انظر : مناقب آل أبي طالب ٣ : ٢١٥ .

محرم الحرام منعطف تاريخي :

لدينا ذكرى محرم الحرام ونحن نقف على أبوابه ، وبودّي أن أُشير إلى أن محرم الحرام وقضية الإمام الحسين عليه السلام تُعتبر منعطفاً تاريخياً ، أي إنّ هناك قضايا جعلتها الأديان الإلهية منعطفات تاريخية وليست قضايا وقتية لعشر سنوات وتنسى ، مثلاً قتل قابيل لهابيل هذه القضية جعلتها الأديان الإلهية منعطفاً تاريخياً ، والقرآن يقول : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة : ٣٢) ، هذه القضية انعطافة في التاريخ وهي أنّ القتل والإرهاب والعدوان والتجاوز عدوان على البشرية محرم ، وهي قضية واحدة لكن مثلت انعطافة تاريخية .

والقرآن الكريم يتحدث في بناء البيت الحرام : ﴿ وَإِذْ رَفَعُوا بُرْهَمَ الْفَوَاعِدِ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ (البقرة : ١٢٧) ، ورغم أنّ الظرف التاريخي لهذا الموضوع هو زمن إبراهيم وإسماعيل ، لكن أرادت الأديان التوحيدية أن لا تكون هذه القضية مخصوصة بعشر سنوات أو عشرين سنة ، وإنّما مدى الدهر ، ولذا أضحت قضية الحجّ تمثّل انعطافة تاريخية لدى كلّ أبناء الأديان التوحيدية ، وأصلها إبراهيم وإسماعيل ، ولكنها تحوّلت إلى انعطافة ، ولذا قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آل عمران : ٩٧) .

وهكذا قضية فداء إسماعيل ، ﴿ السَّعَى فَكَالَ يَبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَأَتَّىٰ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (الصافات : ١٠٢) ، وهي مشهد شخصي ، ولكن أراد الإسلام والأديان التوحيدية أن تكون منعطفاً تاريخياً ، فصار فرضاً على جميع من يذهب إلى الحجّ أن يُضحي بكبش ، وأصبحت قضية فداء إسماعيل بكبش منعطفاً تاريخياً وشرعية مدى الدهر .

وهكذا قضية الإمام الحسين عليه السلام ، أراد لها التخطيط الإلهي أن تكون منعطفاً

الباب (٥): مع الإمام الحسين عليه السلام / الفصل الأول: على أبواب محرم الحرام

تاريخياً ، فكلُّ الأنبياء^(١) لديهم علاقة بالإمام الحسين عليه السلام ، حتَّى إنَّ رسول الله ﷺ كان يذكر الحسين عليه السلام فيبكي .

تروي مصادر أبناء العائمة عن عائشة ، عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ ذات مرَّة كان يُوحى إليه ، فجاء الحسين عليه السلام وصعد على منكب رسول الله ﷺ .

فقال جبرائيل : يا رسول الله ، أُتِجُّه ؟

قال : « بلى » .

قال جبرائيل : فَإِنَّ أُمَّتَكَ ستقتله ، ثُمَّ أَخَذَ جَبْرَائِيلُ قَبْضَةً مِنْ تَرَابِ كَرْبَلَاءَ ، تَرَبَّةً بِيضَاءَ ، وَقَالَ : سَيُقْتَلُ فِي أَرْضٍ يُقَالُ لَهَا : الطَّفُّ ، تقول عائشة : فخرج رسول الله ﷺ وعلامات البكاء بادية عليه ، فاستوحش أصحابه وفيهم - كما تقول الرواية - أبو بكر وعمر وفلان وفلان ، وقالوا : يا رسول الله ، ما الذي نراك فيه ؟

قال ﷺ : « كان عندي جبرائيل ، وأخبرني أنَّ ولدي هذا يُقتل في أرض يقال لها : الطَّفُّ »^(٢) .

لقد كان الحسين عليه السلام محلاً لبكاء رسول الله والأصحاب ، فهذا الطفل الصغير سيأتي اليوم الذي يُذبح فيه على شطِّ الفرات .

مرَّ أمير المؤمنين عليُّ عليه السلام بكربلاء ، فقال لَمَّا مرَّ به أصحابه وقد اغرورقت عيناه يبكي ويقول : « هَذَا مُنَاخُ رِكَابِهِمْ ، وَهَذَا مُلْقَى رِحَالِهِمْ ، هَاهُنَا مُرَاقُ دِمَائِهِمْ ، وَمَصَارِعُ عُشَاقٍ شُهَدَاءَ ، لَا يَسْبِقُهُمْ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ ، وَلَا يَلْحَقُهُمْ مَنْ بَعْدَهُمْ »^(٣) .

إذن قضية الإمام الحسين عليه السلام هي انعطافة في التاريخ الإسلامي والبشري ، وفي تاريخ تكامل كلِّ إنسان ، وسوف نعرف أنَّ ذلك الإنسان الذي ليس له علاقة مع الإمام الحسين عليه السلام فَإِنَّ هُنَاكَ شَكًّا فِي إِيْمَانِهِ .

(١) نوذُّ الإشارة إلى أنَّ المجلس جمع عديداً من الروايات في بكاء الأنبياء على الحسين عليه السلام ، راجع في ذلك : البحار/ ج ١٠١ في فضل البكاء على الحسين عليه السلام ؛ وكذلك نفس المهموم للشيخ عباس القمي .

(٢) الجامع الكبير للطبراني ٣ : ١٠٧ / ح ٢٨١٤ .

(٣) بحار الأنوار ٤١ : ٢٩٥ / حديث ١٨ ، نقلاً عن الخرائج والجرائح .

فالإمام الحسين عليه السلام يمثل نسيم الجنة ، والذي ليس لديه محبة لنسيم الجنة فهو ليس لديه إيمان ، وهذا القول لسنا نحن من نقوله ، بل الروايات الثابتة والصحيحة التي سأقرأ لكم بعضها :

١- جاء رسول الله ﷺ يوماً وكان الإمام الحسين عليه السلام عند أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب ، فأخذه يلعبه ساعة ، ثم ذرفت عيناه !

فقلت له : يا رسول الله ، ما يبكيك ؟

فقال : « هذا جبرئيل يُخبرني أن أمتي تقتل ابني هذا »^(١) .

٢- الإمام الصادق عليه السلام يقول : « من ذكر الحسين عليه السلام فخرج من عينيه من الدموع مقدار جناح الذباب كان ثوابه على الله ، ولم يرض له الله بدون الجنة »^(٢) .

٣- والإمام الرضا عليه السلام يقول : « من دُكِّر بمصائبنا فبكى وأبكى لم تبكي عينه يوم تُعمى العيون »^(٣) .

٤- الإمام الحسين عليه السلام يقول : « أنا قتيل العبرة ، ما دُكرت عند مؤمن إلا استعبر »^(٤) .

٥- الإمام الصادق عليه السلام قال لحَمَّاد الكوفي^(٥) : « بلغني أن أناساً من أهل الكوفة يأتون قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام في النصف من شعبان ، فبين من يقرأ ويقص . . . » ، إلى أن قال : « ونساء يندبنه » .

فقال حماد : قد شهدت بعض ما تقول .

(١) ترجمة الحسين من تاريخ دمشق : ١٨٢ / الرقم ٢٣١ ؛ ورواه الحاكم في المستدرک على الصحيحين ٣ : ١٧٦ ؛ والخوارزمي في مقتل الحسين ١ : ١٥٩ ؛ والسيوطي في الخصائص ٢ : ٤٤٩ .

(٢) كامل الزيارات لابن قولويه : ١٠٥ .

(٣) أمالي للصدوق : ١١٢ / ٢٤ ح ٢ ؛ بشارة المصطفى : ١٩٩ ؛ الفضائل : ٩ .

(٤) كامل الزيارات لابن قولويه : ١١٦ - ١٢٤ .

(٥) هو أبو القاسم حماد بن أبي ليلى بن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي ، المعروف بـ (الراوية) . كان من أعلم الناس بأيام العرب ، وأخبارها ، وأشعارها ، وأنسابها ، ولغاتها ، وهو الذي جمع السبع الطوال فيما ذكره أبو جعفر النحاس . وكانت ملوك بني أمية تُقدِّمه وتؤثِّره وتستزيه ، فيفد عليهم وينال منهم ويسألونه عن أيام العرب وعلومها . (كما ورد في سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي) .

فقال عليه السلام: « الحمد لله الذي جعل في شيعتنا من يفد إلينا ويمدحنا ويرثي لنا » (١) .

وقال عليه السلام: « إن شيعتنا يحبون ذكرنا بالبكاء والمصاب » (٢) .

إذن قضية الإمام الحسين عليه السلام تمثل منعطفاً تاريخياً ، وبقاء الإسلام بالحسين عليه السلام كما أن بقاء الشيعة بالحسين عليه السلام . إن التحوّل العالمي الذي نعيشه إنّما هو بالحسين عليه السلام .

أسباب اختيار العراق

مهداً للثورة الحسينية

في اليوم الثاني من محرّم الحرام دخل الإمام الحسين عليه السلام كربلاء ، أنتم تعلمون أنّ الإمام الحسين عليه السلام غيّر مساره الجغرافي ، فقد وصل إلى ما يقارب الكوفة (القادسية) ، وهي منطقة (عذيب الهجانات) ، والآن تُسمّى العذيب ، وهي وإدزاعي ، ووصل إلى منطقة قرية من القادسية اسمها الرهيمة ، وهي موجودة إلى حدّ الآن ، ولكن بعد ذلك بدل أن يتّجه إلى الكوفة اتّجه شمالاً من الناحية الجغرافية حتّى وصل إلى كربلاء ، شمال النجف ، فكيف وصل أبو عبد الله إلى كربلاء مع أنّ مسيره من الجنوب من مكّة المكرمة أقرب إلى الكوفة منه إلى كربلاء ؟

الجواب : أنّ الحرّ الرياحي عارضه في مسيره ولم يسمح له بالوصول إلى الكوفة ، واتفق الإمام الحسين عليه السلام معه على تغيير المسار ، وقد قدّم الحرّ الرياحي بألف فارس ، ولم يرَ الحسين عليه السلام من المصلحة أن يدخل معهم في معركة ، واتفق على أن يسلك طريقاً لا يؤدّي به إلى الكوفة ولا يردّه إلى المدينة وهو طريق الشمال ، وقد سلكوا هذا الطريق حتّى وصلوا إلى مدينة تُدعى نينوى ، وهذه المنطقة هي كربلاء الحالية .

لدينا سؤال : لماذا اختار الإمام الحسين عليه السلام العراق مع أنّ عدداً كبيراً أشار عليه أن

(١) وسائل الشيعة ١٤ : ٥٩٩ / الباب ١٠٥ من أبواب المزار / الحديث ٧ .

(٢) أمالي الصدوق : ١٩٠ .

لا يأتي إلى العراق ، أمثال : أم سلمة ، ومحمد بن الحنفية ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعمر الأطراف ، وحذروه ، ولكن الإمام الحسين عليه السلام أصرَّ على أن يأتي إلى العراق وإنجاز الثورة فيه ، هذا السؤال تاريخي ومهم جداً .

في الجواب على ذلك توجد ثلاثة آراء :

الرأي الأول : كان الإمام الحسين عليه السلام ينطلق من خطأ واشتباه في تقييم الوضع السياسي في العراق ، كما قال له بعض رجالات المدينة ومكة أن لا ترد إلى العراق ، لأنَّ حركتك فيها فاشلة ، وإنَّك ستقتل في العراق . لكن الإمام الحسين عليه السلام خالف هذا الرأي ، فهل هذا يعني أن الإمام الحسين عليه السلام أخطأ في التقييم ؟

الرأي الثاني : أن الإمام الحسين عليه السلام انطلق من مبدأ التعبُّد بالتكليف الشرعي ، كما كان الإمام يقول : « شاء الله أن يراني قتيلاً ، وشاء الله أن يراهنَّ سبايا »^(١) .

الرأي الثالث : أن الإمام الحسين عليه السلام كان ينطلق من رؤية صحيحة وقراءة دقيقة للواقع الحاضر والمستقبل ، وهذا الرأي هو الذي نختاره ونعتقد به .

أمَّا الرأي الأول فهو غير صحيح ؛ لأنَّ الإمام الحسين عليه السلام حتَّى لو لم يكن معصوماً فلا يمكن أن يكون أقلَّ علماً من محمد بن الحنفية أو أم سلمة أو عبد الله بن الزبير أو عبد الله بن عمر أو باقي الناس الذين حذروه من الذهاب إلى العراق .

فهل إنَّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يعرف هذه الحقيقة للواقع في العراق ؟

كلَّا ليس كذلك ، فعلى الأقلَّ إنَّه خاض تجربة طويلة مع أبيه أمير المؤمنين في العراق ، لذا فإنَّه لديه رؤية جيِّدة بغضَّ النظر عن كونه معصوماً ، لذا فإنَّه لم يكن مخطئاً بتحليل وتقييم الواقع في العراق .

إنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان لديه علم بقضيَّته وبنتيجه وأنَّه سيقتل على خلاف بعض المؤرِّخين مثل صاحب كتاب (الشهيد الخالد) الذي يعتقد أنَّ الإمام الحسين عليه السلام

كان غير عارف بأنه سيقتل ، وهذا غير صحيح ، لأن الإثباتات التاريخية تؤكد أن الإمام الحسين عليه السلام كان يعلم بأنه سيقتل ، ومع ذلك اختار العراق .

أمّا عن الرأي الثاني ، وهو أن القضية هي تعبّد بالتكليف ، فمن المعروف أن التعبّد أمر جيّد ، لكن الذي نعرفه أن قانون الرسالات الإلهيّة في الواقع السياسي هو استحصال التكليف من المستحقّات الخارجية المنظورة ، فالصلاة والصيام تعبّد وهو تكليف ، فصلاة الصبح ركعتان وصلاة الظهر أربع ركعات ، كلّ هذه أمثال على التعبّد .

رسول الله ﷺ أمره الله أن يؤيّي وجهه إلى المسجد الحرام من المسجد الأقصى ، فهذا تعبّد وإن رسول الله ﷺ ليس لديه رأي مقابل التكليف الإلهي ؛ لأنّه تعبّد وليس فيه نقاش .

لكن في القضايا السياسية مثل هجرة النبيّ إلى الطائف وإلى المدينة المنورة فإنّه في مجمل هذه المواقف السياسية ، فإنّ قانون الرسالات الإلهيّة هو أن تشخيص الموقف يُترك للقائد ، وإن كان هناك ثمة تكليف فهذا التكليف ينسجم مع التشخيص الخارجي وليس تكليفاً مجهولاً بدون استحقاقات خارجية ، ومثل ذلك في القضايا الجهادية ، فالنبيّ ﷺ هو الذي يُقرّر المعركة وأسلوبها ، حتّى إذا كان ثمة تكليف غيبي ، إذن فالقضايا السياسية والجهادية ومثلها الأمور الاجتماعية كون الرسول ﷺ هو صاحب القرار وتشخيص التكليف وفق المعطيات الموجودة لديه وليس محض تعبّد بالغيب .

مثلاً أوحى الله تبارك وتعالى إلى النبيّ ﷺ أن يهاجر من مكّة إلى المدينة المنورة ، هذا تكليف له استحقاقاته المدروسة والمقروءة والواضحة ، رسول الله ﷺ هاجر قبل ذلك إلى الطائف ، وكان لديه استعداداته لهذه الهجرة ، كما أنّه كان لديه أصحاب ذهبوا إلى المدينة وهيأوا الجوّ فيها ، كلّ هذه استحقاقات وليس تكليفاً بالمجهول ؛ لأنّ الرسول كان لديه رؤية واضحة ، إنّ جوّ مكّة المكرّمة لا يسمح أن يبقى فيها .

هكذا حركة الحسين عليه السلام لم تكن مجرد تعبّد بالتكليف وبدون رؤية سياسية واضحة ، بل كان تكليفاً مع استحقاقاته المنظورة والمقروءة والواضحة لدى الإمام الحسين عليه السلام .

إذن الرأي الثالث هو الصحيح ، هو أنَّ الإمام الحسين ﷺ كان لديه نظرة واضحة وصحيحة عن الواقع العراقي في حاضره يومئذ وفي مستقبله ، وهذه الرؤية تقول : إنَّ العراق هو مركز انطلاق التشيع .

لا شكَّ أنَّ هناك رؤية غيبية نحن لا ندَّعي أنَّنا نطلَّع على أسرار الخلق والتأثيرات الغيبية ، ولا نستطيع أن نتناول على الغيب ، ولكن الأرقام تشير إلى أنَّهم ﷺ كانوا ينطلقون من رؤية خاصَّة للعراق باعتباره مركزاً لانطلاق التشيع ، ولهذا تركَّز أئمَّتنا في العراق رغم أنَّ مكَّة المكرمة ذات قدسية عظيمة وهكذا المدينة المنورة ، ولكن لماذا أمير المؤمنين ﷺ ترك المدينة وجاء إلى العراق ؟

لا بدَّ أنَّ هناك رؤية خاصَّة ليس على أساس قدسية البقعة ، بل لأنَّ هناك تقيماً للشعب العراقي ، حتَّى إنَّ إيماننا المنتظر سيجعل العراق عاصمة لحركته السياسية ، سينزل الكوفة ويبنى مسجداً له ألف باب في ظهر الكوفة - يعني بين النجف والكوفة - ، وتكون انطلاقة الحجَّة المنتظر من العراق ، يعني أنَّ مركز الانطلاق العالمي للإمام المنتظر يكون من العراق ، وأنا لا أتناول هذا الموضوع على أساس عرقي وقومي ، لكن هذا تراث ديني يجب أن ندرسه ونقرؤه .

الإمام الحسين ﷺ انتقل إلى العراق لينهض بثورة مخلَّدة إلى الأبد ، ليس على أساس عدم معرفة بالواقع الاجتماعي للعراق والعراقيين كما أشار البعض ، أو على أساس تعبُّد بالمجهول كما يراه آخرون ، وإنَّما على أساس رؤية صحيحة للواقع العراقي ، في حاضره ومستقبله .

لَمَّا وصل الحسين ﷺ إلى كربلاء وإلى قرى نينوى على أطراف مدينة كربلاء ، الرواية تقول : إنَّ جواد الحسين ﷺ قد توقَّف ولم يتحرَّك ، ورواية أخرى تقول - وهي أكثر طبيعية وتناسب مع أحداث ذلك اليوم - : إنَّ الحرَّ الرياحي لم يسمح له بالتقدُّم لأكثر من هذا المكان ، فقد ورد عليه موفد ابن زياد يقول له : امنع الحسين من التقدُّم ، وبالفعل فقد وقف الحرُّ أمام الحسين ﷺ ليمنعه ، فقال له الحسين : « سر بنا قليلاً » ؛

فوافق الحرّ وسارا معاً حتّى وصلّا إلى منطقة سأل (عليه السلام) عنها قيل له : إنّها الغاضريات .

قال : « هل لها اسم آخر ؟ » .

قيل : تُسمّى قرى الطفّ .

قال : « هل لها اسم آخر ؟ » .

فقالوا : تُسمّى كربلاء ، فدمعت عينا الحسين (عليه السلام) ، ولعلّ هذه أوّل دمعة من

الإمام الحسين (عليه السلام) حين وصل كربلاء ، وقال : « هاهنا محطّ ركابنا ، وسفك دمائنا ، بهذا

حدّثني جدّي رسول الله (صلى الله عليه وآله) » (١) .

تعظيم الشعائر الدينية

قال الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (الحجّ : ٣٢) ، الآية من سورة الحجّ ، وهي تُعطي ربطاً بين شعائر الله وبين تقوى القلوب ، بما يعني أنّ تعظيم شعائر الله هو خطوة تربوية لبناء القلب المتّقي الصالح ، كما أنّ الصلاة والصوم والحجّ من تقوى القلوب ، كذلك تعظيم شعائر الله هي من معالم الدين .

وهكذا القرآن الكريم في موضع آخر يقول : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ (الحجّ : ٣٦) ، البدن هي الإبل ، يقول القرآن الكريم : هذه الإبل التي تُنحر في الحجّ هي معلّم من معالم الحجّ ، كالصفا والمروة ، والمزدلفة ، المعالم الزمانية والمكانية التي تُذكّر بالله تبارك وتعالى هي جميعاً من تقوى القلوب .

على هذا الأساس يأتي تعظيم الذكريات الدينية في ثقافة أهل البيت (عليهم السلام) ، إنهم تميّزوا بثقافة خاصّة في شأن تعظيم الذكريات الدينية ، ولهذا نحن أتباع أهل البيت (عليهم السلام) الأكثر بروزاً في تعظيم الشعائر الدينية ، ونعتبر أنّ هذا الأمر أحد الخطوط التي رسمها الإسلام لتربية الإنسان الفرد والمجتمع . الفكرة إسلامياً مجمع عليها ، فكل

(١) مناقب آل أبي طالب ٣ : ٢٤٧ .

العام الإسلامي يُعظَّم الشعائر ، فميلاد النبي ﷺ يُعظَّم لدى كل المسلمين ، وهكذا شهر رمضان ، الكعبة ، مقام إبراهيم ، لكن الشيء الذي تميّزنا به هو ذكريات أهل البيت ﷺ بالخصوص ، هذه التي جعلت لوناً آخراً لدى شيعة أهل البيت ﷺ في تعظيم الشعائر .

نحن نقول : إذا كانت الصفا والمروة من شعائر الله ، وكانت البُدن من شعائر الله ، فلماذا لا يكون الإمام الحسين ﷺ من شعائر الله ، وهكذا الإمام عليّ وفاطمة الزهراء ﷺ ؟ الفكرة ليست قياسية وإنما جوهر المعنى والمضمون ، إذا كان مقام إبراهيم (الصخرة التي وقف عليها إبراهيم) لحدّ الآن يُقدّسه المسلمون ، تمسحاً به أو الصلاة خلفه ، كما هو في النصّ القرآني : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة : ١٢٥) ، وهو صخرة وقف عليها إبراهيم وليس أكثر من هذا ، إذن لماذا لا يكون الأئمة الأطهار ﷺ مقدّسون ، الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (الأحزاب : ٣٣) ، وقال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ (النور : ٣٦) ؟ لماذا لا نُقدّس ذكرياتهم ؟ ولماذا لا نُقدّس بيوتهم ؟

الفكرة هي هذه أنّ شيعة أهل البيت ﷺ يفهمون أنّ شعائر الله تمتدّ لكل ما يُذكر بالله تبارك وتعالى ، وحينئذٍ نقف عنده معظمين ذاكرين ، ونعتبر ونفهم أنّ ذلك من تقوى القلوب ، ولهذا والكلام يرتبط بما نحن فيه من محرّم الحرام ، حيث نجد أنّ شيعة أهل البيت ﷺ يقفون موقفاً تجليلياً تعظيماً لذكرى شهادة الإمام الحسين ﷺ ، ونأسف لأنّ باقي العالم الإسلامي ليس له مثل هذا الموقف .

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (الحجّ : ٣٢) ، هذه قضية ترتبط بنقاء قلوب هؤلاء الناس الموالين لأهل البيت ﷺ ، وطهارتهم ، هؤلاء الناس أذكى ، ولهم مستوى من الطهر ، إنّ الله تعالى ألقى في قلوبهم عطراً ونفحة خاصة هي حبّ الحسين ﷺ ، وتعظيم الشعائر الحسينية ، وهذا من التقوى ، فالتقوى

ليس بالأشكال والمظاهر ، الصلاة والصوم هما أيضاً من تقوى القلوب بمقدار ما يتوجه بها العبد نحو الله تعالى .

هذه الممارسات الدينية هي من أعظم سُبُل تقوى القلوب والتطهير والمحافظة على حياة القلب والمجتمع ، ولهذا نجد أن مجتمعنا مجتمع حيٍّ ، من أين جاءت هذه الحياة لمجتمعنا ؟ جاءت من خلال الارتباط القلبي بأهل البيت عليه السلام أو ذكرياتهم .

لا توجد حضارة في العالم خسرت السلطة ، وبقيت (١٤٠٠) سنة حية بدون سلطة ، بل كانت السلطة ضدها كما هو في مذهب وحضارة أهل البيت عليه السلام ، وهذا هو الذي يُفسّر لنا اهتمام أهل البيت عليه السلام بهذه القضية حتى جاء في الحديث الشريف : « إِنَّ من أنشد فينا بيتاً من الشعر وجبت له الجنة »^(١) .

قد يقول قائل : هذه مبالغات ، لا ليست مبالغات ، من أنشد فينا بيتاً من الشعر في تحدي ما يجري من سحق لشيعه أهل البيت عليه السلام وتحريف ثقافي ضد أهل البيت عليه السلام ، ذاك الذي أنشد فينا بيتاً من الشعر ، قلبه نقي زكي . وهكذا « من بكى وأبكى وجبت له الجنة »^(٢) ، طبعاً أمام هذا التحريف الذي عمره (١٤٠٠) سنة وأمام تحديات على طول هذا التاريخ ممتلئة بالرعب والإرهاب والذبح والقتل ، إن من يقف إلى اليوم متصلاً بأهل البيت عليه السلام وجبت له الجنة ، هذه ليست مبالغة . وهكذا ما روي : « من أراد أن يضافحه مائة وأربعة وعشرون ألف نبي فليزر الحسين عليه السلام في النصف من شعبان »^(٣) ، هذه حياة القلب ، إن هذا القلب الذي يزور الحسين عليه السلام بعد قرون من الحرب عليه بكل ألوانها هو قلب زكي وتقي ، ﴿ ذَلِكُمْ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْبُهُ ﴾ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿ (الحج : ٣٢) .

(١) بحار الأنوار / الجزء ٤٤ .

(٢) الخصائص الحسينية للشيخ جعفر التستري .

(٣) وسائل الشيعة ١٤ : ٤٦٢ .

اتجاهان في التعامل مع القضية الحسينية

هناك اتجاهان في التعامل مع القضية الحسينية :

الاتجاه الأول : هناك من يتعامل معها على أساس ماضوي ، يقول : هذه القضية تاريخية ماضية ، ونحن لا بأس أن نذكر الحسين ﷺ بشيء من الأسى وتنتهي القضية ، هذه حادثة تاريخية مريرة ، هي جديرة بأن تُنسى وحتى لا تثار الضغائن ، نعم الحسين ﷺ نأسى له ، قُتل مظلوماً ولا أكثر من هذا ، فلا نتكلم على يزيد ولا على بني أمية ولا نُكبر المسألة ، وكثير من المسلمين يسرون في هذا الاتجاه ، وحينئذ لا ينبغي حتى للواعظين والعلماء أن يذكروا قضية الحسين ﷺ ، الإمام الغزالي مثلاً - وهو أحد أئمة الفكر السني - يقول : لا ينبغي للواعظ الداعية أن يذكر قضية الحسين ﷺ ، لأنها تثير الضغائن على يزيد وجماعة يزيد ، فلا داعي لذلك ، انسوا هذا الماضي ، مع علمهم أن الحسين ﷺ سيد شباب أهل الجنة .

الاتجاه الثاني : هو اتجاه أهل البيت ﷺ وشيعتهم ، ويعمل على تخليد هذه الذكرى ويجعلها قضية حيّة ، وليست قضية ماضوية ، نتعاش معها باعتبارها قضية حيّة ، كما نُخلد ذكرى مبعث النبي ﷺ مثلاً ، نُخلد أيضاً هذه القضية .

الإمام الباقر ﷺ كان قد أوصى ابنه الإمام الصادق ﷺ أن يُخرج من ماله ليعطيه من يندبه أيام منى بعد وفاته ، فعن أبي عبد الله ﷺ قال : « قال لي أبي : يا جعفر أوقف لي من مالي كذا وكذا نواب تدبني عشر سنين بمنى »^(١) .

والإمام الصادق ﷺ يقول : « تلك المجالس أحبها ، أحيوا أمرنا ، رحم الله من أحيأ أمرنا »^(٢) ، وكانوا ﷺ يعقدون مجالس الحسين ﷺ ، حتى إن الرضا ﷺ طلب من دعبل شاعر أهل البيت أن يرثي الحسين ﷺ ليبيكه هو وأصحابه ومن وراء الستر يجلس أهل بيته^(٣) .

(١) الكافي ٥ : ١١٧ / باب كسب النائحة / ح ١ .

(٢) وسائل الشيعة ١٢ : ٢٠ / ح (١٥٥٣٢) .

(٣) يقول دعبل : دخلت على سيدي ومولاي علي بن موسى الرضا ﷺ في مثل هذه الأيام ، فرأيت جالساً ←

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّ « نفس المهموم لنا تسبيح وهمَّه عبادة »^(١).

الإمام الصادق عليه السلام يقول : « اللهم ارحم تلك الوجوه التي غيرتها الشمس ، اللهم ارحم تلك الحدود التي تقلبت على قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام ، وارحم تلك العيون التي جرت دموعها رحمةً لنا ، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا ، وارحم تلك الصرخة التي كانت لنا . . . »^(٢) ، لاحظوا لكي تبقى القضية حيَّة .

ورد عن السَّجَّاد عليه السلام قال : « من أحبَّ أن يضافحه مائة وأربع وعشرون ألف نبي فليزر الحسين عليه السلام »^(٣).

لماذا هذا التخليد ؟

الجواب : أنَّ هذا في الحقيقة تأكيد للقطيعة مع الظلم والظالمين ، ولئلاَّ يُتخذ الظالمون رموزاً إسلاميةً ووطنيةً .

→ جلسة الحزين الكئيب ، وأصحابه من حوله ، فلمَّا رآني مقبلاً قال لي : « مرحباً بك يا دعبل ، مرحباً بناصرنا بيده ولسانه » ، ثمَّ إنَّه وسَّع لي في مجلسه وأجلسني إلى جانبه ، ثمَّ قال لي : « يا دعبل ، أُحِبُّ أن تنشدني شعراً ، فإنَّ هذه الأيام أيام حزن كانت علينا أهل البيت ، وأيام سرور كانت على أعدائنا خصوصاً بني أُمِّيَّة ، يا دعبل من بكى وأبكى على مصابنا ولو واحداً كان أجره على الله ، يا دعبل من ذرفت عيناه على مصابنا وبكى لما أصابنا من أعدائنا حشره الله معنا في زمرة ، يا دعبل من بكى على مصاب جدِّي الحسين غفر الله له ذنوبه البتَّة » ، ثمَّ إنَّه عليه السلام نهض ، وضرب ستراً بيننا وبين حرمه ، وأجلس أهل بيته من وراء الستر ليكوا على مصاب جدِّهم الحسين عليه السلام ، ثمَّ التفَّت إليَّ وقال لي : « يا دعبل ارث الحسين ، فأنت ناصرنا ومادحنا ما دمت حيّاً ، فلا تُقَصِّر عن نصرنا ما استطعت » ، قال دعبل : فاستعبرت وسالت عبرتي ، وأنشأت أقول :

وقد مات عطشاناً بشطِّ فرات
وأجريت دمع العين في الوجنات

أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً
إذا للظمت الخدَّ فاطم عنده
انظر : بحار الأنوار ٤٥ : ٢٥٧ .

(١) الكافي ٢ : ٢٢٦ / باب الكتمان / ح ١٦ .

(٢) ثواب الأعمال : ٩٥ .

(٣) كامل الزيارات : ٣٣٤ / ح (٢ / ٥٥٨) .

لولا تخليد ذكرى الإمام الحسين عليه السلام لكان قتله الحسين عليه السلام أصبحوا رموزاً إسلاميةً ووطنيةً، مثلاً: يتحدثون عن أهرامات فرعون، أن فرعون كان عظيماً لأنه بنى هذه الأهرامات، لكن القرآن جاء وقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾ (القصص: ٤)، سقط فرعون ولا يوجد هناك من المسلمين من يُمجّد فرعون، ولو كنّا بعيدين عن الفهم القرآني والثقافة القرآنية، لأصبح فرعون رمز مصر والمصريين، وأنه ذاك البطل المخلد الذي أقام الحضارة الفرعونية، لكن جاء القرآن وأسقط هؤلاء، باعتبارهم جبابرة.

إن فكرة إحياء ذكرى الإمام الحسين عليه السلام تهدف إلى تصحيح مسار الرمزية، من هم الرموز، فرعون ويزيد وصدّام، أم الأئمة الأطهار ورسول الله والأنبياء عليهم السلام؟

بالتأكيد لولا قضية الحسين عليه السلام لكان يُعتبر مثل يزيد وآل مروان رموزاً في العالم الإسلامي، لكن جاء الحسين عليه السلام وزعزع هذه القدسية التي يريد أصحابهم أن يُعطوها لهم.

إن تخليد الشيعة لذكرى الحسين عليه السلام تهدف لأن يبقى في الأذهان دائماً، أن يزيد يعني قتل الحسين عليه السلام، آل أمية يعني النفاق ضد آل البيت عليهم السلام وضد رسول الله ﷺ، هذا هو تخليد الحسين عليه السلام.

الحقيقة أن الذين قتلوا الحسين عليه السلام لم تكن القضية قضية اعتبارات مذهبية، وإنما اعتبارات سياسية، يعني يزيد ما كان سنياً، حتى يقال: إن هذه الحرب بين الحسين عليه السلام الشيعي ويزيد السني، وهكذا صدّام حينما حارب الشعائر الحسينية بأشدّ حرب، لم يكن سنياً، ولا السنة يحاربون الشعائر الحسينية، صدّام حارب الشعائر الحسينية لأنها تُعطي ثقافة القطيعة مع الظالمين.

الحسين عليه السلام ضوء ينير الطريق إلى الناس، حزب البعث ما قاتل الحسين عليه السلام لقضية مذهبية، لأنّ حزب البعث لا مذهب له، والبعثيون لا مذهب لهم، وقد ذكرت لكم بعض التقارير المخبرانية التي كان يُكتب فيها أن (هذا يزور الحسين عليه السلام)، وقد يكون

الذي يكتبها شيعي ، لكن البعثي لا مذهب له ، تقارير مخبراتية كانت تُرفع لملاحقة من يزور الإمام الحسين عليه السلام ، وهذا الذي يزور الحسين عليه السلام ليس لديه حزب سياسي ، أو بندقية ، أو قنبلة ، أو جريدة ، نصّاً كانت التقارير تقول : (إنَّ هذا يزور الحسين عليه السلام) ، خوفهم من الحسين لأنَّ الحسين رمز العدالة .

شبهات حول الشعائر الحسينية

هناك شبهتان في قضية تعظيم الشعائر الحسينية :

الشبهة الأولى :

إنَّ قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعِظِمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (الحج : ٣٢) ، لا علاقة له بالحسين عليه السلام وشعائر الحسين عليه السلام ، فهذه نزلت في الحج وأنتم تأتون بها وتجعلوها للحسين عليه السلام والناس لا يعلمون ، ولا يمكن أن تُطبَّقوا على الشعائر الحسينية .

الجواب : أنَّ هذا فهم ساذج وسطحي ولا يقبله المفسِّرون ولا يقبله القارئ العربي للقرآن حتَّى لو لم يكن مفسِّراً ، هذه الآية : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعِظِمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ تقول : هناك مفهوم عامُّ هو شعائر الله ، وهو مفهوم واسع ، والقرآن الكريم طبَّق هذا المفهوم العامَّ على بعض المناسك في الحجِّ باعتباره مصداقاً لذلك المفهوم العامَّ ، وفي سورة البقرة يقول : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ (البقرة : ١٥٨) .

إذن شعائر الله هو مفهوم عريض ، الصفا والمروة من شعائر الله ، البدن في الحجِّ من شعائر الله .

الرازي وهو المفسِّر الكبير يقول : شعائر الله تعني العلامات الدالة على الله ، كلُّ علامة دالة على الله ، الصفا والمروة علامة من علامات شعيرة الحجِّ ، الهدي هذه علامة أخرى ، هذه هي شعائر الله ، يعني القضية التي تُعلم بها غيرك واليوم نقول لهذه :

شعارات ، ونقول : هذا شعارنا ، يعني هذا نُعلن به عن وجودنا ، نحن هذه هويتنا ، كذلك الصيام من شعائر الله ، الصلاة من شعائر الله ، قراءة القرآن من شعائر الله ، فأنت إذا رأيت مجموعة يدرسون القرآن تقول : هؤلاء يُعظمون شعائر الله ، طبعاً من شعائر الله ، ويعني أنهم مرتبطين بالله تبارك وتعالى .

القرآن يُطوّر الموقف فيقول : هناك شعائر الله ، وهناك حُرّمات الله ، فيقول : ﴿ وَلَيَطَوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَرَبِيِّ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ (الحج : ٢٩ و ٣٠) ، تعظيم حرمة من حُرّمات الله ، أنت تُعظم شهر رمضان ، مؤمن تحترمه لصلاته وإيمانه ، وهذا حرمة من حُرّمات الله ، المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، والمسلم له حرمة ، والوطن له حرمة ، والذي يعتدي على آخر فهذا يعني هتك حرمة .

حينئذ إذا فهمنا القضية بهذا الشكل إذن كيف لا تكون الشعائر الحسينية من شعائر الله ؟ بل هي من أوضح مصاديق شعائر الله ، الحسين عليه السلام الذي هو سيّد شباب الجنة ، والحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا ، هذه من حُرّمات الله ، يعني هذا أصبح علامة دالة على الله تبارك وتعالى .

الإمام الحسين عليه السلام سيّد شباب الجنة ، كيف لا يكون التذكير به وذكره وتعظيم ذكره من شعائر الله ؟ والصفاء الذي هو جبل والمروة الذي هو جبل هما من شعائر الله ، فكيف لا يكون الحسين عليه السلام من شعائر الله وحُرّماته ؟

الشبهة الثانية :

تقول : إنّ الإسلام لا يحتاج إلى الكرنفالات والمسيرات الجماهيرية والتحفيدات الشعبية ، الإسلام غير محتاج إلى ذلك ، الإسلام محتاج إلى أخلاق أهل البيت ، فأنتم اذهبوا واعملوا بأخلاق أهل البيت ؟

والجواب : إذا كانت هذه الشبهة شبهة صحيحة فهي تأتي على الصلاة والحجّ

والصوم ، فيقول القائل : إنَّ الإسلام لا يحتاج إلى قيام وقعود ، وطواف بالبيت ، وسعي بين الصفا والمروة ، فإنَّ الله غير محتاج إلى قيام وقعود ، إنَّما محتاج إلى سلامة القلب . ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت : ٤٥) ، لكن لو صحَّ هذا الكلام فإنَّ معناه أنَّ أحداً سوف لا يُصلي بعد ذلك ولا يصوم ولا يحجُّ ، لأنَّ الإسلام لا يحتاج إلى أن أعطش وأجوع ، لأنَّ الصوم المقصود منه تهذيب النفس ، وعلينا أن نذهب ونقرأ كُتُب التربة ونصل الرحم ونُحسِّن أخلاقنا بدلاً من الصوم . ولكن هذا كلام غير مقبول ، وكذلك الحجِّ ، فلا يستطيع أحد أن يقول : الله لا يحتاج إلى أنَّ ملايين الناس يهرولون بين الصفا والمروة ، الإسلام محتاج إلى الخُلُق الحسن ! إذن لا تذهبوا إلى الحجِّ ولا تسعوا ولا تطوفوا ، بل قولوا : نصبح أناساً مهذبين ! هذا كلام مرفوض ، لأنَّنا لا نعرف الأهداف المقصودة للشريعة الإسلامية إلَّا من خلال ما جاء في القرآن والسنة ، وقد قال رسول الله ﷺ : « ما من شيء يُقَرِّبُكم من الجنة إلَّا ودعوتكم إليه »^(١) ، وقال : « إنَّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »^(٢) ، وكذلك : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ (البقرة : ١٨٣) ، و ﴿وَاقِمِ الصَّلَاةَ﴾ (هود : ١١٤) ، و ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ (آل عمران : ٩٧) ، و ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْبَرِ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج : ٣٢) ، و ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى : ٢٣) .

كلُّ هذا قاله الإسلام ، الإسلام هو مصدر معرفتنا وليس مذاقاتنا الشخصية ، نحن لا نعرف ما يريد الله تعالى إلَّا من خلال الوحي الإلهي ، والله تعالى يريد عمل الجوارح والجوانح ، القلب والجسد ، الظاهر والباطن ، وأنت تقوم وتقول : بحول الله وقوَّته ، والبدن يتحرَّك والقلب يتحرَّك وهما مطلوبان معاً ، تسعى بين الصفا والمروة لتتذكَّر في سعيك وهرولتك السعي إلى الله تعالى ، وهكذا باقي العبادات ، لا يوجد تضادٌّ بين تطهير القلب وحركة الجسد ، لاحظ إنَّ الحسين غير محتاج إلى دموعنا وإلى بكائنا وإلى زيارتنا وإلى مشينا . وهذه النظرية تنسف الدين من أوله إلى

(١) الجامع الكبير للسيوطي .

(٢) أخرجه أحمد في المسند / رقم الحديث ٨٧٢٩ .

آخره ، إن الدين ليس مجرد مفاهيم وإنما هو ممارسة على الأرض يمكن تتجذر بها المفاهيم في قلوب الناس .

العلاقة بين تعظيم الشعائر والتقوى

قال الله تعالى : ﴿ ذَلِكْ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (الحج : ٣٢) ، هذا العنوان جاء في القرآن الكريم في أربعة مواضع ، وكل هذه المواضع وثيقة الصلة بالحج :

الآية الأولى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ (البقرة : ١٥٨) .

الآية الثانية : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ ﴾ (المائدة : ٢) .

الآية الثالثة : ﴿ ذَلِكْ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (الحج : ٣٢) .

الآية الرابعة : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا حَيْرٌ ﴾ (الحج : ٣٦) .

فالقرآن الكريم يذكر هذا الأمر في سياق التقوى ، وقد تحدثنا عن زيارة الحسين عليه السلام باعتبارها من شعائر الله تعالى .

والسؤال الآن : ما هي العلاقة بين تعظيم شعائر الله تعالى والتقوى ؟

الجواب : أن التقوى ليست حالة فردية ، وإنما هي حالة اجتماعية أيضاً ، فصلة الرحم من التقوى ، وكذلك حج بيت الله الحرام ، وصلاة الجمعة والجماعة ، وزيارة الأئمة الأطهار عليهم السلام ، والتزاور بين المؤمنين ، فالتقوى ليست حالة منزوية في إطار شخصي فرداني للإنسان ، بل تأخذ في المفهوم الإسلامي بُعداً اجتماعياً ، ولهذا في قضية من قضايا الحج - وهي الهدى وذبح الأبل - يقول : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ (الحج : ٣٦) ، ويقول : ﴿ ذَلِكْ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (الحج : ٣٢) ، فهي كحركة اجتماعية من تقوى القلوب .

على هذا الأساس نحن اليوم إذ نشهد زيارة الإمام الحسين عليه السلام نقول : إِنَّ اللَّافِتَةَ الْقَرَأْنِيَّةَ الْعَرِيضَةَ كَافِيَةً فِي التَّأْكِيدِ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ ، فَحِينَمَا نَقُولُ : ﴿ ذَلِكُمْ وَمَنْ يُعْظَمُ شَعْرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (الحج : ٣٢) .

أليس الإمام الحسين عليه السلام والعلاقة بأهل البيت عليه السلام هي من شعائر الله تعالى ، فإذا كانت البدن وذبحها من شعائر الله تعالى ، وكذلك الصفا والمروة ، وهي عبارة عن جبلين صغيرين ، وذكريات لدى هاجر حيث كانت تسعى بينهما هي من شعائر الله ، فلماذا لا نُعْطِي الآية القرآنية حَقَّهَا ، ونقول : إِنَّ الْارْتِبَاطَ بِأَلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْمَسَاجِدُ وَالصَّلَوَاتُ الْعَامَّةُ وَحَرَمَةُ شَهْرِ رَمَضَانَ هِيَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْقُرْآنُ صَرِيحٌ فِي هَذَا وَلَا يَحْتَاجُ أَنْ نَجْتَهِدَ فِي ذَلِكَ ، وَنُضَيِّفُ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

ولهذا تلاحظون الالتفاتة الرائعة للإمام الحسين عليه السلام يوم العاشر والموقف في مقتل الطفل الرضيع ، فقد قال عليه السلام : « اللَّهُمَّ لَا يَكُونُ عَلَيْكَ أَهْوَنُ مِنْ فَصِيلِ نَاقَةٍ صَالِحٍ »^(١) ، وهي ناقة النبي صالح عليه السلام التي قال الله تعالى فيها : ﴿ كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَنِهَا^(١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا^(١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا^(١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا^(١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ (الشمس : ١١ - ١٥) .

قال أحد الشعراء على لسان الزهراء عليها السلام :

ما كان ناقة صالح وفصيلها في الفضل عند الله إلاّ دوني^(٢)

فالله تعالى أنزل العذاب على أمة كاملة لأنها قتلت ناقة وابنها الفصيل .

السؤال الآن : ماذا يعني المشي إلى زيارة الحسين عليه السلام ؟ وهل هو من شعائر الله تعالى ؟

الجواب : القرآن الكريم يذكر هذا الأمر بالنسبة إلى الحجّ : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ ، فلا يقول قائل : هذه بدعة ، فالإمام السجّاد عليه السلام ذهب خمس

(١) مقتل الإمام الحسين عليه السلام للمقرّم .

(٢) الأبيات للشاعر صالح الكوازي الذي كان على جانب عظيم من الفضل والتضلع في علمي النحو والأدب . (المحقّق) .

وعشرين حجة مشياً على الأقدام ، ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ (الحج : ٢٧) ، فالمشي فيه تعظيم لشعائر الله ومزيداً من التكريم ، لذلك فالذي نقصده ونمشي إليه يدخل تحت اللافتة العريضة التي وضعها القرآن الكريم : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (الحج : ٣٢) ، فلم يقل القرآن كيف تُعَظَّم شعائر الله ، بطعام أم بغيره ، بل يقول : إنه إطار مفتوح ببذل النفقة أو نصب خيمة أو تقديم طعام أو بالمشي أو بتيسير الأمور الطيبة لهؤلاء وأمثال ذلك مما يُعْتَبَر عند فهم الناس تعظيماً وتكريماً .

كيف نتعامل مع الشعائر الدينية ؟

قال تعالى في كتابه الكريم : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (الحج : ٣٢) ، الحديث اليوم مرة أخرى عن شعائر الله تعالى ، وعلاقة ذلك بالتقوى ، لأن القرآن الكريم يجعل عملية تعظيم الشعائر من التقوى ، ونحن اليوم وفيها مضى من التاريخ نشهد أنجاهين في التعامل مع هذه الشعائر :

الاتجاه الأول : الاتجاه القرآني النبوي :

وهو تعظيم الشعائر الدينية وتكريمها ، والوقوف عندها ، واستشارها ، والارتباط بها ، وبالماضي ، وبالتاريخ ، وبالشعائر الزمانية ، وبالمكانية ، والقرآن الكريم صريح في ذلك حينما يقول : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ (الحج : ٣٦) ، وجاءت في الحج ، فـ (البدن) من شعائر الله ، وقال تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة : ١٢٥) ، وهذا تعظيم لإبراهيم الخليل عليه السلام ، وإبراهيم وقف على صخرة لبناء البيت الحرام ، وهذا موقف تاريخي ، وتخليد لفكرة تعظيم الشعائر والارتباط بالماضي ، فلا نقطع عن الماضي وعن إبراهيم ، وعن نوح ، وعن عيسى ، وموسى وكل الأنبياء عليهم السلام ، وتاريخهم ، وحوادثهم ، فتلك من أيام الله ، ويجب الارتباط بها واستذكارها وقد قال تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْسَمِ اللَّهِ ﴾ (إبراهيم : ٥) .

الاتجاه الثاني : الاتجاه الانفصالي والإلغائي :

وهو منهج الانفصال عن الماضي وإلغائه ، واتّهام التفاعل مع الماضي بأنّه شرك ، وبدعة ، وهذا المنهج هو المنهج التكفيري الوهابي ، وهو المنهج الذي يرفضه المسلمون باستثناء الوهابية ، التي ترى أنّ كلّ ارتباط بتلك الشعائر والمزارات هو شرك وبدعة ، ويجب الدخول مع الذين يحيون الشعائر في حرب ، والذي نجده هنا في العراق من أعمال ضدّ الزائرين وشيعة أهل البيت (عليهم السلام) يُمثّل منهج الانفصال عن التاريخ ، وحتىّ يصل إلى تكفير الاحتفالات بميلاد النبي (صلى الله عليه وآله) والإمام الحسن (عليه السلام) وغيرها ، وحتىّ تكفير من يشدّ الرحال إلى قبر النبي (صلى الله عليه وآله) لأنّه بدعة ، وكلّ بدعة ضلالة ، وكلّ ضلالة في النار ، وهذا هو المنهج الثاني . لكن الحقيقة واضحة ، والقرآن الكريم يؤكّد قائلاً : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (الحجّ : ٣٢) ، والنبي (صلى الله عليه وآله) والأنبياء والأئمة الأطهار (عليهم السلام) ليسوا بأقلّ من (البُدن) - أي البعير - الذي يقول فيه القرآن الكريم : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعِيرِ اللَّهِ ﴾ (الحجّ : ٣٦) ، فتلك يجب تعظيمها واحترامها لأنّها تمثّل منسك من مناسك الحجّ ، فكيف نتعامل إذن مع الأنبياء وأولاد الأنبياء (عليهم السلام) ؟

دور الشعائر الحسينية

في بناء الإنسان ونهضة الأمم

الشعائر الحسينية هي شعائر الله ، وبالتالي هي مصداق لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (الحجّ : ٣٢) ، هذه الشعائر هي ارتباط بالعدل الثاني للقرآن : « إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي »^(١) .

اليوم أعرض لكم بإيجاز دور هذه الشعائر في ترسيخ أربع عشرة ثقافة في الإنسان الفرد وفي الإنسان المجتمع ، ما نجده اليوم لدى شيعة أهل البيت بالخصوص هو

(١) أمالي الصدوق : ٥٠٠ / ح (١٥ / ٦٨٦) ؛ مسند أحمد : ٣ : ١٤ .

مؤشرات للثقافة الحسينية كما سأشير إليه ، وهي :

١- ثقافة الدفاع عن الدين .

إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوف خذي^(١)

٢- ثقافة الإباء ، حيث قال الإمام الحسين عليه السلام : « ألا وإن الدّعي ابن الدّعي قد ركز بين اثنتين بين السلّة والذّلة ، وهيهات منّا الذّلة ، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون »^(٢) .

٣- الأمر بالمعروف ، لقوله عليه السلام : « وإنّا خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدّي ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر »^(٣) .

٤- الوعي السياسي ، لقوله عليه السلام : « ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به ، وإلى الباطل لا يتناهى عنه ؟ »^(٤) .

٥- ثقافة الصلاة ، حيث قال أحد أصحابه في يوم عاشوراء : يا بن رسول الله ، ألا تُصلي بنا ؟ فقد حلّ وقت الصلاة ، قال : « نعم هذا أوّل وقتها ، ذكرت الصلاة ، جعلك الله من المصلّين الذاكرين »^(٥) .

٦- ثقافة التوبة في المسار العبادي والسياسي ، فهناك نوعان من التوبة ، فالإنسان يقوم أحياناً بمعصية كالغيبة والكذب وأكل الحرام - لا سمح الله - ، فهذه معصية عبادية ، وأحياناً بمعصية سياسية ، والخطأ السياسي الكبير يحتاج إلى التوبة أيضاً .

إنّ عاشوراء والشعائر الحسينية تُعطينا ثقافة التوبة في الشؤون العبادية وفي الشؤون السياسية ، فالذي يجلس في محفل الشعائر الحسينية يتعلّم ثقافة التوبة من الحرّ الرياحي حينما تاب توبة عن خطأ سياسي كبير ، فهو لم يترك الصلاة ولم يقم

(١) هو لسان حاله عليه السلام ، ولنعم ما قاله الشاعر على لسانه ، كان هذا شعار الإمام وهدفه ، واتخذ الشهادة سبيلاً للوصول إلى هدفه .

(٢) الملهوف على قتلى الطفوف : ٥٩ .

(٣) بحار الأنوار ٤٤ : ٢٢٩ .

(٤) الملهوف على قتلى الطفوف : ٤٨ .

(٥) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف : ١٤٢ .

بشرب الخمر أو السرقة ، لكن قام بعرقلة مسير الحسين عليه السلام ، وهذا خطأ سياسي كبير ، هنا يحتاج إلى شجاعة لإعلان التوبة عن الخطأ السياسي ، هناك أناس مستعدون لأن يتوبوا بينهم وبين الله من أعمال شخصية ، لكنهم ليسوا مستعدين لأن يتوبوا من انحراف سياسي ، فمنهم من ينحرف عشر أو عشرين سنة ويعلمون أنهم في انحراف سياسي لكنهم غير مستعدين لأن يعدلوا عن هذا الخط إلى ذاك ويواصلون الإصرار على هذا الخطأ السياسي والمعصية السياسية .

الشعائر الحسينية تُعطينا ثقافة التوبة في عمل عبادي أو سياسي إذا كان منحرفاً ، في يوم عاشوراء الحرّ الرياحي - وهو نموذج للتوبة - قال : يا بن رسول الله إني تائب ، هل لي من توبة^(١) ؟

٧- ثقافة المواساة ، حيث نقول في زيارة العباس عليه السلام : « أشهد أنك نصحت لله ولرسوله ولأخيك ، فنعم الأخ المواسي »^(٢) .

٨- ثقافة عدم العدوان ، المؤمن لا يعتدي على أحد أبداً ، « المسلم من سلم الناس من يده ولسانه »^(٣) ، الحسين عليه السلام رغم كل الضغوط لكن ما كان ليبدأ بقتال وعدوان على أحد ، ويقول : « ما كنت لأبدأهم بقتال »^(٤) .

٩- ثقافة الأصالة الإنسانية لا الطبقية والقومية ، فتقوى الإنسان هي المقياس ، سواء أكان عربياً أو أعجمياً أو تركياً ، شيخ عشيرة أو عبد من العبيد ، كلهم سواء ، توّصحت أصالة الإنسان يوم عاشوراء ، حيث كان فيها الغلام التركي ، الذي قال : (من مثلي وابن رسول الله واضعاً خدّه على خدّي ؟) ، وجون العبد الأسود لأبي ذر الغفاري ، وبرير شيخ قراء القرآن ، والحرّ الرياحي ، وحبيب بن مظاهر شيخ عشائر

(١) انظر : أمالي الصدوق : ٢٢٣ .

(٢) بحار الأنوار ٩٢ : ٢١٩ .

(٣) معاني الأخبار : ٢٣٩ .

(٤) إعلام الوري : ١ : ٤٥١ .

بني أسد ، كلُّهم في الأصالة الإنسانية سواء ، والحسين ﷺ سيّد شباب الجنّة .

١٠- ثقافة الهجرة إلى الله تعالى ، لقوله ﷺ : « إني راحلٌ مصباحاً إن شاء الله »^(١) ، أي إنّ الإنسان إذا رأى الدين بحاجة إلى هجرة فعليه أن يهاجر ، فالحسين ﷺ هاجر .
١١- ثقافة لقاء الله ، لقوله ﷺ : « ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته ، موطناً على لقاء الله نفسه ، فليرحل معنا »^(٢) ، هذه ثقافة خاصّة ، هي غير حُبّ الجنّة وحوار العين والأنهار ، هي ثقافة لقاء الله ولقاء الأنبياء الطاهرين ، الشعائر الحسينية تُعطينا هذا المفهوم العظيم الذي هو آخر ما ينتهي إليه العرفاء .

١٢- الحُبُّ لرسول الله ﷺ والأئمة الأطهار ﷺ ، في كربلاء كان هناك شيء آخر غير الشجاعة والدفاع والإيمان والصلاة والتوبة ، هو الحُبُّ لرسول الله ﷺ ، فالتفاني الذي حصل لم يكن من مجرد وعي سياسي وما شاكل ذلك ، فالحسين ﷺ قال لأصحابه : « ألا وإني قد أذنت لكم ، فانطلقوا جميعاً في حلٍّ ، ليس عليكم مني ذمام »^(٣) ، يعني أنّه لا توجد مشكلة شرعية في رحيلكم ، ما الذي جمعهم مع الحسين ﷺ وجعلهم يتبارون ويتسابقون ؟ إنّ الحُبُّ لآل رسول الله ﷺ ، الحُبُّ قضية مهمّة ، مثل الوعي السياسي والديني ، هو حُبُّ لله وحُبُّ لآل رسول الله ﷺ ، وهذا هو الذي يوصلنا إلى مقامات النجاح العليا ، « وهل الدين إلّا الحُبُّ »^(٤) ، يعني أنّ القضية للإنسان المؤمن ليست قضية رياضية وفكرية فقط ، فهناك الكثير من النظريات في العالم ، الإيمان شيء آخر ، فالمؤمن ليس فيلسوفاً ، بل لديه قلب معتمر بحُبِّ الله ، « اللهم اجعل قلبي بحُبِّك متيّماً ، ولساني بذكرك لهجاً »^(٥) ، وليس مؤمن

(١) مثير الأحزان : ٢٩ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الإرشاد : ٩١ .

(٤) الكافي : ٨ / ٨٠ ح ٣٥ ، والحديث عن الباقر ﷺ .

(٥) من دعاء لأمر المؤمنين ﷺ والمعروف بـ (دعاء كميل) ، مصباح المتجهد : ٨٥٠ .

بالله فقط ، هذه ثقافة الحُبِّ ، (حُبُّ الحسين أجنّني) .

١٣- البذل والعطاء المطلق ، وهذه ثقافة البذل لله ، فالدين يحتاج إلى بذل والأنفس والاستعداد للسبي والسجن ، ﴿ قَالَ رَبِّ السَّجْنَ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ (يوسف : ٣٣) ، ويحتاج إلى استعداد لبذل الأطفال أيضاً يُذَبِّحُونَ في سبيل الله ، فكلُّ شيء يحتاجه الدين يجب أن نُقدِّمه بدون قيد أو شرط ، هذه ثقافة الشعائر الحسينية وتقديم الطفل الرضيع يوم عاشوراء .

١٤- ثقافة حضور المرأة ، الشعائر الحسينية تُعطينا ثقافة خاصّة ، وهي حضور المرأة في ساحة الدفاع عن الدين وفي الساحة السياسية .

قيل للإمام الحسين عليه السلام في المدينة المنوّرة : إذا كنت راحلاً إلى الشهادة ، فلماذا تأخذ العيال معك ؟

الحسين عليه السلام لا يقدر أن يشرح لهم التخطيط ، قال لهم : « شاء الله أن يراهنّ سبايا »^(١) ، هذه مشيئة الله سبحانه وتعالى ، لكن الحسين لديه تخطيط بأن يكون للمرأة حضور في هذه المعركة التاريخية الكبرى ، على مدى الدهور والعصور على المرأة أن لا تكون غائبة عن الساحة السياسية والساحة الدينية .

القضية الحسينية في فكر أهل البيت عليه السلام

قضية الحسين عليه السلام تحتلّ موقعاً كبيراً ومتميّزاً في فكر أهل البيت عليه السلام ، حيث قال رسول الله ﷺ كما أخرجه كتب العامّة مثل كتاب (فرائد السمطين)^(٢) للحموي كما في الرواية عنه :

« مكتوب على ساق العرش : الحسين عليه السلام مصباح الهدى وسفينة النجاة » ، وهكذا

(١) انظر : الملهوف على قتلى الطفوف : ٤٠ .

(٢) فرائد السمطين ٢ : ١٥٥ / ح ٤٤٧ .

يُخصي الباحثون مرّات عديدة قد تصل إلى عشرات المرّات بروايات العامّة كما في روايات الشيعة ، أنّ رسول الله ﷺ طالما ذكر الحسين ﷺ وبكى أمام أصحابه ، وهذه قضية غريبة بأنّ رسول الله ﷺ وهو مؤسس دولة ، قائد ثورة ، في حروب ، معترك سياسي ، يتحدّث عن قضية ستكون بعد (٥٠) أو (٦٠) سنة حسب التاريخ الذي يذكر به النبيّ القصّة ، ثمّ يبكي ويستوحش الصحابة من هذا البكاء ، ماذا سيحدث ؟ هذا أمر كان ملفتاً للنظر ، مرّات ولعلّه عشرات المرّات ، وقد أحصى العلامة الشيخ باقر شريف القرشي رحمه الله في كتابه (حياة الإمام الحسين ﷺ) عددها في كتب السنّة والشيعة ، التي ذكر فيها رسول الله ﷺ الحسين ﷺ .

من تلك المرّات ما جاء في (الجامع الكبير للطبراني)^(١) ، من مصادر السنّة عن عائشة ، عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ ذات مرّة كان يُوحى إليه ، فجاء الحسين وصعد على منكب رسول الله ﷺ .

فقال جبرائيل : يا رسول الله ، أُنحِبُّه ؟

قال : « بلى » .

قال جبرائيل : فإنّ أُمّتك ستقتله ، ثمّ أخذ جبرائيل قبضة من تراب كربلاء ، تربة بيضاء ، وقال : سيقتل في أرض يقال لها : الطفّ ، تقول عائشة : فخرج رسول الله ﷺ وعلامات البكاء بادية عليه ، فاستوحش أصحابه وفيهم - كما تقول الرواية - أبو بكر وعمر وفلان وفلان ، وقالوا : يا رسول الله ، ما الذي نراك فيه ؟

قال ﷺ : « كان عندي جبرائيل ، وأخبرني أنّ ولدي هذا يُقتل في أرض يقال لها : الطفّ » .

هذا ما أريد أن أُسلّط عليه الضوء ، إنّ قضية الحسين ﷺ تحتلّ موقعاً كبيراً نبّه عليه رسول الله ﷺ ، هو ما تُسمّيه اليوم : رمزية الحسين ﷺ لمعركة الإرادة في مواجهة الإرهاب ، رمزية معركة الحرّية في مواجهة الاستعباد . إنّ الحسين ﷺ رمز ، إنّ أهل

(١) الجامع الكبير للطبراني ٣ : ١٠٧ / ح ٢٨١٤ .

البيت عليهم السلام كلهم معصومون ، لكن هذه الرمزية أعطاهها رسول الله ﷺ للحسين عليه السلام ، وتبقى على طول التاريخ هذه الرمزية محفوظة ، ولهذا كان الحسين عليه السلام سيّد شباب أهل الجنة ، يعني سوف يبقى رمزاً على طول التاريخ في الدنيا وهو في الآخرة رمزاً أيضاً ، ونحن عندما نحيي ذكر الحسين عليه السلام إنّما نستجيب لرسول الله ﷺ .

يزيد بن معاوية أمر أن يبايعه الناس على الرقّ والعبودية ، ولم يكن إلا الحسين عليه السلام قال : « ألا وإنّ الدّعي ابن الدّعي قد ركز بين اثنتين ، بين السّلة والذّلة ، وهيهات منّا الذّلة ، يأبى الله لنا ذلك ورسوله »^(١) . هذه معركة الإرادة ، يزيد أراد أن يستعبد الناس ، وهذا تاريخ الإرهاب ، وموقف أئمة أهل البيت عليهم السلام وموقف شيعة أهل البيت في مواجهة الإرهاب ، الإمام الحسين عليه السلام كان يريد أن يستنهض الإرادة ، وما كان الإمام الحسين عليه السلام يريد أن يؤسّس حكماً ، لأنّه يعلم أنّه مقتول ، كانت مهمّة الحسين عليه السلام استنهاض البشر على طول التاريخ ، استنهاض إرادة الإنسان على أن لا يكون عبداً لغيره ، استنهاض إرادة الإنسان على أن يكون حراً كريماً في حياته ، ولهذا كان الإمام الحسين عليه السلام رمزاً ، فقد أذن لأصحابه أن ينصرفوا ، لأنّه لا يريد كثرة في العدد ، هو لا يريد أن يؤسّس دولة ، يريد أن يُحيي إرادة جميع الناس ، هذا الفريق أو ذاك الفريق ، ولهذا قال لأصحابه : « إنّ القوم لا يطلبون غيري ، فإذا ظفروا بي ذهلوا عن غيري ، هذا الليل فاتخذوه جملاً »^(٢) . كانت المواعظ والخطب ، الخطبة الأولى والخطبة الثانية للحسين عليه السلام ، وخطب أصحابه واحداً بعد واحد ، بهدف استنهاض هذه الإرادة ، ولهذا قال عليه السلام في خطبته الأولى : « أما بعد ، فانسبوني من أنا ، ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها ، فانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي ؟ ألسنُ ابن بنت نبيكم وابن وصيّيه وابن عمّه وأوّل المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله بما جاء به من عند ربّه ؟ أوليس حمزة سيّد الشهداء عمّ أبي ؟ أوليس جعفر الشهيد الطيّار ذو الجناحين عمّي ؟ أولم يبلغكم قولُ مستفيض فيكم أنّ رسول الله ﷺ قال لي ولأخي : هذان سيّدا شباب أهل الجنة ؟ فإن صدّقتموني بما أقول - وهو الحق - ، والله ما

(١) مثير الأحرار : ٤٠ .

(٢) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف : ١٠٧ .

تعمّدت كذباً مذ علمت أنّ الله يمقت عليه أهله ويضرب به من اختلقه ، وإن كذبتُموني فإنّ فيكم من إن سألتُموه عن ذلك أخبركم ، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري ، أو أبا سعيد الخدري ، أو سهل بن سعد الساعدي ، أو زيد بن أرقم ، أو أنس بن مالك يُخبروكم أنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لي ولأخي ، أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي ؟ ! »^(١) .

يريد أن يستنهضهم ، أن يُحرّك فيهم الضمير ، وأن تبقى هذه الكلمات إلى الأبد .



الفصل الثاني

فصل زيارته

١. فضل زيارة الإمام الحسين عليه السلام

٢. سطور في زيارة الحسين عليه السلام



فضل زيارة الإمام الحسين عليه السلام

لم يرد في فضل زيارة الأئمة الأطهار عليهم السلام من ثواب وأجر كمّ وكيفاً مثلما ورد في زيارة الحسين عليه السلام ، وسأقرأ لكم بعض الروايات العجيبة الثابتة الصحيحة .

لكن السؤال : ما هي فلسفة ذلك ؟

هل إن زيارة الإمام الحسين عليه السلام أفضل من زيارة أمير المؤمنين عليه السلام ؟

لقد جاء في فضل زيارته ما لم يأت في زيارة غيره .

أذكر لكم احتمالات وأتركها لعلم الله تبارك وتعالى ، هل إن ذلك للبعد السياسي في زيارة الحسين عليه السلام ، لأن الحسين عليه السلام وزيارته تمتلك هويّة الانتماء السياسي للإنسان ؟ فأنت بمجرد أن ترى هذا الإنسان زائراً ، سوف تُشخص هويّته .

أم أن هناك بُعداً جغرافياً وديمغرافياً في هذه الزيارة ؟ بمعنى أن هناك عملاً وتخطيطاً أن يكون العراق مسرحاً للثورة الحسينية على طول التاريخ .

وهذا التخطيط هو إرادة الغيب وإرادة الأئمة الأطهار عليهم السلام ، وإرادة رسول الله ﷺ أن يبقى العراق وكربلاء مسرحاً للعملية التغييرية في العالم ، ولهذا لا بدّ من تحشيد للجُمهور ، وجذب أنظار العالم العربي وغير العربي ، الإيراني ، والباكستاني ،

والهندي ، والإنكليزي ، والأفريقي إلى زيارة الحسين عليه السلام ، هذه مسرح جغرافي سيقى على طول التاريخ ، ربّما تكون هي الخلفية في التأكيد على زيارة الحسين عليه السلام تُسمّيها البُعد الجغرافي .

أم أنّ هناك بُعداً روحياً وعاطفياً خاصاً ؟ فهناك نسيم خاصّ تُعطيه زيارة الإمام الحسين عليه السلام للزائر ، كأنّ هناك مسحة على روح الإنسان الزائر تملؤه حناناً ، عطفاً ، إنسانيةً ، رقةً ، دمعاً ، وهذه هي المسحة التي تمتاز بها زيارة الإمام الحسين عليه السلام ، تُسمّيها البُعد الروحي والبُعد العاطفي .

أم أنّ هناك أسباباً غيبية لا نعلمها ؟ فالله تعالى يريد للحسين عليه السلام هذا الموقع لأسباب لا نعلمها .

هذه مجموعة احتمالات ، ولعلّها جميعاً صحيحة ، فالبُعد السياسي صحيح ، والبُعد الجغرافي ، والروحي والمعنوي ، وأبعاد وخلفيات لا نعلمها أيضاً صحيح ، الله تعالى لديه معاهدة بينه وبين الإمام الحسين عليه السلام .

أكتفي بقراءة روايات بهذا الشأن :

الرواية الأولى : عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين زوّار الحسين بن عليّ عليه السلام ؟ فيقوم عنق من الناس لا يُحصيهم إلا الله ﷻ ، فيقول لهم : ماذا أردتم بزيارة قبر الحسين عليه السلام ؟ فيقولون : ياربّنا حبّاً لرسول الله ، وحبّاً لعليّ ، وحبّاً لفاطمة ، ورحمةً له لما ارتكب فيه . فيقال لهم : هذا محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين ، فالحقوا بهم ، فأنتم معهم في درجتهم ، ويقال لهم : الحقوا بلواء رسول الله ﷺ ، فيكونون في ظلّه وهو بيد عليّ حتّى يدخلوا الجنّة جميعاً ، فيكونون أمام اللواء وعن يمينه وعن يساره وخلفه » (١) .

الرواية الثانية : عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال : « من أتى قبر الحسين عليه السلام ماشياً كتب

(١) وسائل الشيعة/ الشيخ الحرّ العاملي ١٠ : ٣٥٢ ؛ الكافي/ الشيخ الكليني ٤ : ٥٨١ ؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام / الشيخ الصدوق ١ : ٤٨ .

الله له بكل خطوة ألف حسنة ، ومحا عنه ألف سيئة ، ورفع له ألف درجة »^(١) .

الرواية الثالثة : عن الإمام الصادق عليه السلام حينما يدعو لزوار الحسين عليه السلام يقول :
« اللهم فكافئهم عنا بالرضوان ، وأكلأهم - ارعاهم - بالليل والنهار ، وأغلف - استر - على
أهاليهم ، واكفهم شر كل جبار عنيد ، وأعظمهم أفضل ما أملوه » ، هذه خمس أدعية للإمام
الصادق عليه السلام تُعطى لزائر الحسين عليه السلام ، إلى أن يقول : « اللهم إني أستودعك تلك الأنفس
والأبدان حتى تُوفيهم على الحوض يوم العطش الأكبر »^(٢) .

الرواية الرابعة : عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام وهو يخاطب علي بن ميمون ، قال :
« يا علي زر الحسين عليه السلام ولا تدعه » ، يقول الراوي : ما لمن أتاه من الثواب ؟ قال : « من
أتاه ماشياً كتب الله له بكل خطوة حسنة ، ومحا عنه سيئة ، ورفع له درجة ، فإذا أتاه وكل الله
به ملكين يكتبان ما خرج فيه من خير ، فإذا انصرف ودَّعوه وقالوا : يا ولي الله مغفور لك ،
أنت من حزب الله وحزب رسوله وحزب أهل بيت رسوله ، والله لا ترى النار بعينك أبداً ،
ولا تراك ولا تُطعمك أبداً »^(٣) .

الرواية الخامسة : وعن الإمام الصادق عليه السلام ، قال : « من زار الحسين عليه السلام من شيعتنا لم
يرجع حتى يُغفر له كل ذنب ، ويكتب له بكل خطوة خطاها وكل يدرفعتها دابته ألف حسنة ،
ومحا عنه ألف سيئة ، ويُرفع له ألف درجة »^(٤) .

الرواية السادسة : عن الصادق عليه السلام : « إنَّ الرجل يخرج إلى قبر الحسين عليه السلام فله إذا
خرج من أهله بأول خطوة مغفرة ذنوبه ، ثم لم يزل يُقدَّس بكل خطوة حتى يأتيه ، فإذا أتاه
ناجاه الله تعالى : عبيد سألني أعطك ، ادعوني أجبك ، اطلب مني أعطك ، سألني حاجة
أقضيها لك » ، وقال الصادق عليه السلام : « وحق على الله أن يُعطي ما بذل »^(٥) .

(١) الكافي للشيخ الكليني ٢ : ٢١٩ .

(٢) كامل الزيارات : ١١٦ / باب ٤٠ / ح ٢ .

(٣) كامل الزيارات لابن قولويه : ٢٥٥ .

(٤) بحار الأنوار للمجلسي ٩٨ : ١٨ - ٢٠ ، و ٢٣ - ٢٥ .

(٥) كامل الزيارات : ١٣٨ .

هذه الروايات لا حد لها في فضل زيارة الحسين ﷺ ، وبالأخص مشياً .

الرواية السابعة : عن أبي عبد الله الصادق ﷺ يخاطب عبد الله بن حماد البصري - وهو من أهل العراق - : « إنَّ قربكم - من أرض كربلاء - لفضيلة ما أُوتي أحد مثلها ، وما أحسبكم تعرفونها كنه معرفتها ، ولا تحافظون عليها وعلى القيام بها ، وإنَّ لها لأهلاً خاصّة قد سُمُّوا لها وأعطوها بلا حول منهم ولا قوّة إلا ما كان من صنع الله لهم وسعادة حباهم بها ورحمة ورأفة وتقدّم اختصّهم الله تبارك وتعالى » ، قلت : جعلت فداك ، ما هذا الذي وصفت ولم تُسمِّ ؟ قال ﷺ : « زيارة جدّي الحسين ﷺ ، فإنّه غريب بأرض غربة ، يبكيه من زاره ويحزن له من لم يزره »^(١) .

الرواية الثامنة : روى مؤلّف كتاب (المزار الكبير) وهو الشيخ محمّد المشهدي^(٢) من علماء القرن السابع بإسناده إلى الأعمش ، قال : كنت نازلاً في الكوفة ، وكان لي جار وكثيراً ما أجلس إليه ، وكانت ليلة جمعة ، فقلت له : ماذا تقول في زيارة الإمام الحسين ﷺ ؟ فقال لي : بدعة ، وكلُّ بدعة ضلالة ، وكلُّ ضلالة في النار . فقلت من بين يديه وأنا ممتلئ غضباً ، وقلت : إذا كان السحر أتيتّه وحدثته من فضائل أمير المؤمنين ﷺ ما يسخن الله به عينيه ، فأتيتّه وقرعت عليه الباب ، فإذا أنا بصوت من وراء الباب يقول : إنّه قد قصد الزيارة في أوّل الليل ، فأتيت الحائر ، فإذا أنا بالشيخ ساجد لا يملّ من السجود والركوع عند ضريح الحسين ﷺ ، فقلت له : بالأمس تقول لي : بدعة ، وكلُّ بدعة ضلال ، وكلُّ ضلال في النار ، والآن تزور الحسين ﷺ ؟ فقال لي : يا سلمان ، لا تلمني ، فإنّي ما كنت أثبت لأهل هذا البيت ﷺ إمامة حتّى كانت ليلتي هذه ، فرأيت رؤيا أرعبتني . قلت : ما رأيت ؟ فقال : رأيت رجلاً لا بالطويل الشاهق ولا بالقصير اللاصق ، لا أحسنت أن أصفه من حسنه وبهائه ، معه أقوام يحفون به حفيفاً ، ويزفونه زفاً ، بين يديه فارس له ذنوب ، على رأسه

(١) كامل الزيارات : ٣٣٩ .

(٢) الشيخ أبو عبد الله ، محمّد بن جعفر بن عليّ المشهدي الحائري المعروف بابن المشهدي . قال عنه الشيخ الحرّ العاملي رحمه الله في (أمل الآمل) : (الشيخ محمّد بن جعفر المشهدي كان فاضلاً محدّثاً صدوقاً) .

تاج ، للتاج أربعة أركان ، في كل ركن جوهرة تضيء مسيرة ثلاثة أيام ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه السلام . فقلت : والآخر ؟ فقالوا : وصيه علي بن أبي طالب عليه السلام . ثم مددت عيني فإذا أنا بناقة من نور ، عليها هودج من نور تطير بين السماء والأرض ، قلت : لمن الناقة ؟ قالوا : لخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد عليه السلام ، ومعها غلام . قلت : والغلام ؟ قالوا : الحسن بن علي عليه السلام . قلت : أين يريدون ؟ قالوا : يمضون بأجمعهم إلى زيارة المقتول ظلماً الشهيد بكربلاء الحسين بن علي عليه السلام . ثم قصدت الهودج ، وإذا أنا بقرع تتساقط من السماء ، أماناً من الله لزوَّار الحسين عليه السلام ليلة الجمعة ، ثم هتف بنا هاتف : ألا وإنَّ شيعتنا في الدرجة العليا من الجنة ، فيقول الناصبي لسليمان الأعمش : والله يا سليمان من الآن فصاعداً لا أفارق هذا المكان حتى تفارق روحي جسدي^(١) .

السؤال الأول : لماذا المشي ؟

لقد قرأنا في الروايات السابقة فضيلة المشي لزيارة الحسين عليه السلام ، فلماذا ؟

الجواب : أن القرآن الكريم قد أسَّس للمشي حين قال : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ (الحج : ٢٧) ، ﴿ رِجَالًا ﴾ بمعنى ماشين على أقدامهم ، و ﴿ وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ بمعنى يركبون الإبل الضامرة بطونها من الجوع لقطع المسافات الطويلة . والأئمة عليهم السلام أيضاً شرَّعوا لزيارة الإمام الحسين عليه السلام مشياً على الأقدام .

وهناك رواية في تأكيد المشي وشرعيته في زيارة الإمام الحسين عليه السلام تقول : قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام وهو يخاطب الحسين بن أبي فاختة : « يا حسين ، من خرج من منزله يريد زيارة قبر الحسين بن علي عليه السلام إن كان ماشياً كُتِبَ له بكل خطوة حسنة ونُحِيَ عنه سيئة حتى إذا صار في الحائر كتبه الله تعالى من المفلحين المنجحين حتى إذا قضى مناسكه كتبه الله من

الفائزين حتّى إذا أراد الانصراف أتاه ملك فقال : إنّ رسول الله يقروك السلام ويقول لك : استأنف العمل فقد غفر لك ما قد مضى^(١) .

زيارة المرأة :

أقرأ لكم رواية في شأن زيارة المرأة للإمام الحسين عليه السلام ، عن أم سعيد الأحسية تقول - وهي في المدينة المنورة - : استأجرت بغلاً وبدأت زيارتي بالإمام الصادق عليه السلام ، ووضعت البغل على مدخل الدار ، فسألني الإمام : ما الخبر ؟ قلت : استأجرت بغلاً لزيارة الشهداء .

فقال الإمام : « أنتم العراقيون تأتون من العراق لزيارة الشهداء ، ولكن أنتم لديكم سيّد الشهداء ، زوروه » .

قلت له : من سيّد الشهداء ؟

قال : « الحسين بن عليّ » .

قلت له : إنّي امرأة ؟

فقال : « لا بأس لمن كان مثلك أن تذهب إليه وتزوره » .

قلت : وأي شيء لنا في زيارته ؟

قال : « تعدل حجة وعمرة واعتكاف شهرين في المسجد الحرام وصيامهما »^(٢) .

قصّة :

رأى أحد العلماء جيرانه وكان فاسقاً وقد مات ، فرآه بعد شهر في المنام وهو في جنة وبساتين وأنهار ، فقال له : أنا أعرف وضعك في الدنيا ولم تكن صالحاً ، فكيف دخلت الجنة ؟

قال : نعم في الشهر الماضي كنت في عذاب وشدة ، ولكن قبل ليلة أتي بامرأة قد

(١) جامع الأخبار للصدوق : ٢٥ .

(٢) البحار ١٠١ : ٣٥ ؛ وسائل الشيعة ١٤ : ٤٣٦ .

تُوفِّيَتْ وجلبوها ودُفِنَتْ بجانبنا ، فجاءها الإمام الحسين عليه السلام ثلاث مرّات ، وفي المرّة الثالثة أمر أن يُرْفَعَ العذاب عن كلّ القبور المحيطة بها ، فُرفِعَ العذاب عنهم ، فاستيقظ العالم ، وذهب للسؤال عنها ، فعرفها ، فقال لأهلها : إنّ لهذه المرأة كرامة ، وشرح لهم ما رآه في المنام ، وسألهم عن حالها وهي كذا وكذا ، فقالوا : إنّها كانت تزور زيارة عاشوراء كلّ ليلة ^(١) .

سطور في زيارة الحسين عليه السلام

العراقيون في محرّم الحرام رفعوا إلى العالم رسالة عنوانها : (نحن حسينيون) ، وهذه رسالة من كلمتين رفعتموها أنتم بمجالسكم ومشاهدكم ، رفعتم رسالة تقولون فيها : الحسين عليه السلام ضميرنا ، وهويتنا ، وقلبنا ، وعاطفتنا ، ومن يريد أن يُترجم المشهد العراقي يقول فيه كلمتين : (نحن حسينيون) ، ويحمد الله تعالى هاتان الكلمتان هما العنوان العريض لهذه الرسالة ، ولكن هذه الرسالة فيها مجموعة سطور :

السطر الأوّل : المبادئ والقيم ، ونحن أبناء المبادئ وأبناء القيم وأبناء الإسلام وأبناء الدين ، ولسنا أتباع الشهوات والمصالح ، بل نحن أمةٌ تقاتل من أجل مبادئها ومضى على ذلك ألف وأربعمائة عاماً ، ونحن نقاتل من أجل مبادئنا ، فنحن أمةٌ مبدئية .

السطر الثاني : الصبر والتضحية والبذل ، فأيّ صبر وتضحية وبذل وعطاء بالمال والأنفس والغالي والرخيص خلال محرّم الحرام ؟ وهذا البذل الذي لا حدّ له ، والله إنّ العالم لو يدري لوجد العراقيين يفرحون ويتبارون في البذل والعطاء ، فلا يعرف العالم أمةً تبذل مالاً ووقتاً وعرق جبين وتعباً وجهداً وروحاً ونفساً مثلاً تُقدّمه أمة الحسين عليه السلام ، البذل على طول الطريق وفي محرّم الحرام ولا تستطيع دولة أن تفعل ذلك ولا آية أمة أن

(١) ورد في الروايات الاستحباب المؤكّد في زيارة الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشور ، ومن ذلك الزيارة المتداولة المروية عن الإمام الباقر عليه السلام ، فقد روى هذه الزيارة عدد من العلماء منهم ابن قولويه في كتابه كامل الزيارات (ص ٣٢٥ / باب ٧١ ثواب من زار الحسين عليه السلام يوم عاشوراء) مسنده ، والشيخ الطوسي ، وابن طاووس ، والكفعمي . (المحقق) .

تفعل ذلك ولا في آية قضية دينية ، فالقضايا الدينية عندنا كثيرة ومباركة ، ولكن أين الصبر والبذل والتضحية مثلاً يُسطر في محرّم الحرام ؟ هنا في العراق وشيعة أهل البيت أينما كانوا لا ليل لهم ولا نهار لهم ولا يعرفون معنى للتكاسل ولا معنى للخوف رجالاً ونساءً وصغاراً بذل وتضحية من أجل تلك المبادئ والقيم التي رَسَخناها ليس بأنفسنا ، فهذه المبادئ في العالم هي بركة الحسين ﷺ ، فإذا كانت ثمة مبادئ الآن باقية في العالم فهي من بركة ثورة الحسين ﷺ ، وكما قال الشاعر محمد إقبال :

يا عبيد الطين والماء اسمعوا	ما هو الفقر الغني الأرفع
خير حرّرها ذاك الفقير	لم يكن ثمّ سوى خبز الشعير
إنّه إيمان بدر وحُنين	إنّه زلزال تكبير الحسين
عش ولو يوماً عزيز المطلب	أجنيباً عن طريق الأجنبي
قوة الدين هي النصر القريب	فكأنّ القوم في شكٍّ مريب

فالحسين ﷺ يغزو كلّ مكان حتّى قلاع الطغاة ، وهذا صار بركة هذه الأمة التي أحيت ذكر الحسين ﷺ ، وما تنازلت ولم تستسلم ولا رضيت أن تترك الحسين وقضية الحسين ﷺ .

العالم في رأس السنة الميلادية ماذا فعل ، وأنتم ماذا فعلتم ؟
هنا المبادئ والقيم والصبر والتضحية والبذل والعطاء والحنان والرحمة وتبادل الفداء ، وهناك الدنيا والشيطان واللهو واللعب والسرقة والغرق في مستنقع الأنانيات ، ذاك في رأس السنة الميلادية ، ونحن في رأس السنة الهجرية .

انظروا الإمام الحسين ﷺ ماذا يفعل وقارنوا بين تلك المشاهد وبين مشاهدنا ، فتلك آية رسالة رفعوها للعالم ، ونحن آية رسالة رفعناها للعالم ، فهي ليست رسالة دموع أو رسالة مظلومية ، بل رسالة الإرادة العجيبة ورسالة الروح المصمّمة على تغيير التاريخ وعدم الانسحاب أمام الطغاة ، والشاعر يقول :

كذب الموت فالحسين مغلّد كلما أخلق الزمان تجدّد^(١)

السطر الثالث : أُنْهَإِ رِسَالَةَ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْجَمِيعُ ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ وَالشَّبَابُ وَالْأَوْلَادُ الصِّغَارُ اشْتَرَكُوا فِي كِتَابَةِ سَطُورِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ ، فَهَذِهِ لَيْسَتْ رِسَالَةً خَاصَّةً بِالْعُلَمَاءِ وَالْمُجْتَهِدِينَ وَالْحُوزَةَ الْعِلْمِيَّةَ وَالرِّجَالُ وَالْجَامِعِيِّينَ أَوْ الْعَشَائِرَ أَوْ النِّسَاءَ أَوْ الْمُتَقَفِّينَ ، بَلِ الْكُلُّ اشْتَرَكُوا فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ مِنْ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ الْعِرَاقِيِّ ، (نَحْنُ حُسَيْنِيُونَ) وَنَشْتَرِكُ جَمِيعًا فِي كِتَابَةِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ شَيْبًا وَشَبَابًا وَرِجَالًا وَنِسَاءً ، وَرَأَيْتُمْ كَيْفَ أَنَّ الْجَمِيعَ تَسَابَقُوا بِوَبُورِكَ لِلآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ ، وَبُورِكَ لَتِلْكَ الْأَرْحَامِ الَّتِي وَلَدَتْ هَذَا الْجِيلَ الْجَدِيدَ مِنَ الْأَوْلَادِ ، وَهُمْ مِنَ الْآنَ يَتَعَلَّمُونَ إِحْيَاءَ ذِكْرِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَبُورِكَ لِلآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ هَذِهِ التَّرْبِيَّةَ ، وَبُورِكَ لَنَا نَحْنُ فِي الْعِرَاقِ هَذِهِ التَّرْبِيَّةَ وَهَذِهِ الرُّوحَ ، فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ .

السطر الرابع : أَهْلُ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُمُ الْمَنَارُ وَالْمَصْبَاحُ وَالسَّفِينَةُ وَالْحَبْلُ الَّذِي نَتَمَسَّكُ بِهِ ، هُمُ أَهْلُ الْبَيْتِ الشَّهَادَةِ وَالْقِيَمِ وَالْبَطُولَةِ وَالْمَلَا حِمٍ وَالْفِدَاءِ وَالْحَضَارَةِ وَالْأَخْلَاقِ ، فَلَا أَفْكَارَ حَدِيثَةٍ وَلَا قَدِيمَةٍ وَلَا أَتِّجَاهَاتٍ جَاءَتْ مِنْ خَارِجٍ ، هَذَا الثَّقَلُ الثَّانِي : « إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ »^(١) ، فَالْثَّقَلُ الْأَوَّلُ كِتَابُ اللَّهِ مِنْ يَشْرَحُهُ وَيُفَسِّرُهُ غَيْرُهُمْ ؟ فَهَمُ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ مَعًا ، وَسَوْفَ نَبْقَى مَعَهُمْ .

هَذِهِ سَفِينَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَنْ رَسَمَ شِرَاعَهَا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِنَّهَا « مِثْلُ سَفِينَةِ نُوحٍ » ، وَلَسْنَا مِنْ قَالَ هَذَا الْكَلَامَ ، فَلَا خَيْرَ وَلَا حَضَارَةَ وَلَا إِسْلَامَ حَقِيقِي وَلَا قُرْآنَ صَادِقَ بَدُونَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الْأَحْزَابُ : ٣٣) .

السطر الخامس : الْوَحْدَةُ وَالتَّعَالِي عَلَى كُلِّ عَوَامِلِ الْفِرْقَةِ وَالْإِثْنَيْنِيَّةِ ، الشَّعْبُ الْعِرَاقِيُّ كَانَ مَتَّحِدًا ، الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمُبَادِي الْحُسَيْنِيَّةُ وَحَدَّثَهُ ، وَالشَّعْبُ الْعِرَاقِيُّ نَسِي مَنْ هُوَ عَرَبِيٌّ وَمَنْ هُوَ تَرْكْمَانِي ، أَوْ مَنْ هُوَ مِنَ الْعِمَارَةِ أَوْ الْبَصْرَةِ أَوْ وَاسِطَ ، أَوْ مَنْ هُوَ أَسْوَدٌ أَوْ أَبْيَضٌ ، أَوْ مِنْ آيَةِ عَشِيرَةٍ .

→ ثُمَّ أَكْمَلَ دِرَاسَتَهُ الْجَامِعِيَّةَ فِرْعَ الْآدَابِ فِي الْجَامِعَةِ الْمُسْتَنْصَرِيَّةِ فِي بَغْدَادَ ، وَاشْتَغَلَ مُعَلِّمًا ثُمَّ مَدْرَسًا فِي الْمَدَارِسِ الْإِبْتَدَائِيَّةِ وَالثَّانَوِيَّةِ .

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ٧ : ١٢٢ ؛ وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ ٥ : ١٨١ ، وَآخَرُونَ .

فأيُّها العالم إذا أردتم أن تنتصروا فهذا هو الطريق للوحدة التي تذوب فيها
كُلُّ ترسُّبات الأنانيات والفئويات والعشائريات والحزبيات والمحليّات والقوميات ،
هذه يوم القيامة لن تبقى لنا ، والحمد لله الذي جعل قلوبنا سليمة بحُبِّ محمّد وآل
محمّد ﷺ .



الفصل الثالث

ذِكْرُ الْأَرْبَعِينَ

١. فضل زيارة الأربعين
٢. لماذا المشي لزيارة الحسين عليه السلام ؟
٣. مقارنة بين مسيرة الأربعين وحج بيت الله الحرام
٤. دلالات في مشهد الزائرين
٥. معجزة الدهر في العشرين من صفر
٦. إبطال ملحمة الزيارة
٧. المشهد الإعجازي لزيارة الإمام الحسين عليه السلام
٨. زيارة الأربعين وشبهات الوهابية



فضل زيارة الأربعين

روى المحدثون عن الإمام العسكري عليه السلام قوله : « علامات المؤمن خمس : صلاة إحدى وخمسين ، وزيارة الأربعين ، والتختم باليمين ، وتعفير الجبين ، والجهر بسم الله الرحمن الرحيم »^(١) ، هذه الروايات معروفة ، وعليها عمل علمائنا وشيعة أهل البيت عليهم السلام .

لماذا المشي لزيارة الحسين عليه السلام ؟

وهنا تساؤل : لماذا اختصَّ الحسين عليه السلام بهذه الزيارة ؟ ولماذا يزحف ملايين الشيعة لزيارة الحسين عليه السلام ؟

ربما يكون الجواب هو أن أئمتنا كلهم قتلوا إمّا بالسيف أو بالسُّم ، لكن لم يُقتل أحدهم كما قُتل الإمام الحسين عليه السلام ، ومشى في كربلاء كما مشى الحسين عليه السلام ، فكلمًا سقط أحد من الأنصار أو أهل بيت الحسين مشى إليه الحسين عليه السلام من الخيام إلى مصرعه ثم يرجع .

كان هناك سبعون ونيف شهيداً مع الحسين عليه السلام ، يعني أنه مشى ذهاباً وإياباً أكثر

(١) روضة الواعظين : ١٩٥ .

من سبعين مرّة ، ولعلّ منطلق مشينا للحسين عليه السلام هو ذلك الذي حصل يوم عاشوراء ، ولعلّه أحد الأسرار بين الشيعة والحسين عليه السلام .

هناك سرٌّ آخر ، فكلُّ من يمشي إلى كربلاء يضع يده على ظهره من التعب والنصب ، وهذا نوع من المواساة للحسين عليه السلام ، عندما ذهب إلى أخيه العباس عليه السلام ووجده ملقًى على التراب قال : « الآن انكسر ظهري ، الآن قلّت حيلتي ، الآن شمت بي عدوّي »^(١) ، فالشيعة يمشون هكذا مواساةً للحسين عليه السلام ، والرسول ﷺ حينما أخبر بمقتل الحسين عليه السلام قام الحسين عليه السلام يدرج حتّى صعد على فخذي رسول الله ﷺ ، فأخذ برأسه إلى صدره ووضع ذقنه على رأس رسول الله ﷺ ، ثم قال : « يا أبه ، ما يُبكيك ؟ » .

فقال له : « يا بني ، إنّ نظرت إليكم اليوم فسررت بكم سروراً لم أسر بكم مثله قطُّ ، فهبط إليّ جبرئيل فأخبرني أنّكم قتلوا وأنّ مصارعكم شتّى ، فحمدت الله على ذلك وسألت لكم الخيرة » .

فقال له : « يا أبه ، فمن يزور قبورنا ويتعاهدها على تشبّثها ؟ » .
قال : « طوائف من أمّتي يريدون بذلك برّي وصلتي ، أتعاهدهم في الموقف وأخذ بأعضادهم فأنجيهم من أهواله وشدائده »^(٢) .

تصوّرنا أنّ شيخ عشيرة قُتِلَ أحد ولده ، فإنّ هذا الشيخ يقف في الباب ليستقبل المعزّين له بمقتل ولده ، فالحسين عليه السلام هو الولد المقتول للرسول ﷺ ، والمعزّون أنتم أيّها الزائرون للحسين عليه السلام يوم الأربعين مشياً على الأقدام ، فالرسول ﷺ والإمام عليّ عليه السلام والزهراء عليها السلام يستقبلون الزوّار على أبواب كربلاء ، ويقولون : نحن شفعاؤكم يوم القيامة .

(١) كامل الزيارات : ١٢٧ / ح ١٤١ .

(٢) كامل الزيارات : ١٢٧ / ح (١٠ / ١٤١) .

مقارنة بين مسيرة الأربعين وحج بيت الله الحرام

وأقف في مقارنة بسيطة وأنا في الطريق لزيارة الإمام الحسين عليه السلام ماشياً مع الزائرين خلال الأيام الأربع الماضية ، وتأملت في مقارنة ومقاربة بين هذه الزيارة على الأقدام لهؤلاء الذين زادوا على عشرة ملايين^(١) بتقدير دقيق وبدون مبالغة ، بل يزدون على ذلك ، هذه الزيارة التي خلت منها محافظات بأكملها ، وخرجوا رجالاً ، ونساءً ، وأطفالاً ، وحتى الطفل الرضيع لزيارة الإمام الحسين عليه السلام ، وأنتم ونحن شاهدنا ذلك . أردت أن أعقد مقارنة بين هذه الزيارة وبين حج بيت الله الحرام ، وإن الروايات الثابتة لدينا تقول : « من زار الحسين عليه السلام له ثواب حجة وعمرة ، بل ثواب سبع حجج ، بل ثواب سبعين حجة ، بل ثواب ألف حجة متقبلة »^(٢) ، وهذا ليس مبالغة ، وأذكر لكم هذه التأمّلات ، وهذه المقارنة :

المقارنة الأولى : المغفرة :

فالحاج على ثلاثة أقسام كما جاء في الروايات ، قسم يُحفظ في أهله وماله ، وقسم يُغفر له ما تقدّم من ذنبه ، وقسم ثالث يُغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، ولكن ثواب زائر الحسين عليه السلام يُغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، وأربعة آلاف ملك يُشيعونه إذا عاد ، ويعودونه إذا مرض ، ويجلسون عند قبره يستغفرون له إلى يوم القيامة ، حتى ورد في الروايات الصحيحة عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : « من زار قبر الحسين عليه السلام وهو يريد الله ﷻ شيعة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل إلى منزله »^(٣) .

المقارنة الثانية : التخيير في الصلاة :

الحاج يُخيّر في الصلاة في مكة المكرمة بين القصر والتمام ، وفي المدينة المنورة

(١) كان ذلك عام (١٤٣٢) للهجرة .

(٢) كامل الزيارات : ١١٣ ؛ وسائل الشيعة ١٤ : ٤٧٠ ؛ إقبال الأعمال ٣ : ٣٣٩ ؛ البحار ١١ : ٥٨ .

(٣) المنتخب للطريحي : ١٤٦ ؛ مدينة المعاجز ٢ : ٨٦ .

كذلك ، ومسجد الكوفة ، ويُخَيَّر في الحائر الحسيني أيضاً بين القصر والتهام .

المقارنة الثالثة : الوضوء بماء زمزم :

فَيُسْتَحَبُّ لِلْحَاجِّ أَنْ يَتَطَهَّرَ وَيَتَوَضَّأَ وَيَغْتَسِلَ وَيَشْرَبَ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ، ويقول : « اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ عِلْماً نَافِعاً »^(١) ، وكلُّ الحجيج يقومون بهذه المهمة ، وفي زيارة الحسين عليه السلام يُسْتَحَبُّ الغُسلُ بماء الفرات ، وكنت أَسْتَذْكُر أَنَّ الله تبارك وتعالى أعطى بئراً إلى إسماعيل ، ولكنه تعالى أعطى للحسين عليه السلام الفرات بأكمله يُغْتَسَلُ وَيَتَوَضَّأُ وَيُشْرَبُ مِنْهُ .

المقارنة الرابعة : عدم وجود الفنادق :

وهي من المشاهدي التي نراها على طول الطريق البالغ (٥٠٠ كم) بأقل تقدير ، وبتعداد زوّار يتعدّى العشرة ملايين زائر ، وإنّما يبيتون على الرحب والسعة في بيوت الناس ، وفي الخيام المنصوبة لاستقبالهم ، والمحافظات ، والأقضية ، والنواحي ، التي في الطريق كلّها قد فتحت بيوتها للزوّار ، فلا تسمع أنّ أحدهم منهم بات في فندق أبداً ، وفي حجّ بيت الله الحرام تكون الفنادق عامرة والحمد لله بملايين ومليارات الدنانير والريالات .

المقارنة الخامسة : عدم وجود الأمراض :

ففي الحجّ هناك طبخ مركزي ، ولجنة فحص طبيّ ، ومع ذلك نسمع آلاف حوادث التسمّم بالطعام ، وهكذا التلقيح قبل الحدود وبعدها باستمرار ، خشية الأوبئة والأمراض ، أمّا في هذه الزيارة المليونية لا نسمع بوجود الأمراض ، ولا يوجد تعقيم ولا طبخ مركزي ، ولا فحص طبيّ ، ومع كلّ هذا لا يوجد أيّ انتشار أو خطر مرضي ، فألف هنيئاً ومريئاً هؤلاء الزوّار ، وهم يعانون أنواع الظروف الطقسية المختلفة ،

(١) حديث عن رسول الله ﷺ أخرجه ابن ماجه/ رقم الحديث ٩٢٥ ؛ وأحمد في مسنده ٦ : ٢٤٩ و ٣٠٥ و ٣١٨

وانتهت الزيارة ورجع هؤلاء العشرة ملايين ولا توجد مشكلة ، وهذا الأمر علمياً وصحياً غير قابل للتصديق ، إلا أن يكون هذا الحدث إعجازاً .

المقارنة السادسة : الرغبة في العودة للزيارة :

مع هذا الطريق الطويل وهذا التعب والعناء ، ولكن لا يوجد شخص إلا ويرغب بالعودة للزيارة في السنة القادمة ، ولكن في حج بيت الله الحرام كثيراً ما نسمع ونرى من يقول : لا أستطيع العودة ولا أرغب بها ، وهذا خلاف الاستحباب الشرعي طبعاً ، من جراء التعب ، أو الظروف أو غيرها ، وهؤلاء العشرة ملايين سيصبحون في السنة القادمة خمسة عشر مليوناً ولا أحد منهم إلا ويتمنى العودة للزيارة .

المقارنة السابعة : وسائل النقل :

فالزوّار هنا يقطعون الطريق مشياً على الأقدام بمئات الكيلومترات ، لا طائرات ، ولا سيارات ، وهذه ظاهرة منفردة في العالم ، وفي حج بيت الله الحرام وسائل النقل مرفّهة وبأفضل الترفيه ، وأحدث الموديلات .

المقارنة الثامنة : الخدمات :

وأنت تمشي في الطريق تجد الخدمات مبذولة بما لا يمكن وصفه ، حتى يصل الأمر إلى التنافس من أجل غسل ملابس الزائر ، في حج بيت الله الحرام ممكن أن تُعطي ملابسك إلى مكوى بأجور ، لكن هنا العوائل ، والنساء ، والشباب ، والرجال يتفننون في كيفية خدمة هذا الزائر ، من غسل ملابسه ، إلى غسل أرجله وتدليكها ، وهذا غير موجود في الحج .

المقارنة التاسعة : الأمان :

وهي ظاهرة فريدة أيضاً ، فإن عشرة ملايين زائر ولمدة (١٥ يوماً) من البصرة كأقل تقدير ، لا تسمعوا أن فلاناً سُرقَت أمواله ، ولكن في الحج وفي بيت الله الحرام

وعند الحجر الأسود سجّل ما شئت من حالات السرقة ، وهي ظاهرة سيّئة وتحمّلها الأجهزة المسؤولة هناك ، لكن بصدد التقييم العامّ تستغرب حينما ترى عشرة ملاين زائر لا تسمع من يقول : سُرقت أموالي ، بل لو ترك أمواله في مكان لوجدها على حالها ، لأنّ قلوبهم يفدي بعضهم البعض الآخر ، وهو لم يأت لكي يأخذ أموالاً ، بل كي يُعطي أموالاً ، وهذه ظاهرة عجيبة ، وهؤلاء بشر على كلّ حال وليسوا ملائكة ، لكن انظروا كيف يتحوّل البشر إلى ملائكة في زيارة الحسين ﷺ ولا يُفكّرون في سرقة ، أو كذب ، أو غيبة ، أو أنانية وما شاكل ذلك .

المقارنة العاشرة : التهديد الإرهابي :

هناك في الحجّ لا يوجد تهديد إرهابي ، وفي زيارة الحسين ﷺ يوجد تهديد إرهابي ، والناس يزحفون إلى الموت وهم فرحون بذلك ، في هذه السنة حدث عندنا في الإسكندرية تفجير ذهب ضحيّته أربعون شهيداً ، وأكثر من مائة وعشرين جريحاً ، والناس مستعدّون لبذل مليون شهيد فداءً لزيارة الحسين ﷺ .

المقارنة الحادية عشرة : الأطفال الرُضّع :

فلا تجدون أطفالاً يحجّون بيت الله الحرام ، لكن تجد الأطفال الرُضّع وعوائلهم يأتون بهم من البصرة لزيارة الحسين ﷺ ، رغم الظروف الطقسية المختلفة الصعبة ، وهذه ظاهرة عجيبة .

المقارنة الثانية عشرة : البذل والعطاء :

والعالم لا يدري بالذي يحدث هنا وقد ضيّعوا حظّهم ، ونحن رزقنا الله تعالى هذا الحظّ العظيم ، فدعوا هذا العالم وشأنهم ، ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمْنِهِم ﴾ (الإسراء : ٧١) .

أيّها العالم الإسلامي نحن اخترنا الحسين ﷺ وليس مجرد محبّة الحسين ﷺ ، ممكن

يقول العالم: كُلُّنا نُحِبُّ الحسين عليه السلام، وَحَتَّى أولئك الذين في قصر الشام كانوا يكونون الحسين عليه السلام، وَحَتَّى ابن سعد، وهذا لا قيمة له، والإمام لدينا هو المطاع وليس المحبوب فقط، أي إِنَّ الفقه فقه الحسين عليه السلام، والموقف السياسي موقفه، وبحساب أوَّلِي بسيط فإنَّ عشرة ملايين زائر خلال أسبوع يصبح تعدادهم (٧٠) مليوناً، وفي كلِّ يوم ثلاث وجبات يصبح لدينا (٢١٠) مليون وجبة طعام تُقدَّم مجَّاناً، أقلَّ سعر للوجبة ألف دينار أصبح لدينا (٢١٠) مليار دينار يُقدَّم خلال أسبوع فقط للطعام، وإذا أضفنا مثلها للخدمات صار المجموع (٤٢٠) مليار دينار يُقدَّم خلال أسبوع تبرُّعاً، وقياساً بميزانية محافظة النجف الأشرف كواحدة من المحافظ البالغة (١٧٢) مليار دينار خلال سنة كاملة، أي بذل الأهالي الفقراء خلال أسبوع ما يعادل ميزانية محافظة لمدة سنة مرتين ونصف، وهذا بأقلَّ الحسابات، ولا يمكن وصفه ولا تستطيع دولة أن تُقدِّمه، ولكن هذا الشعب العظيم والسخي المتنافس لخدمة أهل البيت عليه السلام، وأذكر شخصاً منهم يبذل سنوياً (٥٠٠) مليون دينار في موكب واحد، وعندما سألنا عنه قالوا: لا يريد أن يعرفه أحد، فإذا أردتموه تجدونه يُنظَّف المغاسل والحمامات كي لا يُعرَف، وأين هذا البذل والعطاء في بيت الله الحرام؟

المقارنة الثالثة عشرة: رعاية الدولة:

هنا لا تجد رعاية دولة بالمعنى المصطلح، نعم تُوجد خدمات بسيطة تُقدِّمها الدولة وأجهزة الدولة مشكورة، ولكن لا تُوجد لدينا وزارة تُسمَّى وزارة الزيارة، وهناك في الحجَّ وزارة تُسمَّى وزارة الحجَّ.

المقارنة الرابعة عشرة: أخذ التراب:

في حجَّ بيت الله الحرام لا يجوز أن يُؤخذ من تراب الحرم شيء، وإذا أُخذ يجب إرجاعه، ولا من نبتها، ولا من أحجارها، لكن في كربلاء يُستحبُّ أن تأخذ من تراب الحسين عليه السلام، وتربة الحسين عليه السلام يجب أن تكون لكلِّ العالم، أينما تكون في شرق الأرض

وغربها ، أنت تعيش مع الحسين وتربة الحسين ﷺ .

وأقف هنا للتأكيد على أن أفكارنا هي كالشمس الواضحة ، إلا لذلك الأعمى ، هؤلاء عمي لا يريدون أن يعرفوا الحقيقة ، ونحن نقول : إن الشفاء في تربة الحسين ﷺ ، ورسول الله ﷺ قال : « بورك لولدي الحسين في تربته ، وفي ولده ، وفي ذريته » ، والحديث في ذلك واسع ، وبعض الناس يتهموه بأنه شرك وبدعة . وأذكر أيها السادة الكرام برؤيتنا القرآنية الواضحة ، وكنت أتأمل في قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا ۚ ﴾ (البقرة : ٧٣) ، هؤلاء بني إسرائيل قتلوا واحداً ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة : ٧٢) ، والله تعالى أوحى إلى موسى أن انحروا بقرة ، وبعد قصة طويلة يستعرضها القرآن الكريم ذبحوا هذه البقرة ، فقال موسى : خذوا بذيل البقرة واضربوا الميت ، فلما ضربوه عاد حياً ، يقول القرآن الكريم : ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة : ٧٣) ، أي يحيي الميت بذيل البقرة ، فهل هذا شرك بالله تعالى أم هو بإذن الله تعالى ؟ ونحن نزور الحسين ﷺ ونتبرك بتربته ، وهم يقولون : بدعة وشرك .

والقرآن الكريم أيضاً في قصة يوسف يقول : ﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ (يوسف : ٩٣) ، فلماذا حينما نتبرك بزيارة الحسين ﷺ ونقبل ضريحه لا يقبلون هذا منا ويعتبروه شركاً ؟

تذكرت أن الحسين ﷺ على هذه التربة يوم عاشوراء ، لَمَّا وقع عن جواده عمل له وسادة من التراب ، ووضع خده عليها ، والشمس تصهره ، كما قال الشاعر :

تريب المحيا تظنُّ السما	بأنَّ على الأرض كيوانها
غريباً أرى يا غريب الطفوف	توسَّد خدَّك كثنائها ^(١)

دلالات في مشهد الزائرين

هناك دلالات في مشهد الزائرين ومعاني لهذه الحركة العظيمة ، فقد أحصيتُ وبشكل سريع أربع عشرة دلالة وصورة في التأسي بالحسين عليه السلام في مشهد الزائرين :

الأولى : العطش :

فالزائر يواسي الإمام الحسين عليه السلام بالعطش ، وهي الصورة الأولى من صور التأسي بالحسين عليه السلام .

الثانية : الغبار :

فالإمام الحسين عليه السلام علاه الغبار ، والزائر أيضاً لا يذهب بإنافته الكاملة ، بل يذهب بالغبار ، وهذه من خصائص زيارة الحسين عليه السلام أن الزائر يزوره بالغبار ، وهذا غير مذكور في زيارة الأئمة الباقيين عليهم السلام .

الثالثة : المشي :

الحسين عليه السلام مشى في كربلاء بين كل مصرع ، وبين الخيام ، وبين النهر العلقمي ، والزائر بهذا المشي يتأسي بالحسين عليه السلام .

الرابعة : حرارة الشمس :

فالإمام الحسين عليه السلام بقى على رمضاء كربلاء ثلاث ساعات من النهار تلفحه الشمس قبل أن يقتل ويذبح ، والزائر يتعرض لحرارة الشمس تأسيًا بالحسين عليه السلام ، وهذا من أبسط التأسي .

الخامسة : الدماء :

فالحسين عليه السلام أعياه نرف الدماء يوم عاشوراء ، والزائر أيضاً لا بد أن تصيبه شوكة ، ونتيجة التعب تكون هناك دماء في قدميه ، لكن شتان بين تلك الدماء وهذه .

السادسة : الرايات :

فالحسين ﷺ كان عنده راية والعبّاس حاملها ، وكانت هناك أيضاً مجموعة رايات وأحصى المؤرّخون منها (١٢) راية ، والآن من يذهب إلى الحسين ﷺ يلاحظ مشهد الرايات ، وهو مشهد كربلائي وتأسّي بالحسين ﷺ ، مشهد عشرات آلاف من الرايات ، وكأنّ الحسين مرّةً أخرى عاد حيّاً ، وكربلاء عادت حيّة .

السابعة : خيم عاشوراء :

الآن الخيام المنصوبة في الطريق إلى كربلاء تُذكّرنا بخيم الحسين ﷺ ، ونحن بعد (١٤٠٠) سنة مرّةً أخرى نعيش مع الحسين ﷺ في الخيام .

الثامنة : الأطفال :

الحسين ﷺ كان معه الأطفال في يوم عاشوراء شاركوا في المعركة ، اليوم الأطفال أيضاً يشاركون في مشهد المشي لزيارة الحسين ﷺ .

التاسعة : النساء :

النساء شاركن مع الحسين ﷺ في كربلاء ، والنساء تشارك الآن في زيارة الحسين ﷺ .

العاشرة : الصلاة :

الحسين ﷺ أقام الصلاة يوم عاشوراء ، والآن تجدون مشهداً واضحاً وهو مشهد الأذان والصلاة ، وهذا تأسّي بالحسين ﷺ .

الحادية عشرة : السرور العظيم :

فلا يوجد سرور أعظم من السرور الموجود في يوم عاشوراء ، فقد كان برير وزهير يتبادلان السرور والفرح أنّ بعد ساعة يعانقون الحور العين ، وهذه أحلى

ساعات كانت عندهم ، والزائرون والحمد لله يقضون أحلى ساعات العمر في زيارة الإمام الحسين عليه السلام ، بما لا يقاس بأجل مشهد من مشاهد الكون كله .

الثانية عشرة : تبادل المحبة :

فالزائر يُفدي أخيه الزائر ولا توجد أنانية ، بل يتسابق لخدمة الزائر ويُقدّم له الماء والطعام وغيره بما لا يصنعه أيّ درس من الدروس ، ولا أيّ موعظة من المواعظ ، ولا أيّ تجربة من التجارب ، إنّ هؤلاء الملايين بينهم من المحبة ما صنعه الله تعالى وحده ، وهو لا يعرف الآخر ولكن لا يبخل عليه بشيء ، بل يتوسّل إليك أن يخدمك .

الثالثة عشرة : الصحراء :

هناك صحراء كربلاء التي تجعلنا مرّة أخرى نُجسّد قضية الحسين عليه السلام .

الرابعة عشرة : لطم الصدور :

والزائر يمشي ، وتقرأ الأشعار ، وتلطم الصدور ، والحسين عليه السلام وأصحابه لم يلطموا الصدور في عاشوراء ، ولكن هذا شيء من المواساة للحسين عليه السلام ، يوم عاشوراء داست الخيل صدر الحسين عليه السلام ، ونحن نريد أن نقول : يا أبا عبد الله الحسين ، إذا الخيل لم تدس على صدورنا ، نحن نلطم عليها تأسيّاً بصدرك الكسير يوم قال قائلهم : (يا خيل الله اركبي ودوسي صدر الحسين) ، وعشر من الخيالة العصاة المردة ، فيا لها من جراءة على الله ، ركبوا خيولهم وداسوا على صدر الحسين عليه السلام وظهره .

معجزة الدهر في العشرين من صفر

الحديث عن ذكرى أربعينية الإمام الحسين عليه السلام ، هذا الأمر الذي حضرني أن أسمّيه وأنا أسير مع المشاة إلى الإمام الحسين عليه السلام بـ (معجزة الدهر في العشرين من صفر) ، نتحدّث عن معاجز الأنبياء وهما نحن نرى المعجزة بأُمّ أعيننا في ذكرى العشرين من صفر ، وهناك بركات وهبات إلهية في هذا المسير العظيم المقدّس الشريف ، منها :

أولاً : كفارة الذنوب :

ننظر لهؤلاء المشاة وتنقلات أقدامهم ملايين البشر تسير والأقدام ترحف إلى قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام ، في العام الماضي ^(١) قُدِّرَ بخمسة عشر مليون زائر ، أمّا هذه السنة فالمشهد فوق أن يُوصَف ، وذكرت الحديث الشريف الذي يقول : « من ذهب ماشياً لزيارة الحسين عليه السلام كتب الله له بكل خطوة حسنة ، وغفر الله له سيئة ، ورفعته درجة » ^(٢) ، بدأت أحسب حساباً أن كل واحد من هؤلاء الشباب أو الشيوخ أو النساء كم خطوة وكم قدم سعت حتّى وصلت إلى الإمام الحسين عليه السلام ، وأن أقل معدل للمشي هو (١٠٠) كيلو متر من مختلف محافظات العراق فضلاً عمّن هم في خارج العراق ، فسيكون المجموع (١٠٠,٠٠٠ متر) ، وكلُّ متر (٣ أقدام) ، أي إن كل واحد أصبح لديه (٣٠٠,٠٠٠) خطوة قطعها في هذا الطريق ، أي (٣٠٠,٠٠٠) ذنب غفره الله ، و (٣٠٠,٠٠٠) حسنة كُتِبَتْ له ، و (٣٠٠,٠٠٠) درجة في الجنة رُفِعَتْ له ، ولا أريد التحدّث عن روايات أهل البيت عليهم السلام التي تقول : إن زيارة الحسين ثوابها يعدل سبعين حجة وعمرة ، الذي ذكرناه في العام الماضي وثار الوهابيون والمتطرفون علينا وقالوا : إن الشيعة يبالغون ويريدون أن لا يذهب الناس لحج بيت الله الحرام ، لندعه الآن جانباً ، ولكن أليس القرآن الكريم يقول : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظَ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ (التوبة : ١٢٠) ، أي إن كل عطش وتعب وجوع يُسَجَّل لهم به عمل صالح ، ثم يُطوّر القرآن الموقف فيقول : ﴿ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظَ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ ، ولا شك أن هذه الأقدام التي تسعى لذكر سيّد شباب أهل الجنة تُمثّل ناحية من أنحاء الارتباط بالله ورسول الله ﷺ ، فهؤلاء لم يذهبوا إلى هوا ولعب ، ولا شك أن

(١) عام (١٤٣٣) للهجرة .

(٢) بحار الأنوار للمجلسي ٩٨ : ١٤٣ ؛ كامل الزيارات : ١٣٣ .

ذلك يغيض الكفار الذين لا يريدون اسم رسول الله ﷺ ولا الحسين عليه السلام ولا الآخرة ولا هذا النمط من مبادئنا ، الكافر لا يفرح عندما يرى الأمة الإسلامية محتشدة بهذا الشكل ، إذن فإن الله تعالى في كل موطن قدم يكتب لنا في هذه الزيارة عملاً صالحاً ، فهنيئاً لهم ، ولا أستطيع الآن أن أصف أو أن أعرب عما يحيش في داخلي من الانبهار بهذه الأقدام والشعب العراقي وغير الشعب العراقي ، وعلى طول الطريق أدعو هؤلاء الناس ، (اللهم لا تدع لهم ذنباً إلا غفرته ، ولا همماً إلا فرجته ، ولا سقماً إلا شفيته ، ولا حاجة إلا قضيتها) ، هؤلاء الناس يريدون إحياء ذكرى سيد الشهداء .

كنت أقول لأحدهم : هذا المشهد لا يوجد مثله في الأرض ولا في السماء ، فأين مشهد الملائكة وهؤلاء الناس الحفاة ، ولا أستطيع عقد مقارنة ، فالملائكة لا يصيبهم نصب ، ولا ظمأ ، ولا مخمصة ، ولا تحدي ، ولا مواجهة إرهاب ولا عطش ، فهذا مشهد لا مثيل له في الأرض ولا في السماء .

ثانياً : التراحم والمحبة :

فأني مشهد في العالم مثل مشهد خمسة عشر مليون إنسان ليس بينهم إلا التراحم والمحبة ؟ وكنت أتساءل أن هؤلاء وهم آتون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي مع الصعاب المختلفة إلى جانب الخدمات الكبيرة المطلوبة لهذا السفر الطويل ، لكن ليت أحد يخبرني هل شهد مرة واحدة مشادة كلامية بين اثنين ؟

كلّا لم نشهد إلا المحبة والتراحم ، وكل واحد مستعد لفداء الآخر بنفسه ، وهذه رحمة الله تعالى نزلت على هذا الشعب ، والحسين عليه السلام رحمة ، وهذه نماذجها قلوب عامرة بالمحبة .

ثالثاً : البذل والعطاء :

الذي هو فوق الوصف ، من يصدق ويستطيع أن يحسب الأرقام ؟ وأقل ما نقول : هناك عشرون مليون وجبة طعام تُقدّم مجاناً ، فإذا افترضت أن معدل أيام الزيارة عشرة

أيام ، وفي كل يوم (٢٠ مليون) وجبة طعام كُلُّها تبرُّعات من الناس ، فسيكون لدينا (٢٠٠ مليون) وجبة طعام تُقدَّم مجَّاناً ، وأمثلتها الماء والفاكهة وما شاكل ذلك !

وروح العطاء والبذل تنمو عند هؤلاء الناس ، فأَيُّ تربية عظيمة هذه ؟ وجيل كامل يتربَّى على العطاء والإيثار وصدقة السرِّ .

مرَّت بنا مجموعة من الجنوب ينشدون :

موبس عابس جنَّيته كلُّ الشيعة انجنت

ودخلت عند حسينية من الحسينيات ذات بناء حديث لمجموعة أهالي الشوافع من ضواحي النجف الأشرف ، وهم طبقة فقيرة ، وبعضهم بيوتهم من الطين ، ولكن حسينيَّتهم من السيراميك والبناء الحديث ، وناشدت كبيرهم أنَّه كم تُعطي من الطعام ؟ فقال : اشتريت ثلاث جمال وأذبح واحداً كلَّ وجبة ! وهؤلاء أناس فقراء .

القرآن يقول عن إبراهيم عندما ترك أهله في البلد الحرام : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ (إبراهيم : ٣٧) ، ورسول الله ﷺ أعظم من إبراهيم عليه السلام ، والحسين عليه السلام أعظم من إسماعيل عليه السلام ، فلم يصب إسماعيل عليه السلام ما أصاب الحسين عليه السلام . إذن القضية إلهية ، وهذه الملايين تهوي أفئدتها إلى الحسين عليه السلام عُشاقاً ، ويتركون عملهم ومحلاتهم ، والمُدُن في العراق أغلقت أيام زيارة الإمام الحسين عليه السلام في الأربعين .

رابعاً : الوحدة والتواضع :

في هذا المسير ترى العالم الديني المقدَّس وترى الطبيب ورئيس الجامعة والمهندس والطفل الصغير والفقير والكاسب كلُّهم في نسق واحد ومواكب واحدة وموائد واحدة ، هذه خدمة الحسين عليه السلام .

خامساً : تزكية القلب :

بالولاء لأهل البيت والمبادئ الأخلاقية ، وتجد هؤلاء الناس ليست لديهم غيبة ولا كذب ولا سب ولا فحش ولا أنانية ، وعلى طول الطريق إمَّا تسبيح أو استغفار إمَّا

الشكر لله إماماً الترحيب ، والكلمة الطيبة صدقة ، وهؤلاء (٢٠ مليون) دخلوا حَمَاماً للتزكية والتطهير وخرجوا أنقياءً أطهاراً أولياء بحبِّ الحسين عليه السلام .

سادساً : الصلاة :

وعلى طول الطريق هناك صلاة ، والحسينيات المتصلة بعضها ببعض ، والناس تتزاحم على (٥٠ متراً) لكي يني له حسينية ، عشق الحسين عليه السلام للصلاة انظروا ماذا فعل بالناس .

سابعاً : الإخلاص لله وصدقة السر :

أحدهم يُقدِّم لك خدمة ولا يريد أن يعرفه أحد اقتداءً بالإمام زين العابدين عليه السلام الذي كان يواظب على صدقة السر .

ثامناً : العلاقة بالآخرة :

ونحن مشينا في هذا الطريق فلا تسمع الأذن غير ذكر الله تعالى ، ولا يسمع القلب غير ذكر الله وحُبَّ الله ، لا وجود للشيطان ، وهذا الطريق مخوف بالملائكة والانقطاع إلى الله ، هنيئاً للشباب ، فلا يوجد في العالم مثل هذا المشهد ، والله تعالى محيط بكل هذا الوضع ، ما أن يضع قدمه بباب الدار إلى أن يعود الملائكة تحفُّ به وتستغفر له ، الحديث يقول : « إنَّ الله تعالى يبعث ملكاً يستغفر له عند قبره إلى يوم القيامة »^(١) .

تاسعاً : التحدي والجهاد :

هناك معنويات عالية ورائعة جداً لا يوجد مثلها في العالم ، وليس لدينا قتال ، ولكن هناك تحدي ، لأنَّ أعداءنا تحدُّونا ، ثلاث تفجيرات ذهب فيها أكثر من (١٢٠ قتيل) في كربلاء وباب الشام وديالى في هذا العام ، إذن هذا تحدي ، والعالم يظلُّ صاغراً

(١) بحار الأنوار للمجلسي / كتاب الزيارة : مدينة المعاجز للسيد هاشم البحراني / ج ٣ .

أمام هؤلاء الناس وهم يودّون أن يأتيهم الموت ، بل يقولون للموت : أيّها الموت أين تكون نأتيك ، هذا الشعب وهذا الحسين ﷺ ، وهكذا يصنع حُبُّ الحسين ﷺ ، وهذا التحدي تربية لجيلنا والجيل الآتي ، ويا لعظمة الحسين ﷺ ، روح التحدي مستمرة بهذه الأمة (١٤٠٠ عاماً) ، كم جرى عليكم من قهر وذبح وقتل ، لكن لم تتعبوا .

عاشراً : التوحّد :

فلا توجد قبلات ولا عنصريات ولا قوميات ، فلا تقول له : أنت أعجمي ، تركي ، كردي ، لا توجد قوميات ، ممكن القبائل بينها تتقاتل ، لكن بخدمة الحسين ﷺ لو أن قاتلاً وأنت تطلبه وجاء في خيمة الحسين ﷺ فعليك بخدمته بلا أنانيات .

الحادي عشر : التواضع الكبير بين الصغير والكبير :

الزائر لا يفترض نفسه أستاذاً ودكتوراً ، بل هو كسائر الزائرين ، وما شاكل ، وهذه تربية عظيمة ، وهذه السنة كان هناك قفزة في حضور النساء ، ربّما كان حضور النساء أكثر من الرجال ، ورأيت امرأة محدودة الظهر لا تستطيع أن ترفع رأسها للأعلى وتتوكأ على عصاها وتذهب لزيارة الحسين ﷺ ، فكم ستكون هناك محبة في داخل الأسرة الواحدة ؟ وعندما يلتقون يتكلّمون بجمال الحسين ﷺ ، والمعاني التي استلهموها في هذا الطريق ، هذا بناء للأسرة وللمجتمع كلّ بركة الحسين ﷺ .

نعتبر هذا إعجازاً إلهياً ومعجزة الدهر في ذكرى العشرين من صفر ، فكيف تتسع لهم الأرض في كربلاء ؟ وأيُّ قلوب تلك التي تُحيط بنجوم السماء بسعة محبتها ؟ تمشي على الأرض وقلوب الملائكة تسجد لها وتُقبّلها ، وأنواع الخدمات كلّ واحد منهم يتفنّن في التقرب إلى الله تعالى ، هنيئاً لهم وبارك فيهم ، ولقد كان لدى الحسين ﷺ (١٢ راية) ، والآن الشعب العراقي رفع (١٢ مليون) راية في هذا الطريق ، وهذه معجزة الدهر .

مواساة الحسين عليه السلام :

هؤلاء الزوّار في كلّ هذا الطريق بينهم وبين الحسين عليه السلام لون من ألوان المواساة ، البكاء على طول الطريق ، وهذه دموع الحسين عليه السلام ، ولهذا هذه الدمعة تُطفئ غضب الربّ ، والعطش وحرّ الشمس والجهد وانحناء الظهر من التعب ، وهذه مواساة مع الحسين عليه السلام يوم كان محنيّ الظهر ، « الآن انكسر ظهري » .

لكن هذه السنة مواساة أخرى ، والزوّار في الطريق قبل أن يصلوا إلى كربلاء وإذا بعاصفة شديدة وغبار شديد ما أبقى أحداً من هؤلاء الزوّار إلا أغبر وجهه ، وملاً التراب رأسه وحاجبه ولحيته ، وتذكّرت شيئاً وقلت : هذا ليس طقساً طبيعياً ، بل إرادة إلهية أن هؤلاء يدخلون كربلاء بهذا الغبار مثلما دخلت عائلة الحسين عليه السلام سبايا يوم الأربعين ، ولا شكّ كان الغبار قد علا وجوههم وأبدانهم ، الآن الشيعة يقولون للحسين عليه السلام : نحن أيضاً نأتيك ووجوهنا مغبرة ، هنيئاً لنا ولهذا الشعب ، وبارك الله بكم .

أبطال ملحمة الزيارة

اليوم يعيش العراق ظاهرة مليونية كبرى هي المشي لزيارة الحسين عليه السلام ، وهذه الظاهرة لا مثيل لها في كلّ العالم ، قلبّ طرفك يميناً وشمالاً فلن تجد مثل هذه الظاهرة في كلّ العالم ، المسرح ليس هو دائرة كربلاء وحدها وإنما هو كلّ العراق ، يلتحم من جنوبه إلى شماله ، وتمتلئ روافده بمحبّة الحسين مشياً لزيارة الحسين عليه السلام .

طبعاً المسرح هو أكبر من العراق أيضاً ، لكن حديثنا الآن عن العراق ، قلوب الشيعة في كلّ العالم تتدفّق نحو الحسين عليه السلام ، لكن حديثنا عن العراق بأنّه المسرح ، وهذه الظاهرة المليونية طبعاً محصورة في العراق فعلاً وهي ظاهرة المشي ، وإذا أذن الله أن يأتي ذلك اليوم وتحوّل إلى ظاهرة عالمية فسوف يأتي مشاة من باكستان وأفغانستان وكشمير والهند وحتى من بلدان عربية وأوربية ، وذاك ما سيكون بإذن الله تعالى .

هذه الظاهرة المليونية الكبرى التي مسرحها العراق لها أبطال :

البطل الأول : هو الحسين عليه السلام ، وهو إنسان عاش قبل ألف وأربعمائة عام ، وكان عصارة حركة الأنبياء عليهم السلام ، الحسين عليه السلام سيّد شباب أهل الجنة ، ومصباح الهدى ، وسفينة النجاة ، كما هو مكتوب على ساق العرش حسب رواية (فرائد السمطين)^(١) ، بطل هذه الظاهرة هو صانع ملحمة كربلاء ، وهو عصارة حركة الأديان ، فما من نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام إلا شاهد مسرح كربلاء ، ووقع في سجلّ المشاهدين ، ومعتزفاً للحسين عليه السلام بأنّه صانع الملحمة الإنسانية الكبرى من آدم إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبيّنا ﷺ . الحسين عليه السلام الذي بكته الأنبياء وملائكة السماء ، أي إنّ هذا الإنسان والبطل الأوّل في هذه الظاهرة يرسم ملحمة يشترك فيها أهل الأرض وأهل السماء ، ولذلك بكته ملائكة السماء وملائكة الأرض ، حيث تقول الزيارة : « يا أبا عبد الله ، لقد اقشعرتّ لدمايك أظلة العرش مع أظلة الخلائق ، وبكتكم السماء والأرض . . . »^(٢) ، أي بكت لبطل هذه الملحمة ، أي ملحمة عظمى ؟ إنّ صانع التاريخ والإنسانية هو الإمام الحسين عليه السلام ، رسول الله ﷺ يقول : « حسين منّي وأنا من حسين ، أحبّ الله من أحبّ حسيناً »^(٣) .

البطل الثاني : في هذه الظاهرة المليونية الكبرى هم شيعة الحسين عليه السلام ، وهم بالخصوص شيعة العراق ، على طول التاريخ منذ يوم ثار الحسين عليه السلام وسقط صريعاً شهيداً إلى اليوم ، إنّ أرض العراق وهي أرض السواد تشهد لشيعة العراق ما يصنعون في هذه الظاهرة المليونية الكبرى .

البطل الثاني له أدوات ووسائل عجيبة ، وهي :

١- المشي ولمسافات طويلة ، وبعضهم يمشي حافياً ، هذه واحدة من الأدوات العجيبة التي لا يوجد في العالم مثلها ولا حتّى حجّ بيت الله الحرام ، وهنا لا تجد طائرات

(١) فرائد السمطين ٢ : ١٥٢ / باب ٣٤ / ح ٤٤٥ .

(٢) إقبال الأعمال : ٣ : ٣٤٢ .

(٣) الإرشاد ٢ : ١٢٧ ؛ مستدرك الحاكم ٣ : ١٧٧ .

ولا سيّارات ولا مراكب ، فالناس يقولون : نأتي إلى الحسين عليه السلام مشياً على الأقدام .

٢- العطاء ، هل رأيت في ظاهرة مليونية الناس يُعطون بدلاً من أن يأخذوا ، بل يتنافسون في العطاء والنفقة دون أن يأخذوا شيئاً ، وكلُّ يريد أن يُعطي شيئاً كالماء والطعام وغيرها ، وإذا لم يستطع أن يُعطي شيئاً يُعطي ماءً على الأقل .

٣- التحدي ، فلا يوجد في العالم ظاهرة تتكرّر سنوياً منذ ألف وأربعمائة عام وبهذا الشكل ، وليس فيها أرض مفروشة بالورود ، وإنّا فيها تحدٍّ ومواجهة موت وقتل وإرهاب وإعدام وسجون ، أيّ ظاهرة عجيبة هذه ؟ !

٤- ظاهرة يشترك فيها الصغار والكبار ، الرجال والنساء ، ويشترك فيها حتّى العجزة غير القادرين على المشي . إنّ حجّ بيت الله الحرام يكون قدر المستطاع ، قال تعالى : ﴿ وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آل عمران : ٩٧) ، لكن هذه الظاهرة المليونية العالمية يشترك فيها الصغار والكبار ، حتّى غير المكلفين .

٥- ما هي النفقة التي يتقدّم بها أبطال هذه المسيرة ؟ مسيرة مئات الكيلو مترات ، عادةً الإنسان في مسيرة من هذا القبيل يكون لديه نفقة وأموال وطعام وملابس يأخذها معه في مثل هذه السفرة ، لكن هذه السفرة العظيمة الكبرى الإلهية البشرية ما هي نفقتها ؟

أيّها العالم والمشاهدون والإعلام ، ما هي نفقة هؤلاء المشاة ؟ هل يحملون مالا ؟ هل يحملون متاعاً ؟ هؤلاء نفقتهم شيء واحد ، يقولون للحسين عليه السلام : يا أبا عبد الله ، أنت يوم عاشوراء أعطيت روحك للدين وأعطيت أهلك وأولادك ومهجتك ، نحن نفقتنا في هذه المسيرة الكبرى هي أرواحنا نُعطيها للحسين عليه السلام ، « يا أبا عبد الله ، لئن لم يجيبك لساني عند استغاثتك فقد أجابك سمعي وبصري ولحمي ودمي وعروقي » ، الأرواح هي نفقة هؤلاء الأبطال من شيعة العراق .

وهناك شيء آخر يستخدمه الفنانون في المسرح يُسمّى المكياج ، أي التجميل ، هؤلاء الأبطال شيعة العراق المشاة للحسين عليه السلام ما هو تجميلهم ؟ نعم لهم تجميل عظيم ،

وهو الغبار الذي يعلو وجوههم وأبدانهم وملابسهم ، يقولون : يا حسين ، يا أبا عبد الله ، يوم عاشوراء غطّاك التراب ، نحن أيضاً يُغطينا الغبار في طريقنا إليك .

عُرِيَانُ يَكْسُوهُ الصَّعِيدُ مَلَابِسًا أَفْذِيهِ مَسْلُوبَ اللِّبَاسِ مُسْرَبِلًا
مَتَوَسِّدًا حَرَّ الصُّخُورِ مَعْفَرًا بِدَمَائِهِ تَرَبَّ الْجَبِينِ مُرَمَّلًا
كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ زَوَّارِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ هَذَا الْمِكْيَاجُ ، وهو غبار الزائرين .

وهناك تجميل ثانٍ أوجع للقلب ، أنتم لا تشاهدون واحداً من هؤلاء المشاة أبطال هذه الظاهرة المليونية إلّا وظهره منحني ، ولَمَّا يصل إلى كربلاء يضع يده على ظهره من التعب ، هذه الظهور المنحنية هي تجميل هؤلاء الأبطال ، وهو مواساة للحسين عليه السلام حينما قال يوم عاشوراء : « الآن انكسر ظهري ، وقلّت حيلتي »^(١) ، يقولون : يا حسين ، إذا كان يوم عاشوراء قد انكسر ظهرك ، فها هي ظهورنا فداء لك .

وهناك تجميل ثالث في هذه الظاهرة المليونية ، هو أنكم لا تجدون زائراً من زوّار الحسين عليه السلام إلّا وهو يشكو العطش في الطريق ، وهو مواساة للحسين عليه السلام حينما خرّ صريعاً وهو يقول : « يا قوم وحقّ جدّي أنا عطشان » ، المشاة يقولون للحسين عليه السلام : يا أبا عبد الله ، إذا كنت عطشاناً يوم عاشوراء ، فنحن مثلك اليوم عطاشى ونواسيك بجفاف ألسنتنا وشفاهنا .

المشهد الإعجازي لزيارة الإمام الحسين عليه السلام

يعيش العراق اليوم قطعة واحدة وميداناً واحداً لزيارة الإمام الحسين عليه السلام ، ونحن نؤكد أنّ ما نشهده هنا هو مشهد إعجازي وليس مشهداً طبيعياً ولا بالقدرات الطبيعية ، ففي الرواية التي يرويها الشيخ الطوسي رحمه الله في كتاب التهذيب عن الإمام العسكري عليه السلام يقول :

« علامات المؤمن خمس : الجهر بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلاة الواحد والخمسين ،

(١) وذلك لما قُتِل أخوه أبو الفضل العباس عليه السلام ، انظر : بحار الأنوار ٤٥ : ٤٢ .

وتعفير الجبين ، وزيارة الأربعين»^(١) ، بمعنى أننا في الصلاة حينما نقرأ سورة الحمد فإننا نجهر بقراءة البسملة بينما المذاهب الأخرى لا يجهرون بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) . وتعفير الجبين بالتراب عند الشيعة ربّما لأننا نسجد على التراب وغيرنا لا يسجد على التراب بل على الفرش والسجّاد ، وربّما هو إشارة إلى كثرة السجود عند شيعة أهل البيت وهو من المستحبات الأكيدة والمهمّة . وصلاة الواحد والخمسين أي صلاة النافلة إضافة إلى صلاة الفريضة ، وهذا مستحب أكيد ، وأقل ما يُصلي الإنسان نافلة الصبح ركعتان ويُصلي صلاة الليل ولو ركعة واحدة وهي ركعة الوتر ، أي نتعوّد على شيء من النافلة وليس فقط الفريضة . وهكذا التختّم باليمين ، وهو المستحب عند شيعة أهل البيت ، بينما غيرنا يتختّم باليد اليسرى . وزيارة الأربعين .

واليوم نقف أمام مشهد إعجازي ، والمعجزة تعني ذلك الحدث الذي لا يمكن تفسيره وفق العوامل الطبيعية كتكلم طفل في مهده ، وهذا لا يمكن تفسيره بالذكاء والنبوغ ، ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾^(٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا^(٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا^(٣١) وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا ﴿ (مريم : ٢٩ - ٣٢) ، إنسان قد عرف الدنيا والآخرة وهو طفل في المهد عمره يومان أو ثلاثة لا يمكن تفسيرها بعوامل وقوانين طبيعية .

والآن إذا جئنا إلى مشهد زيارة الإمام الحسين عليه السلام في الأربعين ، وهنا حالة شبه إعجازية ، بل مشهداً لا يمكن تفسيره بالعوامل الطبيعية ، فنشهد أكثر من عشرة ملايين إنسان من مجموع ثلاثين مليوناً من أبناء العراق اندفعوا مشياً على الأقدام ، ولو أعطيت هؤلاء الناس ملايين الدنانير وقلت : اذهبوا وحدكم من البصرة إلى كربلاء في سائر الأيام لا أحد يفعل هذا الفعل ، ولا يمكن أن يغامر به أحد ، ولكن هنا مع قضية الحسين عليه السلام تجد اندفاع الملايين مشياً على الأقدام ، ولا يوجد هناك سياحة ومصايف

(١) جاء في مستدرک الوسائل للنوري : ٢١٥ / باب ٩٤ .

وغيرها وإثما الغبار وحرُّ الشمس اللاهب أو البرد القارس في العراق ، وهذا هو الواقع ولا توجد مشوّقات مادّية ، مع ما نشهده من البذل والعطاء العجيب ، ففي الحجّ نشهد مليوني زائر من كلّ العالم ، وهنا في العراق من دولة واحدة نشهد عشرة ملايين زائر ، وبالمجمل تستغرق الزيارة عشرة أيّام بعضهم خمسة عشر يوماً في ثلاث وجبات في اليوم الواحد على الأقلّ تكون لدينا ثلاثمائة مليون وجبة طعام بالمجان والناس يتسارعون لبذلها . وعشرة ملايين إنسان يجب أن يُهيأ لهم خدمات ومبيت فضلاً عن عشرات آلاف من الكوادر البشرية الذين يخدمون هذا الجمع الغفير . كما لا توجد حوادث في مثل هذه الزيارة العجيبة من حرائق وسرقات ومعارك واقتتال بين هؤلاء وهؤلاء ، في هذا الحشد العجيب والمسيرة التي تكون بطبيعتها مليئة بالاحتكاكات لكن هؤلاء كأنّ يداً من فوق السماء مسحت على قلوبهم فجعلتهم أخوة أحبة يتبارون في خدمة الواحد للآخر ، وتزول كلّ العناوين الأسود والأبيض ، وهذا من هذه المحافظة وهذا من تلك كلّها ساروا في طريق الحسين ﷺ .

ولا توجد هنا دولة تحمي وتتكفل بمؤن هذه الزيارة ، في الحجّ توجد دول في ماليزيا وغيرها عندما يُولّد الطفل يستقطع من نفقته الحكومية توضع له بالبنك يجدها عندما يكون جاهزاً للحجّ ، في هذه السنة رأينا في أندونيسيا أضخم مسجد في جاكرتا اسمه مسجد الاستقلال ، وفيه زاوية مخصّصة بمئات الأمتار مهياً لمراسيم تدريبية للحجّ وعلى طول السنة ، بينما في هذه الزيارة المليونية للحسين ﷺ لا توجد دولة أو جهة تُخطّط ومسؤولة عن هذا الأمر . وهنا أيضاً لا توجد تجارة في زيارة الحسين ﷺ ، وهناك في الحجّ توجد زيارة ومنافع ومكاسب مادّية ، وبعض الحجاج ممّن يذهب لمكاسب ومنافع وغيرها . وهنا أيضاً إرهاب وتضحية في مواجهته والناس يتقدّمون لزيارة الحسين ﷺ سواء كان الوضع آمناً أو كان مضطرباً ، وهذه من عجائب الدهر ولم تنقطع زيارة الحسين ﷺ ، وهذا غير موجود في مسيرة الحجّ . وهذه القضايا تجعلنا لا نستطيع أن نفسّر هذا المشهد تفسيراً طبيعياً ، وهذه السنة استقبلنا زوّاراً ليسوا من العراق من الهند والباكستان وغيرهم ولا ندري كيف تتّسع

الأرض بعد فترة لملايين الزوَّار من دول أُخرى .

وفي كلام لنا في العام الماضي كتبت علينا مواقع وهابية أن كربلاء مدينة قديمة وصغيرة لا تتسع لنصف مليون ، فكيف تقولون : إنها اتَّسعت لعشرة ملايين إنسان ؟ ونقول : نعم ، إنَّ هذا الأمر ليس طبيعياً ، وندعوهم أن يأتوا إلى العراق ليروا صحَّة كلامنا .

هذا على مستوى التحليل ، أمَّا إذا جئنا على مستوى الروايات ماذا تقول روايات أهل البيت عليه السلام التي تُؤكِّد أيضاً أنَّ هاهنا مشهد غير طبيعي وما وراء الأرض ، إرادة الله تعالى ، وفي الحجِّ حيث نشهد مؤتمراً إسلامياً مباركاً ، نعم هو دعاء إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَاجْعَلْ أَفَعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ (إبراهيم : ٣٧) ، لكن دعاء رسول الله ﷺ لولده الحسين عليه السلام يصنع مثل هذا الأمر ، ونعتقد أيضاً في ثقافة أهل البيت أنَّ المسألة إعجازية .

أحببت أن أقرأ لكم رواية يرويها صاحب كامل الزيارات ، وهي رواية معتبرة من حيث السند يرويها القاسم بن محمد بن علي بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن جدِّه ، وكلُّهم ثقة ، عن عبد الله بن حماد ، عن إسحاق بن عمار ، يقول : قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام : جُعلت فداك يا ابن رسول الله ، كنت في الحائر الحسيني ليلة عرفة ، فرأيت نحواً من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف رجل جميلة وجوههم طيبة ريحهم شديد بياض ثيابهم يُصلُّون الليل أجمع ، ولقد كنت أريد أن آتي القبر وأقبله وأدعو بدعوات ، فما كنت أصل إليه من كثرة الخلق ، فلما طلع الفجر سجدت ، فلما رفعت رأسي لم أرَ منهم أحداً ؟

فقال لي أبو عبد الله عليه السلام : « أتدري من هؤلاء ؟ » .

فقلت : لا .

فقال عليه السلام : « أخبرني أبي ، عن أبيه ، قال : مرَّ بالحسين عليه السلام أربعة آلاف ملك ، فخرجوا إلى السماء ، فأوحى الله تعالى إليهم : يا معشر الملائكة مررتم بآبن حبيبي وصفيي محمد ، وهو

يُقْتَل وَيُضْطَهَد مَظْلُومًا ، فلم تنصروه ، فانزلوا إلى الأرض إلى قبره ، فابكوه شعناً غبراً إلى يوم القيامة » . قال إمامنا الصادق عليه السلام : « فهم عنده إلى أن تقوم الساعة » (١) .

والنساء والرجال والأطفال نراهم اليوم يتدفقون كالسيل ، والتعداد السكاني للعراق لا يسمح بهذا العدد ، والإمام الصادق عليه السلام يقول : « والله كأيّ الملائكة قد زاحموا المؤمنين على قبر الحسين عليه السلام » (٢) .

وهذا التزام طول السنة على قبر الحسين عليه السلام ، وهذا التزام لا نستطيع أن نُفسّره تفسيراً طبيعياً ، بل نُفسّره كما تُفسّره الروايات تفسيراً غيبياً بإرادة الله تبارك وتعالى .

وفي الرواية عن العقيلة زينب عليها السلام أنّها قالت للإمام السجّاد عليه السلام حينما انتقلوا من كربلاء باتجاه الكوفة وهم أسارى :

(مالي أراك تجود بنفسك يا ابن أخي ، إنّه لعهد معهود من جدّك إلى أبيك ، وإنّه سيأتي أقوام لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض ينصبون لأبيك الحسين علماً لا يُمحى أثره على مرّ الدهور وكرور الليالي والأيّام ، وليجتهدنّ أئمة الكفر وأشياء الضلالة على محو أثره فلا يزداد إلّا علواً) (٣) .

إذن نحن أمام عهد إلهي كما أنّ البيت الحرام هو عهد إلهي ، إنّ الله تعالى عهد أن يُبنى له في هذه الأرض بيتاً هو الكعبة ، وهذه إرادة إلهية وعمل الغيب وليس عمل الإنسان ، ومع الحسين عليه السلام أيضاً تدخلت يد الغيب لتصنع من الحسين عليه السلام رمزاً أبد الدهر ، ولتصنع من قضية الحسين عليه السلام قضية تُلهم الأجيال ومعاني الإباء والبطولة والمواساة والدين والصلاة والعطف والحنان ، تلك إرادة الله تبارك وتعالى ، والحمد لله الذي وفّقنا لرؤية هذه الأيّام ، والحمد لله الذي جعل العراق مباركاً بالحسين عليه السلام ، والحمد

(١) بحار الأنوار للمجلسي / ج ٩٨ .

(٢) كامل الزيارات لابن قولويه : ٢٥٩ .

(٣) مقتل الإمام الحسين عليه السلام للمقرّم .

الله الذي جعل عيوننا تقرُّ برؤية هؤلاء الزوّار من كلّ العالم وهم يأتون للحسين عليه السلام .

ولكن هناك مشاهد تشابه بين هؤلاء الزوّار وبين مشاهد كربلاء ، منها : مشهد انحناء الظهر ، وكلُّ من يصل إلى كربلاء يصل منحني الظهر ، وهذا جانب مواساة من حيث لا ندري ، وهذه إرادة الله تعالى كي نُقلّد الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء الذي كان محني الظهر ، وكلُّ الزوّار من حيث أرادوا أو لا يريدون أقواهم وأكثرهم فتوة لا يدخل كربلاء إلّا وهو منحني الظهر .

كذلك لا يوجد زائر عربي أو أعجمي لا تذرف عينه الدمع للحسين عليه السلام ، والحسين عليه السلام بكى في كربلاء ، وفي يوم عاشوراء كان وجهه عليه السلام مغبراً ، والناس يذهبون للحجّ بأفضل الملابس وأجمل الأحوال معطّرين ، لكن زوّار الحسين عليه السلام شعثٌ غبرٌ ، ذلك الوجه الذي جعل له وسادة من التراب وهو سيّد شباب أهل الجنّة وعلاه غبار ورمل كربلاء ، والآن الملايين يواسون الحسين عليه السلام أنّ مثلما وجهك مترّب يا أبا عبد الله كذلك ندخل عليك ووجوهنا مترّبة . لكن هناك شيء آخر لا أحد يستطيع أن يواسي به الحسين عليه السلام ، وهو العطش ، فالحسين يوم عاشوراء كان عطشاناً ، وعندما نذهب إلى الزيارة كلّ الماء باسم الحسين عليه السلام وهو عطشان وعريان يكسوه الصعيد ملابساً .

مصدر الطاقة :

السؤال يقول : من أين هذه الطاقات الهائلة للناس والهمّة العالية جدّاً لزيارة الإمام

الحسين عليه السلام ؟

وهذا الأمر لا يمكن أن تصنعه عوامل ماديّة ، وهي ليست حالة واحدة ولا مائة ولا ألف ولا مليون ، الإحصائيات الصحيحة هذه السنة قدّرت الزائرين بخمسة عشر مليون زائر وفدوا على مرقد الإمام الحسين عليه السلام ، وهذا الرقم يبدو غريباً وخيالياً ، لكن (وماراء كمن سمعا) ، وصحيح أنّنا استقبلنا في هذا العام أكثر من (٢٠٠ ألف) زائر أجنبي ، ولكن البقية الباقية كلّهم من العراق وهم مشاة على الأقدام .

وكنْتُ أنأَمِّل هؤلاء الزائرين وهم يمشون من أين لهم هذا الاندفاع الهائل الذي لا يعيقه ألم ، ولا تعب ، ولا حرارة شمس ، بل يتقدّمون بسرور وبهجة كأنهم ماضون إلى الجنة ؟ ذلك أنَّ هناك نظرة من العرش شملتهم جميعاً ، وهي التي أعطتهم هذه الطاقة الهائلة من الحياة والاندفاع والمشي والسرور والبهجة والعبادة والإيمان ، وعرفتهم هذه النظرة بأسمائهم وأسماء آبائهم وأُمَّهاتهم أكثر ممَّا يعرف المرء نفسه ، تقول الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام : « إِنَّ الحسین عليه السلام عند ربِّه ﷻ ينظر إلى زوّاره ، وهو أعرف بهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ودرجاتهم ومنزلتهم عند الله ﷻ من أحدكم بولده ، وإنّه ليرى من يبيّكه فيستغفر له ويسأل آباءه عليه السلام أن يستغفروا له » (١) .

ويقول عليه السلام : « لو يعلم زائري ما أعدَّ الله له لكان فرحه أكثر من جزعه ، وإن زائره ليتقلب وما عليه من ذنب » (٢) .

الشمس حينما تطلع على الإنسان والحيوان والنبات والطبيعة تُعطي الحياة ، وهذا البدن يجب أن يتعرّض إلى أشعة الشمس ليكتسب العافية والطاقة والحياة ، والشمس وهي كتلة نارية عمياء لا أكثر من ذلك ، واليوم العالم يُطبّب الناس بالأشعة السينية ، فكيف إذا تصوّرنا أنَّ هناك نظرة إشعاعية من عند العرش ، وهذه النظرة الممتدة التي لا يمكن أن تقاس مسافتها ولا نعرف معنى أشعتها وأمواجهها حينما تشملك أنت أيّها الزائر ستُعطيك زخماً تتقدّم به مئات الكيلومترات لزيارة الإمام الحسين عليه السلام .

كنت أقول وأنا أشهد هؤلاء الناس الكرام عند الله تعالى وهم يفدون لزيارة الحسين عليه السلام ، كنت أُخاطبهم وأقول : (السلام عليكم يا أشرف الشعوب ، السلام عليكم يا أفضل الشعوب ، السلام عليكم يا فخر الشعوب ، رسول الله ﷺ يفخر بكم ، والحسين عليه السلام يفخر بكم ، السلام عليكم يا من اختاركم الله فجعل الحسين عليه السلام عندكم وفي جواركم) ، ولا فخر حينما نقول : (يا أفضل الشعوب) ، ولا نريد أن

(١) كامل الزيارات : ١١٨ ؛ أمالي الشيخ الطوسي : ٣٤ .

(٢) بحار الأنوار للمجلسي / ج ٤٤ .

نتفاخر ، لكنّه فضل من الله تعالى نريد أن نشكره ، أيّ شعب عظيم صنع هذه المعجزة وهم يتحدّون كلّ العالم وكلّ الصمت العالمي وكلّ الإرهاب والأزمات والمشاكل ؟ ليقولوا : نحن مع الحسين عليه السلام ، ولا ننساه ، وهيّات منّا الذلّة .

ولا بدّ من شكر الدولة وأجهزتها والشرطة والجيش والدفاع المدني والنقل والصحة ، أمر مذهل أن تجد الصحة والشرطة حاضرة وثقوا أن نقل الناس إلى محافظاتهم لا يكتمل بشهر ، لكن خلال (٢٤ ساعة) خلت كربلاء من هؤلاء الزائرين ، والعالم غير قادر على تصوّر ذلك ، وكلمة شكر لكلّ الأجهزة ، ونحن فخورون بهم ، ومضت المسيرة الكبرى بسلام وبركات وبأرزاق ، وهنيئاً لمن شارك ، وكثيراً رأيت من يقول : أنا في بيتي غير مستعدّ لتنظيف أرضيته ، ولكن في هذه المسيرة نغسل أرجل الزوّار والمرافق الصحيّة ، فمبارك هذه الروحية الأخلاقية العظيمة والتفاني الهائل دون أن يعرف من هو الزائر ولا محافظته ، والحمد لله هذا أمان لنا ، والحسين عليه السلام هو الذي خلّصنا من الأزمات ، وبركة الحسين عليه السلام تخلّصنا وعبرنا مرحلة الشدائد .

والبحث له صلة واتّساع في بركات هذه الزيارة اقتصادياً ومعنوياً وسياسياً وتربوياً وأخلاقياً ودينيّاً ، ونحن الآن نعيش في بحبوحة البركات ، ولا كما يقول البعض : إنّ هذا تعطيل للعمل وتأخر اقتصادي وما شاكل ذلك ! بل البركات الهائلة في العراق هي من الحسين عليه السلام ، واقتصادنا بالحسين عليه السلام أفضل .

زيارة الأربعين وشبهات الوهابية

ونحن نقف في هذه الأيام في مرحلة الإعداد لزيارة الأربعين للإمام الحسين عليه السلام حيث يتهيأ شيعه أهل البيت عليه السلام في العراق لإنجاز ملحمة بطولية أخرى بعد الملحمة الجماهيرية الملائكية التي حقّقوها في محرّم الحرام ، الآن يستعدّون لإنجاز ملحمة أخرى في هذه الذكرى وفاءً لرسول الله ﷺ والإمام الحسين عليه السلام وسيُنجز

ذلك بأحسن حال ، وستشترك معهم ملائكة السماء ، كما تقول الروايات ، ومما هو ثابت أن الملائكة يزاحمون الناس في الطريق ، ورواية أخرى تقول : « إثمهم يمسخون وجوه الزوّار » .

وليعرف الملاء والعالم أننا نتعامل مع سيّد شباب أهل الجنّة ، وليس مع إنسان عادي ، مع من بكته السماوات والأرض ، ومن بكاه رسول الله ﷺ والأنبياء ﷺ . إذن من الطبيعي أن تبكيه السماوات والأرض ، ويشترك الملايين في زيارته ، ونشهد تحوّلاً عالمياً نحو الحسين عليه السلام ، والحسين عليه السلام يتحرّك في العالم .

ولكن أريد أن أقف عند مناقشة فكرية ، فهناك فكر يُكفّر مراسيم هذه الزيارة بشكل علني ، ويُقدّم طرحاً - لنقل - علمياً ، وأذكر هنا استدلالات الشيخ عبد العزيز بن باز المفتي الأسبق للمملكة العربية السعودية بزعمه استدلال على أن هذه الزيارات كلّها حرام وبدعة وفي النار ، وكلّها شرك ، ويبدأ أولاً بزيارة رسول الله ﷺ .

أدلة ابن باز على حرمة الزيارة للعتبات المقدّسة :

سأله شخص سؤالاً : هل يجوز زيارة النبي ﷺ ؟

يقول : لا يجوز ذلك .

فتصوّروا لولا أهل البيت عليه السلام وشيعة أهل البيت عليه السلام إلى أين هؤلاء كانوا يوصلون الإسلام .

فلتتأمل في كتابه (حراسة التوحيد) الذي يقول فيه : لا يجوز السفر لزيارة النبي ﷺ ، ناهيك عن زيارة الحسن والحسين عليهما السلام .

أمّا الأدلة التي يتعامل معها هؤلاء وينصبون منبراً للوعظ والإرشاد في مسجد النبي ﷺ والمسجد الحرام ، ويُحدثون الناس ويتّهمون المسلمين بالكفر والشرك وما شاكل ذلك .

وبجراً على الله تعالى يقول : لا يجوز السفر لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله مستدلاً على ذلك بثلاثة أدلة :

الدليل الأول :

ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : « لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاث : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » .

مدعي أن كل سفر عدا ذلك هو بدعة وشرك وفي النار ، لأنها من محدثات الأمور . إذن يجوز السفر لمسجد النبي صلى الله عليه وآله ، لكن لا يجوز السفر إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله .

الدليل الثاني :

قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ (الأحقاف : ١١) ، يقول : هذه الزيارات لم نألفها نحن في زمن النبي صلى الله عليه وآله ولا في زمن الخلفاء ولا الصحابة ، لم يكونوا يسافرون ويشدُّوا الرحال لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله ، ولا أي قبر آخر ، وبما أنهم أفضل الناس ، فلو كان هذا العمل صحيحاً لقاموا به بدليل قوله : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ .

إذن هذا ليس خير فهو شرٌّ ، وإذا كان شرٌّ فهو بدعة وفي النار .

الدليل الثالث :

إن هذا السفر وهذه الزيارات تُحاط بكثير من المحرمات مثل : الغلو ، واختلاط الرجال بالنساء ، واستماع الأغاني ، وبما أنها تختلط بكثير من المحرمات فإنها تكون سبباً في الحرام ، وبالتالي فهي في النار .

هذه هي أدلتهم ، وإلى الآن في كتبهم ، ليس لديهم غير هذه القضية ، فلا نرى لديهم حرباً ضد الفساد الإداري ، أو الانحراف الفكري ، أو الغزو الثقافي ، أو الاستهتار ،

أو التبرُّج ، أو الشذوذ الجنسي ، وما غزا العالم الإسلامي من أفكار منحرفة ، فلو كان كذلك لقلنا : إنَّ هؤلاء يريدون الدفاع عن الإسلام ، ولكن كتبهم ليس فيها غير قضية الزيارة والدعاء عند القبور .

جواب أدلته وشبهاته :

جواب الدليل الأول :

هذه الأدلة التي أوردها هي أدلة سقيمة علمياً ، فقول النبي ﷺ - بعد القبول بثبوته - : إنَّه لا تُشدُّ الرحال إلَّا إلى ثلاث مساجد ، فهل أن مقصوده ﷺ حرمة أي سفر آخر ؟ وإذا كان كذلك إذن لا يجوز السفر للسياحة ، ومعلوم أن المملكة العربية السعودية تُعطِّل العطلة الصيفية ومئات الآلاف منهم ينزحون للسياحة في أوروبا والعالم الإسلامي ، يسافرون للتجارة وإلى غيرها ، فيجب أن نقول على هذا السفر : إنَّه حرام ! ولكنهم يسكتون عن هذا ، بل غرضهم واضح وهو المنع عن زيارة النبي ﷺ وأولاده ﷺ ، ولا يتحدثون عن ملايين المسلمين الذين يسافرون لأغراض تجارية وسياحية وعلمية وما شاكل ، حتَّى لصلة الرحم .

والحقيقة أن هذا تحجُّر في فهم النصوص ، ورسول الله ﷺ - على تقدير أن هذه الرواية صحيحة - يريد أن يقول : إنَّ أعظم المساجد ثلاثة : مسجد النبي ، والمسجد الأقصى ، والمسجد الحرام ، أمَّا الباقي فدونها في الفضل ، ولا تستحقُّ أن يُشدَّ الرحال إليها .

فلنفترض أن هذا أقصى ما يُستفاد من الحديث ، لكن هذا التطوُّر من التحريم إلى الاتِّهام بالبدعة ثمَّ الشرك ، ولنفترض أن هناك ذنوب ، فهل كلُّ من يذنب يُتَّهم بالشرك ؟

هذا هو العقل المتحجِّر ، وتهزيم الناس من الإسلام بهذه الطريقة .

جواب الدليل الثاني :

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ ، من الغريب أن هذا النص هو للكافرين وليس للمؤمنين ، لأن الكفرة والمشركين كانوا يقولون : إن التوحيد لو كان خير ما سبقونا إليه الطبقة السفلى من الناس ، وعبد العزيز بن باز كان يستشهد بكلام أولئك الكافرين ، فهل صحيح أن كل ما لا نشهده في سيرة الصحابة هو بدعة ؟ !

مرة تقولون : غير مستحب ، ليست هناك مشكلة ، أما أن يتطور الموقف وتقول : بدعة وكل بدعة في النار ، نحن الآن نؤسس جامعات دينية ، وكذلك المملكة العربية الدينية نؤسس جامعات دينية لتخريج الفقهاء والدعاة والمرشدين .

فهل هي موجودة في زمن النبي (صلى الله عليه وآله) والخلفاء ؟ أنتم الآن تؤسسون هيئة علمية للإرشاد والإفتاء ، وهي لم يكن لها وجود في زمن النبي (صلى الله عليه وآله) ، فقد كان يجلس في المسجد ويُعطي الفتوى .

وهكذا بالتطور الإداري والسياسي والمدني قُدمت آلاف المشاريع التي لم تكن يومئذٍ - فضلاً عن القضايا التجارية والسياسية والاقتصادية - على المستوى الديني ، فلو كان هكذا يجب أن نعتبر أن معظم حركات علماء الإسلام والأمة الإسلامية هي كلها بدعة وفي النار ، من الدراسة الابتدائية إلى الجامعات إلى الوزارات إلى البعثات والإدارات والمديريات وصولاً إلى التقدم التقني والراديو والتلفزيون ، فالتقدم والتكامل البيئي ليس له علاقة ، فهل يجب أن نلبس ونأكل مثلهم بلا تغيير ؟

إن هذا تحجّر في الفهم الديني للنصوص ، والشيخ ابن باز لا ندري كيف كان يتعامل ؟ فهل كان يكتب على جلد الغزال ؟ أو يكتب بالقصب ؟ أو يستخدم هذه الأدوات الحديثة في الكتابة والاتصالات ؟ أم باقون على الطريقة السابقة ؟

وأقول : لولا ضغط السلطة لبقوا على الطريقة القديمة ويحرمون كل شيء حتى الكهرباء !

جواب الدليل الثالث :

الذي يدعي بأن هذا السفر وهذه الزيارات تُحاط بكثير من المحرمات ، مثل : الغلو ، واختلاط الرجال بالنساء ، واستماع الأغاني ، وبما أنها تُخلط بالمحرمات تكون سبباً في ارتكاب الحرام ، إذن هي في النار .

ونحن نقول : على هذا الأساس يجب أن يكون الحجُّ - أيضاً - حراماً ، وكذلك زيارة مسجد النبي ﷺ ، فهي مختلطة ، فهل كل حركة بشكل يقيني أو احتمالي تكون مخلوطة بحرام ؟

مثلاً القرآن يقول : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ (التوبة : ١٠٢) ، ولكن هذا لا يُجرِّم العمل الصالح ، فيبقى العمل الصالح صالحاً .

أمّا قطع الناس عن الأعمال الصالحة بهذه الحجة ، ويكون كل عمل تجاري أو دراسي - أيضاً - مخلوطاً بالحرام ، فهل يقول الإسلام : إنَّ العمل والتجارة - أيضاً - حرام ؟

فإذا كان البيع قليل من الحرام ، فلا يحرم جميع التجارة والأموال والعمل والكسب ، وقس على هذا !

معلوم أن لدينا ثقافتين : ثقافة قطع الصلة بالتاريخ ، وثقافة تأكيد الصلة بالتاريخ ، وثقافتنا وثقافة كل المسلمين باستثناء الوهابية ، هي التواصل مع التاريخ .

أمّا ثقافة الوهابية فهي قطع الصلة بالتاريخ ، فلا زيارات ولا ذكريات ، ولا ذكرى ميلاد رسول الله ﷺ ، ولا مبعث النبي ﷺ ، وهذا كله شرك وفي النار ، هذا منهجهم ، وهذا مقصودهم .

ونحن نعتقد أن الأمة التي لا تاريخ لها ، لا حاضر ولا مستقبل لها ، ومنهج القرآن الكريم والإسلام وأهل البيت ﷺ منهجه لنا أن نبقي على ارتباطنا بالتاريخ ، فنحن أمة ليست مقطوعة من التاريخ ، قال تعالى : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ هَذَا مِنْ قِبَلِكُمْ أَنْ تَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُلْ لَا تَعْلَمُ أَسْمَاءُ بَنَاتٍ لَكُمْ وَلَكُمْ أَنْبِيَاءُ كَمَا أَنْبَأْنَا نُوْحًا وَآلِهَ الْأَوَّلِينَ ﴾

قَبْلُ ﴿ (الحج : ٧٨) ، هذا يعني أَنَّ لديكم تاريخ فارتبطوا به ، وَأَنَّ أُمَّةً بدون تاريخ تُسْتَرْقُ وتُصَادَر ، وهؤلاء يريدون أُمَّةً قابلة للرقِّ والمصادرة ، وأهل البيت عليه السلام يريدون منَّا أن نرتبط بالتاريخ ، وارتباطنا بالإمام الحسين عليه السلام ليس ارتباطاً بتاريخ مضى ، بل هو ارتباط بقيَمٍ مستمرة على طول تاريخ البشرية ، وهذا يعني ارتباطنا بالحسين عليه السلام ورسول الله ﷺ .

من هنا يأتي التأكيد مرّة بعد أخرى على أهميّة هذه الزيارات ، وتشاهدون أَنَّ لدينا ثقافة خاصّة لهذه الزيارات ، والإسلام هو الذي رَسَخَهَا بنا وعند الشيعة هي الأقوى ، وعند الإخوة السُنَّة موجودة - أيضاً - ثقافة التواصل مع الأئمّة وأولاد الأئمّة ، ومع الصالحين ، وأئمّة الهدى ، فهي ثقافة موجودة ، وليست بدعة وشرك ، بل ارتباط بالتاريخ ، ولهذا من أراد أن يصفاحه مائة وأربع وعشرون ألف نبيّ فليزر الحسين عليه السلام .



الفصل الرابع

ثورة الإمام الحسين عليه السلام

١. قضية الحسين عليه السلام والحب الإلهي
٢. رسائل الإمام الحسين عليه السلام
٣. استخدام العقل والعاطفة
٤. الحسين عليه السلام مصباح الهدى
٥. الحسين عليه السلام سفينة النجاة
٦. المشاهد الإعجازية
٧. أهداف الثورة الحسينية
٨. الظاهرة الكونية
٩. الملائكة الحسينيون
١٠. الحرية في المفهوم الحسيني
١١. نماذج من الحنان الحسيني
١٢. القضية الحسينية بين المشيئة الإلهية والإرادة البشرية
١٣. التحول في بلاد الشام
١٤. عودة الإمام السجاد عليه السلام



قضية الحسين عليه السلام والحب الإلهي

في ذكرى محرم الحرام وطف كربلاء وفي سياق الحب لله تبارك وتعالى في الرواية التي يرويها جابر بن عبد الله الأنصاري يقول^(١) :

بينما رسول الله ﷺ يوماً في مسجد النبي وقد ذكر بعض أصحابه الجنة ، فقال ﷺ : « يا أبا دجانة ، أما علمت أن من أحبنا وابتلي بمحبتنا أسكنه الله تعالى معنا ؟ » ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴾ (القمر : ٥٤ و ٥٥) .

رسول الله ﷺ هنا يجعل المقياس هو الولاء ، « من أحبنا وابتلي بمحبتنا » امتحن وأصر على هذه المحبة الحقيقية التي تغمر القلب ، حينئذ كان معنا في الجنة « أسكنه الله معنا » ، إذن المقياس « أحبنا وابتلي بمحبتنا » .

وهذا الأمر هو الذي نطلق منه للحديث عن الإمام الحسين عليه السلام وقضيته ونحن نعيش أجواء محرم الحرام ، فقضية الحسين عليه السلام هي في صميم السياقات الدينية ، حينما يتحدث أهل البيت عليهم السلام عن الحسين وتعظيم شعائر الحسين وحبّه عليه السلام و « من أنشد فينا بيتاً من الشعر كان معنا في الجنة » ، ودمعة العين في الحسين عليه السلام ! إنما هي في صميم

(١) الدر المنثور لجلال الدين السيوطي .

السياقات الدينية ، الولاء والحبُّ لله أم للشيطان ؟ للجنة أم للنار ؟ للخير أم للشر ؟ وهذا هو الحسين عليه السلام في تشخيص القلب مع من ؟

لماذا يخافون الحسين عليه السلام ؟

هذه هي القضية الحسينية ، ورسالة الإمام الحسين عليه السلام في عاشوراء كانت تحمل كامن الرفض للباطل والظلم والجباة والدناءة والخسة والأنانية ، وكامن الرفض لكل مصدر الشرِّ وقيم الشرِّ ، وأنَّ كلَّ جباة العالم حين يقفون ضدَّ الحسين عليه السلام فهم يشعرون أنَّ في داخلهم قطيعة وبغض بينهم وبين الحسين عليه السلام لا إرادي ، ويشعرون برعب وخوف من ذكر الحسين عليه السلام ومأتم بكاء عليه ومن زوّار يذهبون مشياً لزيارته وهم لا يحملون معهم سيفاً ولا سلاحاً ، لكن الظالمين على طول التاريخ يشعرون بالرعب من هذا المشهد البسيط ، من مأتم ولو بالخفاء يندب الحسين عليه السلام ويبيكه ، وأجهزة الظلم وأبواقه وإعلامه يخاف من ذاك المأتم ، وهو في ظلمة الليل وهدر الدموع لا أكثر ، لماذا هذا الخوف ؟

هنا في قضية الحسين عليه السلام كامن العداء مع الظلم والباطل والأنانيات والحقْد والعدوان ، فلا نستغرب إذا وجدنا باستمرار العدوان على الحسين عليه السلام والقضية الحسينية مع أنَّ القضية الحسينية لا تمسُّ أحداً ولا تطعن بأحد ، وإنَّما أناس يذرفون الدموع ويلطمون على صدورهم لم يؤذوا أحداً ، فلماذا العالم يحاول بمختلف الأشكال إماتة هذا الذكر وهذا الحنين والأنين طوال السنين وفي كلِّ العالم ؟

الحسين عليه السلام يُمثّل وهج نور الخير في قلوب الناس ، فإذا كان ذكر الحسين عليه السلام في قلوبهم إذن الخير والصلاح والتقوى موجود فيها ، وإذا مات هذا الوهج مات الخير والصلاح وليس إلّا ظلمات جهنّم ، وهذا ما يريد الظالمون .

الشوق إلى الجنة :

قضية الشوق إلى الجنة هي من إحدى رموز ملحمة كربلاء وبواطن وكوامن كربلاء .

الإمام علي عليه السلام حينما يتحدث عن أصحاب الحسين عليه السلام قبل واقعة كربلاء يقول : « مصارع عُشّاق لم يسبقهم أحد ولم يلحق بهم أحد »^(١) ، هذا هو كامن العشق العظيم الذي صهر قلوب أهل بيت وأصحاب الحسين عليه السلام ، وهنا نجد الشيء العجيب أن الإمام علياً عليه السلام يقول : « مصارع عُشّاق لم يسبقهم أحد » على طول التاريخ وخط الأنبياء لم يلحق بهم أحد وبمستوى عشقهم الذي وصلوه « ولم يلحق بهم أحد » على طول التاريخ الآتي . إذن إلى أي مستوى وصل إليه أصحاب الإمام الحسين عليه السلام في درجة العشق ؟ وما الذي حدث في كربلاء ؟

ثقوا أيها السادة أن كلّ ما نتحدث به هو رسم باهت لا يستطيع أن يُعطي إلا الإشارة البسيطة عن ما جرى في كربلاء ، ولا نستطيع أن نكشف مكنون كربلاء ، ما الذي حدث عند الحرّ وحبّيب وزهير بحيث صاروا فوق كلّ العاشقين في العالم ؟ فكثير من الشهداء تركوا النساء والأولاد والدنيا ، والموت عطشاً أيضاً الشهداء يموتون عطشاً ، لكن هنا شيء آخر حدث عند شهداء كربلاء « مصارع عُشّاق » ، أي قَمّة العشق والالتحام بالله بحيث لم يبق شيء من الأنانية ، ليس إلا الله والجَنّة والحسين والآخرة ، كلّ الأنانيات ذابت وانصهرت في الله تبارك وتعالى ، ولهذا الإمام الحسين عليه السلام وصفهم حينما قال : « إنّي لا أعلم أصحاباً أولى ولا خير من أصحابي » ، الحسين عليه السلام هنا لا يريد أن يبالغ أو يتحدث حديث أدبي ، ولا يريد أن يشحذ الهمم ، بل يتحدث عن شيء آخر من عالم الأسرار المكنونة .

الحُبُّ عند أصحاب الإمام الحسين عليه السلام :

نقف لدقائق مع موضوع العشق للجنة عند أصحاب الإمام الحسين عليه السلام الذي يجدوا مسارهم .

يقول له أحدهم : سيّدي ألا نذهب إلى الآخرة ؟

الإمام الحسين عليه السلام خطبهم بعد الصلاة وقال : « يا كرام هذه الجنة قد فُتِحَتْ أبوابها ،

(١) بحار الأنوار ٤١ : ٢٩٥ / حديث ١٨ ، نقلاً عن الخرائج والجرائح (مخطوط) .

وأينعت ثمارها ، واتّصلت أنهارها ، وهذا رسول الله والشهداء يستبشرون بقدمكم ، هبطوا من عالم السماء إلى أرض كربلاء ، فحاموا عن دين الله وحرّم رسول الله .

فقالوا أجمعهم : كلنا لك الفداء وأرواحنا لك وقاء يا أبا عبد الله ، والله لا يصيبك سوء من هؤلاء القوم وفينا عرق ينبض .

ويقول برير الذي عمره (٩٠ عاماً) : (ما هي إلا ساعة حتّى يميل علينا هؤلاء بسيوفهم فنعانق الحور العين) .

لاحظوا العشق للجنّة ، فلا تجد أحداً يُفكّر بأهل ، وماذا سيكون ، ودار ومزرعة وعنوان وشأن دنيوي أبداً ، فكل واحد من هؤلاء شيخ من شيوخ قومه له ارتباطات واعتبارات وشؤون اجتماعية وأُسرة وعشيرة وأولاد لكن قطعوا هذا الخيط .

سعيد الخنفي عندما وقف لحماية الإمام الحسين عليه السلام وهو يُصلي ويدفع عنه الحجارة والسهام إلى أن أثخن بالجراح وسقط فقال للحسين عليه السلام : أوفيت يا ابن رسول الله ؟ فقال له الحسين عليه السلام : « نعم أنت أمامي في الجنّة » .

وذاك العبد الأسود الذي يستأذن من الحسين عليه السلام يقول له : « يا ابن رسول الله ، إنّ لوني لأسود ، وإنّ رجحي لتتن ، وإنّ حسبي للثيم ، عسى أن أقتل بين يديك فيشرف حسبي ويطيب رجحي » ، فلمّا سقط هذا الغلام الأسود صريعاً في المعركة كان لا يمرّ به أحد إلا ويشمّ منه رائحة أذكى من المسك .

أقبل إليه الحسين عليه السلام ، لماذا كان يأتي الحسين عليه السلام للصرعى ؟ أيّ وفاء وحنان يأتي إلى من يُقتل يُقبّله ويجلس عنده ويمسح على وجهه ، ذاك الغلام الأسود جلس الحسين عليه السلام عنده وقلب الحسين يغلي لهباً ، ووضع خدّه على خدّه ، والغلام يقول : مَنْ مثلي وابن رسول الله واضع خدّه على خدّي ؟

قال رسول الله ﷺ : « اعلّموا أنّه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنّة فلا تبيعوها إلا بها » ^(١) .

أيُّها المؤمنون والمؤمنات كونوا من طَلَّابِ الْجَنَّةِ وعُشَّاقِهَا ، وأنتم أيُّها السياسيون والعاملون لتكن الْجَنَّةُ والآخرة هدفكم ، فالدنيا منتهية فاقصدوا الآخرة ، ونعوذ بالله من النار ، اللَّهُمَّ اجعلنا من أخلص طائعيك ، وأعبد عابديك ، واجعل الْجَنَّةَ هواناً وحبناً وشوقنا ، واحشرنا مع الحسين عليه السلام ، واملأ الأرض بنوره ، وانصرنا على القوم الظالمين .

رسائل الإمام الحسين عليه السلام

وأودُّ الإشارة إلى أن هناك رسائل من الماضي إلى المستقبل ، ونحن إسلامياً نعتقد بالاتصال والاعتبار بالماضي ، فالماضي حاضر في المستقبل ، وهذا الأمر دعائي لاستذكار رسالتين للإمام الحسين عليه السلام من الماضي إلى الحاضر والمستقبل على مدى آلاف السنين ، فعام (٦١ هـ) بعث رسائل من ذلك الماضي إلى حاضرننا ومستقبلنا :

الرسالة الأولى :

حينما نزل أرض نينوى ، وكانت تُسمَّى الغاضريات ، وهي مجموعة قرى بسيطة اشتراها الإمام الحسين عليه السلام اشتراها منهم بـ (٩٠,٠٠٠ درهم) ، بمساحة أربعة أميال في أربعة أميال ، ثم وهبها لهم على أن يدلُّوا زائرهم على قبره ويُضيِّفونه ثلاثة أيام على مدى الدهر ، فالحسين عليه السلام يعلم بأنَّه سيأتيه زوَّار ، وكرلاء ستكون مهوى لأفئدة شيعته ، بهذه الرسالة يخاطب الحسين عليه السلام الحاضر والمستقبل .

الرسالة الثانية :

حينما خرَّ صريعاً على الأرض يوم عاشوراء ، وأصبح البدن على نفس التراب وحزُّ ورأسه ، الرواية التاريخية تقول : حينما ألقت سكينه بنفسها على جسد الحسين عليه السلام سمعته يقول :

شيعتي مهما شربتم عذب ماء فاذكروني أو سمعتم بقتيل أو شهيد فاندبوني
فأنا السبط الذي من غير جرم قتلوني وبجرد الخيل بعد القتل عمداً سحقوني
ليتكم يا شيعتي في يوم عاشورا تروني كيف استسقي لطفلي فأبوا أن يرحموني^(١)

استخدام العقل والعاطفة

نحن على اعتبار شهر محرم الحرام حيث ذكرى شهادة الإمام الحسين عليه السلام ، ولا بد أن أقف دقائق هنا تحت عنوان : (التمازج بين العقل والعاطفة في القضية الحسينية) ، وهذا موضوع قديم ومعاصر وسوف أتناوله بخطوط عريضة دون عمقه الفلسفي .

وحاصل الرؤية أن الإسلام والأديان تهتم بهذا التمازج والتوازن والتعادل بين العقل والعاطفة ، فهناك خطاب للعقل ، وهناك خطاب للعاطفة ، هناك تعليم للعقل وهناك تزكية للنفس كما في قوله تعالى : ﴿ وَزَكَّيْهِمْ وَيَعْلَمُ لَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (الجمعة : ٢) .

هذا هو القرآن مرةً يخاطب العقل فيقول : ﴿ فَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (محمد : ١٩) ، ومرةً يخاطب النفس والذات فيقول : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران : ٣١) ، ويقول : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ (الشورى : ٢٣) ، فهنا حديث عن حُبٍّ ومودةً ، وهي قضية عاطفية نفسية .

هذا خطاب للنفس وتزكية للنفس ، وهذه ليست قضية علمية فقط ، بل عملية نفسية ، لاحظوا الصلاة ولاحظوا الحج ، فهو ليس قضية علمية ، فأنت في الحج والصلاة ليس تقرأ فقط ، بل لديك عاطفة تُركّيها وتُنمّيها ، ففي الحج هناك الطواف والسعي ورمي الجمرات ، وفي الصلاة هناك القيام والركوع والسجود ، فعندما تقول : (بحول الله وقوته أقوم وأقعد) ، و ﴿ يَاكَ تَبَدُّوْا يَاكَ نَسْتَعِيْثُ ﴾ (الفاتحة : ٥) ، هذه تربية للنفس وحديث مع العاطفة وليس فقط مع العقل ، وهذا هو الإسلام بخطوطه العريضة : عقل وعاطفة .

(١) مقتل الإمام الحسين عليه السلام للمقرم .

التوازن بين العقل والعاطفة :

نأتي للقضية الحسينية نجد التوازن والتمازج بين العقل والعاطفة ، مخاطبة العقل حينما نقرأ الحديث الشريف : « الحسين هو سيد شباب الجنة »^(١) ، ومكتوب على ساق العرش : « الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة »^(٢) ، والعرش بمعنى الكون كله ، أو بمعنى القدرة النافذة في هذا الكون .

فالقرآن الكريم يقول : ﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (الأعراف : ٥٤) ، ويقول أيضاً : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه : ٥) ، معناه : استوى على الوجود ، أو استوى على القدرة النافذة في هذا الوجود ، أي معنى كان من المعاني فهو مكتوب على ساق العرش مبثوث في كل هذا الوجود ومبثوث في كل هذا الكون ، الحسين هذا النور الإلهي ، والحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة .

مع ذلك الحديث لحد الآن هو حديث مع العقل وحديث العلم ، لكن القضية ليست فقط عقل ، أين العاطفة ؟

هنا يأتي حديث : « من أنشد فينا بيتاً من الشعر وجبت له الجنة »^(٣) ، وحديث : « من بكى أو أبكى وجبت له الجنة »^(٤) ، فهنا يأتي دور بناء العاطفة حيث إن الحديث يقول : « كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاثة أعين : عين فاضت من خشية الله ، عين سهرت في سبيل

(١) رواه الترمذي والحاكم والطبراني وأحمد وغيرهم عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » .

(٢) مدينة المعاجز للبحراني ٢ : ٣٢٧ / ح ١١٦ ، ورد فيه : قال النبي ﷺ : « والذي بعثني بالحق نبياً ، إن الحسين بن علي في السماوات أعظم مما هو في الأرض ، واسمه مكتوب عن يمين العرش : إن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة » .

(٣) وسائل الشيعة ١٠ : ٤٦٧ ؛ بحار الأنوار ٧٦ : ٢٩١ ، عن الإمام الصادق عليه السلام قوله : « من قال فينا بيت شعر بنى الله له بيتاً في الجنة » .

(٤) رجال الشيخ الطوسي : ٢٨٩ ، عن الإمام الصادق عليه السلام قوله : « ما من أحد قال في الحسين شعراً فبكى وأبكى به إلا أوجب الله له الجنة وغفر له » .

الله ، عين غضبت عن محارم الله»^(١) .

هذا دور البكاء ودور الدمعة التي تطفأ غضب الرب ، فالدمعة ليست قضية علمية فقط وإلا فالشيطان لديه علم أنه لا إله إلا الله ، والشيطان يعلم بذلك ، ولكنه لم يربّي الذات ، بل بقي علمه علماً مجرداً .

وهنا يأتي دور من بكى وأبكى ، وهنا يأتي دور القضية الحسينية التي تكفلت ببناء هذا الجانب العظيم في الإنسان جناح العقل وجناح العاطفة ، يمكن أن نقول : إن الأئمة عليهم السلام تكفلوا ببناء الجناح الأول وهو العقل ، والإمام الحسين عليه السلام تكفل ببناء الجناح الثاني وهو العاطفة والنفس الإنسانية ، وسوف نرى كيف أن الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء استخدم العقل واستخدم العاطفة معاً .

الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء كان يخاطب العقول بقوله : « بم تستحلون دمي ، بقتيل قتلته ، بدم سفكته ؟ »^(٢) ، وقوله : « ألم تكتبوا إلي أن قد أينعت الثمار ، واخضرّ الجناح ؟ »^(٣) .

الإمام الحسين عليه السلام هنا أراد مخاطبة العقول ، وهذه قضية علمية ، فالنفس الإنسانية هي مجموعة نظريات علمية عقلية كان يخاطبها الحسين عليه السلام ، ولكن هذا غير كاف ، لأن الإنسان هو العاطفة كما هو العقل ، وهذا ما نلمسه في قضية الحسين عليه السلام في كل لحظة من لحظات كربلاء ، ونرى كيف كان الإمام الحسين عليه السلام يوجه الخطاب مرة للعقل ومرة للعاطفة .

ففي قوله عليه السلام : « أفتشكون أنني ابن بنت نبيكم ؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم ، أنا ابن بنت نبيكم خاصة » ، وهذه إثارة للنفس الإنسانية غير القضية العلمية ، وهذه ليست قضية عقلية ، بل هي قضية إثارة الوجدان .

(١) سنن الدارمي/ كتاب الجهاد/ الحديث ٢٢٩٣ .

(٢) مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم .

(٣) المصدر السابق .

الإمام الحسين عليه السلام حينما يركب ويتقدّم وينشر المصحف الشريف على رأسه ويتعمّم بعمامة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فهذه إثارة للوجدان ، وهنا يريد أن يُحرّك الضمير الإنساني ، وهذه القضايا ليست قضايا علمية عقلية ، بل لإثارة البُعد الإنساني والعاطفي حتّى نصل إلى حركة الإمام الحسين عليه السلام في البُعد الإنساني العاطفي في قضية الطفل الرضيع ، حيث يصف الشاعر هذا المشهد الإنساني العاطفي بقوله :

لم أنسه إذ قام فيهم خاطبا فإذا هم لا يملكون خطابا
يدعو ألسْتُ أنا ابن بنت نبيكم وملاذكم إن صرف دهر نابا
فغدوا حيارى لا يرون لوعظه إلّا الأسنة والسهام جوابا^(١)

قصة الطفل الرضيع :

المؤرّخون يقولون : إنّه لمّا لم يبقَ مع الحسين عليه السلام أحد عاد إلى الخيام فدعا بابنه عبد الله الرضيع ، وهناك روايتان في هذا الموقف ذكرها المؤرّخون ، الرواية الأولى تقول : إنّ الإمام الحسين عليه السلام لمّا أوتي بالطفل الرضيع لم يجلس داخل الخيمة ، بل جلس بباب الخيمة ووضع في حجره والأعداء والرماة يرونه ، وقال لهم : « أيّ ذنب لهذا الصغير ؟ » ، فالقضية إذن إثارة وجدان وعاطفة . الإمام الحسين عليه السلام أراد أن يُحرّك هنا الضمير الإنساني إذا كان هناك ثمة بقيّة ضمير إنساني حيث أصبح على عقولهم غشاوة ، وأراد أن يقيم الحجّة عليهم .

والرواية الثانية تقول : إنّ الإمام الحسين عليه السلام جاء بالطفل الرضيع إلى القوم وهو يقول لهم : « إن كان ذنب للكبار فما ذنب الصغار ؟ » ، يقول حرملة بن كاهل الأسدي : سددتُ السهم في كبد القوس ، وصرت أنتظر أين أرميه ، فبينما أنا كذلك إذ لاحت منّي التفاتة إلى رقبة الطفل ، وهي تلمع على عضد أبيه الحسين كأنّها إبريق فضّة ، فعندها

(١) شاعر هذه القصيدة هو السيّد رضا الهندي عالم قدير ومؤرّخ جليل وبخّانة شهر ، ويمتلك شاعرية مرهفة ، وقد كتب الكثير من القصائد الحسينية ، فكانت جلّها قد حُفّظت في صدور خطباء المنبر الحسيني لما فيها من الرقة والعذوبة والحزن الذي يجليها من أولّها إلى آخرها . (المحقّق) .

رمىته بالسهم ، فلما وصل إليه السهم ذبحه من الوريد إلى الوريد ، وكان الرضيع مغمى عليه من شدة الظمأ ، فلما أحسَّ بحرارة السهم رفع يديه من تحت قمطه واعتنق أباه الحسين ، وصار يرفرف بين يديه كالطير المذبوح .

وعندئذٍ وضع الحسين عليه السلام يده تحت نحر الرضيع حتى امتلأت دماً ، ورمى بها نحو السماء قائلاً : « اللَّهُمَّ لَا يَكُنْ عَلَيْكَ أَهْوَنُ مِنْ فَصِيلِ نَاقَةٍ صَالِحٍ »^(١) .

والمشهد المفجع لم يتكامل بعد ، فنزل الإمام الحسين عليه السلام من على ظهر جواده ، وفي رواية أخرى كان راجلاً ، فحفر بجفن سيفه ودفنه والقوم يرون هذا المشهد المؤلم . هذا الخطاب من الإمام الحسين عليه السلام هو تمازج العقل والعاطفة في القضية الحسينية ، وهذا هو سرُّ بقاء التشيع وسرُّ بقاء الإسلام ، هذا التمازج والتعادل بين العقل والعاطفة ، وهذا هو سرُّ من بكى أو أبكى وجبت له الجنة .

إنَّ الإسلام لا يتشيد بالعقل وحده دون العاطفة ، والشعوب والبشر لا يتحرَّكون بالعقول وحدها بدون عاطفة ، هذا هو دور الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة .

الحسين عليه السلام مصباح الهدى

ونحن نقف على أبواب محرم الحرام ، أحببت بهذا الصدد أن أقرأ لكم رواية تقول : « مكتوب على ساق العرش : الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة »^(٢) ، وفكرت أن أقف للتأمل ، وفي دراسة علمية مع هذا النص ، هذه الرواية ذات مصادر سنية ، وهي كالتالي :

عن محمد بن علي الكوفي ، عن علي بن عاصم ، عن محمد بن علي الجواد عليه السلام ، عن علي بن موسى الرضا عليه السلام ، عن أبيه موسى بن جعفر عليه السلام ، عن أبيه جعفر

(١) مقتل الإمام الحسين عليه السلام للمقرم .

(٢) مدينة المعاجز للسيد هاشم البحراني ٤ : ٥١ .

بن محمد عليه السلام ، عن أبيه محمد بن علي الباقر عليه السلام ، عن أبيه علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام ، عن أبيه الحسين عليه السلام ، قال : « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : مرحباً بك يا زين السماوات والأرض ، وكان عنده أبي بن كعب وهو من الصحابة . فقال : وهل غيرك يا أبا القاسم زين السماوات والأرض . فقال عليه السلام لأبي : والذي بعثني بالحق نبياً إنَّ الحسين بن علي في السماوات أعظم منه في الأرض ، وقد كتب الله في يمين العرش : إنَّ الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة »^(١) .

وهذه الرواية بهذا السند الرائع وفي كتبنا أيضاً يروها الشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا ومصادر أخرى .

فكرة الحسين عليه السلام والعرش ، هناك رواية تقول : « مكتوب على يمين العرش » ، ورواية أخرى - من أسانيدنا - تقول : « إنَّ الحسين على يمين العرش ينظر إلى زواره ويستغفر لهم ويسأل رسول الله أن يستغفر لهم » ، ورواية أخرى تقول : « إنَّ زوار الحسين على يمين العرش يوم القيامة تُرسل لهم زوجاتهم من الخور العين أنا قد اشتقنا إليكم ، فيقولون : إنَّ لنا بالحسين عليه السلام شغلٌ عنكم » .

رواية أخرى وهي رواية صحيحة السند واردة عن الإمام الرضا عليه السلام في زيارة الحسين عليه السلام في النصف من رجب والنصف من شعبان يقول : « أشهد لقد اقشعرتْ لدمائكم أظلة العرش مع أظلة الخلائق » .

ما هي علاقة الحسين عليه السلام بالعرش ؟

القرآن الكريم يتحدث عن العرش : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه : ٥) ، ﴿ وَيَجْلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴾ (الحاقة : ١٧) ، وأكثر من موقف وفرضية وتفسير للعرش .

هناك قول يقول : هي من التشابهات لا علم لنا بها نردُّ علمها إلى أهلها .

(١) بحار الأنوار ٣٦ : ٢٠٤ / باب ٤٠ / ح ٨ .

وتفسير آخر هو تفسير الماديين المجسمين يقول : هو كرسي له قوائم يجلس عليه الله تعالى ، وهو تفسير مرفوض ، والموقف الأول أيضاً مرفوض .

وتفسير آخر هو عبارة عن الفلك والإطار المحيط بالكون ، وهو تفسير مادي مرفوض أيضاً .

وهناك تفسير يقول : إنه كناية عن السلطة كما أن الله تعالى يقول : ﴿ اَللّٰهُ فَوْقَ اَيْدِيْهِمْ ﴾ (الفتح : ١٠) ، بمعنى أن قدرة الله فوق قدرتهم ، أي حمل العرش على معنى مجازي ، وهو مرفوض أيضاً .

ويقول العلامة الطباطبائي في تفسيرها وهو الموقف الذي نختاره ونتبناه نحن وفقاً للآيات القرآنية المتعددة ، نفهم بأن العرش عبارة عن حقيقة وجودية لا نعلم تفاصيلها ، لكن هذه الحقيقة كانت قبل خلق السماوات والأرض التي يقول فيها القرآن : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ (هود : ٧) .

وتبقى هذه الحقيقة الوجودية بعد السماوات والأرض ، ويبقى الملائكة حافين حول العرش ، فالعرش حقيقة وجودية عظيمة جداً ولا نعرف تفاصيلها ، لكن نفهم من خلال الآيات والروايات أن العرش عبارة عن مقام القدرة ومقام التدبير لله تعالى ، فكل تدبير في الوجود نازل من العرش ، وكل تدبير في الوجود هو معلوم من الله تعالى ومسطور في العرش .

حينئذ يأتي الحديث الشريف يقول في ذاك المقام مقام العلم الإلهي الذي لا يزول ولا ينتهي والذي كان قبل السماوات وهو بعد السماوات ، في ذلك المقام مكتوب : « الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة »^(١) .

وهذا الحديث ذو دلالة عظيمة ، فالحسين عليه السلام مصباح يجب أن نستنير به ونضعه أمامنا ، وهذا المصباح إذا كان مصباحاً إلهياً ومن نور الله إذن هو لا ينطفي لأن الله تعالى

يقول: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢) .
إذن هذا النور هو نور حق أيضاً ، ودلالة على الحق ، وعلى هذا الأساس فإنّ التمسك بالحسين عليه السلام والمشى خلف مصباح الحسين عليه السلام هو طريق حق وهدى ، وطريق صلاح ، وهذا النور لا ينطفي أبداً .

سألني سائل قبل أيام أنّه نحن ماذا نصنع وهناك هجوم الفضائيات علينا ودخول الفساد إلى مجتمعنا ؟

أجبت: عندنا الحسين عليه السلام ، والأمة التي تمتلك حسينا لا يُخاف عليها ، وتأملوا جيداً في كلّ تلك الحملات المضادة لم تستطع أن تقتلع جذر الدين من هذا الشعب ، نظام صدام وقبله الملكية وقبلهم العثمانيون والعباسيون والأمويون ماذا فعلوا ؟ الأمة التي تمتلك حسينا أمة لا تضل ولا يُخاف عليها .

نور الحسين عليه السلام في عاشوراء :

نأتي إلى هذا المصباح كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو بمعنى الضياء والنور ، نجد هذه الفكرة في ملحمة عاشوراء تسطع هنا وهناك بحيث أنّ المتأمل والباحث يجد شيئاً غريباً ، وهو أنّ الحسين عليه السلام وهو يشخب دماً وفيه على الأقل (٩٠٠) جراحة ونزفاً ، ولا يقوى على القيام ، وهو على الأرض صريع ، يقول قاتل الحسين : (والله لقد شغلني النظر إلى وجهه عن الفكرة في قتله) .

ثمّ نتقل إلى قصر يزيد بن معاوية ورأس الحسين في طشت بينما يقول يزيد بيتاً في الحسين عليه السلام هو :

يا حبذا بردك في اليدين ولونك الأحمر في الخدين

٢٤٧

رغم أنّ رأس الحسين عليه السلام مقطوع مشى مسافة (٢٠) يوماً إلى أن وصلوا إلى دمشق الشام ، والحسين عليه السلام قد فقد كلّ دمه في يوم عاشوراء وليس فيه شيء من الدم ، ومع ذلك فإنّ عدوّ الحسين يضرب وجهه ويقول : (يا حبذا . . .) ، من أين هذا النور

في وجه الحسين عليه السلام ؟

هناك في يوم عاشوراء ثلاث قضايا :

الأولى : الإمام الحسين عليه السلام في الساعة التي أصابه فيها الحجر في جبينه ونزف الدم على وجهه ، ملأ كفه من الدم ورماه نحو السماء .

الثانية : حينما ضُربَ بسهم في صدره ونزف منه الدم وضع الإمام الحسين عليه السلام كفه وأخذ الدم يمسح به وجهه وشيئته وهو يقول : « هكذا ألقى ربي » .

لكن هناك نور آخر هو غير لون الدم الأحمر ، نور سماوي إلهي في وجه الحسين عليه السلام ، لأن الإمام الحسين عليه السلام في العرش هو مصباح الهدى .

الثالثة : وهناك مشهد ثالث ، هو مشهد هذا الرأس النوراني ، يالتعس هذه الأمة التي قطعت هذا الرأس بدل أن تجعله مصباحاً تستنير به ، قطعوه ووضعوه على رأس رمح يُسار به في الطريق إلى الشام .

هناك أبيات منسوبة إلى زينب عليها السلام :

يا هلالاً لما استتمَّ كمالاً غاله كسفه فأبدى غروباً
ما توهمت يا شقيق فؤادي كان هذا مقدراً مكتوباً

الحسين عليه السلام سفينة النجاة

نحن في العشرة الأولى من محرّم الحرام ، ونحدث اليوم عن المقطع الثاني من الحديث الذي سنده ورواته من أبناء العامة رغم أن راويه هو الشيخ الصدوق في (عيون أخبار الرضا) عن الإمام الرضا عليه السلام ، لكن هذا الحديث سنده حينما يصل إلى رسول الله ﷺ من رجال أبناء العامة ، يقول المقطع الثاني : « الحسين سفينة النجاة » ، هذا الموضوع يُذكرنا بحديث رسول الله ﷺ المتواتر ، والذي يتفق عليه رواة الشيعة بحيث يرويه الحاكم في المستدرک ، وابن حجر في الصواعق المحرقة ، وهي من المصادر المعتمدة

والكتب الحديثية لأهل السنة وعشرات المصادر الأخرى لدى الشيعة والسنة .

قال عليه السلام: « مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق »^(١) ، ويُسمى هذا الحديث بحديث السفينة ، وهو حديث مجمع على صحته ، وهو أن أهل البيت هم سُفن النجاة ودلالات الحديث لا تحتاج إلى تعليق !

فالذي يريد النجاة يسمع كلام أهل البيت عليه السلام ويأخذ الفقه منهم ، ومن تركهم وركب سُفناً أخرى وأخذ من فلان وفلان إذن هذا بوضوح لم يركب هذه السفينة .

هذا الأمر إذن يُذكرنا بالقرآن الكريم حينما يتحدث عن سفينة نوح : ﴿ وَأَصْبَحَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (هود : ٣٧) ، الفلك يعني السفينة ، ونوح عليه السلام بأمر الله تبارك وتعالى وبإذن منه في إنهاء جيل بشري كامل وبداية جيل جديد ، لأن نوح عليه السلام وصل إلى حد اليأس من ذلك الجيل ، فدعا عليهم : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (نوح : ٢٦) ، فصدر الإذن من الله تبارك وتعالى بأن يكون طوفاناً وينتهي ذلك الجيل البشري ، فأمر نوح عليه السلام بأن يصنع الفلك : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (هود : ٤٠) ، فلما ركبوا في السفينة هطلت السماء ماءً ، وفاضت الأرض ، فالتحمت الأرض بالسماء ، ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَكَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ (هود : ٤٢ و ٤٣) ، وسفينة نوح عليه السلام هي سفينة نجاة ، فكل من ركبها نجا وكل من تركها حتى ابن نوح غرق ، وهذه السفينة حملت من الناس على ما تذكر الروايات كحد أعلى (٤٠ شخصاً) ، وهذه السفينة من مميزات أنها ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، أي إن الله تبارك وتعالى هو المحافظ على هذه السفينة ، ﴿ جَزَاءُ لِمَنْ كَانَ كُفْرًا ﴾ (القمر : ١٤) ، أي إن النبي الذي كذبوه كان جزاؤه الإنقاذ بهذه السفينة ،

(١) رواه الفاكهي في أخبار مكة ٣ / رقم ١٩٠٤ ؛ وأبو يعلى في مسنده الكبير كما في تفسير ابن كثير ٤ : ١١٥ ؛ وعنه ابن عدي في الكامل في الضعفاء ٦ : ٤١١ ؛ والقطيعي في زوائده على فضائل الصحابة ٢ : ٧٨٥ / ح ١٤٠٢ ؛ والحاكم في المستدرک ٢ : ٣٤٣ ، و ٣ : ١٥٠ .

وهذه السفينة سفينة خشبية ، ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (القمر : ١٣) ، ذات ألواح ومسامير تجري بحفظ الله تعالى وعنايته .

مقارنة بين سفينة نوح وحديث السفينة :

ثمّ نتقل من سفينة نوح ﷺ إلى سفينة الإمام الحسين ﷺ ، سنجد فرقا شاسعاً رغم الاشتراك في أصل الأفكار ، حيث إنّ تلك سفينة النجاة وهذه سفينة النجاة ، تلك من تركها غرق وهذه كذلك ، ولنعقد شيئاً من المقارنة بين هاتين السفينتين :

الفارق الأوّل : سفينة الإمام الحسين ﷺ سفينة أبد الدهر وليست في مقطع زمني محدّد ، وسفينة نوح ﷺ لفترة محدّدة وانتهت ، والآن العلماء يبحثون عن آثار السفينة ، لكن سفينة الحسين ﷺ مستمرّة أبد الدهر ، فهي قائمة وموجودة ومن ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق ، الديمومة الزمنية .

الفارق الثاني : أنّ سفينة الإمام الحسين ﷺ ممتدّة لكلّ أصقاع ومناطق العالم وليس في المنطقة التي كان فيها الطوفان ، ولتكن الكوفة منطلقاً لسفينة نوح ﷺ ، لكنّها بقيت في منطقة معيّنة ، أمّا سفينة الإمام الحسين ﷺ فهي ممتدّة لكلّ العالم العراق وخارجه والعرب والعجم والسود والبيض ومن هو في الصين وأوروبا ومن في القارّات الأخرى كلّهم يستطيعون أن يركبوا هذه السفينة .

الفارق الثالث : سفينة نوح ﷺ كانت سفينة ألواح خشب ومسامير ، وسفينة الإمام الحسين ﷺ ليست كذلك ، فالحسين ﷺ هو السفينة ، ونوح ﷺ صنع سفينته ، وهنا الحديث يقول : « الحسين ﷺ سفينة النجاة »^(١) ، إذن هي ذات قيمة أكبر من الأخشاب والمسامير .

السؤال المهمّ : كيف نركب هذه السفينة ؟

هذه السفينة التي تمتاز بخاصية أخرى هي أنّها تتسع لملايين البشر ، وكلّ واحدٍ

في مكانه وفي دولته ، وركوب سفينة الإمام الحسين عليه السلام ليس مثل سفينة نوح عليه السلام ، فهو يعني الارتباط بالحسين عليه السلام القلبي والروحي والعملي ، وليس الصعود بالقدم .

واليوم ندعو العالم إلى ركوب سفينة الإمام الحسين عليه السلام على مدى الدهر ، اليوم ندعو العالم للعودة إلى الله بركوب سفينة الإمام الحسين عليه السلام .

وهذه السفينة تعني أيضاً العودة إلى أهل البيت عليهم السلام ، أهل بيت النبوة .

أيها العالم الإسلامي أين أنتم عن سفينة الحسين عليه السلام ؟ فالحسين عليه السلام لكم جميعاً ، وسفينته مشرعة ، تعالوا اركبوها ، ﴿ يَسْمُ اللَّهَ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَهَا ﴾ (هود : ٤١) .

ما الذي دهاكم وأعمى أبصاركم وأصبحتم تتبعون من لا أصل له في علم وفقه ، وأهل البيت هم أبواب الإيمان وأمناء الرحمن وساسة العباد ؟

أيها العالم الإسلامي العلماء والناس والشعوب تعالوا اركبوا سفينة الحسين عليه السلام المشرعة في العراق بالخصوص والعالم الإسلامي من غير مذهب أهل البيت عليهم السلام ، تعالوا إلى سفينة الحسين عليه السلام اركبوها ، فالحسين عليه السلام للجميع ، فالحسين عليه السلام يريد النجاة للجميع ، والشيعية ركبوا هذه السفينة ، فتعالوا أنتم اركبوها .

الإمام الحسين عليه السلام محرر البشرية ، وثائر ضد الطغيان وضد السقوط الأخلاقي ، ويريد أن يُحرر العباد ، إذن هو للعباد جميعاً ، تعالوا إذن ليكن الحسين عليه السلام قدوة لكم جميعاً .

الحسين عليه السلام رمز عالمي ومصباح هدى وسفينة نجاة ، فلا يفوتكم الركب أيها المسلمون ، ولا يذهب عمركم هدرًا ، وسفينة الحسين عليه السلام مشرعة وأنتم لا تركبونها ، فسوف تخسرون وتندمون ، والحمد لله العراق منير باسم الحسين عليه السلام ، وآمن ببركته ، ويستقبل الجميع .

قصة النصراني :

اقرأ لكم هذه الرواية وهي أن نصرانياً انقطع به الطريق وهو قادم إلى بغداد في تجارته ، وقد سرق رحله وركبه وأثاثه ، وبقي وحيداً ولا يدري ماذا يصنع ، فمر به

ركب من زوّار الإمام الحسين عليه السلام ، فتعلّق بهم ، وقال لهم : أنا مقطوع بي الطريق ، فحملوه معهم ، ووصلوا إلى كربلاء ، ودخلوا الصحن الشريف .

فقالوا : نحن ذاهبون إلى الزيارة ، وأنت لا يمكنك أن تدخل إلى الصحن الشريف ، فاجلس أنت هنا في الصحن ، فدخلوا لزيارة الإمام الحسين عليه السلام ، فغفى هذا النصراني على الأحذية والأمانات ، ولمّا خرج هؤلاء استيقظ من النوم يبكي ويصرخ ويقول : إنّي رأيت رؤيا عجيبة ، قالوا : حدّثنا عنها .

قال : لمّا ذهبتُم عني غفوت ، رأيت رجلاً بهيّا جميلاً خارجاً من الحرم ومعه شابٌ وسيم ، فقال لهذا الشاب : سجّل كلّ من تجده من زوّارنا في الديوان ، فسجّل هذا الشابّ الأسماء الموجودين ، ثمّ أحضر القائمة وأعطاهَا لذاك الرجل البهيّ . فقال : هل سجّلت جميع الأسماء .

قال : نعم .

فقال : ولكنك لم تُسجّل ذاك الرجل النائم على الأحذية .

فقال : هو رجل نصراني وليس مسلماً ولم يأت للزيارة .

فقال له : ألم يدخل بساحتنا ، وحلّ ضيفاً علينا ؟ فسجّل اسمه .

هذا هو الإمام الحسين عليه السلام ، وذاك الشابّ هو عليّ الأكبر ، وأنا الآن أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، وإنّي أصبحت من أتباع الحسين عليه السلام . فالحسين سفينة النجاة حتّى للنصراني .

المشاهد الإعجازية في قضية الحسين عليه السلام

نتحدّث اليوم عن المشاهد الإعجازية في قضية الحسين عليه السلام ، وندرى أنّ قضية الحسين عليه السلام اعتمدت على إرادة الإنسان والحركة الإنسانية ، لكن هذه الحركة صاحبها مشاهد غيب وإعجاز وحضور السماء في الأرض ، وتأملت واستقرأت أكثر من (٢٠) إلى (٤٠) وأكثر مشهد إعجازي يمشي مع القضية الحسينيّة من

اليوم الأوّل ، وأذكر بعضها :

١. نور الحسين عليه السلام في بطن أمّه :

الزهراء عليها السلام تقول : « كنت أمشي في الظلام عندما كان الحسين جنيماً في بطني وهو يضيء لي الطريق »^(١) ، وقصة النور هذه نستطيع أن نواصل فيها الحديث .

٢. نور الحسين عليه السلام في يوم كربلاء :

حتّى إنّ قاتل الإمام الحسين عليه السلام يقول : « وقد شغلني نور وجهه عن الفكرة في قتله »^(٢) ، وهو مدمى .

حتّى نصل إلى مروان بن الحكم في الشام ورأس الحسين عليه السلام المقطوع عن البدن منذ خمس وعشرين يوماً ، مع ذلك يقول مروان :

يا حبّذا بردك في اليدين ولونك الأحمر في الخدين^(٣)

٣. قصة جبرائيل وهبوطه إلى الأرض :

القصة المروية عن هبوط جبرائيل إلى الأرض وهزّه لمهد الإمام الحسين عليه السلام ، وفطرس ذاك الملك الذي تشفّع بالحسين عليه السلام طالباً أن يتوب الله عليه ، فتاب الله عليه ، فكان جزاؤه على رسول الله ﷺ أن لا يُسلّم على الحسين عليه السلام إلّا وبلغه السلام ، فكان هذا الملك يوصل سلام الزوّار للحسين عليه السلام^(٤) .

وهذه الروايات يرويها الشيخ الصدوق في أماليه ، وبعضها الشيخ الكليني في الكافي .

(١) الخصائص الحسينية للشيخ جعفر التستري .

(٢) مقتل الإمام الحسين عليه السلام للمقرّم .

(٣) مقتل الإمام الحسين عليه السلام للمقرّم .

(٤) راجع : بصائر الدرجات وأمالي الصدوق وكامل الزيارات ومصباح التهجد وإقبال الأعمال .

٤. الشفاء في تربته ﷺ :

وهذا مشهد إعجازي ، فما معنى أن يكون في هذا التراب شفاء ؟ !
 هنا قال الإمام الصادق ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ تَرَبَةَ جَدِّي الْحُسَيْنِ شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ ،
 وَأَمَانًا مِنْ كُلِّ خَوْفٍ ، فَإِذَا تَنَاوَلَهَا أَحَدُكُمْ فَلْيُقَبِّلْهَا وَلْيَضَعْهَا عَلَى عَيْنِهِ وَلْيَمْرَهَا عَلَى سَائِرِ
 جَسَدِهِ ، وَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بِحَقِّ هَذِهِ التَّرَبَةِ وَبِحَقِّ مَنْ حَلَّ بِهَا » (١) .

٥. بكاء السماء والأرض عليه ﷺ :

ذكرت الروايات أَنَّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بَكَتَا عَلَى الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ ﷺ حَتَّى بَكَتَا أَضْلَعُ
 الْعَرْشِ ، وَمَا مِنْ حَجَرٍ وَلَا مَدْرٍ حَتَّى الطَّيْرُ فِي الْهَوَاءِ إِلَّا وَقَدَ بَكَى الْحُسَيْنِ ﷺ ، وَهَذَا
 ثَابِتٌ بِرَوَايَاتٍ صَحِيحَةٍ وَأَكِيدَةٍ وَيَقِينِيهِ (٢) .

٦. توقّف جواد الحسين ﷺ يوم عاشوراء :

يوم عاشوراء حينما وصل الحسين ﷺ إلى كربلاء نزل وأخذ من ترابها وشمّه ،
 فقال : « هَاهُنَا مَحَطُّ رُكَابِنَا » (٣) ، وَتَوَقَّفَ جَوَادُهُ عَنِ السَّيْرِ ، هَذَا مَشْهُدٌ خَارِجٌ
 التَّخْطِيطِ الْبَشَرِيِّ أَنَّ الْجَوَادَ لَا يَدُّ أَنْ يَتَوَقَّفَ هَاهُنَا ، وَهَذَا الْجَوَادُ نَفْسُهُ لَهُ قِصَّةٌ
 أُخْرَى ، فَالْإِمَامُ الْحُجَّةُ بْنُ الْحَسَنِ ﷺ فِي الزِّيَارَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالزِّيَارَةِ النَّاحِيَةِ يَقُولُ :
 « وَأَسْرَعَ فَرَسُكَ قَائِلًا : الظِّلْمَةُ الظِّلْمَةُ الْمُهْزِيْمَةُ الْمُهْزِيْمَةُ مِنْ أُمَّةٍ قَتَلَتْ ابْنَ بِنْتِ نَبِيِّهَا » (٤) .

٧. دم الرضيع :

حَتَّى نَصَلَ إِلَى دَمِ الطِّفْلِ الرُّضِيعِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ صَاحِبُ الْعَصْرِ وَالزَّمَانِ ﷺ :

(١) أملالي الطوسي : ٣٢٦ ؛ بحار الأنوار ١٠١ : ١١٩ .

(٢) راجع : المناقب لابن شهر آشوب ٤ : ٧٥٤ فما بعده ، كامل الزيارات : ٧٥ فما بعده ، أملالي الصدوق / مجلس ٢٧ .

(٣) كامل الزيارات لابن قولويه .

(٤) مقتل الحسين ﷺ للمقرّم : ٢٧٢ و ٢٧٣ .

« السلام على عبد الله الرضيع المصعّد بدمه إلى السماء » ، والرواية تقول : فلم يسقط منه قطرة إلى الأرض ^(١) .

٨. رأس الحسين عليه السلام :

الذي كانت السماء والمعجزة تمشي معه ، وهو مشهد إعجازي ، فرأس الحسين عليه السلام يقرأ القرآن وهو مقطوع عن البدن .

المنهال يروي هذه الرواية ، وزيد بن أرقم في الكوفة يقول : أنظر وإذا رأس الحسين عليه السلام على رمح وهو يقرأ : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (الكهف : ٩) ، قلت : سيدي رأسك أعجب وأعجب ^(٢) ، وهذه الظاهرة ثابتة ، وهي مشهد إعجازي .

٩. وضع الرأس الشريف في التنّور :

نصل إلى ذاك الذي كان ممن أخذوا رأس الإمام الحسين عليه السلام ليلاً ، وكانت زوجته نائمة ، فاحتار الرجل أين يضع الرأس الشريف ، فلم يجد إلا التنّور ليخبئ الرأس الشريف وفي الليل خرجت الزوجة لصحن الدار ، فتنبّهت أن التنّور يشع نوراً . فسألت زوجها : من يكون هذا ؟ قال : جئت بك خير الدنيا .

قالت : ويحك ، هذا رأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ^(٣) .

١٠. قصّة ذلك الراهب النصراني ^(٤) :

فقد ذهبوا برأس الإمام الحسين عليه السلام إلى شمال العراق ، وكان هناك دير ، وكان

(١) المصدر السابق .

(٢) مقتل الإمام الحسين عليه السلام للمقرّم .

(٣) مقتل الإمام الحسين عليه السلام للمقرّم : ٣٩١ .

(٤) تذكرة الخواصّ لسبط بن الجوزي : ٢٣٦ و ٢٣٧ ؛ مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي : ١١٥ و ١١٦ .

فيه راهب نصراني ، وكانوا عندما يهبط الليل عليهم يضعون الرؤوس جانباً ، ثم يبقى شخص لحراستها ، يقول الراهب : كنت في الدير وإذا نور يسطع من الرأس ، أقبلت إلى هؤلاء وقلت : هذا رأس مَنْ ؟ قالوا : رأس الحسين . قلت : ومن الحسين ؟ قالوا : ابن فاطمة . قلت : ومن فاطمة ؟ قالوا : بنت رسول الله ﷺ . قلت : نبيكم ؟ ! لو كان لنبينا ولد لوضعناه في أحداق عيوننا ، ثم قلت لهم : عندي عشرة آلاف دينار خذوها مني وضعوا الرأس عندي للمصباح أمانة ، فأخذه ووضعوه في حجره يمسحه ويطيئه ويخاطبه ويقول : أيها الرأس أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ جدَّك محمداً رسول الله ، لكن أيها الرأس لا أملك قدرة أكثر من هذه .

أترجو أمة قتلت حسيناً شفاعته جدّه يوم الحساب^(١)

أهداف الثورة الحسينية

ونحن على مطلع محرم الحرام نشرح أهداف حركة الإمام الحسين عليه السلام ومنهج حركته في قوله عليه السلام : « إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً ، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ، أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدي رسول الله ﷺ »^(٢) .

الأهداف هي طلب الإصلاح ، نحن نريد الإصلاح في المجتمع والعالم والشعوب وبلاذنا ، إنَّ هدف الأمة الإسلامية دائماً هو الإصلاح . والمنهج هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي لا يسقط عن كبير ولا عن صغير ، ولا عن إمام ومأموم ، ولا عن عالم ومتعلّم ، إنَّه مسؤولية كلّ مكلف ، « أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ،

(١) روى الطبراني في المعجم الكبير (ص ١٤٧ من المخطوط) عن يحيى بن بيان ، عن إمام بني سليم ، عن أشياخ له غزوا أرض الروم فنزلوا في كنيسة من كنائسهم ، فقرأوا في حجر مكتوب :

أترجو أمة قتلت حسيناً شفاعته جدّه يوم الحساب ؟ !
قالوا : فسألناهم : منذ كم بُنيت هذه الكنيسة ؟ قالوا : قبل أن يُبعث نبيكم بثلاثمائة سنة .

(٢) راجع : مناقب آل أبي طالب ٣ : ٢٤١ .

وأسير بسيرة جدِّي رسول الله ﷺ .

إنَّ منهجنا اليوم نحن أتباع الإسلام منهج واضح ، وأهدافنا واضحة ، لا نريد عدواناً على أحد ولا ظلماً لأحد ، لا نريد فساداً في الأرض ، إنَّما نريد الإصلاح ، ومن حقَّ كلِّ أُمَّة أن تطلب الإصلاح لنفسها ولشعبها ولأهلها ، نريد الإصلاح في بلادنا ، وهذا من حقِّنا ، منهجنا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إنَّ إمامنا الحسين عليه السلام خطب وهو في طريقه إلى العراق قائلاً : « أيُّها الناس إنَّ رسول الله قال : من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحُرِّم الله ، ناكثاً عهده ، مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يُغيِّرْ ما عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يَدْخِلْهُ مدخله ، ألا وإنَّ هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، وأحلُّوا حرام الله وحرَّموا حلاله ، وأنا أحقُّ من غير »^(١) . هذه هي ثورة الحسين عليه السلام على الظالم والمنحرف ، وهي أهداف الحركة الحسينية .

الظاهرة الكونية في القضية الحسينية

الحسين عليه السلام تحوَّل من زمان (٦١ هـ) ومن مكان (صحراء كربلاء) في قرى الطفِّ ، ومن عدد يزيد على سبعين شهيداً من أهل بيته وأصحابه ، هذا المشهد البسيط والقليل في الشكل من حيث الزمان والمكان ، ولكنه تحوَّل إلى ظاهرة كونية ، فحينما نجد أنَّ الأنبياء عليهم السلام أرَّخوا لقضية الحسين عليه السلام وبكوا على الحسين عليه السلام ، ورسول الله ﷺ طالما رآه أصحابه باكياً للحسين عليه السلام ، وأخبرهم أنَّه سيقتل في أرض يقال لها : كربلاء .

والإمام عليُّ عليه السلام في طريقه إلى صفين يقف عند كربلاء ، ويتحدَّث عمَّن يُقتل في هذه الأرض ، وأكثر من ذلك النصارى والكنيسة التي كُتِبَ على جدرانها :

أترجو أُمَّة قتلت حسيناً شفاعته جدّه يوم الورودِ

(١) انظر : بحار الأنوار ٤٤ : ٣٨١ .

وقال راهبها : إن هذه مكتوبة قبل ثلاثمائة عام .

وأكثر من ذلك بكاء الجنّ على الحسين ﷺ ، وقد قال القرآن الكريم : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ (الجن : ١) ، فهم يحضرون عند رسول الله ﷺ ويستمعون تلاوة القرآن ، إذن فهل من الغريب أن يبكوا على الحسين ﷺ كما تقولونه العديد من الكتابات التاريخية ؟

حتّى نصل إلى الملائكة فنقول : « أشهد أنّك قد بكتك أظلة العرش مع أظلة الخلائق » في الرواية الصحيحة ، وهذا صعود إلى السماء . والملائكة الذين هبطوا إلى قبر الحسين ﷺ ، فهم إلى يوم الحشر شعث غبر ييكون على الحسين ﷺ ، ويستقبلون زائره ويودّعون له ، ويدعون له بالاستغفار .

هذا يعني أنّ قضية الحسين ﷺ تحوّلت إلى قضية كونيّة ، والكون كلّهُ تحرّك مع الحسين ﷺ ، ولا نستطيع تفسير ذلك إلاّ أنّه سرٌّ إلهي ، فلو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يمحوها لما استطاعوا .

الواقع هكذا ، فنحن نعيش مع رمز إلهي لا نعرف ما هو ، وإذا أردنا أن نُعطي شيئاً من التحليل لقلنا : إنّ الإنسان هو خليفة الله في الأرض ، وفي قضية الحسين ﷺ يوم عاشوراء جمعت الإنسانية كلّها ، فهناك شيء اسمه مبادئ وإسلام ودين ، وهناك شيء اسمه إنسانية ، وكلُّ قيم الإنسانية سجّلها الحسين ﷺ يوم عاشوراء ، وهذا الإنسان الذي هو خليفة الله كان في كربلاء يتحرّك بكلّ أبعاد الإنسانية ، وحينما نلاحظ البعد الإنساني والتأثيرات الإنسانية نجد أنّ الحسين ﷺ قد أحدث شيئاً غريباً ، فالحسين ﷺ ليس أفضل من عليّ أو الزهراء أو الحسن ﷺ ، فالحسين ﷺ يقول : « مات جدّي وهو خير منّي ، مات أبي وهو خير منّي ، وماتت أمّي وهي خير منّي ، ومات أخي وهو خير منّي » ، لكن قضية الحسين ﷺ تتحدّث بها جميع الإنسانية ، فغاندي يقول : (تعلّمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر) ، والقادة والأدباء والفنانون والرسّامون والمسرحيون والرجال والنساء والأطفال والعاشقون والمحّبون والبكّائون والنادبون ،

وهذه القضية جمعت كل البشرية ، ولا شيء في كل الدنيا تفاعل معه الأدب الإنساني والشعر بكل لغاته مثل قضية الحسين عليه السلام الذي أثار جميع الإنسانية ، ولا يوجد شخص استطاع أن يكون رمزاً للقادة والثوار مثل الحسين عليه السلام ، وهكذا في مجال التضحيات والمواساة ، والذي صنعه الحسين عليه السلام هو أنه جسم كل قيم الإنسانية يوم عاشوراء التي كانت تمشي يوم عاشوراء مع الحسين عليه السلام .

في المقابل وقفت كل الذئاب المفترسة بوجه الحسين عليه السلام الذي لمس ضمير البشرية عبر التاريخ إلى يوم يبعثون .

الحسين عليه السلام عطشان ولكنه حين كشف القوم ودخل المشرعة يريد أن يشرب مدّ الفرس عنقه ليشرب الماء ، فيجسّد الحسين عليه السلام الإنسانية العظيمة وقد نسي الجيوش والأهل والعيال والحرب دائرة التفت إلى فرسه وقال له : « أنت عطشان وأنا عطشان ، فوالله لا أشرب حتى تشرب » ، وبعد مقتل الحسين عليه السلام نفس هذا الفرس يحوم حول الحسين ويلطّخ وجهه ورقبته بدم الحسين عليه السلام ، يقول ابن سعد : اتركوا هذا الفرس لنرى ماذا يصنع ، وإذا بالفرس يتمرّغ برأسه ورقبته ويلطّخ وجهه ورقبته ، ثم عاد إلى الخيام وسرجه عليه ملوياً ، وهو ينادي بلسان الحال : (الظليمة الظليمة الهضيمة الهضيمة من أمة قتلت ابن بنت نبيّها)^(١) .

ومشهد آخر وهو بعد أن ودّع الحسين عليه السلام عياله ، فإذا بسكينة تنادي : أبه انزل من على ظهر جوادك ، اجلسني في حجرك ، امسح على رأسي ، فاستجاب لهذا النداء ، ونزل وأجلسها على حجره وهو يقول :

لا تحرقني قلبي بدمعك حسرةً ما دام منّي الروح في جثماني
فإذا قتلتُ فأنت أولى بالذي تأتينه يا خيرة النسوان^(٢)

هذه سكينة بعد ساعات من مقتل الحسين عليه السلام وقطع رأسه وصلت إلى جسد

(١) مقتل الإمام الحسين عليه السلام للمقرّم .

(٢) مقتل الإمام الحسين عليه السلام للمقرّم .

الحسين ، وألقت بنفسها على الجسد الشريف وهي تقول : أبه يا أبه ، من الذي قطع رأسك ؟ ومن الذي حَزَّ نحرَكَ ؟

الراوي يقول : فتح الحسين يديه واحتضنها وهو يقول :

شيعتي مهما شربتم عذب ماء فاذكروني أو سمعتم بقتيلٍ أو شهيدٍ فاندبوني
فأنا السبط الذي من غير جرم قتلوني وبجرد الخيل بعد القتل عمداً سحقوني
ليتكم يا شيعتي في يوم عاشورا تروني كيف استسقي لطفلي فأبوا أن يرحموني^(١)

الملائكة الحسينيون

كنت أقرأ موضوعاً هو : (الملائكة الحسينيون) ، كاتب الموضوع هو : رسول كاظم عبد السادة ، في مجلّة (لواء الطفّ) التي يرأس تحريرها السيّد محمّد رضا موسى الحسيني ، ونحن نُشيّد بكاتب الموضوع ، فكما ننتقد بعض المقالات نمدح الأخرى الجيدة ، ونحن بحاجة إلى آلاف الأعلام الجامعية ليكتبوا عن الحسين ﷺ وحركته ومداليلها الاجتماعية والفلسفية والأخلاقية ليكتبوا عن سفينة النجاة التي وضعها الله لنا .

صوّر لنا كاتب هذا المقال (الملائكة الحسينيين) مثلما البشر حسينيون وفق الروايات .

يقول : إنّ الملائكة بعضهم فرادى وبعضهم مجموعات ومواكب ، فمن الملائكة الحسينيون الفرادى (فطرس) في قصّة استجارته بالحسين ﷺ وشفائه وعفو الله عنه الذي كان في جزيرة من الجزر بعد أن كُسِرَ جانحه في قصّة . وميكائيل ، وهو الذي هَزَّ مهد الحسين ﷺ .

وجبرائيل الذي هبط على النبي ﷺ وأخبره بشهادة الحسين ﷺ عند ولادته وبكى رسول الله ﷺ ، ولهذا نجد أنّ الشاعر أبو نواس حينما قيل له : لِمَ لم تمدح عليّ بن موسى الرضا ﷺ في القصّة المعروفة ، قال :

لا اهتدي لمُدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه^(١)

التي ذكرها أمام بلاط الخليفة والناس والفقهاء ولم ينكر عليه أحد ذلك .

أما أصناف وشرائح الملائكة ، فمنهم الذين استبشروا بقدوم الحسين عليه السلام إلى السماء بعد شهادته ، والموكلون بالتقاط دمه الشريف ، فلدينا رواية تقول بأن هناك ملائكة وكلهم الله تعالى بالتقاط دم الحسين عليه السلام .

ومن جملة الملائكة هم الموكلون بتربة الحسين عليه السلام .

ولا يقول قائل : إن هذا غلوّ وما شاكل ذلك ، فلدينا في الروايات أن الملائكة تطوف وتحجّ في البيت الحرام أكثر من أهل الأرض ، فالفكرة مقبولة .

وصنف آخر الذين جاؤوا لنصرة الحسين عليه السلام وأبدوا استعدادهم ، لكن الحسين عليه السلام رفض أن يتتصر بغير الحركة البشرية ، ونزل من الملائكة عدد لا يحصيهم إلا الله تعالى ، هنا الإمام الحسين عليه السلام يقول : أعلم أن هناك مصري ومصارع أصحابي . ومن الملائكة الذين طلبوا الإجازة من الله فأجيز لهم ، ولكن لما وصلوا إلى الأرض كان الحسين عليه السلام قد قُتل ، وهذه الرواية متواترة أن أربعة آلاف ملك طلبوا الإذن من الله ، فلما عادوا إلى الأرض كان الحسين عليه السلام مقتولاً ، فهم عند قبره شعث غبر إلى يوم القيامة .

وقسم من هؤلاء الملائكة الذين حضروا عند رأسه الشريف ، فهذه امرأة تقول : كنت قد أخذت مضجعي ، فرأيت باباً من السماء قد فُتح والملائكة ينزلون كتائب إلى رأس الحسين عليه السلام وهم يقولون : السلام عليك يا أبا عبد الله .

(١) القصيدة التي مطلعها :

لو تفوّهت بالكلام البديه
يُثمِر الدُرّ في يدي مجتنيه
والخصال التي تجمّعن فيه
كان جبريل خادماً لأبيه

قيل لي أنت أشعر الناس طراً
لك في جوهر الكلام بديع
فعلىّ م تركت مدح ابن موسى
قلت لا اهتدي لمُدح إمام
راجع : عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ١٥٤ / ح ٩ .

ومنهم الملائكة البكائون ، ولهذا تقول الزيارة : « السلام على مَنْ بكته ملائكة السماء » .

أيضاً من الملائكة الشعث الغبر كبيرهم يُسمّى : منصور ، سيكونه إلى يوم القيامة .
ومن جملة الملائكة أولئك الذين يزورون نيابةً عن المؤمنين ، وبعضهم لا تصل لهم
النوبة إلى يوم القيامة ، لكثرة الملائكة الذين يزورون قبر الحسين ﷺ .

وجمع آخر من الملائكة الذين يخدمون الزوّار .

وجمع آخر الداعين للزوّار ، سبعون ألف ملك يعبدون الله عنده ، صلاة أحدهم
تعادل ألف صلاة من صلوات الأدميين ، يكون ثواب صلاتهم لزوّار قبر الحسين ﷺ .

ومن الملائكة الذين يعودون مرضى الزوّار ، ويُشيّعون من زاره إلى أهله ، فإن
مرض عادوه ، وإن مات حضروا جنازته بالاستغفار والترحم عليه .

وهذه القضية موجودة لدينا في روايات السُّنَّة والشيعية ، وأنَّ النبي ﷺ لما شيع
أحد الصحابة وهو سعد بن معاذ قال : إِنَّ الملائكة يُشيّعون هذا الصحابي ، إذن تشيع
الملائكة للمؤمنين فكرة لا يناقش فيها أحد .

ومنهم المقيمون بكرلاء ، ولهذا نحن نقرأ في الزيارة : « وعلى الملائكة الحافين
بقبرك » .

ومن الملائكة من يحملون ذنوب الزائرين ، « إِنَّ لله ملائكة موكلين بقبر الحسين ﷺ ،
فإذا هم بزيارته الرجل أعطاهم الله ذنوبه ، فإذا أخطأ محوها إلى أن تقوم الساعة » .

ومن أجهل وأغرب الروايات : « إِنَّ الله تعالى يخلق من عرق بدن الزائر ملائكة يُسبِّحون
الله ويستغفرون له ولزوّار الحسين ﷺ » .

وهذه الروايات ليست غلوّاً ، فهناك رواية عن الإمام عليّ ﷺ تقول : « إذا توضأ
أحد مثل وضوئي هذا يخلق الله بكل قطرة ماء ملك يستغفر له » .

الحرية في المفهوم الحسيني

نحن اليوم في التاسع من محرّم الحرام ، الحسين عليه السلام في مثل هذا اليوم جمع أصحابه وأهل بيته قائلاً : « أمّا بعد ، فإنّي لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي ، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً ، ألا وإنّي أظنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ، ألا وإنّي قد رأيت لكم فانطلقوا جميعاً في حلّ ليس عليكم مني ذمام ، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً ، ثم ليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم تفرّقوا في سوادكم ومدائنكم حتّى يُفرّج الله ، فإنّ القوم إنّما يطلبونني . . . »^(١) .

الحسين عليه السلام يستحقّ أن نفق عنده وعند حركته كثيراً ، الحسين عليه السلام ملهم الأجيال على طول التاريخ روح التحرّر من ألوان العبودية والأصنام البشرية والفكرية .

الحسين عليه السلام يُلقّب بسيدّ الشهداء وأبي الأحرار ، لماذا كان أبا الأحرار ؟ إنّ هذا أمر لا يصلح أن نعتبره حكراً على طائفتنا الشيعية ، هذا أمر إسلامي على طول التاريخ لجميع البشرية والإنسانية ولجميع المسلمين ، هذا الأمر يستحقّ الوقوف عنده ، كيف كان الحسين عليه السلام ملهم الأجيال روح التحرّر ؟

عصرنا هذا يُسمّى عصر الحرّية ، ولكن إمامنا الحسين عليه السلام قاد حركة التحرّر قبل (١٤٠٠) سنة ، والأنبياء عليهم السلام قادوا حركة التحرّر على مرّ قرون .

هناك حرّية في المفهوم الإسلامي ، وهناك حرّية بالمفهوم الغربي ، الغرب اليوم يُسمّى هذا العصر عصر الحرّية ، والناس فرحون أنّ هذا العصر يُسمّى عصر الحرّية ، ولكن تعالوا نتأمّل الفرق في الحرّية بين المفهوم الإسلامي والمفهوم الغربي على شكل عناوين وروؤس نقاط .

الحرّية بالمفهوم الإسلامي هي بناء الإنسان ، والحرّية بالمفهوم الغربي هدم قيم الإنسان .

(١) معالم المدرستين ٣ : ٩٠ .

الحرية بالمفهوم الإسلامي هي تسخير الطاقات الخلاقة لدى الإنسان ، أمّا الحرية في المفهوم الغربي فهي تبديد الطاقات في اللهو واللعب واتباع الشهوات .

والحرية بالمفهوم الإسلامي تُؤسس المجتمع الحرّ الكريم ، أمّا الحرية في المفهوم الغربي فهي استنهاض لقيم النفعية ، لا يوجد في المفهوم الغربي مجتمع تحترمه وتُفكر في بناء مجتمع سليم كريم ، الحرية في المفهوم الغربي هي الركض وراء الأنا ، استنهاض لقيم الأنا وليس تأسيساً لمجتمع كريم .

الحرية بالمفهوم الإسلامي تعني الصمود أمام الظلم والاستبداد والاستعداد للمواجهة في مقابل الإذلال ، أمّا الحرية في المفهوم الغربي فهي عبارة عن الهزيمة أمام الظلم طلباً للراحة والدعة والشهوات والدنيا الزائلة .

الحرية في المفهوم الإسلامي تُعلّم الإنسان الصمود والثبات ، أمّا الحرية في المفهوم الغربي فتُعلّم الهزيمة أمام أدنى خطريواجه الإنسان ومنافعه الوقتية .

الحرية في المفهوم الإسلامي تعني أخلاق الفداء والتضحية ، وأمّا الحرية في المفهوم الغربي تعني أخلاق الجشع والنفعية .

الحرية في المفهوم الإسلامي هي حرية من أجل الكرامة وسعادة الإنسان ، أمّا الحرية في المفهوم الغربي فهي للجنس والهوى وليس الكرامة والسعادة .

في مصر عُرض فلم سينمائي بعنوان الباحثات عن الحرية ، كان فلماً ماجناً ساقطاً أخلاقياً ضجّ منه المصريون حتّى من غير المتدينين التقليديين ، وقالوا : الأولى أن يُسمّوا الفيلم الباحثات عن الجنس وليس الباحثات عن الحرية .

اليوم تقرن الحرية في المفهوم الغربي بالجنس ، تعني حرية الجنس والهوى ، بينما الإسلام يطرح الحرية كحرية لبناء المجتمع السعيد المطمئن .

في العراق عُقد مؤتمر هذه الأيام تحت عنوان : (المرأة من القيود إلى التحرير) ، وهو عنوان جميل وجيد ، نحن أيضاً نقول : إنّ المرأة يجب أن تتحرّر وتشارك في المجتمع

ويكون لها حضور ثقافي وسياسي واجتماعي بأعلى الدرجات ، ولكن نقول : لا يكون الشعار هو الحرية والمقصود هو التجرد والإباحية ، التحرر شيء صحيح ، لكن ليس من الضوابط والقيم الأخلاقية إلى الأنفلات والإباحية والسقوط في أسر الشهوات ، نريد المرأة أن تشارك وبحمد الله كانت مشاركة المرأة العراقية الملتزمة وطبق التوجيهات الدينية في العراق أكثر من مشاركتها في بلاد أوروبا في الانتخابات السياسية ، بينما مثل هذه الإحصائيات بالانتخابات التي تجري حتى في الولايات المتحدة الأمريكية لا تُقدّم إحصائيات بهذا الشكل ، إنّ المرأة توقفت في حضورها ، المرأة التي تلبس عباءة وصاحبة البيت والملتزمة في العراق قد شاركت ، فالتحرر من القيود بهذا الشكل مطلوب ونحن ندعو إلى عقد مؤتمرات بهذا الاتجاه ، وهو الاستنهاض بالمرأة ومشاركتها بالميدان في كلّ المجالات ، لكن أيتها المرأة المسلمة وأيتها العراقيون إنّ مشاركة المرأة إسلامياً غير مسألة الخلاعة والإباحية الجنسية ، فإنّ ذلك ليس هو التحرر ولا الحرية ، بل السقوط في أسر الشهوات ، نحن ندعو إلى الحرية الحقيقية التي تُكسب الإنسان سعادة وكرامة .

لقد تجلّت في كربلاء قيم الإنسانية ، إنّ كربلاء لم تكن أرض معركة بين طائفتين ومعسكرين ، إنّما معركة بين القيم الإسلامية وبين قيم البربرية والتوحش ، كربلاء الحسين عليه السلام جسّدت صوراً رائعة أترك أخبارها والحديث عنها إلى معلوماتكم .

في كربلاء جسّد الحسين عليه السلام وهو في داخل المعركة قمة الحنان الأبوي والأخوي ، وجسّد الصبر والكرم والعبادة والشجاعة والإيثار والغيرة في يوم عاشوراء ، كلّ هذا السجلّ قدّمه لنا وليس فقط قضية قتال وثورة وانتهى .

كلّ هذا رسمه الحسين عليه السلام وهو يقول : إذا تريدون أن تسيروا بطريقي فهذا طريقي ، حنان ، محبة ، إخلاص ، إيثار ، عبادة ، صلاة في أوّل وقتها ، قراءة القرآن ، صلة الرحم ، كلّ هذا جسّده الحسين عليه السلام يوم عاشوراء ، وأخيرها الإيثار والغيرة .

يقول المؤرّخون : إنّ الحسين عليه السلام في اليوم العاشر من محرّم الحرام بعد أن نزل إلى الميدان مباشرة حيث سقط جميع أصحابه وأهل بيته ، حتى ورد المشرعة وورد الماء وقلبه

متقطع من العطش ، أراد أن يشرب من الماء ، أراد فرس الحسين أيضاً أن يشرب من الماء ، هنا الحسين لَمَّا نظر هذا المشهد - لاحظوا إثارة الحسين إثارة الأئمة - قال يخاطب الفرس : « أنت عطشان وأنا عطشان لا والله لا أشرب حتى تشرب » ، بينما الحسين في مثل هذا الحال وقد حمل كفاً من الماء لكي يشرب ناداه مناد من القوم - لاحظوا غيرة الحسين - : يا حسين ، أتلتذ بالماء وقد هتكت حريمك ؟ لَمَّا سمع ألقى الماء وعاد إلى الخيمة وإذا هي سالمة ، عرف أنها مكيدة ، قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

نماذج من الحنان الحسيني

الإمام الحسين عليه السلام سار من مكة إلى العراق ، هذا السفر الذي استغرق زمناً طويلاً ، ثم إلى كربلاء وقد اجتمعت عليه الأعداء والشدائد ، وهذه الشدائد كبيرة جداً ، لكن الإمام الحسين عليه السلام يتعامل بمنتهى الحنان والأدب مع كل القضايا ومع كل من حوله ، فالطيب والأخلاق والحنان يمشي مع الإمام الحسين عليه السلام وهو في أشد الظروف .

وهنا أود الإشارة إلى خلق واحد فقط وهو الحنان الحسيني من جملة أخلاق كثيرة من إباء وشجاعة وعلم وأشياء كثيرة ، لكن اليوم أريد أن ألفت النظر إلى شيء عادة لا ينسجم مع حالات الشدة ، فالإنسان في هذه الحالات ينسى الحنان ويرتكب ويقسو ويكون عنيفاً ، لكن لاحظوا الحنان الحسيني العجيب المذهل الذي يسجله الإمام الحسين عليه السلام في عشرات المواقف وبعده نماذج .

فقد كان الإمام الحسين عليه السلام عندما يقتل أحد أصحابه يأتي إليه ويجلس عند رأسه ويستمع إليه ويتحنن إليه غير عابئ بـ (٣٠ ألف) شخص محيطين به ويريدون قتله ، والعطش قد أمضى بقلبه ، والعيال من حوله ، بل يذهب إلى الصريع الذي يعالج الموت ، فيتحنن عليه ويحدثه ويمسح عليه ، هذا حنان الإمام الحسين عليه السلام مع أصحابه .

ولهذا نجد في قصة مسلم بن عوسجة لَمَّا سقط صريعاً أقبل إليه الحسين عليه السلام ومعه حبيب بن مظاهر ، فسأله حبيب بن مظاهر أن يوصيه ، فقال له مسلم : أوصيك بهذا

الغريب ، وهو يشير إلى الحسين عليه السلام^(١) .

وكذلك حنان الحسين عليه السلام مع الغلام الأسود الذي تقدّم بين يدي الحسين عليه السلام وخرّ صريعاً وهو في حالة الاستشهاد ، فتقدّم إليه الحسين عليه السلام ونزل إليه ووضع خدّه على خدّه ، والغلام يقول : مَنْ مثلي وابن رسول الله واضع خدّه على خدي^(٢) ؟

يعود الإمام الحسين عليه السلام إلى الخيام ، فيرى زينب وحدها وهي متكئة على عمود الخيمة ، وهي تنظر بعينيهما إلى الإمام ولا تتكلّم ، فوضع الحسين عليه السلام يده على صدرها وقال : « أُخِيّه زينب إنّ أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون ، أُخِيّه زينب مات جدّي وهو خير منّي ، ومات أبي وهو خير منّي ، وماتت أمّي وهي خير منّي ، ومات أخي وهو خير منّي ، أُخِيّه زينب إذا أنا قُتِلْتُ فلا تشقيّ عليّ جيباً ولا تخمسيّ عليّ وجهاً » ، وهكذا غمرها الحسين عليه السلام بحنانه حتّى تكلمت وكانت مدهوشة ومستوحشة ، لكن عندما رأت الحنان الحسيني قالت : يا أبا عبد الله ، أراك تسترخص نفسك للموت^(٣) .

حنان الحسين عليه السلام يتجسّد مرّةً أخرى مع ابنته سكينه ، فقد ركب فرسه وانطلق إلى القتال الذي لا رجعة منه ، فيسمع صوتاً يقول : أبي قف لي هنيهة ، وإذا طفلة صغيرة وهي سكينه تقول : أبه انزل من على الجواد ، فينزل الحسين عليه السلام وينسى كلّ مشاهد المعركة وهو يقول : « بنية ماذا تريدين ؟ » .

تقول : اجلسني في حجرك وامسح على رأسي كما يُصنّع باليتامي ، فجلس الحسين عليه السلام وأجلسها في حجره وبدأ يمسح على رأسها ويقول :

لا تحرقني قلبي بدمعك حسرةً ما دام منّي الروح في جثماني
فإذا قُتِلْتُ فأنت أولى بالذي تأتينه يا خيرة النسوان^(٤)

(١) مقتل الإمام الحسين عليه السلام للمقرّم .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) مقتل الإمام الحسين عليه السلام للمقرّم .

ثم يصعد حنان الحسين ﷺ إلى نموذج آخر هو الحنان مع الحيوان ، فلما ودّع أهله وخاض في ميدان المعركة ووصل إلى المشرعة وقلبه يتقطع ظمأً ولسانه كالخشبة لا يرى الجوّ من العطش ، فنزل إلى ماء الفرات ومدّ يده ليأخذ غرفة من الماء والفرس أيضاً عطشان مدّ رأسه ليشرب من الماء ، فالتفت الحسين ﷺ إلى الفرس وقال : « أنت عطشان وأنا عطشان ، لا والله لا أشرب حتى تشرب » ، هذا حنان الحسين ﷺ يوم عاشوراء ، فسمع منادٍ ينادي : يا حسين أتهناً بالماء وقد هتكت حرملك ؟ فرمى الماء من يده وأقبل نحو الخيام^(١) .

وأخيراً حنان الحسين ﷺ على الشيعة يوم عاشوراء كما تقول الرواية : لَمَّا رمت سكينه بنفسها على جسد الحسين ﷺ وهو قطع الرأس تقول : سمعت أبي يقول :

شيعتي مهما شربتم عذب ماء فاذكروني	أو سمعتم بقتيلٍ أو شهيدٍ فاندبوني
فأنا السبط الذي من غير جرم قتلوني	وبجرد الخيل بعد القتل عمداً سحقوني
ليتكم يا شيعتي في يوم عاشورا تروني	كيف استسقي لطفلي فأبوا أن يرحموني ^(٢)

القضية الحسينية

بين المشيئة الإلهية والإرادة البشرية

نحن في شهر محرم الحرام نستذكر قضية الإمام الحسين ﷺ ونضعها تحت عنوان :
(القضية الحسينية بين المشيئة الإلهية والإرادة البشرية) ، هل تحرك الحسين ﷺ من منطلقات ورؤى شخصية ، أم كانت هناك مشيئة إلهية ، أم هما معاً مشيئة إلهية وإرادة بشرية ؟

هناك مشيئة إلهية تقف وراء القضايا الكبرى مثل البعثة النبوية ، وتحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى الكعبة الشريفة ، ﴿ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

(البقرة: ١٤٤) ، والمعجزة وهي القرآن ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) ، والإمامة حيث إن الإمام الجواد عليه السلام عمره خمس أو ثمان سنوات ، وإنَّ كلَّ مشروع الإمامة هو مشيئة إلهية ، وهذه القضايا تنطلق من مشيئة إلهية حتَّى نصل إلى قضية صاحب العصر والزمان هي مشيئة إلهية ومخطَّط إلهي ، حيث قال رسول الله ﷺ : « لو لم يبق من الدنيا إلَّا يوم واحد لطوَّل الله ذلك اليوم حتَّى يخرج واحد من ولدي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما مُلئت ظلماً وجوراً »^(١) ، ممَّا يعني بأنَّ القضية هي قرار إلهي . الهجرة النبوية من مكَّة المكرمة إلى المدينة المنورة تجدون اليد الإلهية حيث هبط جبرائيل على نبيِّنا ﷺ قائلاً له : إنَّه ليس لك في مكَّة ناصر ، وإنَّ الله يأمرُك أن تهجر وتخرج من مكَّة .

ونحن اليوم إذ نقف عند قضية الإمام الحسين عليه السلام نراها إرادة بشرية لكن وراءها مشيئة إلهية ، فهي قرار بشري مدروس ولكنه وفق مشيئة وإرادة إلهية ، ممَّا يعني أنَّها جزء من المخطَّط الإلهي لحفظ هذا الدين والتغيير الإصلاحي .

ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام يتحدثون عن الحسين عليه السلام ، وكان رسول الله ﷺ يتحدث عن الحسين عليه السلام ويبيكي ، والحسين عليه السلام موجود أمامه في مواقع عديدة ، وكان الصحابة يرون رسول الله ﷺ ووجهه قد تغير ، فسألوه : يا رسول الله ، ما حلَّ بك ؟ نرى وجهك قد تغير ، أَلشيء قد حدث ؟ قال : « هذا جبرائيل الآن خرج من عندي يُخبرني عن أنَّ ولدي الحسين هذا مقتول في أرض يُقال لها : كربلاء ، يقتله جماعة من أُمَّتكَ »^(٢) .

هذه إذن مشيئة إلهية قبل أن تكون قراراً سياسياً وجهادياً ، وكان الحسين عليه السلام يتحدث عن هذا فيقول : « شاء الله أن يراني قتيلاً ، وشاء الله أن يراهنَّ سبايا »^(٣) . والأرض التي قُتل فيها معروفة من قبل ومسجَّلة في عالم السماء ، وهي أرض يُقال لها : كربلاء .

هذا جزء من المخطَّط الإلهي لبقاء الدين حيّاً ولبقاء الأمة الإسلامية حيَّة إلى

(١) ينابيع المودة للقندوزي ٢ : ٢١٠ .

(٢) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٣ : ٢١٣ .

(٣) الكافي للكليني ١ : ١٥١ / باب المشيئة والإرادة .

يومنا هذا .

فالقضية فوق إرادة البشر ، وقد تحالفت وتعاضدت إرادات الجبابرة على محو ذكر الإمام الحسين عليه السلام وما استطاعوا ، وهذه معجزة أن تبقى القضية الحسينية حيّة بهذا الشكل الملفت للنظر ، والعالم يرى أن شيعة أهل البيت عليه السلام يستعيدون الذكرى كما لو كانت قد وقعت بالأمس .

هذا هو الوفاء لرسول الله ﷺ ، والعلاقة التكوينية الحقيقية بين شيعة أهل البيت وبين الأئمة الأطهار عليه السلام .

الإمام الرضا عليه السلام يقول : « أشهد لقد اقشعرت لدمائكم أظلة العرش مع أظلة الخلائق ، وبكتكم ملائكة السماء وسكان الجنان ومن في البحر ومن في البر »^(١) ، فالقضية فوق القرار البشري المتصرم العادي .

لا يقول قائل : إن الحسين عليه السلام كان مجبوراً ولم يكن لديه إرادة ، كلا ، بل كان مع الإرادة البشرية ، فقد سجّل إرادته البشرية المتضامنة مع المشيئة الإلهية قائلاً : (إن كان دين محمد لم يستقم إلّا بقتلي ، فيا سيوف خذيني) ، هذه استجابة وتناغم وتفاعل مع الإرادة الإلهية ، « ليرغب المؤمن في لقاء الله ، ألا وإني لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً »^(٢) .

التحوّل في بلاد الشام

يذكر المؤرّخون أحداثاً نستطيع من خلالها أن نكون رؤية واضحة في أن هناك تحوّلاً حدث في الشام لصالح الإمام السجّاد وأهل البيت عليه السلام خلال الأيام العشرة التي مكثوا فيها في الشام ، حيث أنزلوا السبايا أولاً في خربة لا تقي من حرّ ولا من برد ، لكن بعد أيام نقلهم يزيد بن معاوية (عليه لعائن الله) إلى قصره ، فصاروا ضيوفاً في القصر الأموي ، هذا تحوّل بعد أيام سريعة جدّاً ، وأعلن يزيد (لعنه الله) عن عقد مأتم عزاء

(١) إقبال الأعمال للسيد ابن طاووس الحسني ٣ : ٣٤١ .

(٢) مقتل الإمام الحسين عليه السلام للمقرّم .

للحسين عليه السلام نتيجة ما حدث من تحوّل في الشام ، فاضطرّ من أجل امتصاص النقمة الجماهيرية إلى أن يعقد مأتماً حسينياً في القصر الأموي ، ثم عقد مأتماً حسينياً نسبياً في القصر الأموي أيضاً .

يا الله ، هذا تحوّل عجيب ، ما الذي حدث ؟

في عشرة أيام انتصر الحسين عليه السلام في الشام ، وحقق هذا الانقلاب ، بحيث أصبح يزيد يتوسّل بالإمام السجّاد عليه السلام ويتقرّب إليه ويقول : لو كنت مكان ابن مرجانة لاستجبت للحسين فيما يريد ولم أقتله ، لكن عجلّ عليه الطاغية ، يعني أن ابن زياد طاغية قتل الحسين وليس أنا !

بينما قبل أربعة أيام استقبلت الشام سبايا الحسين عليه السلام بالطبول والدفوف ، لاحظوا المشهد الأموي ، فالمرّخون يذكرون أنّ الكوفة استقبلت سبايا الحسين بالبكاء والدموع ؛ لأنّ الكوفة كانت مركز شيعة أهل البيت عليهم السلام ، وكانت المعركة بالنسبة لهم معركة غير شرعية ولا مطلوبة ، بينما أهل الشام استقبلوا سبايا الحسين عليه السلام بالدفوف والطبول ووضعوهم في خربة في الشام ، حيث قال الشامي : يا أمير هب لي هذه الجارية ، لكن بسرعة وفي غضون أيام تحوّل الموقف وانتصر الحسين عليه السلام وانتصرت قضية أهل البيت عليهم السلام إلى أن أصبح يزيد يتوسّل بالسجّاد عليه السلام ويقول : يا ابن رسول الله ، إن شئت أن تقيم في الشام فعلى الرحب والسعة ، هذا بيتي وقصري لك ، وإن شئت أن ترجع إلى المدينة .

ما الذي حدث ؟

هذا تطوّر كبير وانتصار لأهل البيت عليهم السلام لا أستطيع أن أتناول الفقرات والدلائل ، ولكن يقيناً كانت هناك عوامل حققت هذا الانتصار .

فالإمام السجّاد عليه السلام وهو يمشي في طريق الشام كان يتحدث ويلتقي بهذا وذاك ، ورأس الحسين عليه السلام كان له دور عظيم في هذا التحوّل .

أخيراً أصبح يزيد يُخيّر السجّاد عليه السلام أن يقيم عنده أو يرحل ، اختار الإمام

السَّجَّادُ عليه السلام الرحيل ، وهنا يُقال : إِنَّهُ عليه السلام طلب رأس الحسين عليه السلام ، وتقول رواية : إِنَّ السَّجَّادَ عليه السلام عاد برأس الحسين عليه السلام إلى كربلاء ، وتقول رواية : إِنَّهُ دُفِنَ في كربلاء ، وتقول رواية أُخرى : إِنَّهُ دُفِنَ في الكوفة ، ورواية تقول : إِنَّهُ دُفِنَ في المدينة المنورة ، ورواية أُخرى تقول : دُفِنَ في الشام ، وأُخرى تقول : إِنَّهُ دُفِنَ في النجف ، وأشهرها أَنَّ السَّجَّادَ عليه السلام عاد بالرأس إلى كربلاء .

المهمُّ الإشارة هنا إلى ظاهرة مهمّة جدًّا ، وهي حدوث التحوّل والثورة التي أوجدها رأس الحسين عليه السلام في الشام .

إذا كانت أرض ملحمة كربلاء فإنَّ الثورة استمرّت وقاد رأس الحسين عليه السلام ثورة أُخرى في الشام ، ونجحت هذه الثورة في غضون أيّام ، فركَّب السبايا استقبله أهل الكوفة بالبكاء والدموع ؛ لأنَّهم شيعة أهل البيت عليه السلام ، أمّا أهل الشام فاستقبلوهم بالدفوف والطبول ، وزيّنت الشام ودمشق شماتة بأهل البيت عليه السلام ، وأعلن يزيد في قصره الشماتة برأس الحسين عليه السلام ، وهكذا يستبجح بنات الوحي والنبوة بحيث أنَّ الشامي يقول له : هب لي هذه الجارية ! وهو يقول لهم : الحمد لله الذي أكذب أُحدوثكم وفضحكم ! وقد وضع أهل البيت عليه السلام في الأيام الثلاث الأولى في خربة لا تقيهم من حرٍّ ولا من برد .

كيف صار التحوّل في أهل الشام بعد ثلاثة أيّام ممّا اضطرَّ يزيد لاستضافتهم في القصر الأموي ، وبعدها عقدت زينب مأتماً خلال سبعة أيّام في قصر يزيد وليس في الخربة ؟

لاحظوا أنَّه مأتَمَ حسيني في القصر الأموي ، هذا نصرٌ إلهي ، وأخذ يزيد يعتذر ويقول : إنَّ ابن مرجانة عبَّجَلْ على الحسين بالقتل ولست أنا .

النصر تحقّق بالدرجة الأولى بفعل رأس الحسين عليه السلام ، وبفعل السَّجَّادِ عليه السلام بالدرجة الثانية ، وبفعل العقيلة زينب عليها السلام بالدرجة الثالثة حسب ظرفها وقدرتها على التكلم .

كان رأس الحسين عليه السلام يصنع ثورة في كلّ مجلس يجلُّ فيه ، فذاك رسول الروم حينما شاهد رأس الحسين عليه السلام والنور الذي يسطع منه سأل يزيد عن صاحب هذا الرأس ،

وعندما عرف أنه لابن بنت رسول الله ﷺ تعجّب من الأمر وقال : هكذا تصنعون بابن بنت نبيكم ؟ ونحن النصاري لدينا حافر حمار عيسى عليه السلام نكرمه إلى اليوم ، سوّد الله وجهك يا يزيد ، وتبال لكم .

وذلك الشامي يقول ليزيد : هب لي هذه الجارية ، مشيراً إلى إحدى بنات الحسين عليه السلام ، وزينب تقول : ليس ذلك لك ولا لأميرك يزيد إلا أن تخرج عن ديننا ، فانتبه الحاضرون وعرفوا أن هؤلاء السبايا هم أهل بيت النبوة ومעقل الرسالة ، فقال أحدهم : سوّد الله وجهك يا يزيد زعمت أن هؤلاء خوارج .

وهكذا انتشرت الثورة في كلّ محفل حتّى وصلت إلى بيت الطاغية يزيد ، فهند زوجة يزيد أدهشت من الخبر ، ودخلت على يزيد وألقت خمارها وهو في المحفل ، وقالت : يا يزيد ، إن بنات الرسالة بلا حجاب وأنا مخدّرة ، وهذا رأس الحسين عليه السلام على باب دارنا ، لا والله ، فقام يزيد وسترها .

وحين كان السجّاد عليه السلام يمشي في الطريق لقيه أحد الشاميين وقال له : الحمد لله الذي أهلككم وهدّكم ، فقال له السجّاد عليه السلام : « مهلاً ، هل قرأت قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ [الشورى : ٢٣] ؟ » ، فقال : نعم ، قال عليه السلام : « نحن القربى » ، ثم قال له عليه السلام : « هل قرأت قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ؟ » ، قال : نعم ، قال عليه السلام : « نحن أهل بيت النبوة » ، عندها الشامي أسقط ما في يديه ، ثم قال : سوّد الله وجهك يا يزيد ، أنت تزعم أن هؤلاء خوارج في حين أنّهم أهل بيت النبوة ، فهذه ثورة حدثت في بيت يزيد وأزقة الشام .

وكذلك زينب عليها السلام أحدثت ثورة في الشام على الصعيد النسوي في خربة الشام ، وأدّى الأمر إلى أن يأتي مروان بن الحكم إلى يزيد ويقول له : إذا كانت لك رغبة في الملك على الشام فأمر برحيل عليّ بن الحسين وأهل بيته ، فبقاؤهم ليس في صالحك ويؤدّي إلى حدوث ثورة وانقلاب على الحكم الأموي ، فأمرهم يزيد بالعودة إلى المدينة المنورة ، حيث أقبل على الإمام زين العابدين عليه السلام بلهجة أخرى وقال له : إذا أحببت

البقاء فالبيت بيتك ، وإذا أحببت الرحيل إلى المدينة جهّزتك .

هذا الكلام جاء نتيجة الإذعان لثورة حقيقية حدثت في الشام ، وانتصار حقيقي حققه رأس الحسين ﷺ .

طلب الإمام السجّاد ﷺ العودة إلى المدينة المنورة ، وجهّزه يزيد بما يحتاج في السفر من الحشم والخدم وأن يسيروا بإمرة السجّاد ﷺ .

تقول الرواية : إنهم خرجوا من دمشق إلى المدينة وهو غير طريق العراق الذي جاؤوا منه ، فالطريق من دمشق إلى العراق يسير الركب باتجاه الشرق ، وفي طريق المدينة يسير إلى الجنوب الغربي ، ولكن بطلب من العقيلة زينب ﷺ توجه الركب إلى كربلاء وقطع الركب مسافة مئات الكيلومترات نحو كربلاء ، فوصل الركب إلى كربلاء يوم الأربعاء ، وهنا التقى السجّاد ﷺ مع جابر بن عبد الله الأنصاري الذي وصل كربلاء وألقى بنفسه على القبر الشريف منادياً : « يا حسين ، يا حسين ، يا حسين ، حبيب لا يجب حبيه ، وأنّي لك بالجواب وقد شحطت أوداجك على أثباجك ، وفرّق بين رأسك وجسدك » (١)(٢) .

عودة الإمام السجّاد ﷺ

إنّ زيارة الأربعين من أهمّ الزيارات والشعائر عند شيعة أهل البيت ﷺ .

المعروف تاريخياً أنّ الإمام السجّاد ﷺ عاد إلى كربلاء من الشام في يوم الأربعاء ومعه عقائل بيت النبوة ، وهناك رأي آخر يقول : إنّ الإمام السجّاد ﷺ زار الإمام الحسين ﷺ في سنة أخرى ، وذلك لصعوبة الوصول إلى كربلاء من الشام في هذه المدة الوجيزة ، وهذه القضية تحتاج إلى تحقيق .

فالحسين ﷺ قُتل يوم العاشر من محرّم الحرام ، والركب لم يتحرّك يوم العاشر بل

(١) انظر ما روي في زيارة جابر بن عبد الله الأنصاري لقبر الحسين ﷺ : البحار ٦٥ : ١٣٠ .

(٢) انظر ما تقدّم ونحوه في : الإرشاد ٢ : ١١٨ ؛ بحار الأنوار ٤٥ : ١٢١ - ١٤٩ .

يوم الحادي عشر ، ثم رحل إلى الكوفة ، والطريق إلى الكوفة يحتاج إلى يوم واحد في أقل تقدير ، ومكثوا في قصر ابن زياد ساعات أو أكثر ، بل المعروف أنَّهم مكثوا ثلاثة أيام ، ثم رحلوا باتجاه الشام ، وعلى كل حال تقول الروايات : إنَّهم وصلوا الشام في اليوم الأوَّل من صفر ، وهو يعني أنَّ حركة الركب من كربلاء إلى الشام استغرقت عشرين يوماً ، والطريق كان طريقاً ملتوياً غير عادي ، ولا ندري لماذا ؟ هل لإرادة أموية لكي يتفرَّج عليهم الناس ، أم لمسألة جغرافية كانت يومئذٍ ؟

ومن ينظر إلى حركة السبايا يجد أنَّها حركة غير طبيعية من كربلاء إلى تكريت ، ثم إلى الموصل ، ومن الموصل إلى نصيبين على الحدود التركية ، ثم دخلوا سوريا إلى حماة ، وحمص ، ودمشق ، وكان بإمكانهم اختصار المسافة المطوّلة ، ثم وقفوا على باب دمشق ثلاثة أيام حتَّى زُيِّت ، ومكثوا فيها عشرة أيام ، في سبعة أيام منها عُقِدَ المأتم للحسين عليه السلام ، ثم انطلقوا من دمشق في يوم الحادي عشر من صفر ووصلوا إلى كربلاء يوم (٢٠) صفر ، أي استغرق السفر في العودة تسعة أيام .

هل هذا ممكن على مستوى المسارات وطبيعتها يوم ذاك بأن يقطعوا خلال أربعين يوماً مسافة مقدارها أكثر من (١٥٠٠ كم) ذهاباً وإياباً مع مكوثهم في الطريق في هذه القرية وذلك الدير للنصارى وفي القصر الأموي وما شاكل ذلك ؟

ربَّما يقول بعض المؤرِّخين : إنَّ هذه الفترة قصيرة لا تكفي لهذه الرحلة الطويلة ، ومع ذلك يمكن قبولها علمياً إذا افترضنا أنَّهم كانوا يمشون في اليوم خمسين كيلومتراً أو أقل ، وهي مسيرة صعبة وشاقَّة في الذهاب من كربلاء إلى الشام ، وربَّما كان ذلك بسوقهم سوقاً عنيفاً باعتبارهم أسرى ، لكن رجوعهم إلى كربلاء منذ (١١) صفر حسب الرواية كان مسيراً مدللاً مرفَّهاً ، لأنَّ يزيد أوصى بهم ، فالعودة كانت بشكل محترم لا كعودة السبايا ، فهل يمكن أن يقطعوا هذه المسافة الطويلة خلال هذه الفترة القصيرة وهي تسعة أيام ؟

إنَّه ممكن ، ولكن بصعوبة ، ولذا فإنَّ بعض المؤرِّخين يرى أنَّ عودة السجَّاد عليه السلام

إلى كربلاء كان في السنة الثانية بعد مقتل الحسين ﷺ .

على كل حال المعروف حسب الرواية المشهورة أنَّ ركب السَّجَّاد ﷺ قد عاد من الشام إلى كربلاء ووصل يوم العشرين من صفر^(١) .

(١) قال السيّد ابن طاووس رحمه الله : وجدت في المصباح أنَّ حرم الحسين ﷺ وصلوا المدينة مع مولانا عليّ بن الحسين ﷺ يوم العشرين من صفر ، وفي غير المصباح أنَّهم وصلوا كربلاء أيضاً في عودهم من الشام يوم العشرين من صفر ، وكلاهما مستبعد ؛ لأنَّ عبید الله بن زياد لعنه الله كتب إلى يزيد يُعرِّفه ما جرى ويستأذنه في حملهم ، ولم يحملهم حتّى عاد الجواب إليه ، وهذا يحتاج إلى نحو عشرين يوماً أو أكثر منها ، ولأنَّه لمّا حملهم إلى الشام روي أنَّهم أقاموا فيها شهراً في موضع لا يكتنهم من حرٍّ ولا برد ، وصورة الحال يقتضي أنَّهم تأخّروا أكثر من أربعين يوماً من يوم قُتِلَ ﷺ إلى أن وصلوا العراق أو المدينة . وأمّا جوازهم في عودهم على كربلاء فيمكن ذلك ، ولكنّه ما يكون وصولهم إليها يوم العشرين من صفر ، لأنَّهم اجتمعوا على ما روى جابر بن عبد الله الأنصاري ، فإن كان جابر وصل زائراً من الحجاز فيحتاج وصول الخبر إليه ومجيئه أكثر من أربعين يوماً ، وعلى أن يكون جابر وصل من غير الحجاز من الكوفة أو غيرها . (إقبال الأعمال ٣ : ١٠١) .



أَلْبَابُ السَّادِسُ

مَعَ الْإِمَامِ السَّجَّادِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١. دور الإمام السَّجَّادِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
٢. الواقع الاجتماعي في زمن السَّجَّادِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
٣. شذرات من دعاء الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ
٤. الصحيفة السَّجَّادية



دور الإمام السَّجَّاد عليه السلام

وُلِدَ إمامنا السَّجَّاد عليه السلام في عام (٣٨) للهجرة ، واستُشهِدَ في عام (٩٤) للهجرة يوم (٢٥) من شهر محرم الحرام ، ويمكن تلخيص أبرز أدواره عليه السلام بما يلي :

أولاً : المحافظة على الجماعة الصالحة (شيعة أهل البيت) من الاستئصال والقمع ، حيث وصلت الملاحقة الأموية وال مروانية لأهل البيت وشيعتهم والدعاية المضادة لأهل البيت التي قادها الأمويون درجة يقول إمامنا زين العابدين عليه السلام : « ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يُحِبُّنا »^(١) ، لكن في مقابل ذلك - وهذه بشرى تُزَفُّ لكم أيُّها العراقيون - كان العراق عاصمة التشيع في ذلك الزمان ، يعتمر بحُبِّ أهل البيت عليه السلام ، كانت قلوب العراقيين تعتمر بمحبة أهل البيت عليه السلام .

ثانياً : الدفاع عن القيم الأخلاقية وتثبيتها وتأكيد لها في مواجهة الزحف اللاأخلاقي الذي قاده حُكَّام بني أمية .

كان الإمام السَّجَّاد عليه السلام يحمل راية الدفاع عن القيم الأخلاقية ، وأنا بهذا الصدد أوصي إخواني وأخواتي وخاصة طلبة العلوم الدينية بقراءة دعاء مكارم الأخلاق للإمام السَّجَّاد عليه السلام ، وشرح هذا الدعاء للناس والوقوف عند معانيه العظيمة ، وهكذا أدعية

(١) بحار الأنوار ٤٦ : ١٤٣ .

الصحيفة السجّادية المباركة لإمامنا زين العابدين ﷺ ، هذه قيم أخلاقية عُرِضَتْ بصورة دعاء ، ومناجاة بين الإنسان وبين الله سبحانه وتعالى .

الموقف السياسي للإمام ﷺ :

أمّا حديثنا عن الموقف السياسي المتميّز للإمام زين العابدين ﷺ ، يمكن أن نرسمه بهذا الإطار ، وهو الرقابة العامّة على الواقع الثقافي والسياسي دون التدخّل المباشر في الشأن السياسي ، ودون الغياب عن الساحة السياسية ، فلم نسمع أنّ الإمام السجّاد ﷺ قاد ثورة ، وكذا لم نجد منه غياباً وانسحاباً مطلقاً عن الساحة السياسية ، بل كان حضوره بمستوى الرقابة العامّة على الواقع السياسي والثقافي ، فمتى ما كانت هناك حاجة وضرورة في الساحة نجد الإمام حاضراً فيها .

حلُّ الأزمة مع الروم :

وهذا ما سجّله الإمام ﷺ أيام حكم عبد الملك بن مروان ، فقد حصل سجال وقتال وتنافس بين الروم وبين الحكومة الأموية ، فملك الروم أرسل تهديداً اقتصادياً إلى عبد الملك بن مروان ، وهو ما تُسمّيه اليوم بالعقوبات الاقتصادية التي تُفرض على الدول الفقيرة ، فالروم مارسوا عقوبات اقتصادية على الدولة الإسلامية ، وذلك بمنع سكّ السكّة النقدية المتداولة يومذاك في الدولة الإسلامية التي كانت تأتي من الروم وعليها شعار الروم وليس فيها أيّ شعار إسلامي .

كان الروم في مقام تهديد الحكم الأموي ، وهو في ظاهره حكم إسلامي ، فملك الروم أرسل رسالة إلى عبد الملك وقال فيها : إذا لم تقبل بتنازلات سأقطع عليك السكّة النقدية ، فوقع عبد الملك في حرج حقيقي وضغط اقتصادي كبير ، وقال : (أنا أشأم مولود وُلِدَ في الإسلام) بسبب هذه المعضلة ، فجمع الناس للتشاور معهم ، فقالوا له : الحلُّ عند البقيّة من ذرية رسول الله ﷺ .

فقال : مَنْ هو ؟

قالوا له : عليُّ بن الحسين عليه السلام ، وكان عبد الملك في الشام والإمام السجاد عليه السلام في المدينة المنورة ، فأرسل سريعاً إلى زين العابدين عليه السلام قائلاً : يا بن رسول ، إنَّ مشكلتي كذا وكذا .

الإمام زين العابدين عليه السلام أرسل ابنه محمد الباقر عليه السلام وهو صغير من المدينة إلى الشام ، تصوّروا هذا السفر يستغرق كثيراً من الوقت والإمام الباقر عليه السلام صغير السن ، لكي يحلَّ المعضلة الاقتصادية ، وبالفعل أعطى مخططاً لعبد الملك بن مروان الأموي ، الباقر عليه السلام حلَّ المعضلة الاقتصادية ، بل أكثر من ذلك استغنى المسلمون عن السكّة الرومية التي تأتي مكتوبة باللغة الرومية ، أوجدوا سكّة مكتوب عليها (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) ، هذا حضور في الحقيقة في الساحة السياسية والثقافية وليس غياباً ، في نفس الوقت لا يوجد تدخل مباشر للإمام عليه السلام ، في ظاهر الحال أنّه منصرف للعبادة وللمناجاة ، ولهذا فإنَّ البعض ممّن لا يفهم الموقف السياسي بشكل جيّد يعتبر على الإمام السجاد عليه السلام .

إعادة بناء الكعبة :

ويمكن أن نذكر هنا نموذجاً ثانياً لحضور الإمام زين العابدين عليه السلام في مجمل أحداث الساحة ما جاء في قصّة هدم الحجاج للكعبة الشريفة ، تقول الرواية :

لما هدم الحجاج الكعبة فرّق الناس تراها ، فلمّا صاروا إلى بنائها فأرادوا أن يبنوها خرجت عليهم حيّة فمنعت الناس البناء حتّى هربوا فأتوا الحجاج ، فخاف أن يكون قد مُنِعَ بناها ، فصعد المنبر ثمّ نشد الناس وقال : رحم الله عبداً عنده ممّا ابتلينا به علم لما أخبرنا به .

قال : فقام إليه شيخ فقال : إن يكن عند أحد علم فعند رجل رأيته جاء إلى الكعبة فأخذ مقدارها ثمّ مضى .

فقال الحجاج : مَنْ هو ؟ فقال : عليُّ بن الحسين عليه السلام ، فقال : معدن ذلك ، فبعث

أمّا أنت تريدني أن أجاهد تحت لواء الحكم الأموي ، مثل البعض كانوا يريدوننا أن نجاهد تحت راية صدام بعنوان أننا نقاتل الأمريكان ، لكن القتال يجب أن يكون تحت لواء نظيف ، الإمام زين العابدين عليه السلام غير مستعد أن يقاتل تحت اللواء الأموي .

نظرية الشيعة في الإمام عليه السلام :

ونحن نتحدّث عن الإمام زين العابدين عليه السلام لنقف عند نظرية الشيعة في الإمام عليه السلام .

أولاً : الإمام هو الذي يُحدّد الموقف السياسي والجهادي ، يعني إذا الإمام قعد لا نقول : لماذا أصبح الإمام قاعداً ؟ هذا ليس إماماً ، الإمام هو الذي يُحدّد متى نقعد ومتى نقوم ، قال رسول الله ﷺ : « الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا »^(١) ، فالإمام عليه السلام هو الذي يُحدّد الموقف .

ثانياً : في الفهم الشيعي ، لدينا أهداف ثابتة ومواقف متحرّكة ، الهدف الثابت هو الانتصار للإسلام وكلمة لا إله إلا الله ، هذا هو هدفنا لكن الموقف يكون متحرّكاً ، موقف الإمام الباقر والصادق عليهما السلام بشكل ، وموقف الإمام السجاد عليه السلام بشكل آخر ، وموقف الإمام الحسين عليه السلام بشكل ثالث ، وموقف الإمام الحسن عليه السلام بشكل رابع ، وموقف الإمام علي عليه السلام بشكل خامس ، فالموقف متحرّك لكن الأهداف ثابتة ، يعني في فكر شيعة أهل البيت إنّ الأهداف ثابتة ولكن الموقف يتغيّر مرّةً بهذا الشكل ومرّةً بهذا الشكل ، هذا الفهم وهذا النمط من التعامل مع الأحداث على أساس ثبات الأهداف من ناحية ومرونة المواقف من ناحية ثابتة هو الذي أكسب الشيعة قدرة على البقاء وتحقيق الانتصار .

معالم الرؤية السياسية الشيعية :

ثلاثة معالم أستطيع أن أضعها كعناوين للإطار الذي يجمع الرؤية الشيعية السياسية :

أولاً : السياسة الواقعية .

(١) كفاية الأثر : ١١٧ .

ثانياً : القدرة على التكيف .

ثالثاً : التزام الأهداف الأصلية .

هذه الأمور الثلاثة : السياسة الواقعية وليست الخيالية والمثالية ، وثانياً : القدرة على التكيف مع الأحداث ، وثالثاً : الالتزام بالهدف وليس الدجل والكذب وبيع الأهداف لأجل مصالح سياسية .

هذه الأمور الثلاثة التي نقرؤها في سيرة أئمتنا وعلمائنا وتيار شيعة أهل البيت ﷺ هي التي أكسبتنا قدرة على البقاء ثم قدرة على الانتصار بإذن الله تعالى .

المواقع الاجتماعية في زمن السجّاد عليه السلام

اليوم أتناول رواية معروفة عن الإمام السجّاد عليه السلام يقول فيها : « ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يُحبُّنا أهل البيت »^(١) .

أريد أن أفهم مع هذه الرواية المشهورة ، ولا أتحدث عن صحّتها السنية ودقّتها التاريخية ، لأنّ المفهوم الذي يطرحه الإمام عليه السلام هو مفهوم صحيح بقطع النظر عن هذه الرواية ، الإمام يتحدث عن حصار سياسي مذهبي تعرّض له أهل البيت ﷺ ، وهو حصار شديد خاصّة بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام .

كان هناك حصار أممي مخابراتي ، تعرفون أنّ المعركة كانت بين سلطات دكتاتور وبين ابن الإمام الحسين عليه السلام ، فلا بدّ أن يكون ملاحقاً مطارداً ، وأن تعمل الأبواق الدعائية ، وتعمل القنوات الإعلامية لتطويق حركة أهل البيت ﷺ ، وقد بلغت عملية التطويق مستوى عالٍ جدّاً ، حتّى إنّ الإمام السجّاد عليه السلام يقول : نحن محاصرون في المدينة ، هي مسقط رأسهم ، في مكة نحن محاصرون ، « ما بمكة والمدينة عشرون بيتاً أو رجلاً يُحبُّنا » .

قد تسأل : هل الناس يومئذٍ لا يُحبُّون أهل البيت ﷺ مع أن الله قال : ﴿ قُلْ لَا

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴿٢٣﴾ (الشورى: ٢٣) ؟ هل يمكن أن نقبل أن لا يوجد في المدينة أو في مكة من يُحِبُّ آل البيت عليه السلام ؟

كلاً طبعاً ، ربّما لا يكون ذاك هو المقصود ، فالمحبة موجودة ، والناس كانوا يُقدِّرون غاية التقدير الإمام زين العابدين عليه السلام يومئذٍ ، والهبة والاحترام محفوظ للإمام الباقر والصادق عليه السلام في المدينة المنورة ، لكن الانتماء والولاء والاتباع لأهل البيت عليه السلام ربّما هو ما يشير إليه الإمام زين العابدين عليه السلام ، فالمسألة ليست مسألة الحبّ القلبي والعواطف الوجدانية للإمام عليه السلام ، فلو لم يكن الإمام زين العابدين عليه السلام إلا شخصية كبيرة من شخصيات بني هاشم لكفى أن يكون له علاقات واسعة ، ولو لم يكن إلا شيخ من شيوخ المدينة المنورة ومكة المكرمة لكفى ذلك في امتداده في قلوب الناس .

إذن المقصود ليس هو المحبة ، بل هو الانتماء الفكري السياسي ، إذ إن أهل البيت عليه السلام عُزلوا في معركة المحاصرة ، فلم يكن في المدينة انتماء فكري وسياسي إلى أهل البيت عليه السلام إنّما كان هناك انتماء للمدرسة الحاكمة والسلطات يومئذٍ ، ومدرسة أهل البيت عليه السلام انتقلت من مكة والمدينة إلى العراق ، وهذه قضية تاريخية ملفتة للنظر ، لكن هي ثابتة بما لا مناقشة فيه .

الإمام الصادق عليه السلام مثلاً أو الإمام الباقر عليه السلام كان موجوداً في المدينة ولكن شيعته ومدرسته في الكوفة ، وكانوا يلتقون بالإمام الصادق والإمام الباقر عليه السلام في الحجّ ، الإمام عليه السلام في المدينة محاصر ومفروض عليه طوق ، ولا يوجد انتماء سياسي وفكري له ، ولكن هذا الانتماء موجود في العراق ، وهذه القضية تكرّرت مع الإمام زين العابدين عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام وهكذا امتدّت حتّى كان هشام بن عبد الملك (الحاكم الأموي) حينما يتحدّث عن الإمام الباقر عليه السلام يقول : (هذا المفتون به أهل الكوفة) أو (هذا نبيّ أهل الكوفة) .

تيار أهل البيت ﷺ في العراق :

كيف يُفسَّر ذلك ؟

أحد تلك التفاسير هو أنَّ المجموعة الصالحة المرتبطة بأهل البيت ﷺ هاجروا من المدينة ومكة إلى العراق ، فالإمام عليّ ﷺ اختار العراق عاصمته السياسية ، حيث تقول الراوية : إنَّ أربعة آلاف شخصية جاؤوا معه من المدينة واستقروا معه في الكوفة وما رجعوا ، ولهذا فإنَّ شريحة كبيرة جدًّا ممَّن سكنوا العراق والكوفة كان موطنهم الأصلي هو مكة والمدينة ، جاؤوا مع الإمام عليّ ﷺ واستوطنوها وأصبحت رحلة العشائر من مكة والمدينة إلى العاصمة العراقية ، وخيرات العراق ، وموقعه الاستراتيجي ، حيث هاجرت العناصر المحبَّة لأهل البيت ﷺ إلى العراق وبقيت هنا امتداداتهم ، وفي مكة والمدينة لم يبقَ لهم امتداد ، هذا قد يُفسَّر قول الإمام السجَّاد ﷺ : « ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يُحبُّنا » .

لا يقول قائل : هذا يعني أنَّ أهل البيت ﷺ فشلوا في استقطاب الناس رغم أخلاقهم الكبيرة وموقعهم الديني الكبير ، كلاً فقد كانوا أكثر الناس محبةً في القلوب ، لكن الحديث ليس عن المحبة ، فالناس في الفتن والمحن كانوا يلوذون بأهل البيت ﷺ حتَّى أعدائهم أمثال مروان بن الحكم الذي أحضر عياله ووضعهم عند الإمام السجَّاد ﷺ حينما داهموا المدينة واقتحمها الجيش الأموي ، العيالات الأموية جاؤوا يلوذون بالإمام السجَّاد ﷺ .

فالحبُّ موجود ، والامتداد الاجتماعي موجود ، لكن الارتباط الفكري والسياسي غير موجود ، هؤلاء الناس غير مرتبطين بأهل البيت ﷺ فكرياً وسياسياً ، وإنَّما أتباع أهل البيت ﷺ انتقلوا إلى العراق وترسَّخت أقدامهم في العراق ، هذا ما نستطيع أن نُفسِّره عن هذا الحديث للإمام السجَّاد ﷺ ، وبقيت مدرسة الشيعة العلمية ومدرسة الشيعة السياسية إلى يومنا هذا في العراق .

بناء الأمة الصالحة :

يقول عليه السلام : « ما ندري ما نصنع بالناس إن حدثناهم ضحكوا وإن سكتنا لم يسعنا السكوت »^(١) ، وهذا النص له دلالة اجتماعية وسياسية ودينية .

الإمام عليه السلام يقول : إن مهمتنا هي التغيير وبناء الإنسان الصالح والأمة الصالحة .
الإمام زين العابدين عليه السلام واجه أمة متعبة ومنهارة ومترددة في نصرة الحق ، فيقول الإمام عليه السلام : « إن حدثناهم ضحكوا » ، فكأن الحديث ليس حديث أهل بيت النبوة تذكيراً بالله وبالأخرة ، بل يأخذونه بسخرية كما كانوا يتعاملون مع نوح عليه السلام : ﴿ وَكَلَّمَ مَرْءَ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ (هود : ٣٨) ، والإمام كذلك لا يستطيع السكوت ؛ لأن مسؤوليتهم هي هداية الناس ، « وإن سكتنا لم يسعنا السكوت » ، إذن هذا هو واقع الأمة كما يشرحه الإمام السجاد عليه السلام .

الهجرة إلى العراق :

ولهذا كان نزوح أهل البيت عليهم السلام إلى العراق .
كنت أقرأ رواية جميلة هي من دواعي الاستبشار ، وهي تشرح كيف كانت عيون أهل البيت عليهم السلام على العراق .
كان الإمام زين العابدين عليه السلام في المدينة ، فاستقبل مجموعة من الناس ، فقال : « من القوم ؟ » .

قالوا : من أهل الكوفة !

فقال : « مرحباً بكم يا أهل الكوفة ، أنتم الشعار دون الدثار »^(٢) «^(٣) .

هذا هو تقدير أئمة أهل البيت عليهم السلام للعراق ، وعنى الإمام بالشعار الملابس الداخلية التي تلبس على الجلد ، والدثار هي الملابس الخارجية التي تحمي الملابس الداخلية ، أي أنتم أيها العراقيون ملتصقون بنا جداً .

(١) الإرشاد للمفيد : ٢٦٦ .

(٢) الشعار : ما يلي الجسد من الثياب ، والدثار : ما فوق الشعار من الثياب .

(٣) الوسائل ١ : ٣٦٨ عن الكافي ؛ ورواه الصدوق أيضاً .

التحول في مكة والمدينة :

كان ذلك هو الواقع في مكة والمدينة ، كما يقول إمامنا زين العابدين عليه السلام : « ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يُحِبُّنا أهل البيت » ، ولكن انظروا إلى جهود الإمام السجاد عليه السلام خلال خمس وثلاثين سنة من ذلك الموقع الذي يقول فيه : « لا ندري ما نصنع بالناس » ، و « لا يوجد في مكة والمدينة عشرون رجلاً يُحِبُّنا أهل البيت » ، إلى ما يرويه الزهري - وهو من الفقهاء من غير تيار أهل البيت عليه السلام ، بل كان قاضياً للسلطة يومئذ - حيث يقول : (لا يخرج الناس في الحج من مكة إلا إذا خرج سيّد الساجدين زين العابدين)^(١) ، أي إن الموقف تطوّر وأصبح الناس يأخذون الرأي الفقهي من الإمام عليه السلام .

عمر بن عبد العزيز قبل أن يتولّى الحكم كان لديه لقاء مع الإمام زين العابدين عليه السلام ، فقام عنه وقال : (قمت من عند أشرف الناس) .

ف قيل له : أَلستم أشرف الناس ؟

قال : (هذا أشرف الناس مَنْ يُحِبُّ الجميع أن ينتسبوا إليه وهو لا يُحِبُّ أن ينتسب إلى أحد)^(٢) .

والأجواء يومئذ لا تزال أجواء أموية ، والمحلل التاريخي لا يقف عند رؤية عمر بن عبد العزيز ، بل هو المناخ الذي صنعه الإمام زين العابدين عليه السلام ، فلو لم يكن المناخ يساعد الخليفة يومئذ لم يتكلّم بهذه الكلمة .

شذرات من دعاء الإمام عليه السلام

« اللهم يا من إذا سأله عبد أعطاه ، وإذا أَمَل ما عنده بلغه مناه ، وإذا جاهره بالعصيان ستر على ذنبه وغطّاه ، وإذا أقبل عليه قرّبه وأدناه ، وإذا توكل عليه أحسبه وكفاه ، إلهي من ذا الذي أتاك ملتمساً قراك فما قرّيته ، ومن ذا الذي أناخ ببابك فما آوَيْته ، أَيْحَسَن أن أرجع عن بابك بالخفية مصروفاً ، وأنا لا أعرف سواك مولى بالإحسان موصوفاً ، اللهم قرّب علينا

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ١٤٥ .

(٢) بحار الأنوار ٤٦ : ٣٤٠ ؛ وقريب منه جاء في محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ١ : ١٦٦ .

البعيد ، وسهّل علينا العسير الشديد ، اللهم اسلك بنا سُبُل الوصول إليك ، وسيرّنا في أقرب الطُرُق للوفود عليك ، واجعلنا من عبادك الذين هم بالبدار إليك يسارعون ، وبابك على الدوام يطرقون ، وهم من خشيتك مشفقون ، الذين صفيت لهم المشارب ، وحققت لهم المطالب ، فهم إلى أوكار الأفكار يأوون ، وفي حقائق القرب يرتعون»^(١) .

هذه مقاطع من دعاء إمامنا زين العابدين عليه السلام في مناجاة الراجين وأخرى في مناجاة المريدين ، وهي معانٍ لو كُتِبَتْ على أفق السماء لكانت لذلك أهلاً .

« اللهم يا من إذا سأله عبد أعطاه » ، أي إلهي أنت الذي إذا سألتك أعطيتنا ، وإذا أقبلنا عليك قرّبتنا ، وإذا جاهرناك بالعصيان سترت على ذنوبنا وغطيتنا ، وهذه الصفات الجميلة لله تبارك وتعالى ، ونحن هكذا يجب أن نفهم الله تعالى ، ونخاطبه ونتعامل معه . يقول : « إلهي مَنْ ذا الذي أتاك ملتمساً قراك فما قرّيته » ، الشخص الفقير المسكين الذي يأتيك ويلتمس منك القرى أي العطية ، لا يوجد في الدنيا راجٍ رده الله تعالى وقد جاءه صادقاً في الطلب .

« ومن ذا الذي أناخ ببابك فما آوَيْته » ، انظروا إلى جمال القلب والأدب كيف يتعامل مع الله تعالى ، « أيجسن أن أرجع عن بابك بالخيبة مصروفاً ، وأنا لا أعرف سواك مولى بالإحسان موصوفاً » ، وهل هناك غيرك موصوف بالإحسان ؟

« اللهم اسلك بنا سُبُل الوصول إليك » ، نحن نريد أن نسلك سُبُل الوصول إليك ، فالدنيا دار البعد وعالم الفراق ، فأعيننا معصوبة وقلوبنا محجوبة ، وعلينا أن نعمل دائماً للاتّصال بالحقيقة المطلقة التي إذا خاطبتها أجابتك ، وإذا استعنت بها نصرتك .

دعاء مستجاب :

تقول الرواية : كان الناس يدعون فلا يُستجاب لهم ، فجاءوا إلى الإمام زين العابدين عليه السلام وقالوا : يا بن رسول الله ، ادع لنا ، فرفع يده إلى السماء وقال : « يا ربّ

(١) مفاتيح الجنان للشيخ القمي .

أَسْأَلُكَ بِحُبِّكَ لِي أَنْ تَقْضِيَ حَاجَتَهُمْ ، قيل : يا بن رسول الله ، ما أدراك أن الله تعالى يُحِبُّكَ ؟ إِنَّ هَذَا لَدَعَاءٌ عَظِيمٌ ، قال : « لَا تُبِيحُ أَحِبُّهُ »^(١) .

قال الإمام زين العابدين (عليه السلام) في دعائه : « إلهي كيف أنساك ولم تزل ذاكري ، وكيف أهو عنك وأنت مراقبي ، إِنَّ الله تبارك وتعالى لم ينسنا على طول عمرنا لحظة واحدة ، وكلُّ ما لدينا من حياة وصحَّة ، وحول وقوَّة ، ويقظة ونوم ، وأكل وشرب ، كلُّه برعايته ، فلو أعرض الله تعالى عن العبد سيكون كمثل انقطاع التيار الكهربائي عن المصباح ، فكيف ننساه ولم يزل يذكرنا في كلِّ نفس من أنفاسنا ، وكلِّ لحظة من لحظات نومنا ؟ فلو أنَّ تعالى قطع صلته بنا إذا ما استيقظنا بعد النوم ، وحينما يخرج نفْسنا فإنَّه سوف لن يعود ، والرئة لن تتحرَّك ، والقلب لا ينبض .

لهذا فإنَّ رسول الله ﷺ حينما كان ساجداً في منتصف الليل في ساحة الدار وبحث عنه زوجته عائشة فوجدته ساجداً باكياً يدعو ويقول : « إلهي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً » ، فلما انتهت من صلاته وسجوده ، رجع ووجد أنَّ عائشة قد عادت قبله وهي تتنفس بقوة ، فسألها عن ذلك ، قالت : كنت أنظر إليك يا رسول الله ، وأسمع دعاءك ، قال ﷺ : « يا عائشة ، إِنَّ الله تعالى ترك أخي يونس إلى نفسه لحظة واحدة فأصابه ما أصابه ! »^(٢) ، ولهذا يجب أن نكون من الذاكرين ، وليكن ذكر الله تبارك وتعالى على ألسنتنا ، واحفظوا هذا الدعاء : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالْمَعَاذَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » ، وهو من جوامع الأدعية .

يقول الإمام السجَّاد (عليه السلام) : « إلهي لا تغلق على موحدك أبواب رحمتك ، ولا تحجب مشتاقك عن النظر إلى جميل رؤيتك ، إلهي نفس أعزرتها بتوحيديك كيف تذلها بمهانة هجرانك ؟ وضمير انعقد على محبتك كيف تُحرِّقه بحرارة نيرانك ؟ »^(٣) .

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٤٦ : ٥١ .

(٢) شرح سنن النسائي/ كتاب عشرة النساء/ تابع باب الغيرة/ للشيخ عبد المحسن العباد .

(٣) الصحيفة السجَّادية/ مقطع من مناجاة الخائفين .

فضل الإمام السجّاد عليه السلام :

في الخامس والعشرين من محرّم الحرام ذكرى شهادة الإمام السجّاد عليه السلام ، هذا الإمام من آل رسول الله ﷺ الذي شهد بفضله المخالفون .
تحدّث عنه الزهري وهو من كبار الفقهاء التابعين وقال عنه : (ما رأيت قرشياً أفضل من زين العابدين) .
وقال عنه مالك إمام المذهب المالكي : (سُمّي زين العابدين لعبادته) .

الصحيفة السجّادية

أحدّثكم اليوم عن الصحيفة السجّادية ، وهو أروع إنتاج أدبي ومعرفي وعقائدي للإمام السجّاد عليه السلام ، وهو كتاب ما زال لم يأخذ استحقيقه في الأدبيات الإسلامية ، وهو خمسون دعاء تتميز بعدة مميزات :

أولاً : تنوع الدعاء :

تنوع الدعاء في مختلف الميادين في التوبة ، وفيما لو أحزنه أمر ، أو داهمه عدوّ ، أو إذا قُتر عليه الرزق ، أو لنزول المطر ، أو لأهل الثغور ، أو في الحروب ، أو العيد ، أو عند رؤية هلال شهر رمضان ، أو كيفية الدعاء لوالديه ، أو لجيرانه ، وهناك صلوات على الملائكة ، ودعاء في حمد الله تعالى ، وكيفية الصلاة على النبي ﷺ والصحابة ، ورفع الدّين ، ومكارم الأخلاق . وهذا تنوع رائع في هذه الموسوعة ، فلا يكاد يوجد لديك همٌّ أو قضية معيّنة أو اهتمام إلّا وأعطاك الإمام عليه السلام ما هو أدب الدعاء في تلك القضية ، تنظر الإمام يُعلّمك كيف تخاطب الله تعالى في ذلك المورد .

ثانياً : منظومة عقائدية :

فهي ليست مجرد أدعية ، بل هي تُقدّم لنا منظومة فكرية في المجال العقائدي في الاعتقاد بالله وصفاته ، وفي الرسول ، والوحي ، والملائكة وغيرها .

ثالثاً : العرفان :

فهي ليست مجرد اعتقادات نظرية ، وإنما هي تواصل العرفان الإسلامي ، فإذا أردت أن تصبح من العرفاء اقرأ الصحيفة السجّادية وتمثّل أدب الصحيفة السجّادية التي يقول فيها : « فأنت لا غيرك مرادي ، ولك لا لسواك سهري وسهادي ، ولقاؤك قرّة عيني ، ووصلك مني نفسي ، فلا تطمئنّ القلوب إلّا بذكراك ، ولا تستقرّ النفوس إلّا عند لقيك ، أنت الموجود في كلّ مكان ، والمدعو بكلّ لسان ، والمسبح في كلّ آن) ، هذه المنظومة في العرفان يجمعها الإمام زين العابدين عليه السلام في أدعيته .

رابعاً : الأدب العظيم :

وإنّ أروع ما سجّله الأدب الإسلامي في الدعاء هو أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام : « اللهم يا من إذا سأله عبد أعطاه ، وإذا أمّل ما عنده بلغه مناه ، وإذا جاهره بالعصيان ستر عليه وغطّاه ، وإذا أقبل عليه قرّبه وأدناه » .

الدعاء بروائع الأدب : « إلهي من الذي أتاك ملتمساً قراك فما قرّيته ، ومن الذي أناخ ببابك فما أوليته » .

بهذا الخصوص أدعو السادة في الحوزة العلمية وطلاب الجامعات لإيلاء الصحيفة السجّادية اهتماماً خاصاً وأن يُدرّس على مستوى شهادة الماجستير والدكتوراه ، مثلما لدينا آلاف الأبحاث عن الشعر الجاهلي ورابعة العدوية وما شاكل ذلك ، وهذه أروع ثقافة عند الإمام زين العابدين عليه السلام ، لندرس العقيدة الإسلامية ، وأدب الدعاء ، والأخلاق من منظور الصحيفة السجّادية ، ومئات الرسائل الجامعية ممكن يُقدّمها الطلبة لكي ينتقلون إلى مرحلة متقدّمة ، والحوزة العلمية تستطيع أن تُقدّم مئات البحوث والكُتب في شرح الصحيفة وتفسيرها ومنتخبات وأفكار منها ، ولا نكون غائبين عن هذه الموسوعة الذهبية بمقدار ما نهتمُّ بشرح قطر الندى وألفية ابن عقيل ، فلماذا نحن غرباء عن هذا التناج ؟ فيجب أن نراجع أنفسنا بنتاج أئمّتنا بدءاً من نهج

البلاغة إلى غيره ، والحوزة العلمية مدعوة للاهتمام بتنتاج أئمتنا عليهم السلام ، وأئمتنا قدّموا لنا عقائد وسيرة وأخلاق ودعاء وأشياء كثيرة لا ندرسها في الحوزة العلمية ، نعم كان هناك حصار على الحوزة العلمية وملاحقة ولا تستطيع أن تفتح ، ولكن اليوم ونحن نعيش الحرّية يجب أن نفتح على القرآن الكريم وعلى الصحيفة السجّادية وغيرها ، ويجب أن نُطوّر قدراتنا الحوزوية .



آلْبَابُ السَّابِعُ

مَعَ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١. الإمام الباقر عليه السلام في مواجهة الانحراف
٢. البُعد السياسي في حركة الإمام الباقر عليه السلام
٣. علم الإمام الباقر عليه السلام
٤. الإسلام السياسي والإسلام غير السياسي



الإمام الباقر عليه السلام في مواجهة الانحراف

في الأوّل من رجب وُلِدَ الإمام الباقر عليه السلام الذي يُعتَبَر مؤسّساً للمدرسة الفكرية وللقاعدة الجماهيرية للمذهب ، فقد قام الإمام الباقر عليه السلام بتأسيس فقه المذهب ، وانتشر المذهب في عهده انتشاراً عظيماً من خلال حضوره في الساحة ، وتأسيس القاعدة الجماهيرية في العراق .

الامتداد الجماهيري :

حتّى وصل الأمر إلى أن هشام بن عبد الملك حينما سأل عن الإمام الباقر عليه السلام قيل له : هذا نبيّ أهل الكوفة ، ثمّ يدخل معه الأبرش الكلبي قائلاً : (دعونا منكم يا بني أميّة هذا أعلم أهل الأرض بما في السماء والأرض) ، وهكذا تطوّر الحال حتّى بدأ الحكم الأموي يتزلف للإمام الباقر والأئمّة الأطهار عليهم السلام ، حتّى جاء دور الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي أعاد فلك للأئمّة الأطهار عليهم السلام في عصره وقربهم ورفع السبّ عن الإمام عليّ عليه السلام الذي سنّه معاوية .

التأسيس للمدرسة الفكرية :

استطاع الإمام الباقر عليه السلام أن يؤسّس مدرسة فكرية قام برّد الأفكار الضالّة والشبهات التي تطرحها التيارات الفكرية المنحرفة آنذاك ، وقام بمناقشات مع عمرو

بن عبيد رئيس مذهب المعتزلة ، وعبد الله بن نافع الأزرق رئيس مذهب الخوارج ، وقتادة مؤسس مدرسة الرأي في تفسير القرآن ، وكبير النصارى وهو في الطريق إلى الشام ، حتى وصل الحال بأن يُجعل الإمام الباقر عليه السلام تحت الإقامة الجبرية في الشام من قِبَل الحاكم الأموي ، وقد ناقش الإمام الباقر عليه السلام أبا حنيفة زعيم المذهب الحنفي الذي قال للإمام الباقر عليه السلام : أنت الإمام ؟

قال : « لا » .

قال : فإن قوماً بالكوفة يزعمون أنك إمام ؟

قال : « فما أصنع بهم ؟ » .

قال : تكتب إليهم تُخبرهم .

قال له الإمام عليه السلام : « لا يطيعون ، إننا نستدلُّ على من غاب عنا بمن حضرنا ، قد أمرتك أن لا تجلس^(١) فلم تطعني ، وكذلك لو كتبت إليهم ما أطاعوني » ، فلم يقدر أبو حنيفة أن يردَّ عليه^(٢) .

وإلى جانب تأسيس المدرسة الفكرية للمذهب الشيعي والقاعدة الشعبية الجماهيرية كان الإمام عليه السلام يمارس دور الحماية للأمة الإسلامية .

الإمام الباقر عليه السلام مع أسقف النصارى :

دخل الإمام الباقر عليه السلام في مواجهة مع الأفكار المنحرفة سواء في داخل الإطار الإسلامي أو في خارجه مع التبشير المسيحي الذي بدأ يغزو العالم الإسلامي ، حتى إنَّ الإمام الباقر عليه السلام في طريقه إلى الشام التقى براهب وعالم من علماء النصارى ودخل معه في محاجة ومناقشة فأفحمه ، فقال ذاك العالم النصراني الكبير : يا معشر النصارى ، ما رأيت أحداً قطُّ أعلم من هذا الرجل ، ولا تسألوني عن حرف وهذا في الشام ، أي

(١) كان أبو حنيفة قد التقى الإمام وهو في المسجد ، فأراد أن يجلس عنده فلم يأذن له الإمام بالجلوس ، لكنَّه جلس رغم ذلك ، وقال للإمام : أنت الإمام ؟ إلى آخر الحديث .

(٢) مناقب آل أبي طالب/ ابن شهر آشوب ٣ : ٣٣١ .

مع وجود محمد الباقر (عليه السلام) أنا لا أستطيع أن أجيب عن أيِّ سؤال ، فردوني إلى كهفي^(١) .

(١) راجع نصّ الرواية في : الكافي ٨ : ١٢٣ / ح ٩٤ . عن عمرو بن عبد الله الثقفي ، قال : أخرج هشام بن عبد الملك أبا جعفر محمد بن عليّ (عليه السلام) من المدينة إلى الشام ، وكان ينزله معه ، فكان يقعد مع الناس في مجالسهم ، فبينما هو قاعد وعنده جماعة من الناس يسألونه إذ نظر إلى النصارى يدخلون في جبل هناك ، فقال : « ما هؤلاء القوم ؟ أ لهم عيد اليوم ؟ » ، قالوا : لا يا ابن رسول الله ، ولكنهم يأتون عالماً لهم في هذا الجبل في كل سنة في هذا اليوم فيُخرجونه ويسألونه عما يريدون وعما يكون في عامهم ، قال أبو جعفر : « وله علم ؟ » ، فقالوا : من أعلم الناس ، قد أدرك أصحاب الخواريين من أصحاب عيسى (عليه السلام) ، قال : « فهل أن نذهب إليه » ، فقالوا : ذلك إليك يا ابن رسول الله ، قال : فقنع أبو جعفر رأسه بثوبه ومضى هو وأصحابه فاختلطوا بالناس حتّى أتوا الجبل ، قال : فقعد أبو جعفر وسط النصارى هو وأصحابه ، فأخرج النصارى بساطاً ثم وضعوا الوسائد ، ثم دخلوا فأخرجوا ثم ربطوا عينيهِ فقلّب عينيهِ كأنّهما عينا أفعى ، ثم قصد نحو أبي جعفر (عليه السلام) فقال له : أمّا أنت أو من الأئمة المرحومة ؟ فقال أبو جعفر (عليه السلام) : « من الأئمة المرحومة » ، قال : أفمن علمائهم أنت أو من جُهلّهم ؟ قال : « لست من جُهلّهم » ، قال النصراني : أسألك أو تسألني ؟ قال أبو جعفر (عليه السلام) : « سلني » ، فقال : يا معشر النصارى رجل من أئمة محمد يقول : سلني ! إنّ هذا لعالم بالمسائل . ثم قال : يا عبد الله أخبرني عن ساعة ما هي من الليل ولا هي من النهار ، أي ساعة هي ؟ قال أبو جعفر (عليه السلام) : « ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس » ، قال النصراني : فإذا لم يكن من ساعات الليل ولا من ساعات النهار ، فمن أيّ الساعات هي ؟ فقال أبو جعفر (عليه السلام) : « من ساعات الجنة ، وفيها تفيق مرضانا » ، فقال النصراني : أصبت ، فأسألك أو تسألني ؟ قال أبو جعفر (عليه السلام) : « سلني » ، قال : يا معشر النصارى ، إنّ هذا الميّت بالمسائل ، أخبرني عن أهل الجنة كيف صاروا يأكلون ولا يتغوّطون ؟ أعطني مثله في الدنيا ، فقال أبو جعفر (عليه السلام) : « هو هذا الجنين في بطن أمّه يأكل ممّا تأكل أمّه ولا يتغوّط » ، قال النصراني : أصبت ، ألم تقل : ما أنا من علمائهم ؟ قال أبو جعفر (عليه السلام) : « إنّما قلت لك : ما أنا من جُهلّهم » .

قال النصراني : فأسألك أو تسألني ؟ فقال أبو جعفر (عليه السلام) : « سلني » ، قال : يا معشر النصارى ، والله لأسألك عن مسألة يرتطم فيها كما يرتطم الحمار في الوحل ، فقال : « اسأل » ، قال : أخبرني عن رجل دنا من امرأته فحملت بابنين جميعاً ، حملتهما في ساعة واحدة وماتا في ساعة واحدة ودُفنا في ساعة واحدة في قبر واحد ، فعاش أحدهما خمسين ومائة سنة ، وعاش الآخر خمسين سنة ، مَنْ هما ؟ قال أبو جعفر (عليه السلام) : « هما عُزَيْر وعُزْرَه ، كان حمل أمّهما ما وصفت ، ووضعتهما على ما وصفت ، وعاش عُزْرَه وعُزَيْر ، فعاش عُزْرَه وعُزَيْر ثلاثين سنة ، ثم أمات الله عُزَيْراً مائة سنة وبقي عُزْرَه يحيا ، ثم بعث الله عُزَيْراً فعاش مع عُزْرَه عشرين سنة » ، قال النصراني : يا معشر النصارى ، مارأيت أحداً قط أعلم من هذا الرجل ، لا تسألوني عن حرف وهذا بالشام ، ردوني ، فردوه إلى كهفه ورجع النصارى مع أبي جعفر (عليه السلام) .

الحمد لله فإن تلاميذ مدرسة الإمام علي عليه السلام اليوم وعلماءنا علماء التشيع علماء هذه الحوزة هم بالمرصاد للاتجاهات الفاسدة الكافرة .

روى عنه محمد بن مسلم ثلاثين ألف حديث ، وروى عنه أئمة المذاهب الأخرى : الشافعي ومالك وأبو حنيفة وغيرهم .

ثلاثة ظواهر :

الإمام الباقر عليه السلام كسائر أئمتنا عليه السلام سجل ثلاث ظواهر من الناحية العلمية :
الظاهرة الأولى : أنهم لم يدرسوا عند أحد ، يعني التاريخ لم يذكر ولا مرة واحدة أن الأئمة كان لديهم أستاذ حتى أصغرهم عمراً وهو الإمام الجواد عليه السلام .

الظاهرة الثانية : أنهم لم يقفوا عند مسألة قط ، يعني أنهم لم يُسئلوا في يوم من الأيام أي سؤال أو مسألة ووقفوا عندها ، أو قالوا : لا نعرف حلّها ، أو انتظروا إلى أن نراجع ، بينما كل أهل العلم والفقه أحياناً يتوقفون في مسائل عدة .

الظاهرة الثالثة : لم يكن في زمانهم أعلم منهم لا أستاذ ولا عالم .
هذه ظواهر عجيبة مما يعني أن علمهم من عند الله تبارك وتعالى .

البُعد السياسي في حركة الإمام الباقر عليه السلام

الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام ينصرف عادةً إلى البُعد العلمي ، وقد تحدّثنا عن ذلك في خطب سابقة ، لكن اليوم أريد أن أصرف الحديث إلى البُعد السياسي في حركته .
هناك قراءتان لحركة الإمام الباقر عليه السلام :

القراءة الأولى : أنه عليه السلام انصرف عن الشأن السياسي واعتزل السياسة وابتعد عن هموم الناس ، يعني أثر العزلة السياسية وانصرف للفقه والحديث والرواية وتربية التلاميذ ، هذه هي القراءة المعروفة عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام .

القراءة الثانية : أنَّ الإمام الباقر عليه السلام لم يعتزل هموم الأمة ، ولا يمكن له أن يعتزل هموم الناس ، لكنَّه سلك ومارس ما تُسمِّيه اليوم بـ (السياسة الصامتة) ، ولننظر كيف مارس الإمام هذه السياسة ؟ وما هي نتيجتها ؟

الإمام الباقر عليه السلام الذي ولي الإمامة عام (٩٥ هـ) في أوج عنفوان الحكم الأموي استطاع عبر السياسة الصامتة أن يُحدث موجاً تغييرياً أدَّى بالنهاية إلى سقوط الحكم الأموي ، أقرأ لكم اليوم أربعة شواهد على هذا الأمر .

شواهد على السياسة الصامتة :

الشاهد الأول :

في الرواية أنَّ هشام بن عبد الملك حجَّ فدخل المسجد الحرام متَّكئاً على يد سالم مولاه ، ومحمد بن عليّ بن الحسين عليه السلام جالس في المسجد .

فقال له سالم : يا أمير المؤمنين ، هذا محمد بن عليّ بن الحسين .

فقال له هشام : المفتون به أهل العراق ؟

قال : نعم^(١) .

هذا شاهد على أنَّ الإمام الباقر عليه السلام وهو في المدينة له امتداد في العراق ، ويعني أنَّ الرأي الجماهيري الساقط في العراق هو للإمام الباقر عليه السلام وليس لهشام بن عبد الملك ، هذا معناه أنَّ هناك سياسة صامتة استخدمها الإمام الباقر عليه السلام ووصل إلى هذا الأمر ، طبعاً هذا الحديث فيه دلالة نقف عندها يوماً ما كما وقفنا سابقاً على هذا السرِّ والربط بين أهل البيت عليه السلام وبين العراق ، يعني حتَّى هشام يلتفت للقضية ويقول : هذا المفتون به أهل العراق ؟ لماذا أهل العراق مفتونون بالإمام الباقر عليه السلام ؟ ولماذا لم يكن أهل المدينة أو مكة مفتونون بالإمام الباقر عليه السلام ؟ كانت هناك علاقة تطوَّرت كما سيأتي .

الشاهد الثاني :

أصبح الحكم الأموي بمستوى يجرأ الناس على مناقشة الأمير الدكتاتور الجلاد ، فقد وصل مدُّ أهل البيت ﷺ وتوعيتهم للناس إلى مستوى أن يقوم شخص ويناظر الحاكم ويحاججه كما في هذه القصّة المتكرّرة وأمثالها .

قال رجلٌ لعبد الملك بن مروان : أناظرك وأنا آمن ؟

قال : نعم .

قال : أخبرني عن هذا الأمر - يعني المُلْك - الذي صار إليك ، أبصّ من الله

ورسوله ؟

قال : لا .

قال : اجتمعت الأُمّة فتراضوا بك ؟

قال : لا .

قال : فكانت لك بيعة في أعناقهم فوفّوا بها ؟

قال : لا .

قال : فاختارك أهل الشورى ؟

قال : لا .

قال : أفليس قد قهرتهم على أمرهم واستأثرت بفيئهم دونهم ؟

قال : بلى .

قال : فبأيّ شيء سُميت أمير المؤمنين ولم يؤمّرك الله ولا رسوله ولا المسلمون ؟

قال : اخرج من بلادي وإلّا قتلتك .

قال : ليس هذا جواب أهل العدل والإنصاف ، ثم خرج عنه^(١) .

انظروا إلى الوعي في سلب شرعية هؤلاء الملوك والحُكّام الذين كانوا يُضفون على أنفسهم أنّهم ظلُّ الله في الأرض ، قد وصل الأمر إلى أن الجوّ العام يناقشهم ، هذا دور السياسة الصامتة التي مارسها أهل البيت ﷺ .

الشاهد الثالث :

اضطرَّ عبد الملك بن مروان إلى تهجير الإمام الباقر عليه السلام من المدينة إلى الشام ، يعني مع أنَّ الإمام جالس في المدينة ، لكن الحكم الأموي يخاف من امتداده ، فأمر بتهجيره حتَّى يكون تحت مراقبة السلطان في الشام ، وقد أحدث الإمام عليه السلام انقلاباً في الشام حيث كانت يومئذٍ بمثابة مدينة حرَّة للكفر وللنصارى ولأهل الكتاب كما هي السياسة الأموية ، لكنَّها لم تكن حرَّة لأهل البيت عليه السلام والشيعية ولا لتفسير القرآن ، وهنا أصبح الإمام عليه السلام يلتقي مع محافل النصارى والقساوسة ويحاورهم ، فبعد لقاء الإمام عليه السلام مع أكبر قساوسة النصارى ومحاجته قال ذلك القس : يا معشر النصارى ، ما رأيتم بعيني قطُّ أعلم من هذا الرجل ، لا تسألوني عن حرف وهذا بالشام ، ردُّوني ، فردَّوه إلى كهفه ، ورجع النصارى مع أبي جعفر عليه السلام^(١) .

الشاهد الرابع :

أعاد عمر بن عبد العزيز فديكاً في محاولة التزلُّف لأهل البيت عليه السلام ، ممَّا يدلُّ على نجاح السياسة الصامتة لأهل البيت عليه السلام واضطرار الحكم أخيراً للخضوع - ولو شكلاً - لأهل البيت عليه السلام .

هذا نموذج من سياسة الإمام الباقر عليه السلام الذي لقَّبه رسول الله ﷺ بـ (الباقر)^(٢) ، لأنَّه كان يقر العلم بقرأ صلوات الله وسلامه عليه .

(١) الكافي ٨ : ١٢٢ / ح ٩٤ .

(٢) عن أبان بن تغلب قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : « إنَّ جابر بن عبد الله كان آخر من بقي من أصحاب رسول الله ﷺ ، وكان منقطعاً إلينا أهل البيت ، وكان يقعد في مسجد رسول الله ﷺ وهو معتمٌ بعمامة سوداء وكان ينادي : يا باقر يا باقر ، فكان أهل المدينة يقولون : جابر يهجر ، فكان يقول : لا والله ما أهجر ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنَّك ستدرك رجلاً اسمه اسمي وشأنه شألي يقر العلم بقرأ . فذلك الذي دعاني إلى ما أقول ، قال : فبينما جابر يتردَّد ذات يوم في بعض طُرُق المدينة إذ مرَّ بكتاب فيه محمد بن علي بن الحسين عليه السلام فلما نظر إليه قال : يا غلام أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، فقال : شئلت رسول الله ﷺ والذي نفس جابر بيده ، يا غلام ما اسمك ؟ قال : اسمي محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، ←

علم الإمام الباقر عليه السلام

الإمام الباقر عليه السلام لُقِّبَ بالباقر تعريفاً لمستوى العلم الذي حمله ، وكان هذا اللقب أعطاه رسول الله ﷺ إلى الباقر عليه السلام في الرواية المعروفة أنه قال لجابر بن عبد الله الأنصاري : « يا جابر ، إنك ستدرك واحداً من ولدي محمد بن علي بن الحسين يبقّر العلم بقرّاً ، سُمِّيَ في التوراة بالباقر ، فإذا أدركته فاقرأه عني السلام » ، ومضت الأيام بعد عشرات السنين وإذا بجابر بن عبد الله الأنصاري وهو شيخ كبير يبحث في المدينة المنورة عن الباقر ، ويقول : يا باقر ، يا باقر . وذات مرّة زار دار الإمام علي بن الحسين عليه السلام ، فوجد طفلاً قد تخطّى ، فقال : أقبل ، فأقبل الطفل ، أدبر ، فأدبر ، فقال : هذه مشية رسول الله ﷺ ، ما اسمك يا بُنَيَّ ؟

قال : « محمد بن علي بن الحسين » .

فوقع جابر بن عبد الله الأنصاري على قدميه يُقبِّلُهما ويقول : إنَّ أباك رسول الله ﷺ يُقرؤك السلام .

فقال إمامنا الباقر عليه السلام : « على أبي رسول الله السلام ، وعليك يا جابر بما بلغت السلام »^(١) .

الإمام الباقر عليه السلام روى عنه الإمام الشافعي ، والإمام مالك ، ويروي الإمام أبو حنيفة في مسنده ، قال : يقول الراوي : ما سألت جابر بن يزيد الجعفي مسألة إلا أتاني بها

→ فأقبل عليه يُقبِّلُ رأسه فقال : بأبي أنت وأُمِّي أبوك رسول الله ﷺ يُقرئك السلام ويقول لك ، قال : « فرجع محمد بن علي إلى أبيه علي بن الحسين وهو ذعر فأخبره الخبر ، فقال : يا بُنَيَّ الزم بيتك . وكان جابر يأتيه طرفي النهار ، وكان أهل المدينة يقولون : وا عجباه لجابر يأتي هذا الغلام طرفي النهار وهو آخر ما بقي من أصحاب رسول الله ﷺ ، فلم يلبث أن مضى علي بن الحسين عليه السلام وكان محمد بن علي عليه السلام يأتيه علي وجه الكرامة لصحبته برسول الله ﷺ ، قال : فجلس محمد بن علي عليه السلام يُحدِّثهم عن الله تبارك وتعالى ، فكان أهل المدينة يقولون : ما رأينا أحداً قطُّ أجراً من ذا ، قال : فلمّا رأى ما يقولون حدّثهم عن رسول الله ﷺ ، فقال أهل المدينة : وما رأينا أحداً قطُّ أكذب من هذا ، يُحدِّث عمّن لم يره ! فلمّا رأى ما يقولون حدّثهم عن جابر عن رسول الله ﷺ فصدّقه ، وكان الله جابر يأتيه ويتعلّم منه » . (انظر : الاختصاص / الشيخ المفيد : ٦٢) .

(١) انظر نصّ الرواية في : مناقب آل أبي طالب ٣ : ٣٢٨ .

بحديث يقول فيه : (حدَّثني وصيُّ الأوصياء وارث علم الأنبياء محمد بن عليّ الباقر) ،
والجاحظ وهو أديب العرب المعروف في كتابه (البيان والتبيين) ، قال : (جمع محمد
بن عليّ بن الحسين صلاح الدنيا بحذافيرها بكلمتين ، فقال : « صلاح جميع المعاش ملء
مكيال ، ثلثان فطنة وثلث تغافل ») .

هذا إمامنا الباقر عليه السلام ، والحديث عنه وعن نشاطه العلمي حديث واسع للغاية لا
أستطيع إلا أن أشير إلى مقطع منه .

مدرسة أهل البيت عليه السلام في العراق :

هشام بن عبد الملك بن مروان كان يومئذ هو السلطان في الدولة الإسلامية ،
ويعرف ما هو حجم محمد بن عليّ الباقر عليه السلام ، ولهذا فقد هجره من المدينة المنورة إلى
الشام ، لاحظوا سياسة التهجير على أولياء الله الصالحين وعباده المؤمنين وكيف
حدث ذلك ، مرّة كان هشام يحج بيت الله الحرام في مكّة المكرمة ، ومرّ موكب الإمام
الباقر عليه السلام ، فقال هشام : من هذا ؟ ف قيل له : هذا محمد بن عليّ بن الحسين بن فاطمة
بنت رسول الله ﷺ ، قال : هذا المفتون به أهل العراق ^(١) ؟ وهذا هو محلّ الشاهد ، إنّ
هشام يعرف أنّ هذا هو الإمام محمد الباقر عليه السلام وهو ابن المدينة المنورة ، لكن امتداد
إشعاعاته في العراق ! أهل البيت عليه السلام عمقهم وامتدادهم الإستراتيجي في العراق وكأنّ
الله قد اختاره محطاً لولاية أهل البيت عليه السلام ، وهذا ما نفتخر به نحن .

ولهذا يقول علماء الحديث : قد ورد النهي عن ذمّ أهل العراق ، وهي رواية يذكرها
ابن طاووس رحمه الله كما تذكرها مصادر الحديث لدى أهل السنّة أيضاً ، قال : (ومن
صفات الداعي أن لا يدعو على أهل العراق . . . ، فإنّ الله تعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام
أن لا يدعو على أهل العراق) ^(٢) . وهذه رؤية أهل البيت عليه السلام للعراق ، في مقابل رؤية
سلاطين المدرسة الرسمية الأموية والعبّاسية هي ذمّ العراق والعراقيين .

(١) انظر : الإرشاد ٢ : ١٦٣ .

(٢) مهج الدعوات ، عنه : بحار الأنوار ٩٠ : ٣٥١ .

هذا العراق مفتون بالإمام الصادق والإمام الباقر والإمام زين العابدين وجميع الأئمة ﷺ ، وهذا هو الثابت عندنا في ثقافتنا الواردة عن أهل البيت ﷺ .

نحن اليوم نقف عند شهادة الإمام الباقر ﷺ ، ونحن فخورون بأننا نتنسب إلى مثل الإمام الباقر ﷺ الذي لقبه رسول الله ﷺ بالباقر ، ونتنسب إلى مثل الإمام جعفر الصادق ﷺ الذي قال فيه إمام السُّنة : (لولا الستان لهلك النعمان)^(١) ، يشير إلى سنتين درسهما عند الإمام الصادق ﷺ ، ونفتخر أننا نتنسب إلى علي بن الحسين ﷺ الذي لا يعرف التاريخ الإسلامي شخصاً لقب بزين العابدين وسيّد الساجدين غير إمامنا زين العابدين ﷺ ، ونحن فخورون أننا نتنسب إلى الإمامين الحسن والحسين ﷺ الذين لم يرد في غيرهما قوله ﷺ : « الحسن والحسين سيّدَا شباب أهل الجنة »^(٢) ، نحن فخورون أن الله تبارك وتعالى منّ علينا بهذا الهدى ، ويا ليت هذا العالم عرف هذه الأنوار وأتبع هداها ، وإنّا فخورون لأننا أتباع أهل البيت ﷺ ونتنسب إلى فاطمة ﷺ وهي سيّدة نساء العالمين ، ونتنسب إلى إمامنا عليّ ﷺ وهو باب مدينة علم النبي ﷺ .

الإسلام السياسي والإسلام غير السياسي

اليوم هنا كلام مطروح في الساحة الثقافية والسياسية يقول : إنَّ الإسلام على نوعين : الإسلام السياسي والإسلام غير السياسي ، ويحاول البعض وخاصّة الأعلام المتأثرة بالفكر الغربي القول : إننا نؤمن بالإسلام ولكن ليس الإسلام السياسي ، وكأنَّ هناك إسلامين إسلام سياسي وغير سياسي .

فهل كان الإمام الحسين ﷺ يؤمن بالإسلام السياسي ، والإمام زين العابدين ﷺ كان يؤمن بالإسلام غير السياسي ؟

وهل كان الإمام الباقر ﷺ يؤمن بالإسلام غير السياسي ، والإمام عليّ ﷺ يؤمن

(١) التحفة الاثنا عشرية : ٨ .

(٢) أمالي الصدوق : ١١١ / ح (١٠/٩٠) .

بالإسلام السياسي ؟

وهل كان الإمام الصادق عليه السلام يؤمن بالإسلام غير السياسي والإمام الحسين عليه السلام يؤمن بالإسلام السياسي ؟

الحقيقة أنَّ هذه هي خدعة للناس ، وهي محاولة التشويش في أذهان الناس للابتعاد عن أيِّ حضور في الساحة ، وعدم المطالبة بالتحرُّر من الظلم والانحراف ، ومصادرة حقوق الأُمَّة .

الإسلام هو ذلك الدين الذي يحمل هموم الناس ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم : ٥) .

إذا كانت ظلمات أخلاقية فأخرجهم من الظلمات الأخلاقية إلى النور الأخلاقي كما صنع الإمام زين العابدين عليه السلام ، وأدعيته في الصحيفة السجّادية حين كانت المشكلة يومئذٍ أخلاقية ، وإذا كانت المواجهة علمية كما في زمن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام كانا حاضرين في هذه المواجهة العلمية ، وإذا كانت المواجهة عسكرية فالإمام علي عليه السلام في معارك صفين والجمل والنهروان كان حاضراً في الساحة ، وإذا كانت مسألة حكم فالإمام علي عليه السلام تصدّى للحكم ، فالإسلام هو الدين الذي يهتمُّ بنبذة الناس وحلِّ مشكلاتهم في كلّ زمان ، ولا يصحُّ أن نقول : هناك إسلام سياسي آمن به الإمام علي عليه السلام وآمن به الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام ، ثم هناك إسلام غير سياسي آمن به الإمام السجّاد والإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام ! لا ، ليس كذلك ، لا يمكن للإسلام أن يتخلّى عن هموم الناس .

قد تقول : إنّ الإمام الباقر عليه السلام لم يمارس دوراً سياسياً ، نعم مارس دوره العلمي وهو مهجّر من المدينة إلى الشام ، وهذا لا يعني أنّ الإمام الباقر عليه السلام يؤمن بإسلام غير سياسي ، بل هو إسلام واحد مع توزيع الأدوار ، كلّ إمام له دور وزمان ، كذلك كلّ مرجع من المراجع له دور حسب المقدور وحسب ما يُشخصه من المصلحة .



آلْبَابُ الثَّامِنُ

مَعَ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١. دور الإمام الصادق عليه السلام

٢. المنهج السياسي للإمام الصادق عليه السلام

٣. ظاهرة التوازن

٤. مواجهة التطرّف



دور الإمام الصادق عليه السلام

وُلِدَ الإمام الصادق عليه السلام في شهر رجب عام (٨٠) للهجرة ، واستشهد أيام الحاكم الظالم العباسي المنصور الدوانيقي عام (١٤٨ هـ) ، فيكون عمره الشريف (٦٨) سنة ، وقد قام عليه السلام بدورين مهمين :

الدور العلمي :

حماية الأمة الإسلامية من تأمر المتأمرين ، وانحراف المنحرفين ، وهجوم المبتدعة الآخرين سواء من داخل الإسلام أو من خارج الإسلام .

أقرأ لكم ما كتبه وقاله العلماء من أئمة الإسلام في التاريخ عن الإمام الصادق عليه السلام :

قال مالك بن أنس - وهو أحد أئمة المذاهب الإسلامية - : (ما رأيت عين ، ولا سمعت أذن ، ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد)^(١) .

الرواية عن مالك بن أنس في كتابه (التوسل) يقول فيها : (الوسيلة إلى الله تعالى جعفر بن محمد ، فقد اختلفت عليه زماناً فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال : إمّا مصلّ ، أو صائم ، أو يقرأ القرآن ، ولا رأيت عيني ولا سمعت أذني ولا خطر على قلب

(١) مناقب آل أبي طالب ٣ : ٣٧٢ .

بشر أفضل من جعفر بن محمد علماً وعبادةً وورعاً .

ويقول النعمان بن ثابت الذي درس عند الإمام الصادق عليه السلام وحضر عنده مدة سنتين : (لولا السستان لهلك النعمان)^(١) .

ويقول ابن حجر في كتابه الصواعق : (نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان ، وانتشر صيته في البلدان)^(٢) .

وهذا عمر بن عبيد إمام المعتزلة وهو شيخهم وإمامهم يقول : (هلك من سلب تراثكم ونازعكم في الفضل والعلم)^(٣) .

وقال المنصور الدوانيقي ، الحاكم العباسي لأبي حنيفة - وهو أحد أئمة المذاهب الأربعة - : (إنَّ الناس قد فُتِنوا بجعفر بن محمد ، فهَيَّئْ له من مسائلك الشداد) حتَّى يُجَرِّجَ في الامتحان .

يقول أبو حنيفة : (أعددت له أربعين مسألة ، فكنت كلَّما سألتُه عن مسألة قال لي : أهل المدينة يقولون : كذا ، وأهل العراق يقولون : كذا ، وأنتم تقولون : كذا ، والصحيح هو كذا) ، أربعين مسألة والإمام يُعطي كلَّ الآراء .

انبهر أبو حنيفة وأعجب بهذه الأجوبة ، كان الإمام الصادق عليه السلام يحيط بكلِّ الفكر الإسلامي ، فقال أبو حنيفة مبهوراً : (أليس عندنا أن أعلم الناس أعرفهم باختلاف الآراء ؟)^(٤) .

هذا هو إمامنا الصادق عليه السلام الذي روى عنه أربعة آلاف تلميذ .

وقد اطلَّعت على إنجاز علمي مهمٍّ لأستاذنا العلامة المفكِّر الكبير الشيخ باقر

(١) التحفة الاثنا عشرية للآلوسي : ٨ .

(٢) الصواعق المحرقة ٢ : ٥٨٦ .

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣ : ٣٧٥ .

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣ : ٣٧٨ .

شريف القرشي عليه السلام حيث أعدّ كتاباً لترجمة هؤلاء الأربعة آلاف تلميذ ، حتّى لا يقال : إن هذه مبالغة .

جهد هذا العالم الكبير الشيخ القرشي عليه السلام وهو من كبار مؤلّفي ومفكّري الطائفة والمذهب لترجمة هؤلاء ، فأحصى منهم أكثر من ثلاثة آلاف تلميذ ، وترجم لهم .

هذا هو إمامنا الصادق عليه السلام في مدرسته العلمية على مستوى تأسيس المذهب والدفاع عن الإسلام والمهجوم الذي تعرّض له الإسلام يومئذ .

الدور السياسي :

عاصر الإمام الصادق عليه السلام الحكمين الأموي والعبّاسي ، وكان فيهما ملاحقاً ومُطارداً ، الأمر الذي يحتاج إلى تفسير ، لماذا ذلك وهو الذي عكف على الدرس والتدريس والعلم والتعليم ، حتّى روى عنه أربعة آلاف رجل على أقلّ تقدير ؟ يُرسل هشام بن عبد الملك بن مروان على الإمام عليه السلام من المدينة المنورة لكي يراقبه في دمشق ، ويُرسل المنصور العبّاسي عليه من المدينة إلى العراق أيضاً ليكون تحت الرقابة ، وقد بقي في الحيرة حوالي سنتين ، لماذا هذا التوجّس والخوف منه ؟

الجواب : أنّه على الرغم من أنّه عليه السلام برز في الدور الفكري ، كان له دور سياسي أيضاً ، ولولا ذلك لم يشعر الخليفة والحاكم الأموي والعبّاسي بقلق .

أرسل عليه المنصور وقال له : بلغني أنّك تجمع السلاح والأموال ، وأخذ يُهدّده ويتوعّده حتّى رأى عليه السلام في وجهه الغضب والطيش ، وكان عازماً على قتله - كما تقول الرواية - ، وبعد الدعاء التفت الإمام إليه قائلاً : « إنّ يوسف قدر فغفر ، وأيوب ابتلي فصبر ، وسليمان أُعطي فشكر »^(١) ، أي أذكرك بهم ، ففرح المنصور بهذا الكلام وأطلق سراحه .

(١) تاريخ الكوفة : ٧٢ .

علماء الشيعة :

برز الإمام الإمام الصادق عليه السلام بدوره الفكري وإلى جانب ذلك كان يبنّي مستقبل الكيان الشيعي ، ويُؤسّس له فكراً وسياسياً ، وكانت هذه وصيّة الإمام الباقر عليه السلام بقوله : « يا جعفر ، أوصيك بأصحابي خيراً » ، فقال : « جعلت فداك والله لأدعنهم والرجل منهم يكون في المصر فلا يسأل أحداً »^(١) ، أي سأعلّمهم بحيث لا يحتاج أحدهم إلى السؤال من الآخرين ، ويكونون جميعاً من أهل العلم .

بذلك استذكرت واقعنا الشيعي حيث لا يداهم المسلمون مدامه فكرية وعلمية وفلسفية إلّا وكان أبطال الفقهاء من شيعة أهل البيت عليه السلام في الصدارة . حينما نقرأ نتاجات فكر شيعة أهل البيت عليه السلام وعلماهم قياساً إلى ما يكتبه الآخرون لا نجد ما يصلح للقياس أبداً . وهذا من دواعي الافتخار ، وهو ما قاله الإمام الصادق عليه السلام آنفاً .

على سبيل المثال يُمثّل (فلسفتنا) الكتاب الأوّل المباع في بلاد المغرب ، وهو من تأليف العلامة الشهيد محمد باقر الصدر رحمه الله ، وفي المملكة العربية السعودية يُدرّس كتابه الثاني (اقتصادنا) في الجامعة . إنّه كتاب لعالم شيعي من النجف الأشرف لا يملك دعاية ولا أموالاً . إنّ علوم أهل البيت عليه السلام وكتابات أهل البيت عليه السلام وأتباعهم فرضت نفسها على العالم .

يعرف الأزهر والعالم السنّي ماذا يوجد في النجف ، هذا من بركات الإمام الصادق عليه السلام في بناء الكيان الفكري الشيعي ، ففي الرواية عنه عليه السلام يخاطب الشيعة : « أما والله ما أحد من الناس أحبّ إليّ منكم »^(٢) ، هذه كلمة طيبة وجميلة منه عليه السلام إليكم .

اعلموا أيّها المؤمنون أنّ الأئمّة عليهم السلام يُحبّونكم ، فإذا كانوا يحبّون عليكم في الدنيا فهل سيتركونكم في الآخرة ؟ إنّه غير ممكن ، ثم يقول عليه السلام : « إنّ الناس قد سلکوا سُبُلًا

(١) الكافي ١ : ٣٠٦ .

(٢) الشيعة في أحاديث الفريقين : ٤٢٦ .

شَتَّى ، فمنهم من أخذ برأيه ، ومنهم من أتبع هواه ، وأنتم أخذتم بأمر له أصل ، أي أنتم أصحاب الفكر الأصيل ، « فعليكم بالورع والاجتهاد »^(١) .

المنهج السياسي للإمام الصادق عليه السلام

أمّا المنهج السياسي للإمام الصادق عليه السلام فقد حدّد المسار وهو الابتعاد عن السلطة ومقاطعتها ، ولذا كتب المنصور العبّاسي إلى الإمام عليه السلام : لِمَ لا تغشانا كما يغشانا الناس ؟ فكتب له بقوة قلب وثقة عالية بالله : « ليس لنا من الدنيا ما نخاف عليه »^(٢) ، أي إنّ الذين يزورونك من وعّاظ السلاطين هم الذين يريدون الدنيا أو يخافون عليها ، فأرسل له : تغشانا لتعظنا ، فأجابه : « مَنْ أراد الدنيا لا ينصحك ، وَمَنْ أراد الآخرة لا يصحبك » ، هذا الموقف هو محاولة لسلب الشرعية من سلاطين الجور .

وإلى جانب ذلك كان عليه السلام نافذة للمشاركة السياسية لشيعة ، وهذا يهّمنا اليوم ، أي رغم أنّه لا يُعطي الشرعية للحاكم يقول : لا مانع من أن يشارك فلان وفلان في مهمّات لخدمة المسلمين عموماً وشيعة أهل البيت خصوصاً .

رسالته عليه السلام إلى النجاشي :

كما في ولاية عبد الله النجاشي الذي كان من شيعة أهل البيت عليه السلام وأصبح والياً على الأهواز ، فكتب إلى الامام عليه السلام : (سيّدي إنّني بُليت بولاية الأهواز) ، أي أخاف من الحكم والمقام السياسي ، فما رأيك ؟ (فإن رأى سيّدي ومولاي أن يحدّلي حدّاً ويُمثّل لي مثلاً لأستدلّ به على ما يُقرّبني إلى الله) ، أي أريد منك ضوابط وقواعد وقانوناً ومنهجاً أخلاقياً حتّى أسير طبقه ، فكتب إليه رسالة مفصّلة قال فيها :

« ذكرت أنّك بُليت بولاية الأهواز ، فسرنّي ذلك وساعني ، أمّا سروري بولايتك

(١) بحار الأنوار ٤٧ : ١٨٤ .

(٢) مستدرک الوسائل ١٢ : ٣٠٧ / ح ١ .

فقلت : عسى الله أن يغيث بك ملهوفاً خائفاً من أولياء آل محمد ويعزُّ بك ذليلهم ، وأمّا الذي ساءني فإن أدنى ما أخاف عليك أن تعثر بوليّ لنا فلا تشمُّ حضيرة القدس يوم القيامة ^(١) ، أي بمقدار ما تكون هذه المواقع مطلوبة فإنّها خطيرة .

مؤسّس المدرسة العلمية :

واليوم لنا حديث آخر يرتبط به ﷺ ، فهو المؤسّس للمدرسة العلمية لمذهب أهل البيت ﷺ ، هذا الأمر يربطنا بمسألة البُعد العلمي لشيعَة أهل البيت ﷺ حيث لا ينافسهم أحد من يوم أمير المؤمنين ﷺ حتّى هذا اليوم وفي كلّ المجالات العلمية رغم أنّ الدنيا جارت عليهم ولا سلطان يسندهم ولا أموال تدعمهم ، وبقي الفكر الشيعي هو الأكثر تألقاً في العالم الإسلامي امتداداً من أمير المؤمنين ﷺ الذي هو باب علم مدينة رسول ﷺ إلى الإمام الباقر ﷺ الذي قال في حقّه النبي ﷺ لجابر بن عبد الله الأنصاري : « إنك ستدرك رجلاً مني اسمه اسمي وشماله شمالي ، يقر العلم بقرّاً » ^(٢) ، إلى الإمام الصادق ﷺ مؤسّس المدرسة العلمية ، والذي قال له الإمام الباقر ﷺ : « أوصيك بأصحابي خيراً » ، فقال الصادق ﷺ : « جعلت فداك ، والله لأدعنّهم والرجل منهم يكون في المصر فلا يسأل أحداً » ^(٣) ، في أيّ مجال من مجالات العلم ، وفي أعضل مشكلة علمية .

ظاهرة التوازن

هناك ظاهرة نسمّيها ظاهرة التوازن العلمي السياسي الجهادي العبادي عند شيعة أهل البيت ﷺ ، يعني أنّهم لا يطيطرون بجناح ويخفقون بآخر ، بل هم متوازنون في كلّ الأبعاد الأربعة لكمالات الإنسان ، وهي : الجانب العلمي ، والسياسي ، والجهادي ، والعبادي .

(١) انظر مفصلاً : وسائل الشيعة ج ١٧ / ح ٢٢٣٥٤ .

(٢) الكافي ١ : ٤٦٩ / ح ٢ .

(٣) الكافي ١ : ٣٠٦ / ح ٢ .

هناك مذاهب أخرى في العالم الإسلامي ركزت على أحد الجوانب الأربعة وأهملت الجوانب الأخرى، أمّا مذهب أهل البيت عليه السلام فقد جمعوا الجوانب الأربعة ووازنوا بينها، ففي العلم هم أعلم الناس، وفي العبادة هم أهل العبادة والتقوى والصلاح، وهكذا في بقية الجوانب الأخرى، وقد ورث الشيعة ذلك عن أئمتهم عليه السلام، نذكر لكم أمثلة لذلك.

فمثلاً أتباع المذهب الأشعري وهو أحد المذاهب الإسلامية أهملوا الجانب السياسي وركّزوا على جانب العبادة والفقه وهم هكذا إلى اليوم، إذا أراد أنور السادات أن يصافح ساسة إسرائيل فشيخ الأزهر يذهب معه ويصافح رئيس وزراء إسرائيل، فالفقيه والمرجع تابع للرئيس ولا استقلال له.

أمّا مذهب المعتزلة فقد تعمّقوا في الفلسفة وتركوا الجوانب الأخرى، فتخصّصوا في العمق العقائدي والفلسفي، وقد كانوا في زمن الصادق عليه السلام.

أمّا الخوارج وهم من فرق المسلمين قالوا: نحن نهتمّ بالجهاد ونقاتل الظالمين ولا شغل لنا بالجوانب الأخرى، وجهادهم هذا جهاد أعزل بلا علم ولا سياسة وبلا عبادة حتّى إنهم قتلوا أمير المؤمنين عليه السلام، فهذا نهج السيف والجهاد بلا عقل.

النموذج الرابع هم المتصوّفة وهي من المدارس الإسلامية ولا زالت موجودة في المغرب والجزائر وتونس، وهؤلاء عبدوا الله ولكنهم انعزلوا عن تغيير المجتمع وبنائه نحو الصلاح، وكان همّهم إصلاح أنفسهم.

لكن عندما نأتي إلى نموذج شيعة أهل البيت عليه السلام والمذهب الإمامي نراهم قد جمعوا بين العمق العلمي والحضور السياسي والفعل الجهادي إلى جانب العمق العبادي والمعرفي بالله تعالى، ومن ينظر من بعيد لشيعة أهل البيت عليه السلام يجد أمراً غريباً، ففي العلم هم أعلم من الآخرين، وفي السياسية هم أبرع من الآخرين، وفي الجهاد هم أشدّ المجاهدين، ولا زالوا يقارعون الظالمين أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وفي العبادة هم أهل القدس والقداسة وأولياء الله ولا يعرف العالم مثل عبّادهم وزهادهم.

ونذكر لكم أمثلة بسيطة وموجزة ، ففي العمل السياسي مثل شيعة أهل البيت ﷺ قمة في البراعة السياسية ، كما نلاحظ ذلك في مواقف آية الله العظمى السيد علي السيستاني (حفظه الله) الذي استطاع أن يضع النقاط على الحروف ويضع النموذج الحقيقي لحلّ الأزمات العراقية ، وأصبح العالم ينتبه إلى أن هناك عملاقاً في عالم السياسة جالس في أزقة النجف الضيقة لم ير الشارع سبع سنوات ، لكن عندما يطرح رأيه السياسي فالعالم يقول : هذا الرجل يُعلّمنا السياسة ، لنذهب لتعلّم منه .

وفي المجال العلمي نأخذ نموذجاً نابغة الدهر وفيلسوف العصر أستاذنا الشهيد محمد باقر الصدر رحمه الله ، وما تزال كتبه هي الأولى انتشاراً في العالم العربي والإسلامي ، والوهابية على حقدهم علينا يدرسون كتابه (اقتصادنا) في الجامعات السعودية ، ولنا في هذا الأمر أحاديث كثيرة ، كان يومئذ أحد الفلاسفة وهو زكي محمود طُلب منه أن يترجم كتاب الشهيد الصدر (الأسس المنطقية في الاستقراء) ، وهذا الرجل يُعتبر وريث المدرسة المادّية في مصر ، قال : سوف أُكلّف أحد تلاميذي لذلك ، وعندما ترجم هذا الطالب الكتاب وصل إلى صفحة (٨٠) منه أرسل رسالة إلى الشهيد الصدر رحمه الله قائلاً : أنا لا أفهم ما تريده من هذه الكلمات ، ابعث لي أحد تلامذتك ليشرح لي مرادك .

ففي العمق الجهادي والبطولة النادرة في العالم هو الإمام الراحل الإمام الخميني رحمه الله ، الذي أطاح بأكبر إمبراطور في المنطقة - وهو الشاه - مستعيناً بإرادة الله والشعب الإيراني المستضعف ، ثم قاتله كل العالم وفي كل المجالات ولم يتنازل ، وخاض حرباً مع كل دول الاستكبار العالمي .

النموذج الآخر الذي يُمثّل البُعد العبادي والمعرفي في العلاقة مع الله تعالى هو الشيخ الطوسي رحمه الله المدفون في جامع الطوسي الذي كان بيته ، ويكتب دروسه ويخدم المذهب حتّى لا يوجد لديه وقت لزيارة أمير المؤمنين عليه السلام ، وكان يصعد سطح داره ويُسلم .

ف قيل له : لماذا لا تذهب وتزور أمير المؤمنين عليه السلام ؟

فقال للسائل : أنت إذا ذهبت إلى الزيارة ماذا تقول ؟
فقال : أقول : السلام عليك يا مولاي يا أمير المؤمنين .
فقال له : هل تسمع جواب سلامك ؟
فقال : لا .

قال : تعال معي نصعد إلى سطح الدار ، ثم سلّم على أمير المؤمنين عليه السلام ، فإذا به يسمع الجواب : « وعليك السلام » ، ثم قال له : نحن مشغولون بخدمة الدين والمذهب ، ولا يوجد لدينا وقت للزيارة ، هؤلاء هم علماءنا .

ونموذج آخر هو المقدّس الأردبيلي رحمه الله الذي كان يقف على باب أمير المؤمنين عليه السلام ساعة وساعتين قبل الفجر حين فتح الباب ، فكانت الباب تُفتح لوحدها لهذا العالم الجليل ، وهذه الصفات كلّها تجتمع في كلّ واحد منهم .

ونحن في ذكرى شهادة الإمام الصادق عليه السلام نذكر أن شيعة أهل البيت عليهم السلام امتازوا بالبعد العلمي والسياسي والعبادي والجهادي ، فلا يقول القائل : إنّ هؤلاء علماء وليسوا سياسيين أو غير ذلك ، فهم عبّاد ومجاهدون وعلماء ومفكّرون .

مواجهة التطرف

ما أريد أن أذكره اليوم هو قضية مهمّة في حركة الإمام الصادق عليه السلام ، وهي : أنّ من أهم الأهداف والمنجزات فيها هو المحافظة على وحدة الأئمة الإسلامية ، وسوف أستطرد في شرح ذلك استطراداً سريعاً .

إنّ الأئمة في العصر الأموي والعبّاسي شهدت نوعين من التصفيات : تصفيات سياسية وتصفيات فكرية ، والأئمة انفتحت على هذا النمط منذ التصفيات التي بدأت من حركة الخوارج ثم استمرّت إلى أن تُسلّم السلاطين عملية التصفيات ، لكن هذه المرّة ليس بشكل تصفيات سياسية ، وإنّما حاولوا أن يُعطوها قالباً دينياً وفكرياً .

أصوّر لكم الفكرة ، حينما انفتح العالم الإسلامي على المذاهب وأصبح لديهم المذهب المالكي والمذهب الحنفي والأشاعرة ومذهب الأوزاعي ومذهب ابن أبي ليلى ومذهب المعتزلة .

في مطلع الحكم العبّاسي دخل وانفتح العالم الإسلامي على خطر عظيم جداً وهو خطر التصفيات الطائفية ، أي أصبح هذا المذهب يُكفّر مذهباً آخر ، ويحكم عليه بالإعدام ، والحكومات السياسية تستفيد من هذه التصفيات الطائفية .

الأُمَّة الإسلاميّة تعرّضت إلى خطر هو أكبر من خطر التصفيات السياسية وهو خطر التصفيات الفكرية ، يعني (التطرّف المذهبي) ، والذي نُسمّيه اليوم (الحالة التكفيرية) ، هذه برزت بشكل واضح ، الخوارج أصبحوا يُكفّرون الجميع ، ثم نشأ تطرّف مذهبي أوسع وهو عملية تكفير الآخرين ، وهو وباء ممكن أن يصيب جميع المذاهب .

لكن لاحظوا كيف استطاع الإمام الصادق عليه السلام أن يقود عملية تطهير من وباء التصفية الفكرية .

بالنسبة إلى الشيعة بالخصوص ، فالشيعة حينما استبعدوا عن الحكم ، كان بالإمكان أن يصيبهم ما يصيب الخوارج من التطرّف المذهبي ويشهرون السيف على الكلّ كما أصبح الخوارج يقطعون الطرّوق ويقتلون المارّة والعابرين .

فكان بالإمكان عند عزل الشيعة عن الحكم أن يحكموا بقتل الآخرين ، وتصبح المسألة (تصفيات مذهبية) كما أنّ الآخرين شهروا على الشيعة سيف التصفيات المذهبية .

لكن هنا جاء دور الإمام الصادق عليه السلام بشكل رائع ، ومن يقرأه يرى أنّه خاض ملحمة في هذا الشأن ، قد نغفل عن تسليط الضوء عليها . وأنقذ سفينة التشيع وسفينة الأُمَّة الإسلاميّة من الغرق في فتنة (التطرّف المذهبي) .

سنجد هنا أنّ الإمام الصادق عليه السلام لديه سجلات فكرية كبيرة مع غير الشيعة ومع

رجال الشيعة ، سجال فكري لتصحيح المفاهيم ومع الشيعة أنفسهم قام فيها بتصحيح المفاهيم وأنقذهم من خطر التطرف المذهبي .

ثلاثة أدوار :

هنا ثلاثة أدوار قام بها الإمام الصادق عليه السلام :

الدور الأول : دعوة الشيعة للبقاء في جسم الأمة وعدم الاعتزال ، ولهذا كان علماءنا يشتركون في مجال الدرس والتدريس .

الشيخ المفيد رحمه الله كان يتلمذ على يد رجل سني ، وعشرات العلماء من أهل السنة تتلمذوا على يد الشيخ المفيد والمرتضى رحمه الله ، الشيخ المفيد أستاذ الشيخ الطوسي ، ولقب بالمفيد من قبل علماء السنة وليس الشيعة ، القاضي عبد الجبار المعتزلي - أو على رواية أخرى ابن عيسى الرماني - هو الذي لقبه بالمفيد^(١) .

لاحظوا إنه كان هناك تواصل بين السنة والشيعة ، وبغداد كانت زاهرة بالسجلات الفكرية الحرة .

أبو حنيفة صاحب المذهب الحنفي هو تلميذ الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، لاحظوا الانسجام والتواصل الفكري وعدم التقاطع .

الدور الثاني : الإمام الصادق عليه السلام اعتمد أسلوب تقويم الدولة وتصحيح مسارها ، وتأتي هنا قصة النجاشي والي الأهواز ونصيحة الإمام الصادق عليه السلام له في البقاء على ولاية الأهواز لتصحيح ما أمكن تصحيحه في واقع الدولة .

الدور الثالث : مهمة تصحيح الأفكار ، وتأتي هنا عشرات السجلات والمناقشات للإمام الصادق عليه السلام ، أذكر لكم رواية بهذا الشأن ، عن أبي بصير يقول : سألت الإمام الصادق عليه السلام : ماذا تقولون فيمن شك في الله ؟

(١) انظر : أعيان الشيعة ٦ : ٩٥ .

قال : « كافر » .

قال : قلت : ما تقولون فيمن شك في رسول الله ؟

قال : « كافر » .

هذا الراوي يريد أن يصل إلى نتيجة هي : هل نقول بكفر المسلمين الذين لم يؤمنوا بولاية عليٍّ عليه السلام ، الإمام عليه السلام هنا نبهه وأشعل له مصباحاً فقال : « إنَّما يكفر إذا جحد » ^(١) ، يعني إذا عرف الحقيقة وجحدها .

وفي رواية أخرى مفصلة عقد لها الإمام مجلساً علمياً خاصاً ، يقول الراوي هاشم : كنت أنا ومحمد بن مسلم وأبو الخطاب في اجتماع ، ودار الحديث عن أكثر المسلمين الذين لا يؤمنون بولاية الإمام عليٍّ عليه السلام مسألة التكفير والتطرف المذهبي ما حكمهم ؟ فقال بعضهم : الكفر .

يقول الراوي هاشم : عرضت المسألة على الإمام عليه السلام .

فقال : هذا يجب أن نعقد له اجتماعاً ، تعال أنت وزملاؤك في الحلقة النقاشية ، ودعاهم - محمد بن مسلم وهاشم وأبو الخطاب - يعرض عليهم : ما تقولون في خدَمكم ونسائكم وأهليكم وهم ليسوا من شيعة أهل البيت ؟ قالوا : كفاراً .

قال : أليس يشهدون أن لا إله إلا الله ؟

قالوا : بلى .

قال : ويشهدون أن محمداً رسول الله ؟

قالوا : بلى .

قال : يصومون ويصلُّون ويحجُّون ؟

قالوا : بلى .

قال : يعرفون ما أنتم عليه ؟

(١) انظر : الكافي ٢ : ٣٩٩ / باب الشك / ح ٣ .

قالوا : لا .

قال الإمام عليه السلام : « سبحان الله ، هذا قول الخوارج ، أما إنه شرٌ عليكم أن تقولوا شيء ما لم تسمعه منا »^(١) .

أيها الإخوة اليوم نحن نعيش في ثمرة عظيمة غرس ثمرتها الإمام الصادق عليه السلام ، وهي الوحدة الإسلامية ، فهذه جهود الأئمة الأطهار والإمام الصادق عليه السلام بالذات ، الذي أنقذ سفينة المسلمين من الاقتتال الطائفي ومن التطرف المذهبي التكفيري .

فاليوم العالم الإسلامي يتلاحم مع ماليزيا وأندونيسيا والصين وبنغلادش ودول عربية شيعية وسُنية ، نقول : نحن جسم واحد وكيان واحد حتى إذا اختلفنا مذهبياً ، حركة التكفير التي عادت على يد المذهب الوهابي ، واليوم يعيدها السلفيون التكفيريون في العراق والقادمون من خارج العراق ، يحاولون أن يُمزّقوا أوصال العراق ، لكن مدرسة الإمام الصادق عليه السلام وشيعة أهل البيت عليهم السلام تبقى هي النبراس والدليل والضوء المشع لتوحيد الأمة الإسلامية .

(١) راجع نصّ الرواية في : الكافي ٢ : ٤٠١ / باب الضلال / ح ١ .



آلْبَابُ الْتَّاسِعُ

مَعَ الْإِمَامِ الْكَاسِمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١. باب الحوائج عليه السلام

٢. سجن الإمام الكاظم عليه السلام

٣. مقاطع من زيارته عليه السلام

٤. ملاحقة الشيعة



باب الحوائج عليه السلام

الإمام الكاظم عليه السلام هو باب الحوائج ، حتّى إنّ البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد) وهو من أبناء العامة يحكي عن الحسن بن إبراهيم الخلال قوله : (ما همّني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر عليه السلام فتوسّلت به إلّا سهّل الله تعالى لي ما أُحِبُّ)^(١) .

عاش الإمام الكاظم عليه السلام في عهد المنصور العبّاسي والهادي العبّاسي والمهدي العبّاسي ثمّ الرشيد وهو أطول فترة حكمها زعماء بني العبّاس ، سياسة هارون الرشيد كانت تعتمد على الرعب حيث سيطر على الحكم من خلال نظرية الرعب والقمع .

قصة حميد بن قحطبة :

وهنا تأتي رواية معروفة وهي رواية حميد بن قحطبة وهو من وزراء هارون الرشيد : عن عبيد الله البزاز النيسابوري ، قال : كان بيني وبين حميد بن قحطبة الطائي الطوسي معاملة ، فرحلت إليه في بعض الأيام ، فبلغه خبر قدومي فاستحضرني للوقت وعليّ ثياب السفر لم أُغَيِّرْها ، وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر ، فلمّا دخلت إليه رأيته في بيت يجري فيه الماء ، فسلمت عليه وجلست ، وأحضرت المائدة ،

(١) تاريخ بغداد ١ : ١٣٣ .

وذهب عني أني صائم وأنني في شهر رمضان ، ثم ذكرت فأمسكت يدي ، فقال لي حميد : مالك لا تأكل ؟

فقلت : أيها الأمير هذا شهر رمضان ، ولست بمريض ولا بي علة توجب الإفطار ، ولعل الأمير له عذر .

فقال : ما بي علة توجب الإفطار وإنني لصحيح البدن ، ثم دمعت عيناه وبكى .

فقلت له بعد ما فرغ من طعامه : ما يبكيك أيها الأمير ؟

فقال : أنفذ إليّ هارون الرشيد وقت كونه بطوس في بعض الليل أن أجب ، فلمّا دخلت عليه رأيت بين يديه شمعة تتقدّ وسيفاً أخضر مسلولاً ، وبين يديه خادم واقف ، فلمّا قمت بين يديه رفع رأسه إليّ فقال : كيف طاعتك لأمر المؤمنين ؟

فقلت : بالنفس والمال ، فأطرق ثم أذن لي في الانصراف ، فلم ألبث في منزلي حتّى عاد الرسول إليّ وقال : أجب أمير المؤمنين ، فقلت في نفسي : إنا لله ، أخاف أن يكون قد عزم على قتلي وإنه لَمّا رأي استحياني ، فعدت إلى بين يديه ، فرفع رأسه إليّ فقال : كيف طاعتك لأمر المؤمنين ؟

فقلت : بالنفس والمال والأهل والولد ، فتبسّم ضاحكاً ، ثم أذن لي في الانصراف ، فلمّا دخلت منزلي لم ألبث أن عاد الرسول إليّ فقال : أجب أمير المؤمنين ، فحضرت بين يديه وهو على حاله ، فرفع رأسه إليّ فقال : كيف طاعتك لأمر المؤمنين ؟

فقلت : بالنفس والمال والأهل والولد والدين ، فضحك ، ثم قال لي : خذ هذا السيف وامثل ما يأمر بك به هذا الخادم .

قال : فتناول الخادم السيف وناولنيه وجاء بي إلى بيت باباه مغلق ، ففتحه فإذا فيه بئر في وسطه ، وثلاثة بيوت أبوابها مغلقة ، ففتح باب بيت منها فإذا فيه عشرون نفساً عليهم الشعور والدواب شيوخ وكهول وشبان مقيّدون ، فقال لي : إنّ أمير المؤمنين يأمر بك بقتل هؤلاء ، وكانوا كلهم علوية من ولد عليّ وفاطمة عليهما السلام ، فجعل يُخرج إليّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه ، حتّى أتيت على آخرهم ، ثم رمى

بأجسادهم ورؤوسهم في تلك البئر . ثم فتح باب بيت آخر فإذا فيه أيضاً عشرون نفساً من العلوية من ولد عليٍّ وفاطمة عليها السلام مقيّدون ، فقال لي : إن أمير المؤمنين يأمر بك بقتل هؤلاء ، فجعل يُخرج إليّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه ويرمي به في تلك البئر ، حتّى أتيت على آخرهم ، ثم فتح باب البيت الثالث فإذا فيه مثلهم عشرون نفساً من ولد عليٍّ وفاطمة مقيّدون عليهم الشعور والذوائب ، فقال لي : إن أمير المؤمنين يأمرك أن تقتل هؤلاء أيضاً ، فجعل يُخرج إليّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه فيرمي به في تلك البئر ، حتّى أتيت على تسعة عشر نفساً منهم ، وبقي شيخ منهم عليه شعر ، فقال لي : تبال لك يا مشؤوم ، أيّ عذر لك يوم القيامة إذا قدمت على جدنا رسول الله ﷺ وقد قتلت من أولاده ستين نفساً قد ولد لهم عليٌّ وفاطمة عليها السلام ؟ فارتعشت يدي وارتعدت فرائصي ، فنظر إليّ الخادم مغضباً وزبرني ، فأتيت على ذلك الشيخ أيضاً فقتلته ورمى به في تلك البئر .

ثم قال ابن قحطبة : فإذا كان فعلي هذا وقد قتلت ستين نفساً من ولد رسول الله ﷺ فما ينفعني صومي وصلاتي وأنا لا أشك أنّي مخلّد في النار^(١) .

هذه سياسة الرعب التي استخدمها هارون الرشيد ، والمعروف في التاريخ أنّ أسطوانات وأعمدة بُنيت في بغداد على السادة العلويين وهم أحياء ، هذه المقابر الجماعية ، حتّى وصل هارون الرشيد إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الذي له امتداد عريض في الأمة الإسلامية ، فهو من آل رسول الله ﷺ ومن أئمة المسلمين .

سجن الإمام الكاظم عليه السلام

أمر هارون الرشيد بسجن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ، وقد سُجِنَ أربعة عشر عاماً في سجن لا يُعرف فيه الليل من النهار ، وهو مقيّد في داخل السجن ، والرقابة مشدّدة عليه .

الروايات في شأن سجن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كثيرة ، فالإمام ماهي جريمته

(١) بحار الأنوار ٤٨ : ١٧٧ .

لكي يُسَجَنَ ؟ الإمام لم يقيم بثورة ضدَّ هارون الرشيد ، ولكنه لم يكن مستعداً لإضفاء الشرعية على خلافته ، ولم يكن مستعداً أن يتحوَّل إلى واعظ من وعَّاظ السلاطين ، فلو كان الإمام مستعداً أن يسير في ركب الخلافة لكان هارون الرشيد قد أغدق عليه العطاء ، لكن الإمام ﷺ لم يكن مستعداً لذلك رغم أنَّه صامت ولم يتحرَّك سياسياً ضدَّ هارون الرشيد ، لكن الجبابرة يريدون تطويع الناس ويريدون أن يخضعوا لهم وليس مجرد أن يسكتوا ، هارون الرشيد أمر بسجن الإمام موسى بن جعفر ﷺ .

والعجيب هنا أنَّ الإمام ﷺ جاء في وصيَّته على ما يذكر الرواة أن يُدفن بالقيود والأغلال التي كانت عليه . كنت أتأمل اليوم أيَّ مشهد هذا ؟ مشهد نادر في التاريخ ، ولكنه إلى اليوم هذا المشهد يُمثِّلُ سُنَّةَ عند شيعة أهل البيت ﷺ ، جنازة ولكن عليها القيود والأغلال ، هذا مشهد جنازة الإمام موسى بن جعفر ﷺ ، ماذا يقول الإنسان وهو يرى هذا المشهد النادر في التاريخ ، لمن هذه الجنازة ؟ هذه الجنازة لوليٍّ من أولياء الله ، وواحد من ذرِّيَّة رسول الله ﷺ ، وإمام من أئمَّة المسلمين ، وإذا هذه الجنازة عليها الأغلال والقيود .

لا ندري لماذا أوصى الإمام موسى بن جعفر ﷺ بهذه الوصية ؟ ربَّما لكي يوضَّح للناس وللمسلمين على مدى التاريخ أنَّ هذا الإمام مات ساخطاً على هذه الخلافة التي لا تُمثِّلُ الحكم الإسلامي ، هذا الإمام وهذه القيود وهذه الأغلال ، فلا يقال غداً : إنَّ هناك مصالحة وتراض بين الحكم العباسي والإمام موسى بن جعفر ﷺ وهؤلاء أولاد عمِّ ، لا ، فإنَّ هذه الجنازة تُدفن بالقيود والأغلال ، إنَّه منظر مؤلم ومبكي ، وهو منظر جنازة الإمام موسى بن جعفر ﷺ على الجسر ببغداد ، الرواية تقول : إنَّ الجنازة كان يحملها حمالون ، والإمام ﷺ كان قد أخبر شيعته عبر بعض الوسائط أنَّ الملتقى على الجسر بعد ثلاثة أيام ، كانوا يحسبون أنَّ الإمام ﷺ سيُطلَق سراحه ، ولا يعلمون أنَّه ستكون الجنازة على الجسر ببغداد .

اجتمع شيعة أهل البيت ، وارتجَّت بهم بغداد ، وكاد أن يحدث تحوُّل وانقلاب ،

وهنا جاء دور السياسة العباسية في محاولة امتصاص النقمة ، فنادى المنادي : (ألا من أراد أن ينظر جنازة الطيب ابن الطيب موسى بن جعفر فليخرج)^(١) .

شهداء جسر الأئمة :

الإمام موسى بن جعفر عليه السلام له مشهد فريد وهو مشهد الجنازة على الجسر ، هذا الأمر بمقدار ما يحزُّ في قلوب شيعة أهل البيت عليهم السلام أنَّ إمامهم بهذا الشكل والأغلال والقيود ودُفِنَ بها ، جرت عندنا حالة مماثلة مأساوية لعلها من باب التأسّي مع الإمام موسى بن جعفر عليه السلام هي ما حدث في عام (٢٠٠٥) الميلادية حيث إنَّ ألف شخص من زوّار الإمام موسى بن جعفر عليه السلام استشهدوا على الجسر ببغداد .

هذا ترابط بين ما كان قبل ألف وأربعمائة سنة ، الإمام موسى بن جعفر عليه السلام جنازته على هذا الجسر ، وفي عام (٢٠٠٥) الميلادية عندما سقط ألف شخص من زوّار الإمام عليه السلام من الجسر ليفدوا على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وهو في جنان الخلد .

مقاطع من زيارته عليه السلام

والحديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حديث واسع ، ونحن في دعاء شهر رجب نقراً : « يا موالِيَّ إِنِّي سَأَلْتُكُمْ وَأَمَلْتُكُمْ فِيمَا إِلَيْكُمْ التَّفْوِيزُ وَعَلَيْكُمْ التَّعْوِيزُ ، فَبِكُمْ يُجَبَّرُ الْمَهِيضُ ، وَيُشْفَى الْمَرِيضُ ، وَمَا تَزْدَادُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَغِيضُ » ، وهذا اعتقادنا بأهل البيت عليهم السلام ، وأنَّ الله تعالى جعلهم شفعاء بينه وبين خلقه ، وكلُّ أئمتنا شفعاء إلى الله تعالى ، وهم أبواب الحوائج .

نقرأ في زيارة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : « السلام على موسى بن جعفر وصيّ الأبرار ، وإمام الأخيار ، وعيبة الأنوار ، ووارث السكينة والوقار ، والحكم والآثار ، الذي كان يُجْبَى الليل بالسهر إلى السحر بمواصلة الاستغفار ، حليف السجدة الطويلة والدموع

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٩٣ / ح ٥ .

الغزيرة والمناجاة الكثيرة والضراعات المتصلة ، المعذب في قعر السجون وظلم المطامير ، ذي الساق المروض بحلق القيود » .

قصة بشر الحافي :

لاحظوا قدرة أئمة الهدى وتأثير شخصياتهم النافذة في قلوب الناس ، والقصة المعروفة التي يذكرها العرفاء والمؤرخون عن بشر الحافي الذي أصبح مثلاً للزهاد في العالم الذي كان يمشي في طريق وإذا به يرى جارية تُلقى بالقمامة في المزبلة ، فقال لها : « أنت من ؟ » ، قالت : أنا أمة بشر الحافي ، وكان بشر مشغول بالسكر في قصره ، قال لها : « مولاك حرٌّ أم عبد ؟ » .

قالت : مولاي حرٌّ .

قال عليه السلام : « صدقت ، لو كان عبداً لاستحي من مولاه » .

فرجعت الجارية ، فسألها مولاها بشر : لماذا تأخرت ؟

قالت : رأيت شخص ، وقال لي ما قال .

فقال : صفيه لي ، فوصفته ، فركض خلفه ، فلما وصل إلى الإمام عليه السلام سقط وهو يُقبّل يديه ، وتاب إلى الله ، ثم ترك مشاهد الفساد وأصبح من المطيعين والصائمين الذين يُضرب بهم المثل على طول التاريخ^(١) .

عبادته عليه السلام :

الرواية عن الصدوق في كتابه (عيون أخبار الرضا عليه السلام) يقول : عن الإمام الصادق عليه السلام : « كان موسى بن جعفر بضع عشر سنة وهو في سجن هارون الرشيد له

(١) منهاج الكرامة للعلامة الحلي : (وعلى يده عليه السلام تاب بشر الحافي ، لأنه عليه السلام اجتاز على داره ببغداد ، فسمع الملاهي وأصوات الغناء والقصب تخرج من تلك الدار ، فخرجت جارية ويدها قمامة البقل ، فرمت بها في الدرب ، فقال لها : « يا جارية ! صاحب هذه الدار حرٌّ أم عبد ؟ » ، فقالت : بل حرٌّ ، فقال : « صدقت ، لو كان عبداً خاف من مولاه ! » ، فلما دخلت قال مولاها وهو على مائدة السكر : ما أبطأك علينا ؟ فقالت : حدثني رجل بكذا وكذا ، فخرج حافياً حتى لقي مولانا الكاظم عليه السلام ، فتاب على يده) .

سجدة من طلوع الشمس إلى الزوال ، وكان هارون الرشيد يطلع عليه من أعلى السطح ويحسب أن هذا ثوب مطروح ، فسأل السجّان وهو الربيع : ما هذا الثوب المطروح ؟ قال : ليس هذا بثوب إنما هذا موسى بن جعفر . فقال هارون الرشيد : إنه من رهبان آل محمد . فقال السجّان : إذا كان كذلك ، فلم ضيّقت عليه السجن ؟ فقال : هيهات ، لا بدّ من ذلك .

موسى بن جعفر عليه السلام من أولاد رسول الله ﷺ ، وصاحب امتداد عريض في الوسط الإسلامي ، وهارون الرشيد هكذا يفعل به ، إذا كيف بباقي الناس ؟

ملاحقة الشيعة

عاش الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في خلافة المنصور ، تقول الروايات التي يرويها المؤرّخون من السّنة والشيعة : إنه لمّا بنا المنصور الأبنية ببغداد جعل يطلب العلوية طلباً شديداً ، ويجعل من ظفر به منهم في الأسطوانات المجوّفة المبنية من الجصّ والآجر .

قصة الغلام العلوي :

يذكر المؤرّخون أن المنصور العباسي ظفر ذات يوم بغلام منهم عليه شعر أسود من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، فسلمه إلى البناء وأمره أن يجعله في جوف الأسطوانة ، ووكل به من ثقاته من يراقب ذلك ، فوضعه البناء مجبراً والغلام يبكي ، فلمّا بنا عليه الأسطوانة أخذته رقة ورحمة ، فترك في الأسطوانة فرجة يدخل منها الهواء ، وقال للغلام : لا بأس عليك فاصبر فإنّي سأخرجك من جوف هذه الأسطوانة إذا جنّ الليل ، فجاء البناء في الظلمة وأخرج ذلك العلوي من جوف تلك الأسطوانة ، وقال له : اتّق الله في دمي وغيب شخصك ، لا تعد إلى أمك فإنّي أخرجتك في هذه الليلة من جوف الأسطوانة لأنّي خفت إن تركتك في جوفها أن يكون جدك رسول الله ﷺ خصمي يوم القيامة ، ثم أطلقه وأخذ من شعره خصلة وأخذ شعره بآلات الجصاصين وقال له : غيب شخصك وانج بنفسك ولا ترجع إلى أمك . قال الغلام : فإن كان

هكذا فعرف أمي بآتي قد نجوت وهربت لتطيب نفسها ويقلُّ جزعها وبكاؤها إن لم يكن لعودي إليها وجه ، فهرب الغلام ولا يُدري أين قصد من أرض الله ولا إلى أيِّ بلد وقع ، قال ذلك البناء : وكان ذلك الغلام قد عرفني مكان أمِّه وأعطاني العلامة ، فانتَهيت إليها في الموضع الذي كان دلّني عليه ، فسمعت بكاءً وعويلاً ودويّاً كدويِّ النحل ، فعلمت أنّها أمُّه ، فدنوت منها وعرفتها سرّاً أخبر ابنها وأعطيتها شعره وانصرفت .

هذا ما جرى على آل رسول الله ﷺ من الظلم .

قصة الوزير عليّ بن يقطين :

جدير أن أذكر بقصة الإمام عليّ (عليه السلام) مع عليّ بن يقطين وإبراهيم الجمل ، وعليّ بن يقطين كان وزيراً لهارون الرشيد ، فجاء إلى الإمام يستعفي من مهمّته ، فقال له الإمام (عليه السلام) : « إن لنا بك أنساً ، وإخوانك بك عزّاً ، وعسى أن يجبر الله بك كسراً » ، ثم قال له الإمام (عليه السلام) : « اضمن لي واحدة اضمن لك ثلاثة ، أن لا تلقى أحداً من موالينا إلا قضيت حاجته وأكرمه اضمن لك أن لا يظلك سقف سجن أبداً ، ولا ينالك حدٌ سيف أبداً ، ولا يدخل الفقر بيتك أبداً » .

عليّ بن يقطين في موسم الحجّ جاء يطلب زيارة الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) ، فلم يأذن له ، فقال : لِمَ ؟ قال : « لأنك رددت إبراهيم الجمل وقد جاءك بحاجة » .

فقال : وكيف أرضيه ؟

قال (عليه السلام) : « تأتني إلى البقيع وحدك ستجد نجيباً - فرساً - مسرجاً ، اصعد عليه وهو يذهب بك إلى الكوفة » ، فجاء في الليل إلى البقيع وإذا نجيب مسرج ، وما هي إلا لحظات حتّى وجد نفسه بالكوفة على باب إبراهيم الجمل ، فطرق الباب عليه .

قال : مَنْ الطارق ؟

قال : عليّ بن يقطين ، افتح الباب .

قال : مولاي ومولاك أبى أن يرضى عني إلا أن ترضى عني ، ثم وضع خدّه على الأرض وقال : والله لا أقوم حتّى تطأ بقدمك خدّي حتّى يرضى الله عني ، فوضع رجله على خدّه وعليّ بن يقطين يقول : اللهم اشهد ، ثم نهض وإذا النجيب موجود ، فرجع إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فقصّ له القصّة ، فقال له الإمام عليه السلام : « والآن أنا أرضى عنك » .



آلْبَابُ الْعَاشِرُ

مَعَ الْإِمَامِ الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ

١. في ذكرى الولادة

٢. قصّة ولاية العهد

٣. نظرية أهل البيت عليهم السلام في الحكم



في ذكرى الولادة

الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام حديث واسع ، وأشير فيه إلى ثلاث فقرات :

الفقرة الأولى : في أخلاقه عليه السلام :

الرواية تقول : ما رأيت أبا الحسن الرضا عليه السلام جفئ أحداً ، ولا قطع على أحد كلامه ، وما ردّ أحداً عن حاجة ، وما مدّ رجله بين يدي جليس ، ولا اتكأ قبله ، ولا شتم من مواليه ومماليكه ، ولا فقهقه في ضحكه ، وكان يجلس على مائدة مماليكه ومواليه ، قليل النوم بالليل ، يُحيي أكثر لياليه من أولها إلى آخرها ، كثير الصيام ، كثير المعروف والصدقة في السرّ ، وأكثر ذلك في الليالي المظلمة^(١) .

الفقرة الثانية : في فضل في زيارته عليه السلام :

قال الإمام الرضا عليه السلام في الرواية المعتبرة عنه : « من زارني على بُعد داري أتيت يوم القيامة في ثلاثة مواطن حتى أُخلصه من أهوالها : إذا تطايرت الكتب يميناً وشمالاً ، وعند الصراط ، وعند الميزان »^(٢) ، اللهم ارزقنا في الدنيا زيارته ، وفي الآخرة شفاعته ، اللهم

(١) مناقب آل أبي طالب ٣ : ٤٦٩ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٨٥ / ح ٢ .

ارزق شبابنا والعراقيين عموماً زيارة الإمام الرضا عليه السلام .

وأذكر روايتين في فضل الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ، وهي :

الرواية الأولى : والحديث عن رسول الله ﷺ : « سَتُدْفَنُ بَضْعَةُ مَنِّي فِي خِرَاسَانَ مَا زَارَهَا مُؤْمِنٌ إِلَّا وَأَوْجِبَ اللَّهُ لَهُ الْجَنَّةَ وَحَرَّمَ جَسَدَهُ عَلَى النَّارِ » ^(١) .

الرواية الثانية : « سَتُدْفَنُ بَضْعَةُ مَنِّي فِي خِرَاسَانَ مَا زَارَهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا نَفْسَ اللَّهِ كَرِبَتْهُ ، وَلَا مَذْنِبٌ إِلَّا وَغَفَرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ » ^(٢) .

الفقرة الثالثة : ما جاء في الدعاء عند زيارته عليه السلام :

المروية عن الأئمة الأطهار عليهم السلام حيث يرويها الشيخ الصدوق : « اللَّهُمَّ الْعَنِ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَكَ ، وَاتَّهَمُوا نَبِيَّكَ ، وَجَحَدُوا بِآيَاتِكَ ، وَسَخَرُوا بِإِمَامِكَ ، وَحَمَلُوا النَّاسَ عَلَى أَكْتافِ آلِ مُحَمَّدٍ » ^(٣) .

يعني أن هناك انقلاباً ومؤامرة حدثت على الإسلام بعد نبي الله ﷺ ، فهؤلاء الذين حكموا باسم الإسلام ، باسم محمد وآل محمد ، « قَدْ بَدَّلُوا نِعْمَتَكَ » ، وهي نعمة الإسلام ، ﴿ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ (المائدة : ٣) ، « وَاتَّهَمُوا نَبِيَّكَ » قالوا : (ما يقول محمد في ابن عمه إلا بالهوى) ^(٤) .

« وَسَخَرُوا بِإِمَامِكَ » سَخَرُوا بِالْأئِمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَهَزَوْا بِهِمْ .

« وَجَحَدُوا بِآيَاتِكَ » ، الآيات القرآنية التي تقول : ﴿ إِنَّا وَاعَدْنَاهُكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (المائدة : ٥٥) .

هناك ناس جحدوا بهذه الآيات ، حملوا الناس على أكتاف آل محمد ، هذا تأمر

(١) أمالي الصدوق : ١١٩ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٣٠٢ ؛ كامل الزيارات : ٥١٩ .

(٤) أمالي الصدوق : ٦٨١ / ح (١ / ٩٢٨) .

طويل على الإسلام والإمامة الحقّة ، الإنسان الشيعي يحمل هذا الفهم للتاريخ ، إننا نعيش تآمراً على الحقّ ، هذا التآمر بعيد المدى من زمان رسول الله ﷺ ، والقرآن يتحدث عن المنافقين ، وبعد زمان النبي ﷺ هذا التآمر استطاع أن يحكم وأن يقتصي أهل البيت عليه السلام عن الحكم والحاكمة .

فالمأمون رغم أنّه أعطى ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام ، لكن الإمام عليه السلام في الحقيقة كان سجيناً في قصر المأمون ، وكان البوّاب يكتب للمأمون كلّ ما يحدث ، لهذا كان الإمام عليه السلام لا يستقبل أحداً ؛ لأنّه يعرف أنّ القضية ليست هي ولاية عهد وإنّما هي رقابة وحصار وسجن ، والإمام رضي بولاية العهد مقهوراً بشرط « أن لا يأمر ولا ينهى ولا يكتب كتاباً ولا يغيّر أمراً عمّا هو قائم أبداً » ، فالإمام عليه السلام يريد أن يقول : أيّها الناس ، إنّ القضية شكلية ، فأنا غير راضٍ بهذا ، بل أنا مجبور ، هذا هو فهم شيعة أهل البيت للتاريخ ، وهذا هو ما نتروّده من خلال نصوص الزيارات ، فهي تُعطينا ثقافة خاصّة .

« اللهم صلّ على عليّ بن موسى الرضا المرتضى ، الإمام التقي النقي ، حبّتك على من فوق الأرض ومن تحت الثرى ، الصديق الشهيد ، صلاة كثيرة تامّة زكية متواصلة متواترة مترادفة كأفضل ما صلّيت على أحد من أوليائك »^(١) .

قصة ولاية العهد

عاش الإمام الرضا عليه السلام ظاهرة الامتداد الجماهيري الواسع لأهل البيت عليه السلام ، رغم السياسة العباسية التي سبقت المأمون والتي اعتمدت على القمع والتصفية الجسدية ، كما هو في شأن إمامنا موسى بن جعفر عليه السلام ، لكن لم تستطع هذه السياسة تصفية أهل البيت عليه السلام وشيعتهم ، واستئصال ذلك المدّ الجماهيري الواسع الذي ارتجت به بغداد لدى تشييع جنازة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام .

جاء المأمون لكي يقوم بدور آخر هو دور الالتفاف على هذا الامتداد الجماهيري ،

(١) كامل الزيارات : ٥١٣ / ح (١ / ٨٠٠) .

وخداع الوعي السياسي لدى الناس الذين عاشوا وعياً نحو التغيير ، ورفض الحكومات الظالمة ، كلُّهم أصبحوا يطالبون بحكومة الرضا من آل محمد ، وذلك يعني الوعي السياسي باتجاه التغيير ، وقام المأمون بمشروع ولاية العهد ؛ ليخدع الإمام الرضا عليه السلام كما يزعم ، ويخدع شيعة أهل البيت ، ويلتفّ على الوعي الإسلامي العام ، حيث كان كلُّ التيار الإسلامي يطالب بالحكم للرضا من آل محمد ، ولهذا قام المأمون بمشروع ولاية العهد ؛ لخدع هؤلاء المسلمين ، ليقول : إنني مثلكم ، أنا المأمون أُعطي الحكم لوليّ عهدي ، وهو عليّ بن موسى الرضا ، ولكن كان الإمام الرضا عليه السلام يُعطي وعياً راسخاً لشيعة وأتباعه ، بأنّ المسألة هي خدعة وليست حقيقة ، وليس الحكم العباسي صادقاً في التفاعل مع هموم الناس الدينية ورؤية التغيير السياسي ، ولهذا كان الإمام الرضا عليه السلام يؤكّد لهم : إنني قبلت بولاية العهد مقهوراً ، أمّا أنتم يا شيعة فلا تفرحوا ؛ فإنّه ليست هناك آية ولاية اسمها ولاية العهد بشكل صادق وحقيقي .

الإمام عليه السلام يقول لأصحابه : لا تغتروا بقوله فما يقتلني غيره ، فالإمام عليه السلام يريد إيجاد توعية سياسية وأنّ المرجعية الدينية من غير الممكن أن تتحوّل إلى تابعة للسلطان ، وهذه أحد الأمور التي أكّدها الإمام الرضا عليه السلام حتّى كان يأتيه الشعراء للتبريك بولاية العهد ، فيحوّلهم الإمام إلى كربلاء ومآسي أهل البيت عليه السلام ومعاناتهم كي لا تُخدع .

لذلك عندما جاءه دعبل الخزاعي وأنشده هذه الأبيات :

مدارس آيات خلّت من تلاوة

فقال له الإمام عليه السلام : « ألا أضيف لقصيدتك بيتاً » ، قال : بلى يا ابن رسول الله تُشرّفني ، فقال عليه السلام : « اكتب :

وقبر بطوس يا لها من مصيبة ألحّت على الأحشاء بالزفرات .

فقال دعبل : لا أعرف لكم قبراً بطوس .

فقال عليه السلام : « لا تنقضي الأيام حتّى أدفن بطوس ، ألا فمن زارني في غربتي بطوس كان

معي في درجتي يوم القيامة مغفوراً له»^(١).

لماذا وافق الإمام عليه السلام على ولاية العهد ؟

هنا سؤالان بعيداً عن التحليل التاريخي ، لأننا في أكثر من موضع تحدّثنا عن فلسفة ولاية العهد والانعطافة التاريخية يومئذٍ .

حديثنا اليوم سياسي ومهمٌ ويرتبط بواقعا المعاصر .

في التحليل الديني السياسي نسأل :

١- لماذا وافق الإمام الرضا عليه السلام على ولاية العهد بعد أن رفضها ؟

٢- لماذا لم يدخل الإمام عليه السلام عملياً في العملية السياسية ؟ فولاية العهد تعني في ظاهرها المشاركة السياسية ، الإمام عليه السلام لم يقبل إلاّ تحت الضغط ، فلماذا وافق شكلياً ولم يدخل في المشاركة السياسية عملياً ؟ هذا الأمر يدرسه الفقهاء لاستحصا الموقف الشرعي .

ما هو موقفنا الشرعي حينما تُطرح علينا قضية المشاركة السياسية في يومنا هذا ؟ الإمام الرضا عليه السلام وافق أولاً على ولاية العهد مرغماً وليس مختاراً ، أي وافق تحت التهديد .

قيل له : يا ابن رسول الله ، ما حملك على الدخول في ولاية العهد ؟ قال : « ما حمل جدّي أمير المؤمنين عليه السلام على الدخول في الشورى »^(٢).

وكان الإمام عليه السلام قد شرط على المأمون لكي يثبت للتاريخ ولنا أني لم أشارك مشاركة حقيقية ، ولا أعطيت شرعية للمأمون . المأمون فرض على الإمام عليه السلام ولاية العهد فقال له : أقبل ذلك ولكن بشرط أن لا أمر ولا أنهي ولا أقضي ولا أغير شيئاً ممّا هو قائم^(٣).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٢٦٤ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ١٥٢ / ح ٤ .

(٣) الإرشاد ٢ : ٢٥٩ .

أي : أقبل ولاية العهد ولكن شكلياً ؛ لأنك لا تسمح أن أدخل في أمور البلاد دخولاً حقيقياً بحيث أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر .

لماذا لم يدخل الإمام عليّ في المشاركة السياسية ؟

وإذا سألت : لماذا لم يقبل الإمام عليّ بالمشاركة السياسية لكي ينصب أميراً أو وزيراً أو يعزل أميراً أو وزيراً حتى ينفع العباد والبلاد ؟

الجواب الأول : أنها لم تكن مشاركة سياسية ، بل تطويقاً سياسياً ، بحيث إن المأمون جعل الإمام عليّ في قصر إلى جنب قصره ، ترده المعلومات عنه ليلاً ونهاراً ، والمخابرات موجودة في باب الإمام عليّ ، لا يدخل عليه داخل ولا يتحدث متحدث إلا ينقل خبره إلى المأمون .

ذات مرّة شارك الإمام عليّ في صلاة العيد بعد طلب المأمون منه والضغط عليه ، فأراد الإمام عليّ أن يشارك مشاركة حقيقية في الصلاة ، فخرج مع أصحابه يكبر بعد كل عشر خطوات ويكبر الناس معه ، فوصل الخبر إلى المأمون : إنك إذا أردت أن تسلم على الحكم فارجه إلى بيته ، فإنه سوف يحدث ثورة عليك ، فأرسل إليه أن ارجع فإننا لا نريد صلاة بهذا النحو .

الجواب الثاني : أن الزعامة الدينية العليا إذا شاركت فإنها تُعطي الشرعية للحكم ، وهذا ما لا يريده الإمام عليّ . نعم يمكن لمن هو دون الزعامة أن يشارك ، كما شارك عمار وأبو ذر في ولاية عمر بن الخطّاب حيث أصبحوا ولاة ، ولكن الإمام عليّ لم يشارك ، لأنه سوف يُعطيه الشرعية ، وهكذا عليّ بن يقطين حيث كان وزيراً لهارون الرشيد وكان من شيعة أهل البيت ﷺ ، ولكن الإمام موسى بن جعفر عليّ لم يشارك .

نظرية أهل البيت عليه السلام في الحكم

هناك عنصران يجب أن يجتمعا :

العنصر الأول : عنصر التعيين من الله سبحانه وتعالى ، نحن أتباع أهل البيت نؤمن بعنصر التعيين ، كما قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ »^(١) ، هذا التعيين الذي يستمر حتى نيابة الإمام المعصوم عليه السلام التي أعطيت للفقهاء ، « فَإِنَّهُمْ حَجَّتِي عَلَيْكُمْ ، وَأَنَا حَجَّةُ اللَّهِ »^(٢) كما في الرواية عن الإمام المنتظر عليه السلام ، لكن نظرية أهل البيت عليه السلام وهي نظرية الإسلام الأصيل أن عنصر التعيين يحتاج إلى عنصر آخر لتفعيل هذه الحاكمية وليس لشرعيتها ، فالشرعية من الله تعالى بالتعيين ، لكن تفعيل هذه الحاكمية كيف يكون ؟ هل بانقلاب عسكري ، أم وراثته ، أم وصية ، أم انتخابات شعبية ؟ نظرية أهل البيت عليه السلام تقول : مع الاعتقاد بالنص سواء على مستوى المعصوم أو نائبه يكون تفعيل الحاكمية الشرعية على أساس انتخابات شعبية ، فأمر المؤمنين عليه السلام وهو منصوب على إمامته من الله لم يتسلم الخلافة إلا بانتخابات شرعية حينما اجتمع عليه المهاجرون والأنصار وبايعوه بالخلافة ، قال العباس عم النبي ﷺ له : مُدِّدِكَ لَا بَايَعَكَ عندما كان في البيت ، فقال : لا ، لا بدَّ من الخروج إلى المسجد وأمام الناس . ورسول الله ﷺ حينما نصَّ على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام في يوم الغدير دعا المسلمين إلى انتخابات شعبية اسمها (البيعة) ، وقال لهم : بايعوا هذا الرجل بملء إرادتكم ، فدخل عليه المسلمون يبايعونه ، حتى قال أحدهم : (بخ بخ لك يا أمير المؤمنين أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة) ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى : ٣٨) ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) ، وهذا الأمر شرحه بشكل جلي وواضح أستاذنا آية الله العظمى الشهيد السيد محمد باقر الصدر رحمه الله في

(١) من حديث غدير خم ، رواه ابن حنبل في مسنده ٤ : ٣٧٠ ؛ والنسائي في سننه ٥ : ١٣١ ؛ والطبراني في معجمه الكبير ٣ : ١٨٠ ؛ وجلّ محدثي العامة ، فضلاً عن مصادرها ، وقد أفرد له العلامة الشيخ الأميني عليه السلام كتاباً من (١١) جزءاً سماه (الغدير) ، فكان موسوعة لا يستغنى عنها .

(٢) انظر : الاحتجاج ٢ : ٢٨٣ ؛ بحار الأنوار ٢ : ٩٠ .

كتابه (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء) ، فقال : إنَّ شرعية الحكومة في الإسلام عملية مزدوجة بين التعيين من الله وبين الاختيار من الأمة ، ونحن نعتقد بنبابة الفقهاء عن الإمام المعصوم ، لكن هل هي ممارسة فرض ؟ أم ممارسة وصية ؟ أو ولاية عهد ؟ إنَّها ممارسة بيعة شعبية ، هذه تجربة أهل البيت ﷺ وأتباعهم ، وهي تجربة انتخابات شعبية ، فمبدأ ولاية الفقيه بشكل خاص هو مبدأ نبابة الفقيه عن المعصوم ، حتَّى في هذا المبدأ هو ممارسة انتخابية ، فالناس ينزلون إلى الشارع ويتخبون رئيس الجمهورية ، ويتخبون الولي الفقيه بشكل غير مباشر ، إذن في شرعية الحكومة في نظرية أهل البيت ﷺ لا بدَّ أن يجتمع عنصران :

العنصر الأوَّل : التعيين .

والعنصر الثاني : الانتخاب .

وسوف نتحلَّ معضلة علمية وقفت عند أهل التاريخ ، وهي : إذا كانت البيعة لأمر المؤمنين ﷺ فما معنى أن الإمام يتحدَّث بلغة الشورى وليس بلغة النصِّ عندما قال : « وإنَّها الأمر للمهاجرين والأنصار » كما جاء في (نهج البلاغة)^(١) ، هذه المسألة لم يعرف كثير من الباحثين حلَّها ، وهي مسألة شرعية السلطة وكيفية تداول السلطة ، فالشرعية شيء ولكن كيف يتمُّ تداول السلطة ؟ هل بكتاب ومرسوم جمهوري من معاوية إلى يزيد ، أو عبر وراثته بموت الأب ويخلفه الابن في الحكومة ، أم أنَّ آلية تداول السلطة هو الانتخاب حتَّى مع وجود النصِّ ، ففقه أهل البيت ﷺ يقول : إنَّ النظام هو نظام الانتخابات ، هو الذي يُفعل تلك السلطة الشرعية ، وهنا نفهم نظرية البيعة ، حينها لم تكن هناك صناديق اقتراع ، لأنَّ العدد لا يتجاوز عشرة آلاف ، وكانوا يابعون بالمصافحة ، هذا الأمر يُؤكِّد أهميَّة الانتخابات في نظرية أهل البيت ﷺ وروعة مدرسة أهل البيت في البعد السياسي ، فالإمام الرضا ﷺ أوضح بأنَّ ولاية العهد بجرَّة قلم من المأمون لا تمثِّل ولاية عهد شرعية بالنسبة لي وأنا أرفض هذه الآلية ، فرفض الإمام

(١) نهج البلاغة : ٣ : ٧ / ح ٦ .

الرضا عليه السلام الولاية يقوم على مجموعة أسس أحدها رفض الشرعية الآتية من خلال الميراث والتنصيب من الحاكم السابق .

الإمام الرضا عليه السلام في الطريق إلى خراسان :

الإمام الرضا عليه السلام في المدينة والخلافة العباسية انتقلت إلى خراسان بهدف تطويق الأئمة الأطهار ووضعهم تحت الإقامة الجبرية ، دعا المأمون الإمام الرضا عليه السلام من المدينة المنورة أن يأتي إلى خراسان مجبراً مرغماً ، فاختار الإمام عليه السلام طريقاً رائعاً ، فجاء على الطُّرُق التي فيها شيعته من جملتها أهواز حتّى وصل إلى نيشابور باتجاه خراسان ، وهناك لَمَّا نزل لديهم وأراد غداً صباحاً أن يُودّعهم اجتمع عليه الناس والإمام عليه السلام في الهودج والكتّاب والأدباء ورواة الحديث قالوا : حدّثنا يا ابن رسول الله ، فأخرج الإمام عليه السلام رأسه من الهودج وحدّثهم بحديث سُمّي بـ (حديث السلسلة الذهبية) بقي لتاريخ نيشابور ، وهو قال : « سمعت أبي موسى بن جعفر ، قال : سمعت أبي جعفر بن محمد ، قال : سمعت أبي محمد بن عليّ ، قال : سمعت أبي عليّ بن الحسين ، قال : سمعت أبي الحسين بن عليّ ، قال : سمعت جدّي رسول الله ﷺ ، قال : سمعت جبرائيل عليه السلام قال : قال الله تعالى : كلمة لا إله إلا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي » ، فأغلق الهودج وتقدّمت الراحلة ، ثم أزال الستار وفتح الهودج وقال : « بشرطها وشروطها ، وأنا من شروطها » ، ونفس هذا الحديث هناك نسخة أخرى له تقول : « ولاية عليّ حصني ، فمن دخل حصني أمن عذابي »^(١) .

في الطريق عين ماء كانت قد غارت ، فجاء الناس للإمام الرضا عليه السلام وقالوا : يا ابن رسول الله ، نحن أهالي القرية كلّ معيشتنا على هذه عين الماء وليس فيها ماء ، فجاء الإمام عليه السلام إلى هذه العين وأمر بأن يُبنى لها مرقاة - سُلّم - ينزلون عليه ، وفي آخره عمل حوضاً ، ونزل عليه واغتسل بذلك الحوض ، فهي إلى هذا اليوم عامرة يانعة يتناوب على الاغتسال بها الناس طلباً للشفاء ، وها المكان يُسمّى الآن : (حَمّام الرضا عليه السلام)^(٢) .

(١) أملّي الصدوق : ١٤٢ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٢١٧ / ح ٢٦ .

قصّة دعبل الخزاعي :

دعبل الخزاعي من العراق سافر إلى خراسان ، وقال له : يا ابن رسول الله لديّ قصيدة .

قال عليه السلام : « قل » .

فأنشد :

بكيت لرسم الدار من عرفات وأجريت دمع العين في الوجنات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومهبط وحي مقفر العرصات
فقال له الإمام عليه السلام : « لا تنشد حتّى أقول لك » .

فذهب دعبل إلى المأمون فقال له : أنشدني قصيدتك : (مدارس آيات) .
قال : لا أعرفها .

قال : سيأتي مولاك الرضا عليه السلام ويخبرك عنها ، فجاء الإمام عليه السلام وقال له : « أنشد » ،
فأنشدها إلى أن قال :

قبور بكوفان وأخرى بطيبة وأخرى بفتح نالها صلوات
أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً وقد مات عطشاً بشطّ فرات

فأغدى عليه المأمون عطاءً ، وكذلك الإمام الرضا عليه السلام ، وأعطاه معطفاً قال : هذه
ستنفعك في الطريق ، وكان ذلك المعطف أعزّ عند دعبل من كلّ الدراهم والدنانير ، وفي
طريق العودة سلبوه هذا المعطف والمنشفة .

قال : فبقيت باكياً متألماً وحزيناً ، فما هي إلّا لحظات وإذا جاني أحد أولئك
الصوص وهو يقرأ : (مدارس خلت من تلاوة) .

قال دعبل : لمن هذه القصيدة ؟

قال : لدعبل الخزاعي .

قلت : ويحك أنا دعبل الخزاعي ، فلمّا عرفوا ذلك أعاد اللصوص متاع القافلة جميعها ، يقول دعبل فذكرت كلام الإمام عليه السلام : إنّ المنشقة والمعطف ستنفعك .

يقول دعبل :

إلهي فزدني في هواي محبةً	وزد حُبُّهم يا ربّ في حسناتِ
فإنّي من الرحمن أرجو بحُبِّهم	نجاه لدى الفردوس غير بتاتِ
لقد خفت في الدنيا وأيام سعيها	وإنّي لأرجو الأمن بعد وفاة ^(١)



الباب الحادي عشر

مع الإمام الجواد عليه السلام

١. مشكلة العمر

٢. كرامة الإمام عليه السلام

٣. شهادة الإمام الجواد عليه السلام

٤. ظاهرة العمر الصغير



مشكلة العمر

تسلّم الإمام الجواد عليه السلام الإمامة بعمر سبع سنوات بعد أبيه الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام .

تقول الرواية : فلمّا مات الإمام الرضا عليه السلام اختلف الشيعة واجتمع كبارهم فيما بينهم لمن يكون الأمر ؟ واختلفت كلمة الشيعة في بغداد واجتمع وجوههم ، فقال يونس بن عبد الرحمن^(١) وهو أحد كبار الشخصيات الشيعية : دعوا هذا البكاء من لهذا الأمر حتّى يكبر هذا ؟

فقام إليه الريّان بن الصلت^(٢) وقال : إن كان أمره من الله فلو أنّه كان ابن يوم واحد لكن بمنزلة الشيخ وفوق ، وإن لم يكن أمره من عند الله فلو عمّر ألف سنة فهو واحد من الناس .

(١) أبو محمّد يونس بن عبد الرحمن ، مولى آل يقطين ، كان من أصحاب الإمامين الكاظم والرضا عليه السلام ، قال الإمام الرضا عليه السلام فيه : (ويونس في زمانه كسلمان الفارسي في زمانه) . (رجال الكشي ٢ : ٧٨١ / الرقم ٩١٩) .

(٢) الريّان بن الصلت الأشعري القميّ الخراساني البغدادي ، أبو عليّ ، محدّث إمامي ثقة ، صدوق ، ممدوح . صحب الإمامين الرضا والمهدي عليه السلام ، وروى عن الإمام الرضا عليه السلام . كان أصله من خراسان ، حظي لدى البلاط العبّاسي في عهد المأمون ، وأصبح من المقرّبين لديه ، وكان يبعثه في مهمّاته . روى عنه إبراهيم بن هاشم القميّ ، ومعمّر بن خلّاد ، وأبو عبد الله الشاذلي وغيرهم . له كتاب جمع فيه كلام الإمام الرضا عليه السلام في الفرق بين الآل والأئمّة . (رجال الطوسي في أصحاب الرضا عليه السلام : ٣٧٦) .

ثم وفدوا على الإمام أبي جعفر الجواد عليه السلام وعمره سبع سنوات ، فسألوه بمسائل ، فأجاب عنها ، فاطمئنتوا^(١) .

أحد الأشخاص لم يكن من الشيعة وهو عمر بن فرج الخرجي قال : سألته : إن شيعتك يقولون : إنك تعلم ما في دجلة ووزنه - وكنا على شاطئ دجلة - ، فقال له الإمام عليه السلام : « هل يستطيع الله تعالى أن يجعل علم ذلك عند بعوضة ؟ » .

قال : الله قادر على ذلك .

فقال : « وأنا أكرم على الله من بعوضة ومن كثير من خلقه »^(٢) .

كرامة الإمام عليه السلام

يروى الشيخ الصدوق في كتابه (عيون أخبار الرضا عليه السلام) والرواية منسوبة إلى أبي الصلت الهروي ، وهذا الرجل هو خادم للإمام الرضا عليه السلام :

لما توفي الإمام الرضا عليه السلام وكان قد أوصى أبا الصلت بكيفية دفنه وموقع دفنه ومكان قبره ، ثم علمه كلمات وكشف له بعض الكشوفات والمأمون حاضر يشهد دفن الإمام الرضا عليه السلام ، فدعاه وقال : علمني هذه الكلمات التي علمك إياها علي بن موسى ، وأبو الصلت يقول : إنها غابت عن ذهني ومُسِحت عن قلبي تماماً كأن الإمام علمني إياها لغرض معين في دفنه عليه السلام ، وأصبح المأمون يستدعيني ليعرف ما هي الكلمات ، فأقول : والله قد نسيتهما إلى أن أمر بي إلى السجن ومن السجن أصبح يدعوني ليعرف الكلمات ، أنا أقسم وأقول : والله قد نُرِعت من قلبي حتى مضى علي عام وأنا في السجن ، وقال : ضاقت نفسي ، فقممت في ليلة جمعة وتوضأت واغتسلت وصلّيت وأحييت تلك الليلة بالقيام والركوع والسجود والبكاء متوسلاً أن (اللهم فرّج عني) ، فبينما أنا على هذا الحال وإذا دخل علي أبو جعفر (الإمام محمد الجواد عليه السلام) وكان عمره

(١) بحار الأنوار ٥٠ : ٩٩ / ح ١٢ .

(٢) دلائل الإمامة للطبري .

خمس سنوات أو ثمان ، فقال لي : « ما الخبر ؟ » .

قلت : سيدي ضاق صدري ، وأحييت هذه الليلة إلى الصباح .

فقال عليه السلام : « لو كنت قد فعلت هذا الفعل لأتيناك قبل هذا اليوم ، فما تريد ؟ » .

قال : أريد الخروج .

قال له عليه السلام : « قم معي ! » .

قلت : كيف والسجّانون موجودون ويدهم المشاغل .

قال عليه السلام : « قم لا عليك ، إنهم لا يرونك » ، فقمتم وخرجت مع أبي جعفر وأنا

أرى السجّانين والمشاعل وهم لا يرونني حتّى خرجت من السجن .

فقال عليه السلام : « أين تريد الذهاب الآن ؟ » .

قلت : إلى بلادي هرات .

قال عليه السلام : « ضع الرداء على وجهك » ، فوضعت الرداء على وجهي فما شعرت إلّا

كأنّه حوّلني من اليمين إلى اليسار وقال : « اكشف الرداء عن وجهك » ، فكشفت فإذا أنا

عند أهلي ومنزلي ولا يوجد الإمام الجواد عليه السلام^(١) .

شهادة الإمام الجواد عليه السلام

كانت شهادته عليه السلام في آخر شهر ذي القعدة ، وكان المأمون العباسي يتقرّب من

الرأي العام الذي كان مندفعاً نحو أهل البيت عليهم السلام ، فعرض على الإمام الجواد عليه السلام وهو

ابن تسع سنين أن يتزوّج من ابنته أمّ الفضل ، وقد خضع الإمام عليه السلام لهذا الضغط ، وقد

كانت سياسة المأمون محاولة احتواء واستيعاب الإمام الجواد عليه السلام والمدّ الجماهيري .

مرّت الأيام ووصل الحكم إلى المعتصم العباسي ، فشهد مدّاً جماهيرياً كبيراً لهذا

الإمام الصغير السنّ ، وهناك تشييع نصف الأمة وقال بإمامته وحاكميته ، فدُسّ إليه

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق .

السُّمِّ واستشهد .

لقد كانت هناك أصداء واسعة لعلمية الإمام الجواد عليه السلام ، وتخوف المعتصم العباسي من هذه الأصداء الواسعة ، تصوّروا شاباً لا يملك جيشاً ولا سلطة ولا وزارات ولا عشيرة ضخمة مع ذلك الحاكم العباسي الدكتاتور الذي يملك الجيوش وأطنان الذهب والفضة ويملك الدنيا العريضة ، مع ذلك يتخوف من هذا الشاب ، يتخوف من الأصداء العلمية والولاء الجماهيري الذي امتلكه أهل البيت عليه السلام ، كانت سياسة المأمون احتواء الحالة ، ولم يستطع أن يحتويها حتى قتل الإمام الرضا عليه السلام ، والمعتصم أيضاً حاول أن يحتوي الإمام الجواد عليه السلام لكن لم يستطع أن يحتوي هذا المدّ الجماهيري ، يعرفون أين هو الحق وأين هو الباطل ، الرأي العام يعرف حركة المعتصم حركة رياء وحركة تزلف وليست حركة صادقة .

فذاث مرّة كان في مجلس المعتصم العباسي الفقهاء والقضاة والحكام جلوساً ، فسئل عن حكم سارق ، قال فقيه من الفقهاء : تُقَطَّع يده من المعصم - يعني المفضل ما بين الكفّ والساعد - ، وقال الآخر : تُقَطَّع من أعلى المرفق لقوله تعالى : ﴿ الصَّلَاةُ فَاعْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ (المائدة : ٦) ، هنا المعتصم العباسي انتبه إلى الإمام الجواد عليه السلام وقال : ما تقول يا بن رسول الله ؟

قال : « اعفني » .

قال : لا بدّ أن تقول .

قال : « تُقَطَّع من أصول الأصابع » يعني تُقَطَّع الأصابع فقط .

قال : ما دليلك ؟

قال : « قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾ [الجن : ١٨] ، وهذه المساجد سبعة :

الجهة والكفتين والركبتين وأطراف الأصابع ، القرآن يقول : هذه المساجد لله تعالى لا ينبغي أن تُقَطَّع كل الكفّ .

خضع المعتصم العباسي لرأي الإمام الجواد عليه السلام ، فثارت نائرة الفقهاء الموجودين

يومئذٍ ، وكان أحدهم ابن أبي داود شيخ الفقهاء ، فذهب غاضباً لبيته ، وبعد ثلاثة أيام جاء إلى المعتصم العباسي وقال : يا أمير المؤمنين ، أنا أُحِبُّ أن أعرض عليك عرضاً وأدري أنني سأدخل به النار ، لكن اسمح لي أن أقول لك : الأمير يجمع الفقهاء وأساطين العلم ثم يعرض عليهم مسألة ولا يأخذ برأيهم ، ويأخذ برأي رجل تقول نصف الأمة بإمامته ، فانتبه المعتصم إلى ضرورة تغيير السياسة ، وأنه لا يستطيع احتواء الإمام الجواد عليه السلام ، فقام بعملية دسّ السُّمِّ إلى الإمام الجواد عليه السلام^(١) .

ظاهرة العمر الصغير

هناك سؤال واحد ؟

الإمام الجواد عليه السلام تولى الإمامة بعمر ثمان سنين ، والإمام الهادي عليه السلام تولى الإمامة بعمر عشر سنين ، والإمام المنتظر عليه السلام تولى الإمامة بعمر خمس سنين .

هذه الظاهرة نجدها متكررة لثلاثة من أئمتنا لتوليهم الإمامة بصغر سنهم .

والسؤال هنا ؟ لماذا الله تبارك وتعالى يُعطي رسالته وعلمه وولايته إلى إنسان بعمر

خمس سنين ؟

وكيف ينقاد الناس والعلماء والأدباء إلى إنسان صغير بهذا السن من عمره ، وما

هي فلسفة هذه الظاهرة التي تتكرر في أكثر من إمام ؟

هناك مجموعة إجابات :

الأولى : أن ذلك لمزيد القوة في الحجّة والبرهان ، فإنّ هذا الإنسان عندما يكون طفلاً ولديه العلوم بأجمعها يكون ذلك أكبر برهان وأقوى دلالة وأوضح في الكرامة الإلهية ، كما أن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فلماذا اختاره الله تبارك وتعالى أمياً ؟ ليكون البرهان قوياً ، إنّ هذا النبي رغم أنّه لا يقرأ ولا يكتب قد جاء بالقرآن

(١) تاريخ الطبري ٧ : ١٨٧ - ٢٠٦ .

الكريم الذي هو أفصح لغة وأقوى بيان .

الثانية : الأئمة والأنبياء ﷺ دائماً ملاحقون من قبل الطغاة والجبابرة ، ولكي يمؤه الله تبارك وتعالى على الطغاة جعل الإمامة في إنسان صغير ، كما غاب إمامنا المنتظر ﷺ حتى لا يدركه الطلب .

الثالثة : أن الله تبارك وتعالى لا يخضع إلى مقاساتنا نحن البشر ، ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام : ١٢٤) ، يعني أن هذه الرسالة هي سر إلهي لا يمكن للبشر أن يدركه ، الرسالة الإلهية سواء كانت في النبوة أو الإمامة هي سر مستودع عند أهله . نحن لا نستطيع أن نكشف ذلك السر الإلهي ونبحث عن أسرار الغيب ، ولهذا نقول : إن الله تبارك وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته ، وإن الرسائل الإلهية لا تخضع إلى المقاسات البشرية .



أَلْبَابُ الثَّانِي عَشَرَ

مَعَ الْإِمَامِ أَهْلَكَادِي عَلَيْهِ السَّلَامُ

١. مداهمات مستمرة

٢. ظاهرة انتشار النور



مداهمات مستمرة

الإمام الهادي عليه السلام أشخصه المتوكل من المدينة إلى سامراء - أي هجره وسحبه بالقوة - ، وعاش الإمام الهادي عليه السلام عشرين سنة في سامراء تحت الرقابة ، وقد كان هدف المتوكل والمعتمد والمهتدي والمعتز والواثق العباسي أن تكون الزعامة الدينية تحت الرقابة ، وكل فترة كانوا يدهمون بيت الإمام الهادي عليه السلام ليجثوا عمًا يوجد فيه من أسلحة وما شاكل ، لما ينقله الواشون .

مداهمات مستمرة :

ذات مرة داهموا بيت الإمام الهادي عليه السلام ، فنادى الإمام عليه السلام هذا المداهم من أعلى السطح أن اصبر حتى آتيك بشمعة فإنَّ الجوّ مظلم ، ثم قال له : هذه الدور أمامكم مفتوحة فتش ما تريد ، ثم قال له الإمام عليه السلام : هذا البساط ارفعها ، فعثر على كيس فيه ألف درهم وسيف للإمام عليه السلام ، فأخذها للمتوكل ، وإذا الكيس مختوم بختم أمّ المتوكل العباسي ، فاستغرب المتوكل ، فهذه أموال القصر ماذا تفعل في بيت الإمام الهادي عليه السلام ؟ فدعا أمّه وسألها : ما خبر هذا الختم ؟

قالت : اعلم أنك مرضت ، فنذرت نذرًا للإمام الهادي عليه السلام إذا شافاك الله أن

أعطي للإمام الهادي عليه السلام ألف درهم ، أي إنهم يعرفون كرامة أهل هذا البيت ، فشافاك الله وأنا وفيت بنذري ، فأعاده المتوكل معززاً مكرماً .

شعر الإمام عليه السلام :

ومرّة أخرى دعاه المتوكل في منتصف الليل ، والمتوكل مخمور وسكران ، قال :
أنشدني شعراً .

قال الإمام : « أنا لا أنشد الشعر » .

قال : ممّا تحفظ ، فأنشده الإمام عليه السلام :

باتوا على قُلّ الأَجال تحرسهم	غلب الرجال فلم تنفعهم القُللُ
واستنزلوا بعد عزٍّ من مقاعدهم	وأودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعدما قُبروا	أين الأحبة والتيجان والحُللُ
فأصفح القبر عنهم حين ساء لهم	تلك الوجوه عليها الدود يقتلُ
قد طالما أكلوا دهرًا وما شربوا	فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا ^(١)

هذا نموذج المتوكل العباسي وذاك نموذج أهل البيت عليه السلام ، ذاك نموذج من يُسمّي نفسه أمير المؤمنين المشغول بالخمور وهؤلاء آل رسول الله ﷺ ، « مثل أهل بيتي فيكم كمثّل سفينة نوح من ركبها نجا »^(٢) ، وهؤلاء مشرّدون نفوا عن عقر دورهم كأنهم قد جنوا ما ليس يُغتفر .

الإمام الهادي عليه السلام الذي استدعاه المتوكل العباسي من المدينة المنورة إلى سامراء ، ومكث فيها (٢٠ عاماً) تحت الرقابة والإقامة الجبرية ، لكن الحُكّام كان لديهم قلق حقيقي ، فالإمام عليه السلام في المدينة المنورة ليست له ممارسة سياسية أو مسلّحة ، وليس له آلاف التلاميذ كما كان للإمام الصادق عليه السلام في العراق ، مع ذلك يرون فيهم عليه السلام خطراً

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٥٠ : ٢١١ .

(٢) فرائد السمطين للحموي الشافعي ج ٢ / باب ٤٦ .

حقيقياً ، لأنهم عليه السلام هم من يُحرّر إرادة الناس ، ولهذا كان الإمام عليه السلام في سامراء تحت الرقابة المشدّدة .

الرقابة المشدّدة :

لاحظوا في بدايات العصر العباسي كانت الأسماء واقعية مثل المنصور والرشيد والأمين والمأمون ، ولكن في عهد الإمام الهادي عليه السلام وجدنا أنّ الحكم العباسي يحاول أن يلبس الثوب الديني ، إذ نجد أسماء مثل المعتمد على الله ، المعتصم بالله ، المتوكل على الله ، الواثق بالله ، والذي جعل الحكم العباسي يخوض حملة إيمانية هم أئمتنا عليه السلام ، والتاريخ يظلم أهل البيت عليه السلام ولا يعرف ما صنعوا ، من ذاك الذي يقول : (لا خبر جاء ولا وحي نزل)^(١) ، وإذا تضطرّ الخلافة إلى ارتداء الثوب الديني ، وهذا بركة وجهود أئمتنا عليه السلام .

الإمام الهادي عليه السلام المحكوم بالإقامة الجبرية (٢٠ عاماً) في سامراء مع ذلك فإنّ القصر الملكي كان يهتزُّ باسم الإمام عليّ الهادي عليه السلام .

كرامة الإمام عليه السلام :

كان الإمام إذا دخل القصر يأمر المتوكل بأن تُرفع له الستائر احتراماً ، فوشى الواشون وقالوا : أيها الخليفة أنت تأمر بأن نرفع الستائر ، وهذا احترام كبير ، وسيعرف الناس قدره ومنزلته ، اترك هذا الأمر ، فلمّا حضر الإمام عليّ الهادي عليه السلام لم تُرفع له الستائر ، وإذا بريح عالية هبّت وارتفعت الستائر ، فدخل الإمام عليه السلام ، وعندما أراد أن

(١) هذا الشعار رفعته الدولة الأمويّة عند استلامها الحكم ، حيث إنّ معاوية ويزيد وأتباعهم أرادوا أن يقولوا للناس : إنّه لا توجد رسالة ولا نبي ولا وحي ، وإنّما هو الحكم والسلطة التي لعبت به بنو هاشم ، ونحن بنو أميّة جئنا من أجل السلطة والحكم ، فلا تنتظروا منّا الصلاة أو الصوم . وقد قالها يزيد صراحةً عندما جيء بالسبايا إلى قصره ، حيث تمثّل بشعر ابن الزبيري وأزاد عليه بيتاً ، وهو :

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل
(المحقّق) .

يخرج هبّت ريح عالية ، فارتفعت الستائر وخرج الإمام عليه السلام ، فرجع المتوكل إلى ما كان عليه ، كي لا تظهر معاجز هؤلاء الأئمة الأطهار عليه السلام^(١) .

ابن السكيت :

الإمام الهادي عليه السلام كان مركز إشعاع ونور ، ابن السكيت^(٢) العالم النحوي المعروف كان معاصراً للإمام الهادي عليه السلام وفي زمن المتوكل اختاره المتوكل لتربية أولاده ، قال المتوكل لابن السكيت : أيهما أحب إليك ، ولداي أم الحسن والحسين ؟

فقال ابن السكيت : والله إنَّ نعلي قنبر^(٣) خادم الحسن والحسين أحبُّ إليَّ منك ومن ابنك ! فأمر المتوكل العباسي بأن يُقَطَّع لسانه فُقطَّعَ ، وابن السكيت عالم في البلاط الملكي ، ولكن أهل البيت عليه السلام كان لهم موقع ، وهذا هو الذي يبعث القلق لدى الحكّام العباسيين والأمويين من قبلهم ، أنَّه ما زال حُبُّ أهل البيت عليه السلام في المسلمين موجوداً ، إذن فالإسلام قويٌّ وبخير .

والحقيقة هذه ظاهرة عجيبة ، ما زال حُبُّ أهل البيت عليه السلام موجوداً إذن هناك اقتراب من الصفاء ومن الطهر ومن النقاء من سُنَّة وشيعة لا فرق ، كلِّما كان المجتمع أقرب لأهل البيت عليه السلام إذن هو أقرب للزكاة والدين والإسلام فيه أكثر انتشاراً .

(١) تذكرة الخواص : ٣٥٩ ؛ تاريخ يعقوبي ٣ : ٢١٧ ؛ بحار الأنوار ٥٠ : ١٢٨ .

(٢) هو ابو يوسف يعقوب بن إسحاق الدورقي الأهوازي المعروف بابن السكيت النحوي اللغوي الأديب الإمامي ، من عظماء الشيعة وكبار رجالاتها ، الذي قتله المتوكل العباسي يوم الاثنين الخامس من شهر رجب سنة (٢٤٣ أو ٢٤٤ أو ٢٤٦) . كان علماً من أعلام الشيعة وعظمائهم وثقاتهم ، ومن خواص الإمامين الجواد والهادي عليه السلام . (المحقّق) .

(٣) قنبر مولى أمير المؤمنين ، والصحابي الجليل والشهيد ، وهو حَقّاً من طلائع الصادقين يعني في مقدّمة الصادقين وتعلّقهم بآل البيت وبأمر المؤمنين عليه السلام بالذات ، ويُعرّفه لنا الإمام الصادق عليه السلام ، قال : « كان جدّي أمير المؤمنين غلام اسمه قنبر ، وكان يُحِبُّ جدّي أمير المؤمنين حُبّاً شديداً ، فإذا خرج أمير المؤمنين خرج قنبر خلفه وهو يحمل السيف » . (المحقّق) .

ظاهرة انتشار النور

نحن حينما نقرأ سيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام ، ومنهم الإمام الهادي عليه السلام نكتشف ظاهرة ، وهي التي أريد أن أسلط الضوء عليها نُسَمِّيها بـ (ظاهرة انتشار النور) ، انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (التوبة : ٣٢) ، هذه الظاهرة نجدها في الإمام الهادي عليه السلام وفي الإمام الجواد عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام كما نجدها في سائر الأئمة عليهم السلام طبعاً ، وسأوضح هذه الظاهرة العجيبة بأرقام وأمثلة تكفي لشرحها .

إنَّ نور أهل البيت عليهم السلام ونور الإسلام كلِّما أرادوا حبسه وتطويقه نجده قد انطلق وانتشر وتوسَّع في نتيجة عكسية تماماً ، ومن هذه الأمثلة :

١- نقل الإمام علي عليه السلام العاصمة من المدينة إلى العراق كموقف استراتيجي لمواجهة معاوية والفتن التي عاشها يومئذٍ ، فتن أرادت إطفاء نور عليٍّ ومحق مبدأ الحقِّ ، لكن ما الذي حدث ؟

ما حدث هو أنَّ العراق تحوَّل إلى شعلة نور للحقِّ ولأهل البيت عليهم السلام ، علي عليه السلام ابن المدينة المنورة والحجاز وليس ابن العراق بالأصل ، لكن هكذا نظرية انتشار النور ، يريدون تطويق النور فنجد النور ينتشر ، علي عليه السلام دُفِنَ سرّاً في النجف الأشرف - ظهر الكوفة - ، هذا المدفن السري كانت نتيجته أن تصبح النجف عاصمة التشيع والعلم ، ومنطلق علوم أمير المؤمنين عليه السلام ، لاحظوا ماذا أرادوا وماذا حدث ، الكوفة تحوَّلت إلى مركز ثقل ديني كبير بحيث أصبحت الكوفة تُمثِّل العراق ، لا أقول : الآن ، بل على طول التاريخ حتَّى أصبحت الكوفة تُمثِّل مدرسة أهل البيت عليهم السلام .

٢- الإمام الصادق عليه السلام ابن المدينة المنورة ، لكن الحكم العباسي استدعاه إلى العراق في فترة سنتين وسكن في الحيرة ، الذي حدث أنَّ العراق أصبح يغلي بعلوم الإمام

الصادق عليه السلام حتى أصبح الحسن الوشا^(١) يقول : (أدركت في هذا المسجد - مسجد الكوفة - تسعمائة شيخ - عالم دين - يقول : حدثني جعفر بن محمد^(٢) ، لاحظوا انتشار العلم من المدينة المنورة إلى العراق والكوفة ، وهكذا حينما نمضي في عرض الأمثلة .

٣- زينب عليها السلام على رواية أنها نُفيت إلى الشام ، ولم تهاجر تبعاً لزوجها كما في رواية أخرى ، ما الذي حدث ؟ الآن الشام فيها مركز نور ببركة السيدة زينب عليها السلام .

٤- وهكذا حينما نتقل للحسين عليه السلام حيث قُتل في كربلاء ، أرادوا إطفاء نور الحسين عليه السلام في كربلاء ، ولكن ما الذي حدث ؟ ما حدث هو أن كربلاء تحوّلت إلى وهج للحق على طول التاريخ .

٥- نتقل إلى الإمام الكاظم عليه السلام الذي سجنه هارون الرشيد في بغداد ، فتحوّلت بغداد والكاظمية إلى منطلق نور لأهل البيت عليه السلام وللحق ، كلما أرادوا إطفاء النور يتحوّل إلى شيء آخر وإلى انطلاقة عجيبة .

٦- نتقل إلى الإمام الرضا عليه السلام في طوس ، ماذا عمل الإمام الرضا عليه السلام فيها ؟ المأمون العباسي استدعاه قسراً وقهراً من المدينة المنورة إلى طوس ، يريدون إطفاء نور الله ، لكن إلى ماذا تحوّلت طوس وخراسان ؟

تحوّلت إلى إشعاع نور ، اليوم خراسان هي أضخم إشعاع لنور أهل البيت عليه السلام في تلك المنطقة وعلى حدود الاتحاد السوفيتي وأفغانستان ، المأمون أراد إطفاء نور الإمام الرضا عليه السلام لكن الذي حدث هو انتشار النور .

٧- نور الإمام الهادي عليه السلام في العراق ، نصل إلى الإمام الهادي عليه السلام الذي استدعاه المتوكل العباسي إلى سامراء ، لاحظوا كيف تتضح النظرية .

(١) كان من الواقفية ، وهم فرقة من الشيعة وقفت في الإمامة على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ، وقالت : إنه حي لم يموت ، وقد اعتنق مذهب الشيعة الإمامية لِمَا شاهد من براهين الإمامة من الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام الثامن من أئمة الشيعة الإمامية . (المحقق) .

(٢) رجال النجاشي : ٤٠ / الرقم ٨٠ .

بيت الإمام الهادي عليه السلام في المدينة المنورة وفيها بيوت آل هاشم ، المتوكل العباسي خوفاً من هذا النور استدعاه من المدينة إلى سامراء ووضع عليه الرقباء والحرس لكي لا يتحرك أي تحرّك ، لكن سبحانه الله صار هذا الأمر سبباً لكي ينطلق نور الإمام الهادي عليه السلام في سامراء شمال بغداد ، النور يخترق النوافذ والسدود والحواجز التي تُوضَع ، الإمام الهادي عليه السلام دُفِنَ في سامراء ، سمّه المعتمد العباسي ، ما حدث هو أنَّ سامراء أصبحت اليوم محط امتداد لشيعَة أهل البيت عليهم السلام ، ولولا الإمام الهادي عليه السلام لم تنشأ الحركة الثقافية الإسلامية المضادة للحكم العباسي في سامراء ، تحوّلت سامراء إلى عاصمة ثقافية ، واستمرّ الأمر حتّى وصلنا إلى يومنا هذا .

وهذا الأمر ينقلنا إلى حادثة هدم قبة الإمامين العسكريين عليه السلام في (٢٢) محرّم الحرام من عام (١٤٢٧) الهجرية ، حيث تحوّلت هذه الفاجعة الكبيرة برحمة الله تعالى وبلفظه وبقوله : ﴿ وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ (آل عمران : ١٢٠) ، إلى توحيد لصفّ شيعة أهل البيت عليهم السلام ، أروع ما وصلنا إليه من وحدة موقف ووحدة عواطف كان بعد العدوان على قبة الإمامين العسكريين عليه السلام ، اليوم أيضاً هذه القبة يجب أن تأخذ دورها السياسي والديني ، وهكذا سنجد بإذن الله تعالى وبركات أئمتنا عليهم السلام .



البَابُ الثَّالِثُ عَشَرَ

مَعَ الْإِمَامِ الْعِيسَى كَرِيمٍ

١. التمهيد لزمن الغيبة

٢. رسالة الإمام عجل الله فرجه لشيعته

٣. مرحلة الاستئصال والإبادة



التمهيد لزمن الغيبة

قال الإمام العسكري عليه السلام : « أمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه ، حافظاً لدينه ، مخالفاً لهواه ، مطيعاً لأمر مولاه ، فللعوام أن يُقلّدوه »^(١) ، فبشهادة الإمام العسكري عليه السلام بدأت غيبة الإمام المنتظر عليه السلام ، وكان الإمام العسكري عليه السلام يُمهّد شيعته للنجاح بهذا الامتحان وتهيئة أئمة بلا إمام ظاهر والعالم كله يلاحقها ويطاردها ، والحمد لله شيعة أهل البيت عليهم السلام نجحوا في هذا الامتحان العظيم ، وتمسّكت بالعروة الوثقى ، ولم تنزل أقدامهم يميناً ولا شمالاً ، وكان ذلك أيضاً بلاء للمسلمين أن الله تبارك وتعالى يُغيّب عنهم إمامهم ، « اللهمّ إنا نشكو إليك فقد نبينا صلواتك عليه وآله ، وغيبة وليّنا »^(٢) ، فالإمام الحسن العسكري عليه السلام مهّد لغيبة الإمام المنتظر عليه السلام ، وعمل على استعداد وإعداد الشيعة لتقبّل هذه المحنة ، والحمد لله ببركة نواب الأئمة كان لدينا أربع نواب في الغيبة الصغرى^(٣) ، ثم بدأت بعد سبعين عاماً الغيبة الكبرى ، والفقهاء المجتهدون هم الذين ينوبون عن الأئمة الأطهار عليهم السلام ، ونحمد الله تبارك وتعالى على

(١) وسائل الشيعة ٢٧ : ١٣١ .

(٢) كامل الزيارات لابن قولويه/ من دعاء الافتتاح .

(٣) وهم : عثمان بن سعيد العمري ، ومحمد بن عثمان بن سعيد العمري (أبو جعفر) ، والحسين بن روح النوبختي (أبو القاسم) ، والسفير الرابع علي بن محمد السمری (أبو الحسن) . (المحقق) .

هذه النعمة ، وأنَّ الساحة لم تبقَ فارغة طول (١٢٠٠) عاماً ، علماً بعد عالم ومرجعاً بعد مرجع ، في يوم الثامن من ربيع الأوَّل سنة (٢٦٠ هـ) بدأت مرحلة غيبة الإمام المعصوم عليه السلام .

ولهذا كان من جملة أدوات التثقيف هو الارتباط بعلماء الدين ، فهم ورثة الأنبياء عليهم السلام ، يقول الإمام الحسن العسكري عليه السلام : « فَإِنَّهُ لَا عَذْرَ لِأَحَدٍ مِنْ مَوَالِينَا فِي التَّشْكِيكِ فِيمَا يُؤَدِّيهِ عَنَّا ثِقَاتُنَا ، قَدْ عَرَفُوا أَنَّ نَفَاوِضَهُمْ سَرَّانَا وَنَحْمِلُهُ إِيَّاهُ إِلَيْهِمْ »^(١) ، وثقافة الارتباط بعلماء الدين موجودة من ذلك اليوم إلى هذا اليوم ، والآل شعبنا بحمد الله تعالى هو واعي لهذه القضية جدًّا ، إنَّ الفقهاء والعلماء هم طريق النجاة .

الارتباط بالفقهاء :

في هذه المرحلة - أي مرحلة الإمامين العسكريين عليه السلام - كان دور الإمامين عليه السلام هو التأسيس لمرحلة الغيبة ، الإمام المعصوم عليه السلام غائب عن الأنظار ، فلا بدَّ أن يتعلَّم الشيعة الرجوع إلى الفقهاء ، ولهذا ورد في التوقيع الشريف : « فَإِنَّهُ لَا عَذْرَ لِأَحَدٍ مِنْ مَوَالِينَا فِي التَّشْكِيكِ فِيمَا يُؤَدِّيهِ عَنَّا ثِقَاتُنَا ، قَدْ عَرَفُوا أَنَّ نَفَاوِضَهُمْ سَرَّانَا وَنَحْمِلُهُ إِيَّاهُ إِلَيْهِمْ » ، أي إنَّ الإمام عليه السلام يقول : من الآن فصاعداً ارجعوا إلى ثقاتنا ، وهم الفقهاء العدول .

ويقول النبي ﷺ : « فِي كُلِّ خَلْفٍ مِنْ أُمَّتِي عَدُولٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَنْفُونَ عَنْ هَذَا الدِّينِ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ ، أَلَا وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ وَفِدَكُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَانظُرُوا مِنْ تَوْفِدُونِ »^(٢) ، أي إنَّ الساحة لا تخلو بلطف الله تبارك وتعالى من هؤلاء الثقة الفقهاء الذين ينوبون عن الإمام المعصوم عليه السلام في دفع الشبهات عن الدين ودفع المخاطر عنه .

(١) وسائل الشيعة ١ : ٣٨ / ح (٢٢ / ٦١) .

(٢) ذخائر العقبى : ١٧ ؛ ينابيع المودة ٢ : ١١٤ .

رسالة الإمام عليه السلام لشيعته

اليوم أحببت أن أقتطف مقتطفات من رسالته عليه السلام إلى شيعته ، بداية يبعث لكم عليه السلام سلامه في هذا الزمان وفي كل الأزمنة ، ويتحدث عن حبه ورقة قلبه لشيعته ، وعن أمله بأن يُحشَر شيعتهم معهم يوم القيامة ، ويتحدث عن سروره فيما إذا سمع عن شيعته خيراً ، ويوصيهم بالصبر والانتظار ، وأقرأ لكم هذه الكلمات : ففي رسالته التي كتبها إلى الشيخ الصدوق^(١) علي بن الحسين الذي كان معاصراً لإمامنا حيث كتب له كتاباً مفصلاً يقول فيه :

« نحن بحمد الله ونعمته أهل بيت نرقُّ على موالينا ، ونسرُّ بتتابع إحسان الله إليهم وفضله لديهم . . . » ، ثم يقول : « السلام عليك وعلى جميع شيعتنا ورحمة الله وبركاته . يا أبا الحسن علي بن الحسين مُر جميع شيعتي بالصبر ، فإنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

ثم يقول : « رحم الله ضعفكم وقلة صبركم ، واستجاب الله تعالى دعائي فيكم ، وأصلح أموركم على يدي . . . » ، إلى أن يقول عليه السلام : « فما أُحِبُّ أن تدعو الله بي ولا بمن هو في أيامي إلا حسب رقتي عليكم ، وما أنطوى قلبي عليكم من حُبِّي بلوغ الأمل في الدارين جميعاً ، والكينونة معنا في الدنيا والآخرة »^(٢) .

(١) علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي أبو الحسن ، شيخ القميين في عصره ، ومتقدمهم ، وفقههم ، وثقتهم ، له كتب ، منها : كتاب الإمامة والتبصرة من الحيرة ، ومات علي بن الحسين سنة تسع وعشرين وثلاثمائة ، وهى السنة التي تناثرت فيها النجوم . (راجع : رجال النجاشي : ٢٦١ و ٢٦١ / الرقم ٦٨٤) .

(٢) بحار الأنوار للمجلسي ٥٠ : ٣١٨ .

مرحلة الاستئصال والإبادة

عاش الإمام العسكري عليه السلام من سنة (٢٣٠ هـ) إلى سنة (٢٦٠ هـ) ، فكانت شهادته في (٨) ربيع الأول سنة (٢٦٠ هـ) ، أي إنَّ كلَّ عمره الشريف هو ثلاثون عاماً . إنَّ الإمام الحسن العسكري عليه السلام وقبله الإمام الهادي عليه السلام عاشا مرحلةً سياسيةً جديدةً تُسمِّيها مرحلة الاستئصال والقمع من قِبَل الطغاة والحكم العباسي ، أي إنَّ الحكم العباسي بعد عهد المأمون ومنذ عهد المتوكل ومن بعده المعتز ، والمهتدي ، والمعتصم ، والمعتمد ، دخل في مرحلة الإبادة الجماعية للشيعية والاستئصال والمطاردة والقمع ، وقد بلغت المطاردة والاستئصال لدرجة أنَّ الإمام الحسن العسكري عليه السلام كان ينهَى شيعته من السلام عليه .

عسكر الإمام عليه السلام :

وفي يوم يُسمَّى يوم النوبة أو الركب كان الحاكم العباسي يجمع الناس لمسيرة جماهيرية تأييداً له .

تقول الرواية : إنَّ المتوكل العباسي قام باستعراض عسكري واسع وكبير ، وأوقف الإمام الهادي عليه السلام ليرى هذا الاستعراض ، ثمَّ قال له : كيف رأيت عسكري ؟ قال الإمام عليه السلام : « أتريد أن أريك عسكري ؟ » .

قال : ولك عسكر ؟

قال : « نعم ، انظر إلى الأعلى » ، نظر المتوكل وإذا ما بين الخافقين معسكر وخيول كلُّها في طاعة الإمام الهادي عليه السلام .

فقال الإمام : « مهلاً مهلاً ، لا تخف ، نحن لا نزاحمكم في الدنيا » .

الإمام الهادي عليه السلام في هذا اليوم الذي هو يوم البيعة للسلطان كان مأموراً أن يدخل مع هؤلاء المشاة ليقف عند السلطان^(١) .

(١) روي أنَّه كان خلفاء بني العباس حينئذٍ تسعون ألف تركي ، فأمر المتوكل العباسي كلَّ واحد منهم أن يملأ ←

كان الإمام ينهى شيعته عن السلام عليه ، ولدينا قصص وروايات في أن الشيعة كانوا يأتون من أطراف الأرض ويبحثون عن الإمام عليه السلام في هذا الجمع ، وكانوا يعرفون الإمام عليه السلام بالإشارة ، حتى وصل الأمر بالإمام الحسن العسكري عليه السلام إلى أن يُصدر أمراً بأن يتختم الشيعة باليسار ، ويقول : « كُنَّا قَدْ أَمَرْنَاكُمْ أَنْ تَتَخْتَمُوا بِالْيَمِينِ لَكِنْ الْآنَ نَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَخْتَمُوا بِالشَّمَالِ حَتَّى لَا تُعَرَفُوا »^(١) ، أي إن الملاحقة للشيعة وصلت إلى هذا المستوى ، ولكن مع كل ذلك هناك سطوع لنجم الإمام الحسن العسكري عليه السلام ، وهيمنة روحية عجيبة ونفوذ شعبي واسع ، تلك إرادة الله تبارك وتعالى ، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَهُ الْآنَ يُتِمُّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة : ٣٢) .

قصة الجاثليق :

وقد تجلّى سطوع نجم الإمام العسكري عليه السلام في قصة البابا الأعظم ، وكان يُسمّى (الجاثليق) ، ويومها عاش المسلمون في جَدْبٍ ، وامتنعت السماء عن الأمطار ، فصلّى المسلمون ودعوا الله ولم يُستجب دعاؤهم ، خرج الجاثليق ومعه النصاري فدعوا الله تعالى وهطل المطر ، وهكذا في اليوم الثاني والثالث ، اهترت عقيدة المسلمين نتيجة استجابة دعاء النصاري وعدم استجابة دعائهم ، وصل الأمر إلى الخليفة العباسي ،

→ خلافة فرسه من الطين الأحمر ويجعلون من جميع ذلك في وسط برية واسطة هناك تلا ، ففعلوا ، ثم أمروا أن يحملوا الأسلحة وآلات الحرب ، وذلك في عهد [أبي] الحسن التقي ، وأحضره الخليفة مع نفسه ، وصعدا على رأس تلّ المخالي ، والعسكر كلهم حول التلّ بزينة لم يَر مثلهما ، فقال الخليفة لأبي الحسن عليه السلام : إن تنظر انظر إلى عسكري فيطيب قلبك ، فأراد بذلك كسر قلبه ، فقال أبو الحسن عليه السلام : « هل أريك عسكري أيضاً ؟ » فقال : نعم . فدعا الله ، فإذا بين السماء والأرض والشرق والغرب ملائكة لهم الأسلحة ، فخرّ الخليفة مغشياً عليه ، فلما أفاق قال له أبو الحسن عليه السلام : « اشتغلوا بالدنيا ، فإننا لا نتعرّض لكم » . (انظر : ألقاب الرسول وعترته : ٨٠) .

(١) في الرواية عن الإمام العسكري عليه السلام ، قال : « أَمَرْنَاكُمْ بِالتَّخْتُمِ فِي الْيَمِينِ وَنَحْنُ بَيْنَ ظَهْرَانِكُمْ ، وَالْآنَ نَأْمُرُكُمْ بِالتَّخْتُمِ فِي الشَّمَالِ لَغَيْبَتِنَا عَنْكُمْ إِلَى أَنْ يُظْهِرَ اللَّهُ أَمْرَنَا وَأَمْرَكُمْ ، فَإِنَّهُ مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَيْكُمْ فِي وَلايَتِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ » . فخلعوا خواتيمهم من أيّامهم بين يديه ، ولبسوها في شياكلهم ، وقال لهم : « حَدِّثُوا بِهَذَا شِيعَتَنَا » . (انظر : وسائل الشيعة ٥ : ٨١ / ح (٧/٥٩٧٨)) .

ومثل هكذا قضية تهزُّ عرشه ، فأرسل على الإمام العسكري عليه السلام ، فقال : يا بن رسول الله ، أدرك أُمَّة جدِّك .

قال الإمام عليه السلام : غداً عند خروج النصاري للدعاء سوف أخرج وأرى المشهد ، وفعلاً خرج الجاثليق للدعاء ، وبينما اشتغل بالدعاء والصلاة ورفع يديه إلى السماء ، كلّف الإمام العسكري عليه السلام أحد أصحابه وقال : اذهب إلى كَفِّي الجاثليق وخذ ما فيهما ، فذهب وأخذ ما بين إصبعيه ، وكان عبارة عن عظمة صغيرة قديمة ، فدعا ولم ينزل المطر ، تعجّب الناس وسألوا الإمام العسكري عليه السلام عن السبب ، فقال : إنّ هذا عثر يوماً ما على عظم من عظام الأنبياء ، والله تبارك وتعالى عنده قرار أنّه ما كُشِفَ عظم نبيٍّ إلى السماء إلّا وهطلت السماء مطراً ، فالبركة ليست بدعاء الجاثليق ، وإنّما بعظم النبي الذي كان في يديه ، وحينما أخذنا منه العظمة لم يُستَجِب دعاؤه^(١) .

وكما هو دأب الجبابرة والمتجبرين لا يسمحون لنجم أن يسطع دونهم ، ولهذا قُتِلَ الإمام العسكري عليه السلام في عهد المعتمد العباسي الذي دسّ إليه السمّ .

الصلاة على الإمام عليه السلام :

بعد شهادة إمامنا الحسن العسكري عليه السلام تقول الرواية : تقدّم عمُّ الإمام صاحب الزمان عليه السلام واسمه جعفر للصلاة على جسد الإمام العسكري عليه السلام ، وإذا بفتى صغير عمره خمس سنوات أقبل وسحبه من رداءه قائلاً : « تأخّر يا عمّ ، فأنا أحقُّ بالصلاة على أبي » ، فتأخّر جعفر ، وفوجئ الحضور وفوجئ جعفر ! من يكون هذا الغلام الصغير ؟ استسلم إليه جعفر ، والمشهد يشهد هذا المنظر ، وصلى عليه ، ثم غاب عن الأنظار^(٢) .

(١) راجع نصّ الرواية في : مناقب آل أبي طالب ٣ : ٥٢٦ ؛ ينابيع المودة ٣ : ١٣٠ .

(٢) راجع : كمال الدين وتمام النعمة : ٤٧٥ .



البَابُ الرَّابِعُ عَشَرَ

مَعَ الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١. العلاقة المتبادلة
٢. الإمام المنتظر عَلَيْهِ السَّلَامُ إجماع إسلامي
٣. نظرية المصلح العالمي
٤. إرهابات زمن الظهور
٥. معالم دولة الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ
٦. تفسير العمر الطويل
٧. لماذا الغيبة؟ وما فائدة الإمام وهو غائب؟
٨. إشكالية ابن خلدون
٩. روايات قضية الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ
١٠. نظرية الغيبة في مصادر السنة والشريعة



العلاقة المتبادلة

كانت الإمامة بعد الإمام العسكري عليه السلام لإمامنا المنتظر عليه السلام ، ونحن الآن نعيش في فترة إمامته عليه السلام ، والحديث واسع وطويل أكتفي بمسألة علاقة الإمام المنتظر عليه السلام بشيعته .

فمرة نسأل : ما هي علاقتنا بالإمام المنتظر عليه السلام ؟
ومرة نسأل : ما هي علاقة الإمام المنتظر عليه السلام بنا ؟

علاقة الإمام المنتظر عليه السلام بشيعته :

علاقة الإمام المنتظر عليه السلام بشيعته هي :

١- المعرفة بأخبارنا .

٢- الرعاية لنا والدعاء لنا .

الإمام المنتظر عليه السلام يقوم بأمرين هما : المعرفة بأخبارنا ، ثم رعاية حركة شيعته ، وهذا ما أقرّوه لكم في الرسالة التي كتبها للشيخ المفيد رحمه الله أحد كبار علمائنا الشيعة الذي توفي سنة (٤١٣ هـ) في زمن الغيبة الكبرى :

« أمّا بعد ، سلام عليك أيّها المولى المخلص في الدين ، نحن وإن كنّا ناوين بمكاننا

الناوي عن مساكن الظالمين ، حسب الذي أَرانا الله تعالى لنا من الصلاح ولشيعتنا المؤمنين في ذلك ما دامت دولة الدنيا للفاستقين ، فإنّا نحيط علماً بأنبائكم ولا يعزب عنا شيء من أخباركم ، إنّنا غير مهملين لمراعاتكم ولا ناسين لذكركم ، ولولا ذلك لنزل بكم اللّواء أو اصطلمكم الأعداء»^(١) .

علاقة الشيعة بإمام العصر عليه السلام :

أمّا علاقة شيعة أهل البيت عليه السلام بإمام العصر عليه السلام هي علاقة حقيقية وعلاقة مشاعرية وجدانية ، « ليت شعري أين استقرّت بك النوى ، أو أيّ أرض تقلك أو تُرى ، أبرضوى أم غيرها أم ذي طوى ، عزيز عليّ أن أرى الخلق ولا تُرى ، عزيز عليّ أن أناغي دونك أو أناجي ، عزيز عليّ أن أبكيك ويخذلك الوري ، بنفسي أنت من عتيد عزّ لا يُسامي ، بنفسي أنت من أسيل مجد لا يُضاهي ، بنفسي أنت من أمنية شائق يتمنى ، من مؤمن ومؤمنة ذكرافحنى ، أترانا نحفُ وأنت تؤمّ الملا ، وقد ملأت الأرض قسطاً وعدلاً ، متى ترانا ونراك فنقرّ عيناً ، أم متى نتقع من مائك فقد طال الصدى » ، هذه علاقة القلب الشيعي مع صاحب العصر والزمان عليه السلام ، علاقة عقيدية وعلاقة مشاعرية .

المطلوب إسلامياً في التعامل مع قضية الإمام المنتظر عليه السلام أن يقوم على أساسين :

الأساس الأوّل : الأساس العلمي :

وهو أن نؤمن ونعتقد به عليه السلام وبغيبته وظهوره .

الأساس الثاني : التعامل القلبي والعاطفي معه :

فلا يكفي أن نؤمن به نظرياً ، بل لا بدّ أن نتعامل معه عاطفياً ونفسياً ، ولذا نقرأ في دعاء الندبة : « بنفسي أنت من مغيب لم يخل منّا ، بنفسي أنت من نازح ما نزع عنا ، بنفسي أنت أمنية شائق يتمنى من مؤمن ومؤمنة ذكرافحنّا ، ليت شعري أين استقرّت بك النوى ، أبرضوى أم غيرها أم ذي طوى ، عزيز عليّ أن أرى الخلق ولا تُرى ، عزيز عليّ أن أبكيك ويخذلك الوري ، عزيز عليّ أن أناغي دونك وأناجي ، متى يتصل يومنا بك فنحظى ، أم متى

نتتفع من عذب مائك فقد طال الصدى» ، وهذا هو التعامل العاطفي والارتباط القلبي مع صاحب العصر والزمان .

الإمام المنتظر عليه السلام إجماع إسلامي

في النصف من شعبان وُلِدَ الإمام الحجة بن الحسن عليه السلام ، وهناك إجماع إسلامي على قضية الإمام المهدي عليه السلام ، وهو الإمام المنقذ الموعود ، وهي ليست من اختصاصات الشيعة ، فالسنة يعترفون بهذه القضية كالشيعة ، وهي ثابتة في الوجدان الإنساني والبشرية حتى غير المسلمين ، فالجميع يتطلع إلى يوم ظهور مصلح أعظم ينقذ البشرية من مآسيها ، ويختلفون بالمصداق ، وجاءت الكتب السماوية لتؤكد هذه الحقيقة الإلهية .

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٥) ، ثم جاءت الإيدولوجيات المعاصرة وغير الدينية لتؤكد أن نهاية العالم ستؤول إلى إصلاح أعظم وسعادة شمولية ، فالمسلمون يعتقدون أن هذا المصلح هو امتداد لخط الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام ، ولا يمكن أن يكون من غير هذا الخط ، أمّا الحضارات المادية فإنها تفتقر إلى تشخيص المصداق الأمثل للمصلح وإلى المنهج الإصلاحي الأمثل .

الإصلاح العالمي :

إنَّ الإصلاح اليوم يحتاج إلى ثقافة وقيم جديدة وتقنية جديدة ، بالأمس وضع اجتماع الأمم المتحدة في نيويورك الآليات والأولويات ، وجعل مكافحة الفقر والإرهاب على رأس القائمة . لكن نقطة الضعف لدى العالم المادي الغربي هو بعده عن القيم الإنسانية ، فلا يمكن مكافحة الفقر والإرهاب ما لم تعد البشرية إلى تلك القيم الإنسانية ، في البداية يجب معالجة جذور مشكلة الفقر والإرهاب ، وهي العدوان والتسلط والتمييز العرقي والطائفي والتمزقات القومية ، فهذه العوامل هي التي تُشجّع

على الإرهاب ، ومع الأسف تعالج البشرية اليوم الظاهر ولا تعالج أصل الداء ، كالمريض مثلاً يبحث الدكتور الحاذق عن سبب الحمى ويعالجها ، أمّا غيره فيعالج الحمى فقط دون الالتفات إلى أسبابها .

إنّ العالم اليوم يحتاج إلى معالجة لحمى الإرهاب وجذوره التي تتمثل بتخلّف الإنسانية والابتعاد عن القيم الإنسانية والاستعمار للشعوب ، وثقافة المصالح الضيقة على حساب الآخرين ، هذه هي أسباب الفقر والإرهاب .

الجدار الفاصل :

فلنأخذ إسرائيل كمثال على العدوان الواضح على الشعب الفلسطيني ، فهي تبني جداراً عازلاً بطول (٦٧٠ كم) وبارتفاع (٨ أمتار) للفصل بين أبناء الشعب الواحد ، بحيث يختار الطالب والموظف في الوصول إلى مدرسته ومحلّ عمله ، وهذا يعني فشلاً في سياسة التعايش مع الآخرين ، فهل يمكن تقسيم شعب واحد إلى نصفين ؟ كان هناك جدار برلين ولكنه انتهى ، وسيتهي هذا الجدار أيضاً ويُحرّبونه بأيديهم كما حرّبوا مستوطناتهم في غزة ، ﴿ فَيُصْنِفُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ (الأنفال : ٣٦) ، هناك مشكلة حقيقية يعاني منها هؤلاء ، وهي فقدان القيم الإنسانية ، وتعاملهم مع الآخرين على أساس الاستعلاء والتسلّط ومصادرة حقوق الآخرين ، فالجدار الفاصل لا يحلّ المشكلة وستبقى قائمة .

إنّ الإصلاح الحقيقي ينطلق من القيم الإنسانية ، وهذا ما تتكفّله الرسالات الإلهية ، والمصلح الأعظم يجب أن يكون امتداداً لخطّ الأنبياء ﷺ .

قال رسول الله ﷺ : « لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ﷻ ذلك اليوم حتّى يخرج رجل من ولدي ، اسمه اسمي ، وكنيته كنيتي ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً »^(١) .

(١) رواه الخصاصة والعامة بألفاظ مختلفة متّحدة المعنى ، انظر : كمال الدين : ٣١٨ / ح ٥ ؛ مطالب السؤول :

نظرية نهاية التاريخ :

وفي عصرنا أصبح هذا المشروع ساخناً حياً حتى وصلنا إلى نظرية نهاية التاريخ ونظرية صراع الحضارات ، والهدف من هذه النظريات نظرية نهاية التاريخ طرحها الكاتب الفيلسوف المتنبئ المفكر الياباني فوكوياما قبل عشرين عاماً ، أي بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ، ومعه طرح (هنتغتون) نظرية أخرى اسمها نظرية صراع الحضارات ، وملايين الأوراق وآلاف الكتب والصحف وملايين الكتب والمحللين حللوا بكل العالم الأوربي والعربي وغيره بحيث لم يبق بيت إلا ودخلته نظرية نهاية التاريخ وصراع الحضارات ، بالأمس القريب سألوا فوكوياما أين وصلت نظريتك ؟ قال : كنت على خطأ ، فقد كنا نتنبأ بنهاية التاريخ وأن الولايات المتحدة هي التي تمثل نهاية التاريخ والطموح البشري ، ومضى عقدان من الزمن وما تزال الصراعات على أوجها ، والولايات المتحدة الأمريكية تُنخر ثقافياً وحضارياً من الداخل وسياسياً تصطدم بجدران هنا وهناك ، وأفلست نظرية نهاية التاريخ ، وإن الحضارة الأمريكية هي من يُمثل حركة الإصلاح العالمي ، ورافقت هذه النظرية أن الديمقراطية الليبرالية هي النظام الذي سيحكم العالم بعد سقوط الاشتراكية والاتحاد السوفيتي ، وجاء (هنتغتون) يطرح نظرية صراع الحضارات ، ونحن لدينا مع النظام الغربي حضارات ثقافية لا استعمار ولا حروب ، بل صراع حضارات . أيها العالم انفتحوا علينا حتى ترون حضارتنا ، وهذه القضية انتهت أيضاً ، اليوم عاد الاستكبار العالمي وقد غمست ولا يدري كيف يخرج منها ، وأفلست نظرية نهاية التاريخ وأن حركة الإصلاح تقودها الديمقراطية الليبرالية براية يحملها الرجل الأمريكي ، فالدين لديه رأي آخر ، فهذا الحديث اكتشفوا بعدئذ أن وراءه المخابرات بأن كيف يُقنعوا العالم بعد سقوط الاتحاد السوفيتي أن ارتقوا في أحضان الولايات المتحدة الأمريكية ، وعملت المخابرات لكي توزع لكل القنوات الإعلامية والأقلام أن تصنع مناخ اسمه : (صراع الحضارات ونهاية التاريخ) ، وبالأثناء إذا أرادت أمريكا أن تقوم بضربة استباقية وقصف هنا واحتلال

هناك يقولون : إنَّها ضرورة لنهاية التاريخ ، فتقبلوها يا أبناء الشرق ويا مسلمين ، والعالم العربي والإسلامي المسكين يطبعون بهذه الكتب ويقرؤونها بأنَّ نبوة جديدة باسم فوكوياما جاء لتحرير العالم ، الإسلام والدين وشيعة أهل البيت والقرآن الكريم يقول : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٥) ، فنهاية التاريخ بقيادة الصالحين وقيادة ولي الله الأعظم خليفته في أرضه الإمام الحجَّة بن الحسن العسكري ﷺ ، الفكر الغربي أو لنقل : الحضارة المادِّية تعثَّرت هنا وهي تبحث عن المنقذ العالمي ، وطرحت نظريات حول المنقذ العالمي الوجودية التي كان مهدها بريطانيا ورائدها جان بول ساتر وكيردجارد وغيرهم ، طرحوا نظرية أنَّ الحلَّ هو التسليم للوجود ، وأنَّ لا نُحرِّك ساكناً ، والخضوع للوجود الذي يُحرِّكنا ، شوبنهاور ونيتشة فلاسفة ألمان أيضاً طرحوا فكرة الإنسان الأقوى (السوبرمان) ، إنَّ النجاة العالمية ستكون بجيل إنساني هو الجيل الأقوى ، ثمَّ يتحدَّث نيتشه عن العودة الأبدية ، وأنَّنا نعود ويحكم الأرض الإنسان الأقوى ، والولايات المتحدة أيضاً طرحت بهذا الاتجاه نظرية التغيير ، أوباما جاء بشعار التغيير من الداخل ، أي من داخل الأطر الغربية التي يريدون فرضها على العالم ، كلُّ ذلك هو مناخات تمهِّد لقضية المصلح الأعظم ، ﴿ وَرُئِدَ أَنْ نُنَمِّنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (القصص : ٥) ، هنا النظرية الإسلامية تقول : إنَّ الإنسان المؤمن الصالح هو الذي يصنع المستقبل وليس التسليم ، وهذا الأمر ينقلنا للحسين ﷺ ، وفي ثقافتنا الدينية بخصوص شيعة أهل البيت ﷺ ، هذه الثقافة تقول : إنَّ أوَّل من يخرج بعد المهدي ﷺ هو الإمام الحسين ﷺ ، واستقبلوا هذه كنظرية تُسمَّى : نظرية الرجعة ، الإسلام وأهل البيت ﷺ يؤمنون بصناعة المستقبل من قِبَل الإنسان الصالح هو الذي يصنع المستقبل ، والحسين ﷺ والإمام المهدي ﷺ صانعا المستقبل بإرادة الإنسان وبمدد من الله تبارك وتعالى ، ونحن نُبشِّر بصناعة المستقبل على أيدي الصالحين ، وعلى أيدي الشعوب الصالحة المؤمنة المستضعفة التي تحمل رسالات السماء .

نظرية المصلح العالمي

هي عقيدة عالمية ، الشيعة يؤمنون بها ، السُّنة يؤمنون بها ، والمسيحيون يؤمنون بها في آخر الزمان ، هناك عملية إصلاح عالمي تعتمد على ثلاث أفكار :

الفكرة الأولى: 'أنه حتماً سوف تنتصر حركة الإصلاح العالمي ، هذا الأمر يعتقد به الجميع ، ولهذا النصاري أيضاً يقولون : في آخر الزمان سيظهر عيسى بن مريم عليه السلام ، وحركة الإصلاح السياسي سوف تنتصر على يد النصاري ، نحن والسُّنة نقول : سوف تنتصر حركة الإصلاح العالمي على يد المسلمين ، على يد المهدي عليه السلام من أولاد رسول الله صلى الله عليه وآله ، هذا باتفاق السُّنة والشيعة^(١) .

الفكرة الثانية : أن هناك نظام سياسي عالمي سيحدث في آخر الزمان ، العالم كله يتقارب بعضه من البعض ، الآخرون يصيرون كأئمة دولة واحدة ، اليوم هكذا العالم ، تلاحظون تحوُّله إلى أشبه بالقرية كما يقال ، إذن هناك نظام عالمي ، ولهذا اليوم كما تعرفون هناك حركة تُسمَّى حركة العولمة ، يعني أن العالم كله عربي وأعجمي وإنكليزي وهندي وأوروبي كلهم يجب أن يحكموا بنظام سياسي واحد .

الفكرة الثالثة : أن هذا النظام السياسي العالمي تقوده أفضل الحضارات والأمم ، اليوم الولايات المتحدة الأمريكية تقول : نحن أفضل الأمم والحضارات ، إذن نحن نقود حركة الإصلاح العالمي . المسلمون يقولون : إنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة والحضارة الإسلاميَّة هي أفضل الأمم . نحن الشيعة نقول : إنَّ شيعة وحضارة أهل البيت عليهم السلام هي أفضل الأمم ، والإمام المعصوم عليه السلام منهم ، وهو أفضل الأُمَّة ، إذن أصل الفكرة أن الذي يحكم والذي يقود حركة الإصلاح هو أفضل الناس صلاحاً ، وهذا باعتقادنا هو الإمام المنتظر عليه السلام .

(١) وبذلك تضافرت الرواية بألفاظ عدَّة مع التَّحَاد في المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « لا تقوم الساعة - أو لا تنقضي الدنيا - حتَّى يلى - أو يملك - رجل من أهل بيتي - أو من ولدي - يواطئ اسمه اسمي ، فيملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً » . انظر : مسند أحمد ١ : ٣٧٦ ؛ سنن الترمذي ٣ : ٣٤٣ ؛ المعجم الكبير ١ : ١٣٣ ؛ الإرشاد ٢ : ٣٤٠ ؛ غيبة الطوسي ١٨٢ / ح ١٤١ .

اتجاهات في نظرية المصلح :

فكرة المصلح الأعظم الذي يرسم المستقبل السعيد للبشرية هي فكرة متجذرة في الثقافة الدينية التوحيدية الإسلام وغير الإسلام ، وهي مقولة الأديان الإلهية أنه يخرج رجل مصلح أعظم هو المهدي ابن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أو غير الإمام العسكري عليه السلام ، هل هو عيسى بن مريم أو غيره ، المهم أنه يخرج رجل مصلح هو الإمام الأعظم .

ومشروع المصلح الأعظم فكرة تتناغم مع طموحات البشرية حتى غير التوحيدية ، كل البشرية المؤمن والكافر يؤمنون به ، أي إن فطرة البشر هي أنهم يتجهون بأمل أن تشهد الدنيا حياة سعيدة ، وإن هذه الفكرة متجذرة .

وهناك اتجاهان هما : اتجاه توحيدي ، واتجاه مادي .

الاتجاه التوحيدي يقول : إن هذا الاتجاه سيتم عبر عناية إلهية خاصة ، وهي إنقاذ البشر من الظلام والظلمات كما هي النبوة ، فالنبوة لم تأت عبر جهود بشرية ، بل عبر عناية إلهية خاصة ، كذلك حركة الإصلاح العالمي والفهم الديني يقول : تمر عبر عناية إلهية خاصة هي بانتخاب رجل يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً .

والاتجاه المادي يقول : لسنا بحاجة إلى عناية إلهية ، ولا نؤمن بها ، وإنما المستقبل السعيد نرسمه نحن البشر من خلال التطور والتمدن والتقدم وصراع الحضارات وما شاكل ذلك ، وفي فكر الشيعة نعتقد أن مشكلة الإنسانية ليست مشكلة اقتصادية ، بل مشكلة إنسانية مشكلة أخلاقية ، والمشكلة الأخلاقية لا تُحل إلا عبر الارتباط بالله تعالى ، والمدنية مهما تقدّمت يغرق الإنسان في مستنقع السقوط الأخلاقي ولا يخلّون مشكلة ، وهذا الارتباط بالمطلق يحتاج إلى الإنسان الكامل المرتبط بالله الذي يقود المسيرة ، والإنسان الكامل هم الأنبياء عليهم السلام ، « إنما بُعِثْتُ لأتمم مكارم الأخلاق » ، وحركة الإصلاح العالمي بعد النبي ﷺ في عصر الظهور لا يمكن أن تتم إلا عبر الإنسان الكامل ، وهو ذلك الوريث المطلق ، كما

قال رسول الله ﷺ: « لا تقوم الساعة حتى يظهر واحد من ولدي يواطئ اسمه اسمي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما مُلئت ظلماً وجوراً »^(١).

إرهاصات زمن الظهور

هناك إرهاصات ومقدمات تجعلنا نقرب من فكرة الظهور القريب للإمام المنتظر عليه السلام، أو لنقل: ضرورة الإعداد والاستقبال لهذه الحركة العالمية الإصلاحية.

كأننا اليوم على أبواب حركة الإصلاح العالمي للإمام المعصوم عليه السلام، لاحظ الفضاءات والهاتف النقال، أنت ترى وتحدث مع أبعد الناس عنك مكاناً بكفك وأنت تراه، الروايات التي عندنا في ظهور صاحب العصر والزمان عليه السلام نجد مشاهدتها اليوم موجودة، تقول الروايات: إنه حينما يخطب صاحب الزمان عليه السلام يراه ويسمعه كل الخلق^(٢). اليوم أيضاً حينما يخطب شخص فكل العالم يراه عبر الفضائيات، اليوم يتحوّل الموبايل والهاتف النقال إلى تلفزيون، وأنت بيدك ترى ما هو الموقف وما هي المسألة الشرعية.

الروايات تقول: إن الإمام صاحب الزمان عليه السلام يطير بمراكب من نور^(٣)، ويومئذ لم يكن مفهوم الطائرات موجوداً، واليوم نفهم ماذا تعني مراكب من نور، ممكن تكون عبارة عن الطائرات.

هنا شأن ألفت النظر إليه وهو جميل جداً، هو أن هناك هدنة سوف تتحقق بين المسلمين والمسيحيين، ويكون عدوهم المشترك هم اليهود، هذا تنبؤ عظيم، اليوم قد يبدو أن المعركة بين المسلمين والمسيحيين، لكن الروايات تقول: إنه ستتحقق هدنة

(١) ينابيع المودة للقندوزي ٣: ٣٨٥.

(٢) انظر: الهداية الكبرى: ٣٦٤.

(٣) عن جابر، قال: قال أبو جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، قال: « ينزل في سبع قباب من نور لا يعلم في أيها هو حين ينزل في ظهر الكوفة، فهذا حين ينزل ». (تفسير العياشي ١: ١٠٣ / ح ٣٠١).

بين المسلمين والمسيحيين ، المسلمون يخرج منهم الإمام المهدي ﷺ ، والمسيحيون يخرج منهم عيسى بن مريم ﷺ ، ويصطفون ، هذه الرواية والفكرة إذا قبلناها فإنها تعني الخلاص العالمي من قبضة اليهود ، اليوم قد نجد أن العالم الأوربي والغربي متحالف مع الصهيونية ، ولكن نحن هكذا نقرأ للمستقبل ، إنهم سرعان ما سينقلبون على الصهيونية ، وسيكون هناك تحالف مع المسلمين ، بوذي أن تعرف الولايات المتحدة الأمريكية هذه المفاهيم ، وتعرف هذه التنبؤات التي نعتقد بها إجمالاً ، بوذي أن يعرف البيت الأبيض كيف نُفكر ، سيأتي يوم تدير فيه الولايات المتحدة الأمريكية ظهر المجن للصهيونية ، اليوم الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الأوربي تحت قبضة العصابة الصهيونية ، سوف يتخلصون يوماً ما من هذه القبضة ويتحالفون مع المسلمين ويظهر منهم عيسى بن مريم ﷺ ، ويظهر هنا الإمام المنتظر ﷺ من أولاد رسول الله ﷺ ، نحن ننتظر خلاص العالم الشرقي والغربي من الغدة الصهيونية المسيطرة على العالم .

الولايات المتحدة الأمريكية تسير في ركب الصهيونية ، لكن سرعان ما يكون هناك تحول سياسي ، هذا ما نقرؤه ، سرعان ما يحدث تحالف بين المسيحيين دول أوروبا والولايات المتحدة وبين المسلمين يحدث تحالف وهدنة وصداقة ، سميها ما شئت ، ثم يستأصلون اليهود ، اليوم مثلاً يتعرض الرئيس الإسرائيلي إلى محكمة في خيانة جنسية وتحرش بسكرتيرته جنسياً ، اليوم وأحد رجال الدين اليهود يتعرض إلى محكمة ، وقد اعترف بأنه اعتدى جنسياً على ثلاثمائة طفل ، وهو من حاخامات اليهود الصهاينة ، هذا هو الواقع الصهيوني .

صدورنا منفتحة للعالم الغربي والأوربي في أن يتحالف مع المسلمين للخلاص من قبضة هذه الغدة السرطانية ، المسلمون والشيعية بالخصوص يجب أن يستعدوا للعالمية ، خاصة العراق وشيعة أهل البيت في العراق ، حيث العراق عاصمة الإمام المنتظر ﷺ ، والرواية تقول : إنه إذا ظهر سوف تلتحق به كتائب أهل العراق^(١) ، هناك تجحفل من

(١) في الحديث عن رسول الله ﷺ ، قال : « رجل من أهل البيت يبائع له بين زمزم والمقام ، يركب إليه عصائب أهل العراق ... » . (دلائل الإمامة : ٤٦٦/ح (٥٤/٤٥٠) .

العراقيين يكونون أنصاراً للإمام المنتظر عليه السلام ، نحن اليوم فخورون بأننا نقف على أبواب الظهور المبارك والكريم لإمامنا المنتظر عليه السلام .

علامات ودلالات :

هناك دلالات على أننا نقرب من عصر الظهور رغم أننا لا نستطيع أن نُحدّد متى ، وهي :

الدلالة الأولى : التطلّع البشري العالمي لحركة المنقذ ، فهناك تطلّع جديد في العالم ومناخات للإصلاح السياسي ، وكلّ العالم اليوم يتحدّث عن إصلاح سياسي ، وهي مناخات جميلة .

الدلالة الثانية : هناك تفتّق جديد لإرادة الشعوب وحركتها وعزلها عن التحرّر ، وكلّها تقترب من أجواء الدولة العالمية المباركة والتطلّع نحو المنقذ ، والإصلاح السياسي الذي أصبح اليوم همّ العالم . التقدّم العلمي والتقنية العالية جدّاً ممّا توحى الروايات عن التقدّم التقني في زمن صاحب العصر والزمان عليه السلام ، حينما تتحدّث الروايات بأنّه يبعث رسائل إلى الناس ويقرؤها بأكفّهم .

هذه مجموعة دلالات نحو اقترابنا من زمن الظهور المقدّس .

معالم دولة الإمام المهدي عليه السلام

المعلم الأوّل : أنّها دولة عالمية يخضع لها الشرق والغرب .

المعلم الثاني : هي دولة الإسلام فيها هو الحاكم ، فتحّى عيسى بن مريم عليه السلام يُصلّي خلف إمامنا المنتظر عليه السلام في دلالة على تبعيّة كلّ الأديان للإسلام وإمام المسلمين ، والحديث هنا يقول : « وإمامكم منكم » ، في الحديث عن إمامة الصلاة بروايات الشيعة والسنة ، وهنا أيضاً الروايات تذكر التحالف المسيحي الإسلامي وخروج اليهود عن هذا التحالف ، فتكون المعركة بين هذا الصف الإسلامي ومعهم المسيحيون وبين

اليهود ، تقول الرواية : « حَتَّى لَا يَبْقَى يَهُودِي فِي فِلَسْطِينَ » ، معنى ذلك أَنَّ نهاية إسرائيل أيضاً ستكون على يد الإمام المنتظر ﺍﻟﻪ ، وكما قلنا بأن هذه العلامات متعددة التطبيقات قد تنطبق على ما قبل خمسمائة عام وقد تنطبق على ما بعد خمسمائة ، ولكن اليوم نقرأ في الأفق اقترابنا من تحالف إسلامي مسيحي ، وقد يكون في هذا الصعيد على سبيل المثال الدعوة القائمة الآن للتفاوض بين الجمهورية الإسلامية وبين أمريكا ، فأمريكا تمثل القطب الغربي ، وإيران تمثل القطب الإسلامي ، الآن نقرأ إرهابات هذا الاقتراب والخروج من المعركة الباردة - وهذه كلها احتمالات - ، وهناك الآن دعوى للمفاوضات بين هذين القطبين ونهاية الحرب الباردة .

المعلم الثالث : الرفاه الاقتصادي الكبير جداً حَتَّى يُقَال للفقير : هاك الزكاة ، وهي موجودة في الميادين العامة ، ولكن لا أحد يمدُّ يده إليها لكثرتها ، والزراعة الهائلة حَتَّى تقول الروايات بأنَّ الإنسان لا يضع قدمه بين الشام واليمن إلَّا على أرض خضراء .

المعلم الرابع : انبساط الأمن حَتَّى إِنَّ المرأة لتمشي وحدها من الشام إلى اليمن ولا شيء عليها .

المعلم الخامس : التقنية العالية جداً بحيث إِنَّ الإمام ﺍﻟﻪ أينما يكون يصل صوته إلى مشرق الأرض ومغربها ، ويراه الناس في نفس الساعة ، ربَّما هو الحديث عن التلفزيون المغلق .

هذه مجموعة معالم لدولة إمام العصر ﺍﻟﻪ ، وليسوا فقط في الدنيا هم ولاية الأمر وإنَّما هم أيضاً في الآخرة ولاية الأمر ، اللَّهُمَّ اجعلنا من أنصاره وشيعة أهل البيت مَنْ يؤمن بطلعته الرشيدة .

تفسير العمر الطويل

السؤال هو : كيف نُفسّر العمر الطويل للإمام المنتظر عليه السلام ؟

الحديث هو إمّا أن يكون في إطار القدرة الإلهيّة ، وإمّا خارجها ، إذا كان خارج القدرة الإلهيّة إذاً نحن نعجز عن تفسير أشياء كثيرة في القرآن الكريم مثل الإسراء والمعراج ، وولادة عيسى بن مريم عليه السلام من غير أب ، وتكلّم يحيى في المهد ، وكذلك نطق عيسى في المهد ، وكلّ هذه الأمور غير قابلة للتفسير ، وإذا أردنا أن ننظر إلى معتقداتنا في خارج القدرة الإلهيّة يجب أن لا نُصدّق بكثير ممّا جاء في القرآن الكريم .

وجوابنا في هذه القضايا نقول : نحن مؤمنون بالله وبقدرة الله تبارك وتعالى الذي لا يعجزه شيء في السماوات والأرض ، إذاً في هذا الإطار وهو قدرة الله نناقش العمر الطويل ، لنرى أنّه ليس صعباً على الله تعالى إذا حلّت المشكلة ، أي إمّا أن نقبل هذه فنكون قبلنا بجميع ما جاء في القرآن الكريم ، أو نرفض هذا الأمر فنكون رفضنا جميع ما جاء في القرآن الكريم من معاجز وكرامات خارج القدرة البشرية .

نماذج ذلك عيسى عليه السلام وباعتقاد جميع المسلمين هو حيٌّ يُرزق وليس بميت ، قال تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (النساء : ١٥٧) ، وقال تعالى : ﴿ بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ (النساء : ١٥٨) ، ومن يقول : إنّ مات فقد خرج من القرآن الكريم ، وبالطريقة التي تُفسّر بها حياة عيسى عليه السلام إذا نُفسّر بها حياة الإمام صاحب العصر عليه السلام .

والخضر عليه السلام كذلك ، وإدريس عليه السلام على بعض الرؤى التي تذهب كما في الآية : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم : ٥٧) ، أنّه من الأنبياء الأحياء ، والله تعالى رفعه إلى السماء الرابعة ، وهو حيٌّ هناك ، وعلى تقدير صحّة هذه الرؤية إذاً هذه النماذج تُؤيّد قضية الإمام صاحب العصر عليه السلام .

ومن الناحية العلمية لا يرى العلم أنّ هذه القضية فيها ما هو خارج عن قوانين الطبيعة ، فممكن أن يعيش الإنسان مائة عام أو مائة وثلاثين ، ولو توفّرت له ظروف أفضل ممكن يعيش أطول من ذلك ، فإنّ هذا البدن والقلب والرئة قادر على أن يعيش ،

وأنَّ الموت ليس نتيجة استهلاك ذاتي ولكن نتيجة طبيعة الطعام والشراب والتلوث والهواء الملوث والمشاكل النفسية وإلَّا فإنَّ جُرْدَ الإنسان عن هذه الظروف الطبيعية ممكن أن يعيش عمراً طويلاً كما عاش نوح عمراً طويلاً ، ونحن نعتقد أنَّ الإمام صاحب الزمان ﷺ لا يعيش ظروفاً طبيعية مثل ظروفنا من حيث الأكل والشرب ، بل في ظروف أخرى لا نعلمها خارج التأثيرات المادّية وإزعاجاتها ، فحياته من نمط آخر مثالية ، وبالتالي فإنَّ العلم لا يرى مشكلة في أن يعيش عمراً طويلاً .

لماذا الغيبة ؟ وما فائدة الإمام وهو غائب ؟

الغيبة ليست أمراً اختيارياً لصاحب العصر والزمان ﷺ ، وإنَّما الظروف القاهرة وخوف القتل ، فهي ضرورة كهجرة النبي ﷺ ، والفكر الديني يقول : إنَّ الإمام صاحب الزمان ﷺ إنَّما غاب مخافة القتل ، وظروف خاصّة لاحقته ، وما تزال تلك الظروف الخاصّة باقية إلى اليوم .

وعن فائدته ﷺ يقول الإمام الصادق ﷺ عندما سأله الراوي : كيف يتنفع الناس بالحجّة الغائب المستور ؟ قال : « كما يتنفعون بالشمس إذا سترها سحاب »^(١) ، فممكن أن يُغطّي الشمس غيم ، لكنّها تبقى مفيدة .

وهو ﷺ يقول : « ولولا ذكرنا لكم ودعأونا لكم لاصطلمكم الأعداء »^(٢) ، وهذا بحث معمّق في أنَّ وجود حجّة الله هو أمان للدنيا « لولا الحجّة لساخت الأرض بأهلها »^(٣) ، وهو ﷺ يقول : « إني أمان لأهل الأرض كما أنَّ النجوم أمان لأهل السماء »^(٤) .

(١) كمال الدين ١ : ٢٠٧ .

(٢) بحار الأنوار ٣١ : ١٧١ .

(٣) الكافي ١ : ١٧٩ .

(٤) كمال الدين : ٢٠٥/ح ١٩ ؛ فرائد السمطين ٢ : ٢٥٣ ؛ ذخائر العقبى : ٥٩ .

إشكالية ابن خلدون

ابن خلدون - وكما تعلمون - هو المؤرخ والعلامة المغربي في كتابه المعروف بـ (مقدمة ابن خلدون) الذي اسمه (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن تبعهم من السلطان الأكبر)، وهذا اسم الكتاب، ولكنه كتب المقدمة فقط، والآن معروفة عالمياً وليس فقط إسلامياً باسم (مقدمة ابن خلدون)، والحق أنه علامة ومحقق وباحث بمعنى الكلمة من القرن السابع، وهو باحث اجتماعي وتاريخي بمعنى الكلمة، وله تميز عالمي، في الفصل الثاني والخمسون من كتابه (مقدمة ابن خلدون) يقول في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه، فيبدأ يستعرض الروايات الموجودة في صحاح كتب السنة ويقول: هذه الروايات رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجة والحاكم والطبراني، وهذه أهم مصادر إخواننا أبناء العامة في الحديث، ثم يذكر مجموعة من هذه الروايات، مثل: «من أنكر المهدي فقد كفر»، «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج واحد من ولدي»، «لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب على يد واحد من ولدي»، «المهدي من ولد فاطمة»، «لا تقوم الساعة حتى يحكم الأرض واحد من ولدي يواطئ اسمه اسمي»، «إن أهل بيتي سيلقون بعدي أثر حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً»، ثم «إذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج، فهو خليفة الله المهدي»، ثم رواية أخرى أن رسول الله ﷺ أخذ بيد علي عليه السلام وقال: «سيخرج من صلب هذا رجل يملأ الأرض قسطاً وعدلاً».

ولكن ابن خلدون باعتباره باحث ومحقق تاريخي، ويريد أن يعتمد الطرق التجريبية الوضعية ولا يعتمد على الروايات بشكل أساس، يقول: هذه الروايات من أحسن الروايات، ولكن طبعاً صحيح البخاري ومسلم لم يذكروها، وهو رجل من بلاد المغرب، وكانت هناك دعوات بظهور المهدي عليه السلام من المغرب، فهو عاش تلك الأجواء، ولكن تحليله التاريخي أن المهدي عليه السلام لا يظهر بالمغرب، بل إذا ظهر فلا بد أن

يظهر من الجزيرة العربية ، فقال :

إنَّ هذه الروايات البخاري لم ينقلها وصحيح مسلم لم ينقلها ، وبالتالي فهناك مجال للتشكيك فيها . ولكن القضية الاستقرائية التجريبية التي يبحثها علماء التاريخ في هذا الزمان على طُرُق التجريبية وليست على الروايات ، يقول : إنَّ قيام دولة ومُلك عظيم يحتاج إلى تعصُّب ، ومشكلة بني هاشم أن فقدوا العصبية ، وبما أنَّهم فقدوا العصبية إذاً ليس بإمكانهم أن يُقيموا دولة .

وهذه نظرية أمام روايات عديدة ، ونحن نأتي لمجرّد تحقيق تاريخي ذوقي ، والقرآن الذي يقول عنه : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ (النجم : ٢٣) ، يعني نقول لابن خلدون : هل لديك آية ؟ هل عندك رواية ؟

وبعد ذلك يقول : وإذا أراد أن يخرج أحد من بني هاشم ، وهذا إمّا أن يكون من بني الحسن أو من بني الحسين في الجزيرة العربية ، إمّا أن يخرج من الجزائر والمغرب والأندلس فلا يمكن ، وهناك من بني هاشم موجودين في الجزيرة العربية ، وهم لديهم عصبية ، إذا كانت روايات المهدي صحيحة فلا بدّ أن يكون من الجزيرة العربية من بني الحسن أو بني الحسين .

ونحن نقول أيضاً : إنَّ المهدي عليه السلام يخرج من الجزيرة العربية ومن ولد الحسين ، والحمد لله ربّ العالمين ولا توجد مشكلة ، إذا كان يقول : والحقُّ أنّه لا تتمُّ دعوة من الدين والمُلك إلّا بوجود شوكة عصبية ولا يوجد لها أثر وبرزت في الدول والشعوب الأخرى أقوى من عصبيتهم وعصبية الفاطميين ، بل وقریش كلّهم أجمع هذه قد تلاشت من جميع الآفاق إلّا ما بقي بالحجاز في مكّة والمدينة من بني حسن وحسين عليه السلام ، فإن صحَّ ظهور المهدي عليه السلام فلا وجه لظهوره إلّا بأن يكون منهم ، يعني من بني الحسن والحسين عليه السلام في الحجاز في مكّة وفي المدينة .

روايات قضية الإمام المهدي عليه السلام

سوف أقرأ لكم مجموعة روايات يذكرها ابن خلدون المؤرخ الإسلامي المعروف ، وهو من السنة ، وربما لديه شمة تعصب ضد الشيعة ، ولنقرأ روايات رسول الله ﷺ التي يستعرضها هذا المؤلف ، وهي (٣١ رواية) على سبيل السرعة والإيجاز ، يقول في الفصل الثاني والخمسين في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه :

إن جماعة من الأئمة خرجوا أحاديث المهدي ، منهم : الترمذي ، وأبو داود ، والبرز ، وابن ماجه ، والحاكم ، والطبراني ، وأبو يعلى الموصلي ، وهذه أمهات مصادر الحديث عند السنة ، وهؤلاء أسندوها إلى جماعة من الصحابة مثل : علي ، وابن عباس ، وابن عمر ، وطلحة ، وابن مسعود ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري ، وأم سلمة ، وعلي بن إياس ، وعلي الهلالي ، وعبد الله بن الحارث بأسانيد متعددة ، يقول :

الرواية الأولى : « أما الترمذي فخرج هو وأبو داود بسنديهما إلى ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً مني - أو قال : من أهل بيتي - ، يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي » ، وهذه الإضافة باسم الأب منهم ، وأبو داود والترمذي يقولان : إن حديث حسن صحيح .

الرواية الثانية : عن رسول الله ﷺ : « لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي » ، وهو حديث حسن صحيح .

الرواية الثالثة : أخرج أبو داود عن رسول الله ﷺ : « لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً » .

الرواية الرابعة : وأخرج أبو داود أن رسول الله ﷺ كان قد سمى الحسن سيّداً ، قال علي عليه السلام وقد نظر إلى ابنه الحسن عليه السلام : « إن ابني هذا سيّد ، سيخرج من صلبه رجل يُسمى باسم نبيكم ، يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق ، يملأ الأرض عدلاً » .

الرواية الخامسة : عن أم سلمة ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المهدي

من ولد فاطمة » ، ولفظ الحاكم : سمعت رسول الله ﷺ يذكر المهدي فقال : « نعم هو حق من بني فاطمة » .

الرواية السادسة : خرّج أبو داود في سننه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « المهدي مني أجلى الجبهة أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً » .

الرواية السابعة : واللفظ للحاكم - وكتابه أيضاً من المصادر المهمة عندهم - : « المهدي من أهل البيت أشم الأنف أقنى أجلى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً » .

الرواية الثامنة : الترمذي وابن ماجة والحاكم ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : خشينا أن يكون بعض شيء حدث ، فسألنا نبي الله ﷺ ، فقال : « إن في أمتي المهدي ، يخرج ويعيش خمس أو سبع أو تسعاً » ، قال : قلنا : وما ذاك ؟ قال : « سنين » ، قال : « فيجيء إليه الرجل فيقول : يا مهدي أعطني » ، قال : « فيحثوا له في ثوبه ما استطاع أن يحمله » ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

الرواية التاسعة : يقول ﷺ أيضاً برواية أبي سعيد الخدري ويرويه الحاكم : « لا تقوم الساعة حتّى تملأ الأرض جوراً وظلماً وعدواناً ، ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملؤها قسطاً كما ملئت ظلماً وعدواناً » ، ثم قال الحاكم : هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرّجاه .

الرواية العاشرة : ورواه أيضاً الحاكم بهذه العبارة : « يخرج في أمتي المهدي ، يسقيه الله الغيث ، وتخرج الأرض نباتها ، ويُعطي المال صحاحاً ، وتكثر الماشية ، وتعظم الأمة » ، ثم يقول : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرّجاه .

الرواية الحادية عشر : قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتّى تملأ الأرض جوراً وظلماً وعدواناً ، ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً » .

هذا الحديث قال فيه المؤرّخون من كبار أئمة الحديث عند إخواننا أهل السُّنة ، قال فيه الحاكم في كتابه المستدرك : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، يعني وفق مقاسات البخاري ومسلم ، هذه مصادر كبرى عندهم ، ولكن لم يُخرّجاه ، يعني لم يذكره .

الرواية الثانية عشر : عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « يخرج في آخر أمتي المهدي ، يسقيه الله الغيث ، وتُخرج الأرض نباتها ، ويُعطي المال صحاحاً ، وتكثر الماشية ، وتعظم الأُمة ، ويعيش سبعاً وثمانياً ، يعني حجباً » .

ثم قال فيه الراوي : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرّجاه .

الرواية الثالثة عشر : عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « تملؤ الأرض جوراً وظلماً ، فيخرج رجل من عترتي ، فيملك سبعاً أو تسعاً ، فيلمؤ الأرض عدلاً وقسطاً كما مُلئت جوراً وظلماً » .

قال الحاكم في كتابه المستدرك على صحيح البخاري : هذا حديث صحيح على شرط مسلم .

الرواية الرابعة عشر : قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرج رجل من أمتي يقول بسُنَّتِي ، يُنزل الله ﷻ له القطرة من السماء ، وتُخرج الأرض بركتها ، و تملؤ الأرض منه قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً ، يعمل على هذه الأُمة سبعة سنين ، وينزل على بيت المقدس » ، يعني تحرير فلسطين يكون على يديه .

الرواية الخامسة عشر : ابن ماجة في كتاب السنن ، عن عبد الله بن مسعود ، عن فلان وفلان وفلان ، عن عبد الله ، قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل فتية من بني هاشم ، فلما رأهم رسول الله ﷺ ذرفت عيناه وتغيّر لونه ، قلت : ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكراً ، فقال : « إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وإنَّ أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً ، حتّى يأتي قوم من قِبَل المشرق معهم رايات سود ، فيسألون الخبر فلا يُعطونه ، فيقاتلون وينصرون فيُعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتّى يدفعوها

إلى رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطاً كما ملؤها جوراً ، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج » ، ويقول ابن خلدون : وهذا الحديث يُعرّف عند المحدثين بحديث الرايات .

الرواية السادسة عشر : أخرج ابن ماجه عن عبد الله . . . ، إلى أن يقول ، قال رسول الله ﷺ : « يخرج ناس من المشرق » ، هناك قضية الروايات تُؤكدها أن قبل الإمام المهدي عليه السلام ستقوم دولة إسلامية تُسمّيها الروايات دولة الموطّئين يعني المهديين ، وتحدث الروايات عن هكذا شيء سوف يحصل قبل ظهور الإمام المهدي عليه السلام ، « يخرج ناس من المشرق (يعني واجهة العراق وإيران) فيوطّون للمهدي » ، الراوي يقول : يعني سلطانه ، إذاً المهدي عليه السلام قضية أصيلة في الفكر الإسلامي حسب هذا الرواية ، وإن قبل الإمام المهدي عليه السلام ستكون هناك أمة تُمهّد للإمام المهدي عليه السلام .

الرواية السابعة عشر : أخرجها البزاز في مسنده والطبراني في معجمه ، عن النبي ﷺ ، قال : « يكون في أمتي المهدي ، تنعم فيها أمتي نعمة لم ينعم بمثلها ، تُرسل السماء عليهم مدراراً ، ولا تدّخر الأرض شيئاً من النبات ، والمال خدوش (يعني مكدّسة الثروات) قدوس ، يقوم الرجل فيقول : يا مهدي اعطني ، فيقول : خذ بلا حساب » .

الرواية الثامنة عشر : قال : حدّثني خليلي رسول الله ﷺ ، قال : « لا تقوم الساعة حتّى يخرج عليهم رجلٌ من أهل بيتي فيضربهم حتّى يرجعوا إلى الحقّ » ، قال : قلت : « فكم يملك ؟ » ، قال : « خمساً واثنين » ، قلت : « وما خمساً واثنين ؟ » ، قال : « لا أدري » . هذا أيضاً سوف نتناوله أن الإمام المهدي عليه السلام كم يحكم ، لكن حديثنا الآن عن أصل قضية الإمام المهدي عليه السلام .

الرواية التاسعة عشر : قال : قال رسول الله ﷺ : « لتملأن الأرض جوراً وظلماً ، فإذا مُلئت جوراً وظلماً بعث الله رجلاً من أمتي اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي (هذا بحسب رواية ابن خلدون ، وهذا المقطع غير موجود في رواية أهل البيت أن اسم أبيه اسم أبي) ، يملؤها عدلاً وقسطاً كما مُلئت جوراً وظلماً ، فلا تمنع السماء من قطرها شيئاً ، ولا تدّخر

الأرض شيئاً من نباتها ، ينبت فيكم سبعاً أو ثمانياً أو تسعاً » يعني سنين .

الرواية العشرون : عن الصواعق المحرقة لابن حجر ، يقول : اخرج الطبراني : « يلتفت المهدي عليه السلام وقد نزل عيسى بن مريم وكأنها يقطر من شعره الماء ، فيقول المهدي : تقدّم وصلّ بالناس ، فيقول عيسى بن مريم : إنّما أُقيمت الصلاة لك ، فيُصلي خلف رجل من ولدي » .

الرواية الحادية والعشرون : في كنز العمال ، قال رسول الله ﷺ : « كيف أنت يا عوف إذا افترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة واحدة منها ناجية وسائرهنّ في النار ؟ . . . » ، إلى أن قال : « ثمّ نجىء فتنة غبراء مظلمة ، ثمّ تتبع الفتنة بعضها بعضاً حتّى يخرج رجل من أهل بيتي يقال له : المهدي ، فإن أدركته فاتّبعه وكن من المهتدين » .

الرواية الثانية والعشرون : كنز العمال والهيثمي عن عليّ بن أبي طالب أنّه سأل رسول الله ﷺ : « أمنا المهدي أم من غيرنا يا رسول الله ؟ » ، فقال ﷺ : « بل منّا ، يختم الله به كما بنا فتح ، وبنا يُستقذون من الشرك ، وبنا يألف الله بين قلوبهم » .

الرواية الثالثة والعشرون : عن جابر ، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام (طبعاً الرواية لأهل السنة) : « إنّ الله تعالى يلقي في قلوب شيعتنا الرعب ، فإذا قام قائمنا وظهر مهدينا كان الرجل أجراً من ليث وأمضى من سنان » .

الرواية الرابعة والعشرون : يقول : دخلت على رسول الله ﷺ في الحالة التي قبض فيها ، فإذا فاطمة عند رأسه ، فبكت حتّى ارتفع صوتها ، فرفع ﷺ طرفه إليها . . . ، إلى أن قال : « يا فاطمة ، والذي بعثني بالحقّ إنّ منهما - وأشار إلى الحسن والحسين - مهدي هذه الأمة ، إذا صارت الدنيا هرماً ومرجاً ، وتظاهرت الفتنة ، وتقطّعت السبل ، وأغار بعضهم على بعض ، فلا كبير يرحم صغيراً ، ولا صغير يُوقر كبيراً ، حينئذٍ يبعث الله ﷺ عند ذلك من يفتح حصون الضلالة وقلوب غلف ، يقوم بالدين في آخر الزمان كما قمت به في أوّل الزمان ، وعلى الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً » .

الرواية الخامسة والعشرون : عن الطبراني : « المهدي من ولدي وجهه كالكوب الدُّرِّي ، يملؤ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً ، يرضى بخلافته أهل السماء وأهل الأرض والطير في الجو . . . » ، إلى أن قال : « يملك عشرين سنة » .

الرواية السادسة والعشرون : يقول : أخرج ابن عساكر عن عليّ ؓ ، قال : « إذا قام قائم آل محمد ﷺ جمع الله أهل المشرق وأهل المغرب ، فأما الرفقاء فمن أهل الكوفة » .

الرواية السابعة والعشرون : الإمام أحمد بن حنبل في مسنده بسنده عن جابر أنه سمع النبي ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحقّ ظاهرين إلى يوم القيامة . . . » ، إلى أن قال : فينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم : تعال صلّ ، فيقول : لا ، إنّ بعضكم على بعضكم أمير ، ليكرم الله هذه الأمة » .

الرواية الثامنة والعشرون : عن مسند أحمد بن حنبل ، قال ﷺ : « يخرج الدجال في خفقة من الدين وإدبار من العلم ، فإذا هم بعيسى بن مريم ، فتقام الصلاة ، فيقال له : تقدّم يا روح الله ، فيقول : ليتقدّم إمامكم فليصلي بكم » .

الرواية التاسعة والعشرون : السيوطي في الدرّ المنثور ، عنه ﷺ : « إنّ المهدي لا يخرج حتّى تُقتل النفس الزكية ، فإذا قُتِلَت النفس الزكية غضب عليهم من في السماء ومن في الأرض ، فأتى الناس المهدي ، فزفوه كما تُزف العروس ، وهو يملؤ الأرض قسطاً وعدلاً ، وتُخرج الأرض نباتها ، وتمطر السماء مطرها ، وتنعم أمتي في ولايته نعمة لا تنعمها قط » .

الرواية الثلاثون : عن عليّ ؓ ، قال : « إذا نادى مناد من السماء : إنّ الحقّ في آل محمد ، فعند ذلك يظهر المهدي على أفواه الناس ، ويشربون حُبّه ، فلا يكون لهم ذكر غيره » .

الرواية الحادية والثلاثون : عن عليّ ؓ : « إذا بعث السفيناني إلى المهدي جيشاً فخسف بهم بالبيداء وبلغ ذلك أهل الشام ، قال طليعتهم : قد خرج المهدي فبايعه وادخل في طاعته ، فبرّسل إليه بالبيعة ، ويسير المهدي حتّى ينزل بيت المقدس ، وتُنقل إليه الخزائن ، وتدخل العرب والعجم وأهل الحرب والروم وغيرهم في طاعته من غير قتال ، حتّى تُبنى المساجد

بالقسطنطينية وما دونها ، ويخرج رجل قبله من أهل بيته بالمشرق ، ويحمل السيف على عاتقه ثمانية أشهر ، ويتوجّه إلى بيت المقدس فلا يبلغه حتى يموت » .

هذه إحدى وثلاثون رواية فيها روايات صحيحة السند عن رسول الله ﷺ بطرق أهل السنة .

روايات الشيعة :

وأما إذا جئنا إلى روايات الشيعة فهي أضعاف ذلك من الروايات ، وقد أحصى آية الله السيّد محمد سعيد الحكيم في كتابه (في رحاب العقيدة) تسعين رواية على سبيل السرعة والعجالة في هذا الشأن ، ويمكن أن نستمرّ في هذا الموضوع إلى أضعاف ذلك من الروايات .

منها الروايات الواردة في باب الزيارات والأدعية ، وهي لإمامنا صاحب العصر والزمان عليه السلام ، طبعاً هذه من طرق الشيعة ، وهذه تضاف إلى الكمّ الهائل من الروايات .
فإننا نقرأ في الدعاء بعد الصلاة : « اللهم كن لوليّك الحجّة ابن الحسن صلواتك عليه وعلى آبائه في هذه الساعة وفي كلّ ساعة وليّاً وحافظاً وقائداً وناصراً . . . » إلى آخر الدعاء .

وفي أدعية شهر رمضان الدعاء المعروف بدعاء الافتتاح : « اللهم وصلّ على وليّ أمرك القائم المؤمّل والعدل المنتظر ، وحفه بملائتك المقرّين ، وأيده بروح القدس منك يا ربّ العالمين ، اللهم أعزه واعزّزه ، وانصره وانتصر به ، وانصره نصراً عزيزاً ، وافتح له فتحاً يسيراً . . . » .

وهكذا الدعاء المستحبّ قراءته يومياً بعد صلاة الفجر : « اللهم بلغ مولانا صاحب

الزمان عني وعن والدي وعن جميع المؤمنين والمؤمنات في مشارق الأرض ومغاربها وبرّها
وبحرها وسهلها وجبلها وعن والدي من الصلوات والتحيّات زنة عرش الله ومداد كلماته
وعدد ما أحصاه كتابك . . . » ، إلى أن يقول : « اللهم إني أُجَدِّدُ له في صبيحة هذا اليوم وفي كلّ يوم عهداً وعقداً وبيعةً في رقبتي إلى يوم القيامة » .

وهكذا الدعاء المعروف بدعاء النذبة المروي عن الإمام الهادي ﷺ: « بنفسي أنت من مغيب لم يخلو منا ، بنفسي أنت من نازح ما نزع عنا ، بنفسي أنت أمنية شائق يتمنى » .

هكذا نتعامل مع صاحب العصر والزمان ﷺ في ثقافة شيعة أهل البيت ﷺ كما علمنا أهل البيت ﷺ: « ليت شعري أين استقرت بك النوى ، أم أي أرض تقلك أو ثرى ، أبرضوى أو غيرها أم ذي طوى ، عزيز علي أن أرى الخلق ولا ثرى ، عزيز علي أن أناغي دونك وأناجي ، عزيز علي أن تحيط بك دوني البلوى » .

وهكذا ستجتمع عندنا روايات تزيد على حدّ التواتر في قضية الإمام المهدي ﷺ .

ولدينا كتاب آخر رائع لإمامنا الشهيد السيّد محمد باقر الصدر رحمه الله ، وهو كراس موجز تحت عنوان : (بحث حول المهدي) ، وذلك نمط آخر من الاستدلال لعلّه أروع ما كتّب عن الإمام المهدي ﷺ ، وهو عبارة عن مقدّمة لكتاب آية الله الشهيد محمد الصدر (موسوعة الإمام المهدي) ، وهذه كتب جديدة أن يقرأها الشباب والأساتذة والمثقفين ، وجدير أن تُطبع ويُعاد طباعتها ، فنحن بحاجة إلى نشر هذه الثقافة .

نظرية الغيبة في مصادر السّنة والشّيعية

تبين من خلال العرض الذي تناولناه في معالم شخصية الإمام المهدي ﷺ أنه :

١- من أولاد رسول الله ﷺ ، كما قال ﷺ: « واحد من ولدي » .

٢- من ولد فاطمة عليها السلام .

٣- من ولد علي عليه السلام .

٤- ولد الحسين عليه السلام .

٥- « يواطؤ اسمه اسمي » يعني اسمه محمد ، وهذا اسم رسول الله ﷺ .

٦- وهناك معلّم وخصوصية سادسة للإمام المهدي ﷺ هي الغيبة ، حيث يوجد تأكيد في تراثنا الديني أنّ الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً سيغيّب ، وفي زمن الغيبة تكون هناك حيرة ، ويكون هناك اضطراب عند المسلمين ، ويكون انحراف عند كثير

من المسلمين .

هذه فكرة الغيبة ، وهذه الفكرة جاءت في الروايات عن رسول الله ﷺ وعن أئمتنا الأطريقين ، أي طريق الشيعة وطريق السُّنَّة كما في كتاب فرائد السمطين الذي يرجع إلى القرن السابع للحموي ، وكتاب ينابيع المودَّة قبل مائتين عام للقندوزي ، هؤلاء هم من علماء السُّنَّة ، وكتبهم كتب صحاح محترمة .

يروى هذه الرواية عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، عن رسول الله ﷺ : « يخرج رجل من ولدي يواطئ اسمه اسمي تكون له غيبة وحيرة » .

وهذه هي فكرة الغيبة ، وهذه ليست موجودة لدى الشيعة فقط ، بل موجودة عند السُّنَّة وموجودة عند الشيعة ، وأنا أقرأ لكم مجموعة روايات أخرى يرويها علماء الشيعة أيضاً .

قال الإمام الباقر عليه السلام : قال رسول الله ﷺ : « طوبى لمن أدرك قائم أهل بيتي وهو يأتهم به في غيبته قبل قيامه ويتولَّى أوليائه ويُعادي أعداءه ، ذاك من رفقائي وذوي مودتي وأكرم أمتي عليَّ يوم القيامة »^(١) .

وعن الإمام الباقر عليه السلام ، قال : قال رسول الله ﷺ : « طوبى لمن أدرك قائم أهل بيتي وهو مهتدٍ مقتدٍ به قبل قيامه يأتهم به وبأئمة الهدى » .

وفي رواية ثالثة : قال رسول الله ﷺ : « المهدي من ولدي اسمه اسمي كنيته كنيته أشبه الناس بي خلقاً وخلُقاً ، تكون له غيبة وحيرة » .

وهذه الرواية التي يرويها جابر بن عبد الله الأنصاري في مصادر أهل السُّنَّة : « يكون له غيبة وحيرة حتَّى يضلَّ الخلق عن أديانهم ، فعند ذلك يقبل كالشهاب الثاقب فيملؤها عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً » .

الرواية الأخرى : « المهدي من ولدي تكون له غيبة وحيرة تضلُّ فيها الأمم ، يأتي

بذخيرة الأنبياء » ، أيضاً إمامنا يأتي بشريعة الأنبياء وليس بشريعة أخرى ، يأتي بشريعة جدّه رسول الله ﷺ .

وهكذا جابر بن عبد الله قام إلى رسول الله بعدما تحدّث النبي ﷺ عن الإمام المهدي ﷺ ، فقال جابر : يا رسول الله ، وللقائم من ولدك غيبة ؟

فقال : « إي وري ، ﴿ وَلَيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤١] ، يا جابر إنّ هذا أمر من أمر الله ، وسرّ من سرّ الله مطوباً عن عباده ، فيأياك والشكّ » .
في رواية أخرى يقول : « من أنكره في غيبته فقد أنكرني ، ومن كذّبه فقد كذّبنني » .

وأخيراً نقرأ ما قاله الإمام الحسين ﷺ يوم عاشوراء ، قال لأصحابه ليلة عاشوراء : « أبشروا بالجنة فوالله إنّما نمكث ما شاء الله بعدما يجري علينا ، ثمّ يُخرّجنا الله وإياكم حتّى يُظهر الله قائمنا فينتقم من الظالمين » ، فقليل : يا بن رسول الله ، ومن قائمكم ؟ قال : « السابع من ولد ابني محمّد بن عليّ الباقر ، وهو الحجّة بن الحسن بن عليّ بن محمّد بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ ابني ، وهو الذي يغيب مدّة طويلة ثمّ يظهر ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً » .

اللهمّ عجّل فرجه ، واجعلنا من أنصاره وأشياعه والمستشعدين بين يديه ، اللهمّ أعزه واعزّزه ، وانصره وانتصر به ، وانصره نصرّاً عزيزاً .

وهذه مجموعة روايات في معلّم آخر من معالم قضية الإمام المهدي ﷺ ، وهو الغيبة ، ونحن الآن نعيش في عصر الغيبة .

فهرس المحتويات

المحتويات	٥
مقدمة المؤلف	٩
الباب الأول: مع النبي الأكرم ﷺ	١١
في ذكرى الولادة المباركة	١٣
أولاً: الارتباط بالتاريخ بين عقد الماضي والاتصال الحضاري	١٣
ثانياً: مناهج في إحياء الذكرى بين التحلل والالتزام القيمي	١٤
ثالثاً: نورٌ واحد	١٥
رابعاً: لمحة عن الرسول ﷺ وأخلاقه	١٥
خامساً: روايات في ولادته ﷺ	١٧
سادساً: ظاهرتان عند الولادة	١٩
سابعاً: ميلاد الأمة الشاهدة	٢١
ثامناً: العالمية الإسلامية	٢٢
في ذكرى المبعث النبوي	٢٤
أولاً: النبوة الخاتمة	٢٤
ثانياً: خاتمة النبوة أم خاتمة الرسالة ؟	٢٦
ثالثاً: الرسالة وحي إلهي وليست تجربة شخصية	٢٧
رابعاً: الأمة الشاهدة	٢٨
خامساً: بروز الرحمة الإلهية	٢٩
سادساً: فضل الأنبياء	٣٠

٣٠	 فضل الأنبياء في الدنيا
٣٠	 فضل الأنبياء في الآخرة
٣٠	 سابعاً : الاعتبار بالمبعث النبوي
٣٢	 في ذكرى الهجرة
٣٢	 ١. المبيت على الفراش
٣٣	 ٢. فلسفة الهجرة
٣٣	 ٣. ماذا تعني الهجرة ؟
٣٤	 في ذكرى الإسراء والمعراج
٣٦	 في ذكرى رحلة النبي الأكرم ﷺ
٣٦	 أولاً : تنبؤات بالخطر
٣٧	 ثانياً : النبؤات الثلاث
٣٨	 ثالثاً : الوصية في مواجهة الخطر
٤٠	 رابعاً : ما هي الإعدادات ؟
٤٠	 خامساً : زيارة الإمام عليّ عليه السلام يوم وفاة النبي ﷺ
٤١	 سادساً : مشاهد في وفاة النبي ﷺ
٤٤	 سابعاً : أصعب امتحان
٤٤	 رأي الشيعة في الانتخاب
٤٦	 قراءة الشيعة للتاريخ
٤٧	 الدلائل على القراءة الشيعية
٤٧	 ثامناً : مشاهد ما قبل الرحيل
٥١	 الباب الثاني: مع الإمام علي عليه السلام
٥٣	 في ذكرى الولادة
٥٣	 ولادة الإمام علي عليه السلام
٥٤	 حكومة الإمام علي عليه السلام
٥٤	 الدين والحكم المدني
٥٥	 أسس الحكم المدني
٥٦	 أسس المدنية في حكومة الإمام علي عليه السلام
٥٧	 نماذج رائعة في حكومة الإمام علي عليه السلام
٥٩	 أهداف الإمام علي عليه السلام

٦٠	لماذا قُتل عليٌّ عليه السلام ؟
٦٢	انتظار متبادل
٦٢	الشيء الأول : ماذا ينتظر منّا الإمام عليٌّ عليه السلام ؟
٦٢	الشيء الثاني : ماذا تنتظر منه عليه السلام ؟
٦٤	وقفة عند شهادة الإمام عليٍّ عليه السلام
٦٤	لماذا استشهد الإمام عليٌّ عليه السلام ؟
٦٦	العراق لماذا ؟
٦٧	مقتل الإمام عليٍّ عليه السلام
٦٩	عليٌّ عليه السلام في الدنيا والآخرة
٦٩	عليٌّ عليه السلام في الدنيا
٧٠	عليٌّ عليه السلام في الآخرة
٧٢	عليٌّ هو قسيم الجنة والنار
٧٣	صور من وحي الشهادة
٧٣	الصورة الأولى : سلامة الدين
٧٣	الصورة الثانية : عليٌّ عليه السلام هو امتداد لرسول الله ﷺ
٧٤	الصورة الثالثة : الزهد
٧٥	الصورة الرابعة : مسارات واضحة
٧٥	الصورة الخامسة : استجاب الأذان
٧٥	الصورة السادسة : الارتباط المطلق بالله تعالى
٧٦	الصورة السابعة : الفوز حليف المؤمن
٧٦	الصورة الثامنة : العلاقة مع جبرئيل
٧٧	الصورة التاسعة : العلاقة مع الجنة
٧٨	الصورة العاشرة : الإحسان
٧٨	الصورة الحادي عشرة : العلم والثقافة
٧٩	الصورة الثاني عشر : الإرهاب قادم
٧٩	الصورة الثالث عشر : الملائكة تحمل النعش
٨٠	الصورة الرابع عشر : نوحٌ وعليٌّ
٨٠	الصورة الخامس عشر : لم يسبقه الأولون

٨١	الباب الثالث: مع فاطمة الزهراء ﷺ
٨٣	في ذكرى ولادتها ﷺ
٨٣	قصة ولادتها ﷺ
٨٤	روايات تاريخية في ذكرى ولادتها ﷺ
٨٤	الرواية الأولى
٨٥	الرواية الثانية
٨٧	امتيازات الزهراء ﷺ
٨٨	ثناء النبي ﷺ على الزهراء ﷺ
٨٩	أحاديث الرسول ﷺ عنها ﷺ
٩١	منزلة الزهراء ﷺ ومقامها
٩٢	الزهراء ﷺ نموذجاً
٩٤	مقاطع من زيارتها ﷺ
٩٥	شفاعة الزهراء ﷺ
٩٥	الرؤية الإسلامية حول المرأة
٩٧	يوم المرأة العراقية
٩٨	قصة أسماء بنت عمير
١٠٠	الموقف من أحاديث انتقاص المرأة
١٠١	في ذكرى شهادتها ﷺ
١٠١	دراسة التاريخ
١٠٢	ماذا يعني إحياء ذكرى شهادة الزهراء ﷺ ؟
١٠٤	شهادة الزهراء ﷺ ظاهرة استثنائية !
١٠٥	مؤثرات الانعطاف التاريخية السوداء
١٠٥	أولاً : المنع عن البكاء
١٠٦	ثانياً : اعتذار الصحابة إليها ﷺ
١٠٦	ثالثاً : عتبها ﷺ على رجال المهاجرين والأنصار
١٠٧	رابعاً : غصب فدك
١٠٧	خامساً : شكواها ﷺ إلى أبيها ﷺ
١٠٧	سادساً : الهجوم على الدار
١٠٨	سابعاً : جمع الحطب على دار الزهراء ﷺ
١٠٨	ثامناً : في الواقع التاريخي المشهور أنها ﷺ دُفِنَتْ ليلاً

١٠٨	 الزهراء عليها السلام تؤكد وقوع الانحراف
١٠٩	 التداعيات والأحداث بعد رحلة نبينا صلى الله عليه وآله
١١٠	 شهادة الزهراء عليها السلام الدلالات التاريخية
١١٢	 شبهتان في قضية الزهراء عليها السلام
١١٤	 إجماعات تاريخية
١١٩	 الباب الرابع: مع الإمام الحسن عليه السلام
١٢١	 في ذكرى الولادة المباركة
١٢٢	 تخليد الذكرى
١٢٣	 الإمام الحسن عليه السلام ومشكلة اختلاط الأوراق
١٢٤	 أركان السياسة الأموية
١٢٧	 وصايا الإمام الحسن عليه السلام
١٢٨	 دور الإمام الحسن عليه السلام
١٢٩	 شروط الصلح
١٣٠	 سياسة الإمام الحسن عليه السلام
١٣١	 السياسة الواقعية
١٣٢	 كريم أهل البيت عليهم السلام
١٣٤	 رمزية الإمام الحسن عليه السلام
١٣٤	 معنى الرمزية
١٣٥	 حُبُّ أهل البيت عليهم السلام
١٣٥	 شبهة حول الصلح
١٣٦	 ثلاث ظواهر
١٣٦	 الظاهرة الأولى: ظاهرة المبدئية
١٣٦	 الظاهرة الثانية: المرونة
١٣٧	 الظاهرة الثالثة: الثورية
١٣٧	 ظلامة الإمام الحسن عليه السلام
١٣٨	 موقف الإمام الحسن عليه السلام
١٣٩	 المشهد السياسي في زمن الإمام الحسن عليه السلام
١٤٠	 موقف الإمام من المشهد السياسي

- ١٤٠ ثلاث خطوات في سقوط الهرم الأموي
- ١٤٢ منجزات الإمام الحسن عليه السلام
- ١٤٣ التحليل السياسي والغبيي لصالح الإمام عليه السلام
- ١٤٤ التحليل السياسي
- ١٤٥ التحليل الغبيي
- ١٤٦ مصائب الإمام الحسن عليه السلام
- ١٤٧ أخلاقه وظلاماته
- ١٤٧ أخلاقه
- ١٤٨ ظلاماته
- ١٥١ الباب الخامس: مع الإمام الحسين عليه السلام
- ١٥٣ الفصل الأول: على أبواب محرم الحرام
- ١٥٥ إحياء ذكرى محرم الحرام
- ١٥٥ روايات في إحياء الذكرى
- ١٥٦ الحسين عليه السلام ماذا يعني بالنسبة لنا ؟
- ١٥٨ محرم الحرام منعطف تاريخي
- ١٦١ أسباب اختيار العراق
- ١٦١ مهذا للثورة الحسينية
- ١٦٥ تعظيم الشعائر الدينية
- ١٦٨ اتجاهاً في التعامل مع القضية الحسينية
- ١٦٩ لماذا هذا التخليد ؟
- ١٧١ شبهات حول الشعائر الحسينية
- ١٧١ الشبهة الأولى
- ١٧٢ الشبهة الثانية
- ١٧٤ العلاقة بين تعظيم الشعائر والتقوى
- ١٧٦ كيف نتعامل مع الشعائر الدينية ؟
- ١٧٦ الاتجاه الأول : الاتجاه القرآني النبوي
- ١٧٧ الاتجاه الثاني : الاتجاه الانفصالي والإفغائي

١٧٧	دور الشعائر الحسينية في بناء الإنسان ونهضة الأمم
١٨١	القضية الحسينية في فكر أهل البيت (عليه السلام)
١٨٥	الفصل الثاني: فضل زيارته
١٨٧	فضل زيارة الإمام الحسين (عليه السلام)
١٩٢	زيارة المرأة
١٩٢	قصة
١٩٣	سطور في زيارة الحسين (عليه السلام)
١٩٧	الفصل الثالث: في ذكرى الأربعين
١٩٩	فضل زيارة الأربعين
١٩٩	لماذا المشي لزيارة الحسين (عليه السلام) ؟
٢٠١	مقارنة بين مسيرة الأربعين وحج بيت الله الحرام
٢٠١	المقارنة الأولى: المغفرة
٢٠١	المقارنة الثانية: التخيير في الصلاة
٢٠٢	المقارنة الثالثة: الوضوء بماء زمزم
٢٠٢	المقارنة الرابعة: عدم وجود الفنادق
٢٠٢	المقارنة الخامسة: عدم وجود الأمراض
٢٠٣	المقارنة السادسة: الرغبة في العودة للزيارة
٢٠٣	المقارنة السابعة: وسائل النقل
٢٠٣	المقارنة الثامنة: الخدمات
٢٠٣	المقارنة التاسعة: الأمان
٢٠٤	المقارنة العاشرة: التهديد الإرهابي
٢٠٤	المقارنة الحادية عشرة: الأطفال الرضع
٢٠٤	المقارنة الثانية عشرة: البذل والعطاء
٢٠٥	المقارنة الثالثة عشرة: رعاية الدولة
٢٠٥	المقارنة الرابعة عشرة: أخذ التراب
٢٠٧	دلالات في مشهد الزائرين
٢٠٧	الأولى: العطش

٢٠٧	الثانية : الغبار
٢٠٧	الثالثة : المشي
٢٠٧	الرابعة : حرارة الشمس
٢٠٧	الخامسة : الدماء
٢٠٨	السادسة : الرايات
٢٠٨	السابعة : خيم عاشوراء
٢٠٨	الثامنة : الأطفال
٢٠٨	التاسعة : النساء
٢٠٨	العاشرة : الصلاة
٢٠٨	الحادية عشرة : السرور العظيم
٢٠٩	الثانية عشرة : تبادل المحبة
٢٠٩	الثالثة عشرة : الصحراء
٢٠٩	الرابعة عشرة : لطم الصدور
٢٠٩	معجزة الدهر في العشرين من صفر
٢١٠	أولاً : كفارة الذنوب
٢١١	ثانياً : التراحم والمحبة
٢١١	ثالثاً : البذل والعطاء
٢١٢	رابعاً : الوحدة والتواضع
٢١٢	خامساً : تزكية القلب
٢١٣	سادساً : الصلاة
٢١٣	سابعاً : الإخلاص لله وصدقة السر
٢١٣	ثامناً : العلاقة بالآخرة
٢١٣	تاسعاً : التحدي والجهاد
٢١٤	عاشراً : التوحد
٢١٤	الحادي عشر : التواضع الكبير بين الصغير والكبير
٢١٥	مواساة الحسين عليه السلام
٢١٥	أبطال ملحمة الزيارة
٢١٨	المشهد الإعجازي لزيارة الإمام الحسين عليه السلام
٢٢٣	مصدر الطاقة
٢٢٥	زيارة الأربعين وشبهات الوهابية

٢٢٦	أدلة ابن باز على حرمة الزيارة للعتبات المقدسة
٢٢٧	الدليل الأول
٢٢٧	الدليل الثاني
٢٢٧	الدليل الثالث
٢٢٨	جواب أدلته وشبهاته
٢٢٨	جواب الدليل الأول
٢٢٩	جواب الدليل الثاني
٢٣٠	جواب الدليل الثالث
٢٣٣	الفصل الرابع: ثورة الإمام الحسين عليه السلام
٢٣٥	قضية الحسين عليه السلام والحُبُّ الإلهي
٢٣٦	لماذا يخافون الحسين عليه السلام ؟
٢٣٦	الشوق إلى الجنة
٢٣٧	الحُبُّ عند أصحاب الإمام الحسين عليه السلام
٢٣٩	رسائل الإمام الحسين عليه السلام
٢٣٩	الرسالة الأولى
٢٣٩	الرسالة الثانية
٢٤٠	استخدام العقل والعاطفة
٢٤١	التوازن بين العقل والعاطفة
٢٤٣	قصة الطفل الرضيع
٢٤٤	الحسين عليه السلام مصباح الهدى
٢٤٥	ما هي علاقة الحسين عليه السلام بالعرش ؟
٢٤٧	نور الحسين عليه السلام في عاشوراء
٢٤٨	الحسين عليه السلام سفينة النجاة
٢٥٠	مقارنة بين سفينة نوح وحديث السفينة
٢٥١	قصة النصراني
٢٥٢	المشاهد الإعجازية في قضية الحسين عليه السلام
٢٥٣	١. نور الحسين عليه السلام في بطن أمه
٢٥٣	٢. نور الحسين عليه السلام في يوم كربلاء

٢٥٣	٣. قصّة جبرائيل وهبوطه إلى الأرض
٢٥٤	٤. الشفاء في تربته ﷺ
٢٥٤	٥. بكاء السماء والأرض عليه ﷺ
٢٥٤	٦. توقّف جواد الحسين ﷺ يوم عاشوراء
٢٥٤	٧. دم الرضيع
٢٥٥	٨. رأس الحسين ﷺ
٢٥٥	٩. وضع الرأس الشريف في التّور
٢٥٥	١٠. قصّة ذلك الراهب النصراني
٢٥٦	أهداف الثورة الحسينية
٢٥٧	الظاهرة الكونية في القضية الحسينية
٢٦٠	الملائكة الحسينيون
٢٦٣	الحريّة في المفهوم الحسيني
٢٦٦	نماذج من الحنان الحسيني
٢٦٨	القضية الحسينية بين المشيئة الإلهية والإرادة البشرية
٢٧٠	التحوّل في بلاد الشام
٢٧٤	عودة الإمام السّجاد ﷺ
٢٧٧	الباب السادس: مع الإمام السّجاد ﷺ
٢٧٩	دور الإمام السّجاد ﷺ
٢٨٠	الموقف السياسي للإمام ﷺ
٢٨٠	حلّ الأزمة مع الروم
٢٨١	إعادة بناء الكعبة
٢٨٢	شروط الجهاد الإسلامي
٢٨٣	نظرية الشيعة في الإمام ﷺ
٢٨٣	معالم الرؤية السياسية الشيعية
٢٨٤	الواقع الاجتماعي في زمن السّجاد ﷺ
٢٨٦	تيّار أهل البيت ﷺ في العراق
٢٨٧	بناء الأمّة الصالحة
٢٨٧	الهجرة إلى العراق

٢٨٨	التحوّل في مكّة والمدينة
٢٨٨	شذرات من دعاء الإمام عليه السلام
٢٨٩	دعاء مستجاب
٢٩١	فضل الإمام السجّاد عليه السلام
٢٩١	الصحيفة السجّادية
٢٩١	أولاً : تنوّع الدعاء
٢٩١	ثانياً : منظومة عقائدية
٢٩٢	ثالثاً : العرفان
٢٩٢	رابعاً : الأدب العظيم
٢٩٥	الباب السابع: مع الإمام الباقر عليه السلام
٢٩٧	الإمام الباقر عليه السلام في مواجهة الانحراف
٢٩٧	الامتداد الجماهيري
٢٩٧	التأسيس للمدرسة الفكرية
٢٩٨	الإمام الباقر عليه السلام مع أسقف النصارى
٣٠٠	ثلاثة ظواهر
٣٠٠	البُعد السياسي في حركة الإمام الباقر عليه السلام
٣٠١	شواهد على السياسة الصامته
٣٠١	الشاهد الأول
٣٠٢	الشاهد الثاني
٣٠٣	الشاهد الثالث
٣٠٣	الشاهد الرابع
٣٠٤	علم الإمام الباقر عليه السلام
٣٠٥	مدرسة أهل البيت عليه السلام في العراق
٣٠٦	الإسلام السياسي والإسلام غير السياسي
٣٠٩	الباب الثامن: مع الإمام الصادق عليه السلام
٣١١	دور الإمام الصادق عليه السلام
٣١١	الدور العلمي
٣١٣	الدور السياسي

علماء الشيعة	٣١٤
المنهج السياسي للإمام الصادق عليه السلام	٣١٥
رسائله عليه السلام إلى النجاشي	٣١٥
مؤسس المدرسة العلمية	٣١٦
ظاهرة التوازن	٣١٦
مواجهة التطرف	٣١٩
ثلاثة أدوار	٣٢١
الباب التاسع: مع الإمام الكاظم عليه السلام	
باب الحوائج عليه السلام	٣٢٧
قصة حميد بن قحطبة	٣٢٧
سجن الإمام الكاظم عليه السلام	٣٢٩
شهداء جسر الأئمة	٣٣١
مقاطع من زيارته عليه السلام	٣٣١
قصة بشر الحافي	٣٣٢
عبادته عليه السلام	٣٣٢
ملاحقة الشيعة	٣٣٣
قصة الغلام العلوي	٣٣٣
قصة الوزير علي بن يقطين	٣٣٤
الباب العاشر: مع الإمام الرضا عليه السلام	
في ذكرى الولادة	٣٣٩
الفقرة الأولى: في أخلاقه عليه السلام	٣٣٩
الفقرة الثانية: في فضل زيارته عليه السلام	٣٣٩
الفقرة الثالثة: ما جاء في الدعاء عند زيارته عليه السلام	٣٤٠
قصة ولاية العهد	٣٤١
لماذا وافق الإمام عليه السلام على ولاية العهد؟	٣٤٣
لماذا لم يدخل الإمام عليه السلام في المشاركة السياسية؟	٣٤٤
نظرية أهل البيت عليه السلام في الحكم	٣٤٥

٣٤٧	الإمام الرضا عليه السلام في الطريق إلى خراسان
٣٤٨	قصة دعبل الخزاعي
٣٥١	الباب الحادي عشر: مع الإمام الجواد عليه السلام
٣٥٣	مشكلة العمر
٣٥٤	كرامة الإمام عليه السلام
٣٥٥	شهادة الإمام الجواد عليه السلام
٣٥٧	ظاهرة العمر الصغير
٣٥٩	الباب الثاني عشر: مع الإمام الهادي عليه السلام
٣٦١	مداهمات مستمرة
٣٦١	مداهمات مستمرة
٣٦٢	شعر الإمام عليه السلام
٣٦٣	الرقابة المشددة
٣٦٣	كرامة الإمام عليه السلام
٣٦٤	ابن السكيت
٣٦٥	ظاهرة انتشار النور
٣٦٩	الباب الثالث عشر: مع الإمام العسكري عليه السلام
٣٧١	التمهيد لزمن الغيبة
٣٧٢	الارتباط بالفقهاء
٣٧٣	رسالة الإمام عليه السلام لشييعته
٣٧٤	مرحلة الاستئصال والإبادة
٣٧٤	عسكر الإمام عليه السلام
٣٧٥	قصة الجاثليق
٣٧٦	الصلاة على الإمام عليه السلام
٣٧٧	الباب الرابع عشر: مع الإمام المهدي عليه السلام
٣٧٩	العلاقة المتبادلة
٣٧٩	علاقة الإمام المنتظر عليه السلام بشييعته

٣٨٠	 علاقة الشيعة بإمام العصر ﷺ
٣٨١	 الإمام المنتظر ﷺ إجماع إسلامي
٣٨١	 الإصلاح العالمي
٣٨٢	 الجدار الفاصل
٣٨٣	 نظرية نهاية التاريخ
٣٨٥	 نظرية المصلح العالمي
٣٨٦	 اتجاهات في نظرية المصلح
٣٨٧	 إرهاصات زمن الظهور
٣٨٩	 علامات ودلالات
٣٨٩	 معالم دولة الإمام المهدي ﷺ
٣٩١	 تفسير العمر الطويل
٣٩٢	 لماذا الغيبة ؟ وما فائدة الإمام وهو غائب ؟
٣٩٣	 إشكالية ابن خلدون
٣٩٥	 روايات قضية الإمام المهدي ﷺ
٤٠١	 روايات الشيعة
٤٠٢	 نظرية الغيبة في مصادر السنة والشيعة
٤٠٥	 فهرس المحتويات